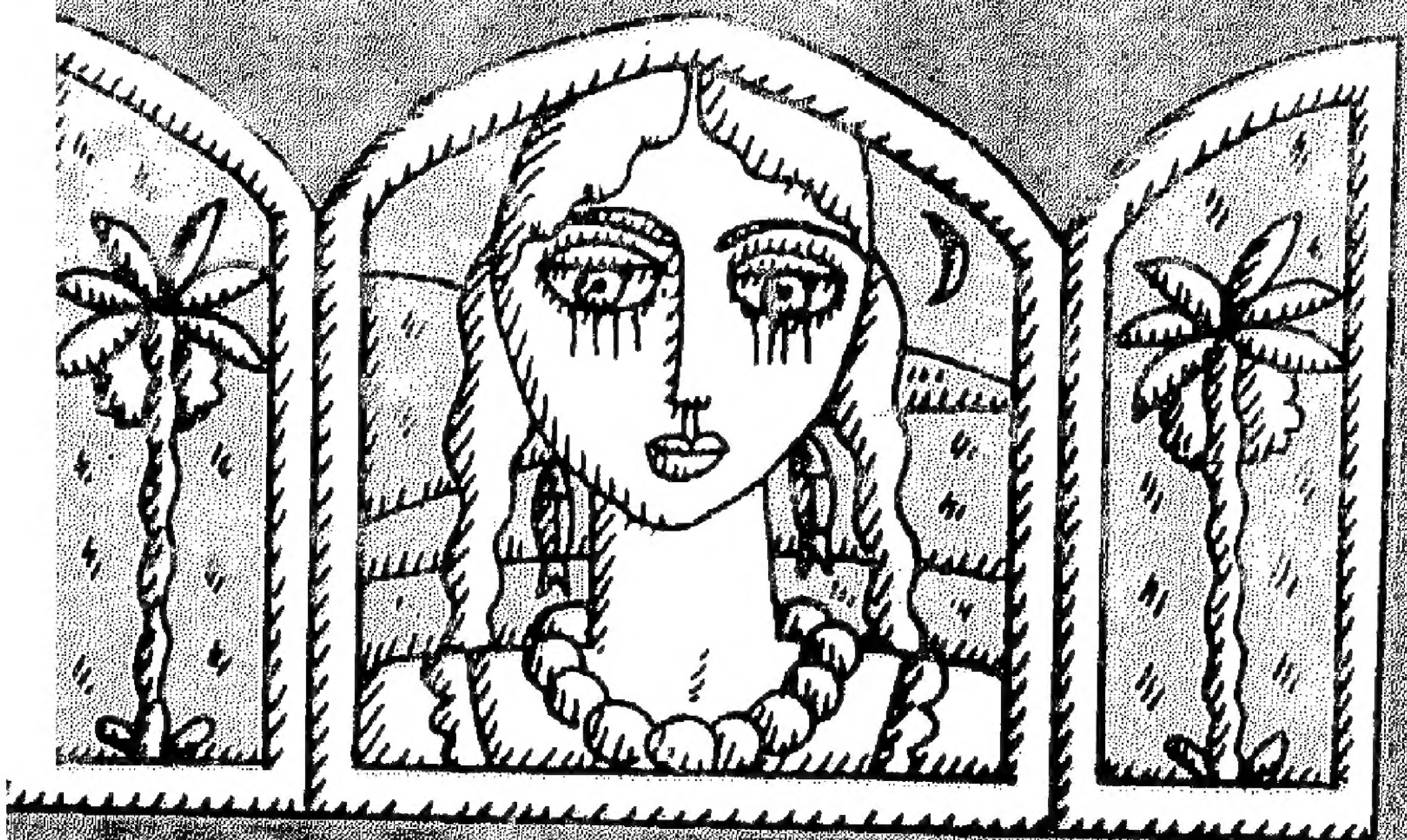
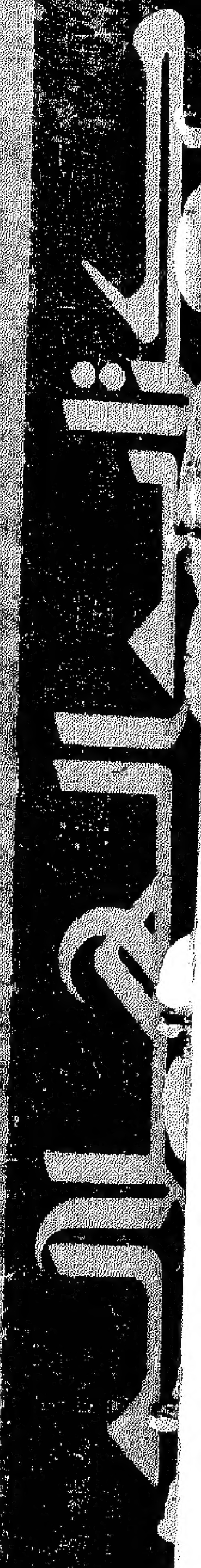




شرنقة حمدان

د. عمه الفاروق



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No - 533 - Ma - 1995 العدد ٥٣٣ ـ ذو الحجة ـ مايو ١٩٩٥

FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٧٠ ليره ـ لبنان ٩٣٠٠ ليره ـ الأردن ٣٧٠٠ فلس ـ الكويت ٢٠٠٠ فلس ـ السعودية ٢٥ ريالاً ـ تونس ٤ دينارات ـ المغرب ٤٠ درهم ـ البحرين ٢ دينار ـ الدوحة ٢٠ ريال ـ دبي وأبوظبي ٢٠ درهما ـ سلطنة عمان ٢ ريال ـ غزه والضفه والقدس ٣ دولارات ـ لندن ٤ جك .

ثلاثية حمدان

د. عمر الفاروق

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

الإهـــداء

إلى حمدان

في ذكراه الثانية

أبريل ١٩٩٥

مقدمة

مصر .. العالم العربى .. العالم الإسلامى .. تلك دوائره الثلاث الأثيرة ..، وهى أضلاع مثلثه .. وجوانب هرمه .. وأبعاد ثلاثيته المنسوجة ، توحد بينها رؤيته الشاملة .. وتجمعها فى سياق متدرج متواصل ، وتضمها مترابطة .. رغم تباعد كتاباته عن كل منها .. بفواصل زمنية طويلة ، مثل بذرة واحدة تنمو .. وتتجلى فى ثمار عديدة ، وتبقى محتفظة وهى ناضجة .. بذات نكهتها الأصيلة ، هل البذرة رؤيته ؟ أم منهجه ؟ أم موضوعه ؟ أم هى الثلاث جميعا .. مبطنة بعاطفته المشبوبة .

فرؤيته سارية بها .. تضيئها وتشحنها بالطاقة ، رؤية تصيغها جماع قوة (الوطنية × القومية × الحضارة) .. وتطهرها من التناقض ، فقد ثبت أن تغليب أى منها .. إنما يهددها جميعا ، ويحولها إلى عملية طرح وقسمة .. بدلا من مجموع قوة متصاعد ، فالوطنية .. ليست إقليمية شوفينية .. بمقدار ما تتداخل فى القومية وتتدامج (لا ازدواجية ولا تناقض بالتأكيد .. وإنما قطبان لمتصل مدرج واحد

Continuum ، ولعل المطلوب ليس تذويب الوطنية فى القومية .. بقدر ماهو تزويدها بها) .. ويؤكد (ليس مما يضير القومية .. أن يكون لكل وطن داخل إطارها .. شخصيته المتبلورة .. بدرجة أو بأخرى .. داخل الاطار العام المشترك ، فهذا التنوع يثريها ، ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد) ، ويوصى (الواقع أن على القومية أن تحترم الوطنية وتقرها .. بمثل ما أن على الوطنية أن تعترف بالقومية وتقر بها ، ففى البدء كانت الوطنية .. ثم اتسعت وامتدت ونمت إلى القومية ، والقومية بدورها تبدأ ببيتك .. بالوطن ، فأنت لا يمكن أن تكون قوميا . طيبا .. دون أن تكون وطنيا بارا ... حمدان) .

وينتقل إلى متصل القومية/ الدين . يطهره من الألغام المدسوسة .. "لا تناقض بين القومية والدين ، وإنما يبدو التناقض ظاهريا .. حين تختلط الأدوار فى خضم التاريخ والسياسة ، فالقومية .. ثمرة الشخصية الإقليمية .. لمنطقة من العالم .. (أى وحدة الشخصية لأرض وقوم معا .. بما يهيؤها للوحدة بالمعنى السياسى) .. أما الدين فحضارة وثقافة .. تتجاوز الوحدة الاقليمية فى إطارها الجغرافى .. وذلك بمقدار انتشاره .. فوق عدد منها .. متنائية المسافة ومترامية المساحة ، بما يجعل منه إطارا .. يتجاوز الوحدة الاقليمية بالضرورة ، وإذا كانت الشخصية الإقليمية تهيىء للوحدة .. فإن الإطار

الحضارى يدعو للتواصل ، وإذا كانت للوحدة مراحلها .. فإن للتواصل درجاته ، وتتحدد الغاية .. فى الوصول بكليهما (الوحدة + التواصل) إلى أعلى مرحلة .. وإلى الدرجة القصوى المتاحة ، ويمكن القول أن كتابيه عن العالم العربى والعالم الإسلامى .. قد وضعا من أجل ذلك .

هذا فيما يتصل برؤيته .. أما بالنسبة لمنهاجه .. فإنه متشابك متعدد المداخل ، غير أن تكرر عناصره فى دوائره الثلاث .. يمنحها نسيجا متقاربا .. من حيث البناء والخصائص ، تتوجه جميعها للكشف عن الشخصية الاقليمية لكل منها .. بكل ما تنطوى عليه من جوانب القوة ونقاط الضعف .. بمثابة الهدف النهائى .. (إن تكن الجغرافية فى الاتجاه السائد .. بين المدارس المعاصرة .. هى التباين الأرضى Areal differentialion أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض .. على مختلف المستويات ، فمن الطبيعى أن تكون قمة الجغرافية هى التعرف على شخصيات الأقاليم Regional Personality ، وإذا كان الاقليم بهذا التعريف .. هو قلب الجغرافية .. فمن المنطقى أن تكون الشخصية الاقليمية هى قلب الاقليم .. ومن ثم بيقين أعلى مراحل الفكر الجغرافى .،. حمدان) .

ومن هنا استناده الأساسى للمنهج التاريخى ، باعتبار أن للشخصية جذورها التاريخية بالضرورة ، خاصة بالنسبة لدوائره (مصر ، العالم العربى ، العالم الإسلامى) بورائها التاريخى المترامى ، ومن ثم يؤكد دائما .. (أن الزمن يمثل البعد الرابع للاقليم ، كما أن التاريخ البعد الرابع للجغرافية ، حمدان) ، ذلك أن الجغرافية الحالية لاقليم ما .. هى محصلة جغرافيات الماضى ، بصيغة أخرى .. فإنه لا جغرافية بلا تاريخ ، فالتاريخ منجم ثرى للجغرافية .. لا ينضب .. كما أن التاريخ بلا جغرافية .. (أشبه بروح هائمة .. بلا جسم تقر وتستقر فيه) ، ومن هنا جميعا تصبح الجغرافية التاريخية عنصرا جوهريا فى دراسة الشخصية الاقليمية .. لأنها بإيجاز .. (متوسط التاريخ مضروبا فى جذر الجغرافية ، حمدان) .

ولأنه يرفض أحادية Monism التفسير .. فإنه يقرن مابين التاريخ والايكولوجيا عند التحليل .. ويعرفها .. (الايكولوجيا هى علم العلاقة بين البيئة والإنسان) ، بما يمنحها - أى تحليلاته - صلابة الأساس .. وواقعية السياق ، وتمسى تفحصا لجدلية العلاقة بين الطبيعة التى تهب وتمنع .. والبشر بمهارات التفاعل والاضافة والتشكيل ، وليس صدفة أن أغلب من درسوا الشخصية الإقليمية من

الجغرافيين .. إنما دخلوها بالجمع بين المنهجين .. ويضيف بالنسبة لنفسه .. (وإنما نحن نغترف بحرية من عناصر المنهجين ، لننتخب الحقائق الدالة .. فنأخذها ونصبها .. بعد تصنيعها تصنيعا جغرافيا جذريا .. في قوالبها الجغرافية الصارمة والواجبة .. أنماطا وأدوارا وقيما إقليمية محددة وأصيلة) ..

ومن بعد التاريخ والايكولوجيا .. من بين المناهج الجغرافية العديدة .. يختص المنهج الإقليمى باهتمامه (أو الجغرافية الإقليمية الخاصة .. Spe- cielle Geographie .. والتى هى بالضرورة .. مصب ومجمع ونهاية وقمة الجغرافية جميعا ، وتنقسم منهجيا إلى الجغرافية الإقليمية الداخلية والخارجية ، الأولى تحليلية .. فيها نشرح كائنا عضويا ضخما Macro - organism إلى أعضائه الدقيقة Micro - organism .

أما الثانية ـ الخارجية ـ فتركيبية أساسا .. تعالجه كإقليم واحد ، تبغى التعرف على مكانه وخصائصه وهيئته .. ودوره فى العالم الواسع ، وهى بهذا تحاول أن تضع عالما صغيرا نسبيا Microcosn فى مكانه الدقيق والصحيح من عالم أعظم Macro - cosm ، حمدان) .. أى مصر من العالم العربى .. والعالم العربى من العالم الإسلامى ..

والعالم الإسلامى من العالم ؛ متبعا فى ذلك المنهج المقارن .. سواء لتحديد أوجه التشابه أو جوانب التناقض ، فبضدها تعرف الأشياء .. أيضا ، وبالمقارنة تمنح المنطقة عمقا ومنظورا .

ويشير إلى المنهج التطبيقى .. فى سياق تحديده لجملة ما اتبعه من مناهج .. تعددت مع اتساع مشروعه .. (وظفت فيه معظم المناهج .. استجابة لتعدد العناصر .. وتنوعها الكيفى من حيث الطبيعة ، الأصولية والاقليمية ، الطبيعية والبشرية ، الكيفية والكمية ، المجهرية والملحمية البحتة والتطبيقية .. وغير ذلك) .. ويؤكد بالنسبة للمنهج التطبيقى .. (حيث المستوى التطبيقى لا يقل أهمية عن المستوى النظرى الأكاديمى باعتباره يتعرض بالتقييم والتقويم .. لنقاط القوة والضعف .. التى تتكشف فى الشخصية الاقليمية ، وهى حلقة الوصل إلى التخطيط ورسم السياسة الاقليمية والاستراتيجية القومية) ، ويفيض فى توضيح أهميتها .. (واليوم أصبحت السياسة جغرافية .. أكثر من أى يوم مضى ، ذلك لأن السياسة أضحت الآن فن الأشتغال بالمستقبل) .

ولقد كان حتما لا صدفة .. أن يبزغ علم المستقبلية Futurology.. بعد علم التخطيط ، ومن جانبها .. فإن الجغرافية .. وإن تكن نظريا .. فلسفة المكان .. فإنها

تطبيقيا .. هندسة المكان وما التخطيط الإقليمي ببساطة .. إلا هندسة إقليمية ، كما لا تقل عن ذلك ضرورة بالنسبة للمشكلات .. في مجالاتها جميعا ، والتي تقتضي التركيز على الجوانب العملية والتطبيقية والتخطيطية وهي تبحث عن الحلول والعلاج ، سواء في مجالات الانتاج والموارد أو الاستهلاك والتوزيع أو السكان والمدن ، أو النقل والمواصلات ، أو الاستراتيجية والدفاع الوطني والأمن القومي ، حمدان) .

ويختم اشاراته إلى مناهجه .. بما يشحنها جميعا بالحيوية .. ويخلصها من جمودها التقريري .. (لقد وُظفت كل مناهج الجغرافية ولواحقها .. في خدمة جغرافية الحياة ، جغرافية الحياة اليومية والأشياء ، كيما تضفي الحيوية والأهمية والاهتمام .. على الحقائق الجامدة الصماء .. وتحيلها حية نابضة ناطقة ، ومن أجل هذا .. حاولنا عمدا أن ننظر للاقليم نظرة لاندسكيبية بالتحديد .. تدعو إلى الرؤية والحس المباشر ، فمن الثابت أن المنهج اللاندسكيبي .. الذي يعالج الاقليم كظاهرة مرئية وملموسة Visible et tangible يضفي على الدراسة حياة وحيوية ومعايشة ، قد تفتقدها بغير ذلك ، حمدان) .

والواقع أن هناك ما يجمع بين دوائره أيضا .. من حيث زوايا التناول ، فهى تبدأ فى كل منها بأركان الأساس الطبيعى ، من القاعدة الجيولوجية إلى خطوط السطح ، ومن الموقع الفلكى إلى النظم المناخية والنباتية ، ومن المياه الى التربة .. وغير ذلك ، بحيث تؤدى إلى تفهم الوجه الطبيعى من شخصية كل منها .. ثم يعود فيعتصر هذه الأركان .. فى معادلة .. تلخصها جميعا .. بمثابة شفرة .. تفسرها جملة وتفصيلا .. يستخدمها مرارا وتكرارا .. بما يثبت فاعليتها وصدقها الموضوعى .. (ولئن حق لنا أن ندرس كل وجه من وجوه الشخصية الإقليمية .. إلى أدق الدقائق ، فحق علينا أن نتجاوزها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات ، لتمسك روح المكان .. وتجسدها فى احكام .. وتستقطرها فى معادلة .. أو ما يشبه ذلك ، حمدان) .

ومن الأساس ينتقل إلى البناء ، متمثلا فى الغطاء البشرى (السكان + العمران) ومجالات النشاط الاقتصادى (الزراعة ، الرعى ، التجارة ، الصناعة) .. وغيرها .. وما يتداعى عنها من علاقات وتفاعلات ، منتهيا إلى بنيتها السياسية .. كذروة لبنائه الموضوعى المتدرج المتصاعد ، باعتبارها محصلة أو مرآة مجمعة .. لوجوهها جميعا ، وفى جميع المراحل .. وبالنسبة لكل دائرة .. يطرح

معادلاته وشفراته ومفاتيحه ، هذه التى تكون فى حد ذاتها .. سياقا قائما بذاته ، يعود فيجمعها في خيط واحد .. بقدر ما يفصح عن قسمات شخصيتها الإقليمية .. بقدر ما يكثف قوتها العامة ، هذه التى يتخذ من ايجابياتها وسلبياتها .. مجاورا لتقديم توصياته .. تدعيما وعلاجا ، بما يمكن معه اعتبارهما (القوة العامة + توصياته) .. الهدف النهائى من بنائه الهرمي لموضوعاته .

ولا يعنى ذلك .. أن هناك قالبا ثابتا .. يصب فيه دوائره .. ويشكلها على غرار متكرر جامد ، فذلك ـ كما سيأتى عند عرض كل دائرة تفصيلا ـ أبعد ما يكون عن تحليلاته .. هذه التى يطلقها .. (فى نظام فكرى ونسق منهجى ومعمار بنيوى .. يتفيأ الأصالة والخلق والجدة والابتكار أساسا) .. وإنها يقينا لرحلة شاقة .. إلا أنها شيقة ، وعرة .. غير أنها واعدة .. مجهدة .. ولكنها بالقدر نفسه مجزية (وإن كان الحكم .. فى هذا متروكا بالطبع للقارىء) .. هكذا يقرر دائما فى تواضع .. وهو يقدم أو يختم مؤلفه .. عن كل دائرة من دوائره الثلاث الأثيرة .

حمدان فيلسوف المكان

لم يكن يختار السهل .. إذا خيّر ، تؤهله قدراته للصعب .. مشحوذة بالتحدى ، لا يلتفت للقشور .. يعنيه اللب ، يرتقى الأعلى - وينفذ للجوهر ، يستهويه "الأقليم" .. لأنه الأعقد .. قابل للفحص .. بما يرضى رؤيته الشاملة ، لا يعرضه بالوصف .. فذلك الأسهل . وإنما ينقب عن شفرته وسره .. هذه التى تتكامل حروفها .. على طول تاريخه وعرضه ، يراه مركّبا فى بنية كلية Holistic متدامجة ، قد تداخلت شرائحها الطبيعية والبشرية والاقتصادية .. منطوية على ارتباطاتها المتراكمة ، ويراه عضويا حيا .. له روحه الغضة ، متفاعلا داخل ذاته .. ناميا بذاته وبالتواصل مع غيره .. مثمرا ثقافته ، وهذه بالضبط عبقرية الأقليم فى نظره ، عبقرية تتجلى فى خصوصية ثقافته .. وعملية تكونها ، وتتمثل فى نسيجها الوظيفى .. وتجسيدها لشخصية المكان .. طبيعته وبشره ، بغض النظر عن مستواها ومكوناتها ، فالعبقرية تكمن فى العملية وما تنتجه .. أما نوعية الثمرة .. فلها مقاييسها الأخرى ، تلك نظرة حمدان ونظريته أيضا ، وهى ما طبقها على مصر .. باعتبارها نموذجه الأثير والأمثل ، ولأن عليه أن يبدأ بوطنه Home Geography على حد قوله ، فكل شبر من أرض مصر .. يقتضى تغطيته ببحث مكثف ، فكيف ينصرف عنها .. قبل أن يستقطر جغرافيتها وتاريخها .. ويميط اللثام عن عبقرية شخصيتها ، هكذا كان اختياره .. وربما أيضا قدره .

(يحاول الكتاب أن يرسم صورة عريضة .. ولكن دقيقة بقدر الامكان لشخصية مصر ، ومصر لاشك موضوع مثالى لذلك ، نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود والتقاطيع ، ولما تملكه من تاريخ ألفى حافل ، الغريب فى الأمر ـ مع ذلك ـ أن مصر جغرافيا بالمقاييس العلمية العالمية الرفيعة .. ما تزال إلى حد بعيد "أرضا بكرا" .. ولا نقول "أرضا مجهولة" على المستويين الأكاديمى المتخصص والثقافى العام ، حقا لقد كتب شىء لا بأس به عن جغرافية مصر بمختلف اللغات خاصة الأجنبية ولعلماء أجانب غالبا ، إلا أنه على قيمته وخطره .. مجرد نواة متواضعة نسبيا أو شظايا متناثرة هنا وهناك ، والكل لا يعدو قطرة من محيط .. إذا كان المستهدف مكتبة جغرافية وطنية بالمعنى العالمى ، وليس فى العربية حتى الآن مرجع علمى واحد عن جغرافية مصر ، مرجع جامعى أو فوق جامعى جدير بالكلمة ، هذا أكاديميا .. أما على مستوى الثقافة العامة .. فإن الحصاد بائس .. إن لم يكن حصاد الهشيم .

ولا عجب بعد هذا ما نرى ونلمس من تخبط التخطيط ، وإحباطه وإجهاضه فى عديد من المجالات وعلى معظم المستويات ، إذ لا تخطيط البتة أيا كان نوعه بلا جغرافية ، ثم فى ركاب التخطيط الفاشل .. هل من مفر أن يسير أو يستمر التخلف المادى والاقتصادى والحضارى العام ؟، دع عنك بعد هذا تردى سياستنا الخارجية وتدهورها ، إن ثقافتنا الوطنية من أسف قاصرة محدودة ، وحتى عند ذلك فنحن

نأخذها بطريقة عاطفية فجة أكثر منها علمية ناضجة ، ونحن ـ حرفيا ـ ندفع لذلك كله ثمنا باهظا فى كل جوانب ونواحى حياتنا بلا استثناء ، ومن ناحية أخرى .. فإننا قط لم نكن أحوج مما نحن الآن إلى فهم كامل معمق موثق لوجهنا ووجهتنا ، لكياننا ومكاننا ، لإمكانياتنا وملكاتنا ، فمصر بحاجة أكثر من أى وقت مضى إلى إعادة النظر والتفكير فى كيانها ووجودها نفسه ، وبالعلم وحده فقط .. لا الإعلام الأعمى ولا الدعاية الدعية ولا التوجيه القسرى المغرض .. يكون الرد ..) . (شخصية مصر .. ص ص ١٨ ـ ٢٠) .



باعتزال حمدان الجامعة .. أصبحت سيرته بالضبط هى ما كتبه ، ومهما تعددت الآراء بشأن اعتزاله (بما قد يقتضى دراسة أخرى) . فسيبقى فى جوهره .. تعبيرا عن مجمل فكره ، لم يكن بداية انسحابا .. بل اعتزالا ، بل اعتصاما بنقطة أعلى ، يتأمل منها الواقع فى شموله .. ويصوب منها نيران عقله ، فقد أدرك منذ الأزمة الجامعية الأولى .. أن ما ينتظره بعدها أكثر ، فالساحة الضيقة لا تناسبه .. وهو لا يتقن شراكها ، فأداته الرئيسية قلمه .. وهل يحطم القلم فخا ؟ فنأى عاليا منها .. وشرعه ، دون أن يكون الثأر هدفه ، فكما تحرر من الساحة .. حرر نفسه من نوازعها ، وتفرغ واهبا نفسه ، بشجاعة نادرة يكتب .. معتذرا أنه لم يكن أشجع ، ملتزما ألا يغادر موقعه .. إلا بعد أن يزول وجه مصر

القبيح نهائيا ، وكذلك وجه العرب الكالح القميء المتنطع (جـ ٤ ، ص ٦٣١) ، هو لا يعتذر خوفا على سلامته أو حتى حياته ـ ولكن حرصا على أن يصل للناس ما يكتب ، وكل لبيب بالإشارة يفهم .

وقبل أن يعتزل .. كان قد نشر .. ما لفت إليه النظر .. من أول وهلة ، خاصة مؤلفه المرموق "دراسات فى العالم العربى" .. الذى نال عنه جائزة الدولة (١٩٥٩) ، ويدل وعده عن دراسات مقبلة تكشف "عبقرية الحضارة العربية" ، على اهتمامه الفكرى المبكر بمشروع "عالم عربى موحد" .. اهتماما لم يخفت قط نبضه ، مقترنا برفضه .. "للمشروع الإسرائيلى" .. التى اعتبرته يوما عدوها الأول ، وقد أكد بعد ذلك خطه الفكرى تجاهها ، وفند دعاواها العنصرية فى كتابه "اليهود أنثروبولوجيا" ، وبقى يرفضها .. فلم يكن عقله يقبل بأنصاف الحلول مطلقا ، ويرى كل ما طرأ بشأنها .. مجرد تغيرات انقلابية محزنة ومخزية ، جعلت من التفكير العلمى سخرية ، وحولت نتائجه الصلبة إلى هراء .. تذروه رياحها الفاسدة ، ولكنها ليست سوى جولة وزوبعة (جـ ٤ ، ٦٣٢) .

ورغم قلة المعلومات عنه خلال فترة بعثته (بريطانيا ١٩٤٩ ـ ١٩٥٣) ، سوى ما يتصل بألمعيته الفذة .. التى أقر بها أساتذته ، وانتهت برسالته "سكان وسط الدلتا" Mid - Nile Delta Population .. التى حصل بها على درجة الدكتوراة ، إلا أن الواضح أن استغراقه الأكاديمى فى

إعدادها ، لم يشغله عن رصد تغيرات عالم ما بعد الحرب الثانية حوله ، خاصة ما يتصل بانحسار الاستعمار التقليدى .. لحساب حركة التحرر الوطني الصاعدة ، رصدا وجد رصيده داخل نفسه ، خلال معايشته فورة الوطنية المصرية .. ضد الاستعمار البريطانى .. طوال سنوات دراسته فى الجامعة (٤٤ ـ ١٩٤٨) ، وأثمرت من بعد ثمارها الناضجة .. فى كتابيه "استراتيجية الاستعمار والتحرير" ، و"افريقية الجديدة" .. وغيرهما من المقالات فى الدوريات المتخصصة ، أفصحت عن منهجه فى الدمج بين الجغرافية والتاريخ فى بنية واحدة ، تظللها الفلسفة ، كما تجلت فى الباب السادس من "شخصية مصر" (الفصول ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ص ص ٦٠٣ ـ ٧٨٣) .. فى رؤية ثاقبة وصياغات محكمة ، تكشف أبعاد الجانب السياسى .. من هذه الشخصية المركبة ، متطلعا إلى "النظرية العامة" .. التى تحكم وجودها واستمرارها وبقاءها ، تطلعا يمكن متابعة جذوره عند بعض أساتذته .. خاصة عباس عمار وسليمان حزين .. فى أعمالهما المبكرة ، ويظهر حمدان وقد تجاوزها بعد ما امتصها وتشرب بها ، مستندا فى وثبته إلى ثقافة متنوعة .. ورؤية نافذة ، فضلا عن لغته الثرية بمستوياتها وايقاعاتها .. التى تعود لموهبته المتفردة ، بما جعل منها علامة أسلوبية .. تدل عليه وإن لم يوقع تحتها باسمه .

والمرجح أن فكرة مشروعه الخاص عن "شخصية مصر" .. قد ولدت أثناء اعداد رسالته ، يدل على ذلك إطلاعه

الواسع على أدبيات المؤلفات السابقة .. عن شخصيات الأقاليم والدول ، وخاصة ما كتبه ما كيندر وفوكس عن بريطانيا ، وما كتبه لا بلاش عن فرنسا .. فى مقدمة كتاب عن تاريخها ، إطلاعا عامدا منقبا يعود عصبه .. إلى بحث مصر آنذاك عن هويتها .. وتوقها إلى استعادة روحها ، بحثا تعود منابعه إلى الحملة الفرنسية .. ونهضة محمد على من بعدها ، وتوقا تأجج بعد ثورة ١٩١٩ ، وارهاصاتها فى الثورة العرابية قبلها ، فقد بلغت حيرة مصر أشدها .. خلال عقدى مابين الحربين خاصة ، وطرحت فى ساحتها صياغات متناقضة ومتعددة ، وقدمت الاجابات عن هويتها .. مابين فلسفية وسياسية ودينية ، بل وأدبية وفنية بشتى الصور ، نهل منها حتى ارتوى برحيق عصره ، ثم ألهمته ودفعته للمشاركة ، بعد عودته من بعثته ، مشاركة استهلها بمقالات مكثفة عن "شخصية مصر وعبقرية إقليمها" ، أثارت بأصالتها نقاشا واسعا ، بما قدمته من إجابات .. وأيضا بما طرحته من أسئلة ، ثم توسع على مراحل فى مشروعه .. حتى تجسد سفرا من أجزاء أربعة ، لم ينته منها إلا قبل وفاته بسنوات معدودة ، مخلفا بذلك إجابته الموسعة الناصعة عن شخصية الوطن ، ولكنها جديرة كما أراها أن تكون نافعة ، ليس فقط من حيث ما تسهم به فى الكشف عن هويته .. وإنما أيضا بما تلقيه من ضوء ينير مستقبله .

وبقدر ما ارتوى احتشد ، وتدامج مع كتابه ، وبقدر ما يكشف الكتاب عن شخصية مصر .. يكشف عن مؤلفه ، تنبثق قوته منها .. ويعود ضعفه لضعفها ، وربما آن الأوان لعرض

بعض ما كتب ، خاصة ما يعكس ركائزه الفكرية .. التى وردت مركزة فى الجزء الاخير من سفره ، باعتبارها سارية فيه بدايته إلى نهايته .

● (.. مصر تحتاج إلى فورة حقيقية كل بضعة عقود أو أجيال ، تعيد تقليبها وخضها وتجنيسها ، ثم توجيهها إلى الطريق الصحيح ، بل إنها فى حاجة إلى الفورة الشعبية كشرط للبقاء الحق والحقيقى والوجود الكريم ، أى لكى تعيش ولا تنقرض معنويا وأخلاقيا ، بمثل ما أصبح الحكم الديمقراطى المطلق منذ الآن شرط عدم انحدارها وتدهورها ، أو المزيد من هذا الانحدار والتدهور ..) شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٦١٣ .

● (.. غير أن الديمقراطية كالحرية ، أو ليسا جانبين لشىء واحد ؟ الديمقراطية لا تمنح ولكن تنتزع ، لا تستجدى من الديكتاتور ، وإنما تفرض عليه فرضا بقوة الوعى وفعل القوة وبيد الشعب نفسه ، والانقلاب العسكرى مرض ، فعله المضاد هو الثورة الشعبية . ولقد ولى زمان الحاكم المطلق المستبد .. فى حياة مصر ..) ، جـ ٤ ، ص ٦١٢ .

● (لرحلة مصر على طريق الاشتراكية دربان أساسيان ، الاصلاح الزراعى على مستوى الإقطاع والريف . والتأميم على مستوى رأسمالية المدن ، وتلك كما يقرر مابرو "محاولة أصيلة .. وإن كانت قد تعرضت للنقد بسبب عدم راديكاليتها ..) (جـ ٣ ، ص ٥٩) .

● (.. النتيجة النهائية .. أن مصر حاليا قد أصبحت خليطا غريبا وربما متناقضا من عناصر اشتراكية ليبرالية من رأسمالية الدولة ورأسمالية الطبقة ، أو هى إلى حد آخر بورجوازية باسم الاشتراكية وإصلاح باسم الاشتراكية ، وإصلاح باسم الثورة ، إنه على أفضل تقدير اقتصاد مخلط .

وفى ضوء هذا التحليل .. ينتهى الكثيرون إلى أنه إذا صح أن الثورة أسقطت تحالف الإقطاع والرأسمالية وأحلت محله تحالف العسكريين والمثقفين خلال الستينات ، فإنها فى النهاية وخلال السبعينيات قد أسقطت هذا التحالف بدوره ، وأقامت بدلا منه تحالف العسكريين والرأسماليين ..) (جـ ٢ ، ص ٦٢)

● (.. قمة المأساة بالطبع .. أن الديون تحيل اقتصادنا القومى برمته تابعا خاضعا ، معتمدا على الخارج .. إلى حد رهن الاستقلال الوطنى ذاته ، ومن السخرية أن خير من عبر عن هذه التبعية .. هو روبرت ماكنمارا الذى قال حين كان رئيسا للبنك الدولى أن الشعب المصرى يأكل ٣ أيام فى الأسبوع من جهده ، و ٤ أيام من جهد غيره ..) (جـ ٣ ، ص ١٣٤)

● (.. ولكن يقينا قبل تخطيط الانتاج جميعا .. ألا تأتى منطقيا مشكلة الفاقد فى الإنتاج ، ذلك الفاقد الذى يسخر من عملية الإنتاج نفسها ، مثلما يسخر من عملية تخطيطية قبلها أو بعدها ..) (جـ ٣ ، ص ٢٨٩) .

(.. وأول وأشمل مثلما هو أبسط وأبرز أعراض الأزمة الاقتصادية هو الانفجار الاستهلاكى ، فإن يكن الاستهلاك هو المسئول بعامة عن شيطنة bedevil الاقتصاد المصرى ، فإن الاستيراد هو المسئول بخاصة عن سرطنته ، فإذا ما عدنا إلى نمط الاستهلاك بشىء من التفصيل ، فإن الانفاق الحكومى ابتداء استعراضى ، تحكمه مركبات العظمة والغرور الكاذب ، فبدعوى الكرامة الوطنية يحاكى جهاز الدولة نظراءه فى أكبر وأغنى الدولة ، فى حين أن الدولة نفسها لا تعدو كسرا عشريا وربما مئويا فى القوة والحجم والوزن السياسى والمادى ..) (جـ ٣ ، ص ١٢٢) .

● (.. أما الانفتاح الذى يرادف الانتفاخ ، فقد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة فى أعلى السلم الاجتماعى ، كما خلق طبقة جديدة منتجة ، ولكنها نسبيا مستغلة أيضا فى أسفل السلم الاجتماعى .. من الحرفيين والعمال المهرة ، ارتفعت من القاع بسبب ندرتهم واقتصاد السوق ، حتى الفلاحون بدأوا جزئيا وبطريقة ما يتبرجزون ، على الأقل من تداعيات البترول العربى والانفتاح العربى) (جـ ٣ ، ص ٦٣) .

(.. أما أولئك الذين يرون بأن الارتباط بالغرب وحده .. هو الانفتاح وحده ، فنظرتهم تلك عوراء لا ترى الحقيقة إلا بعين واحدة ، لا ترى إلا أن العالم هو الغرب .. ولا شىء سواه وهى النظرة الاستعمارية التى سادت طويلا ، والتى تركز على

أن الدنيا هى أوربا Euro - Centric ، والآن على أوربا وأمريكا معا Atlanto Centric أو الغرب بعامة West - Centric ..) (جـ ٣ ، ص ١٥٣) .

● (.. النتيجة النهائية .. هى مجتمع طبقى مختل ، طبقات مقلوبة ، وطبقية متميعة ، باختصار فوضى طبقية ضاربة وخلط هيكلى عام وعارم ، وهذا الخلط وهذه الفوضى تحدد ملامح انقلاب طبقى لا ثورة طبقية ، انقلاب اجتماعى لا ثورة اجتماعى ، ومصر فى هذا الرأى .. لم تكن طبقية ولا برجوازية ولا رأسمالية أكثر مما هى عليه اليوم بالدقة ، ولا كانت الفروق الطبقية أوسع وأبرز مما هى عليه الآن قط ، حيث ازداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا أكثر من أى وقت مضى ، وصل عدد المليونيرات فى مصر الآن ـ القطط السمان ـ إلى رقمه القياسى فى تاريخ مصر الحديث ، البعض يقول بضع عشرات من الألوف ، بينما يقدره جهاز الضرائب بنحو ١٥ ـ ١٧ ألفا ، فى حين يصل به بعضهم الى ربع مليون مليونير ، والنتيجة الصافية أو الصافعة فى تقدير هذه المدرسة الفكرية النقدية ، أن مصر فقدت طريقها إلى الاشتراكية ، واختلت بوصلتها الاجتماعية طبقيا ، فالانفتاح إذن هو أعلى مراحل الليبرالية والميول الرأسمالية ..) (شخصية مصر ، جـ ٣ ، ص ٦٤) .

(.. وواقع الأمر أن ما لا تريد مصر أن تذكره ، هو أن النموذج الرأسمالى وقمته الأمريكى .. لا يصلح لها كدولة ، فالنموذج يصلح لمجتمع أو دولة الوفرة ، ولا يصلح لمجتمع أو

دولة الندرة مثل مصر .. والحقيقة .. فى الحساب الصافى والتصفية النهائية ، إن كلا من الانفتاح والانغلاق مطلوب مفيد ، لكن المشكلة هى كيف ؟ ولمن ؟، فالانفتاح مفيد بالتأكيد للأقلية (الساحقة) ، والانغلاق مفيد بالتأكيد للأغلبية (المسحوقة) ، ولذلك فإن الأول تنمية لكنها لا مفر طبقية ، بورجوازية واستغلال باسم الوطنية ، والثانية تنمية وطنية .. ولكن للقاعدة العريضة والجماهير الأساسية ، قدر موزون إذن من الانفتاح والانغلاق ، ونكاد نقول بين الايديولوجيا والتكنولوجيا .. هى الصيغة الملائمة المطلوبة لمصر ..) (جـ ٣ ، ص ص ١٥٦ ـ ١٥٧) .

(.. ومصر بالذات محكوم عليها بالعروبة والزعامة ، فمصر لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها ، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت ، كيف ؟ وهى إذا نكصت عن استرداد فلسطين العربية كاملة من البحر إلى النهر ، وهادنت وحكمت عليها بالضياع ، فقد حكمت على نفسها أيضا بالاعدام ، بالانتحار ، وسوف تخسر نفسها ورصيدها ، الماضى والمستقبل .. التاريخ والجغرافية ..) (جـ ١ ، ص ٤٦) .

★ ★ ★

يرى بان "الشخصية الاقليمية" ذروة الجغرافية ، وبإطلالة كلية يراها علوية رفيعة Super Geog ، وذلك بقدر ماهى تركيبية .. لا تقف عند حدود وصف المكان .. بل تتعداها إلى فلسفته ، بما تعتصره ثم تستقطره من بنيته وروحه وعقله ، وهى فلسفة عملية بقدر ما تلخصه وتضعه من

مقولات صائبة .. تدعم قوته وتعالج ضعفه ، ولم يكن دربه إليها سهلا ، فرغم الإقرار بأهميتها وقيمتها . إلا أن نماذجها السابقة محدودة .. فى الأدبيات الجغرافية بعامة ، يذكر من بينها .. ما كتبه لابلاش فى مقدمته لكتاب لافليس عن تاريخ فرنسا .. تحت عنوان "شخصية فرنسا الجغرافية" ، والمؤلف المشهور لفوكس عن "شخصية بريطانيا The Personality of britain ، وكتاب ماكيندر "بريطانيا والبحار البريطانية" ، كما يشير إلى دراسات "حزين" المبكرة عن البيئة والموقع فى مصر عبر التاريخ ، وأيضا إلى كتب "مصر ورسالتها" لحسين مؤنس ، و"تكوين مصر" لشفيق غربال ، و"أصول المسألة المصرية" لصبحى وحيده ، و"سندباد مصرى" لحسين فوزى .. باعتبار ريادتها فى تلمس خصائص شخصية مصر .. جغرافيا وتاريخيا وسياسيا .

ومن هنا فقد وجد من الضرورى أن يفرغ أولا من تعريف موضوعه ، وتحديد ضفافه المنهجية العامة ، موضحا غايته النهائية ، وردت كما يلى فى الصفحات الأولى من الجزء الأول من كتابه المتفرد .

● (.. الشخصية الإقليمية .. أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الاقليم ، تبدأ بالتساؤل عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق ، محاولة أن تنفذ إلى روح المكان لـ "تستشف" عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة ، وهذه فكرة "الهيكل" المركب Compage ، عند بعض الجغرافيين الأمريكيين أو ما يعرف

كاصطلاح عام بعبقرية المكان Genius loci فيها يتم تشريح كائن عضوى ضخم Macro- Organism إلى أعضائه الكائن الدقيقة Micro Organisms ، كما لابد من إعادة تركيبه، وهى بهذا تحاول أن تصنع عالما صغيرا نسبيا Micro cosm فى مكانه الدقيق والصحيح من عالم أعظم Macrocos ، ومن ثم تقع فى دائرة ما سمى بالجغرافية الملحمية Macrogeography ، ذلك كله .. الجغرافية الطبيعية البشرية والإقليمية - على المستوى النظرى الأكاديمى ، غير أن المستوى التطبيقى لا يقل أهمية وخطرا ، فمن المنطقى لا شك .. بعد أن تكون قد حللت شخصية المكان فى الماضى والحاضر ، بكل هذه الاستفاضة والإحاطة والشمول ، من المنطقى أن تتعرض بالتقييم والتقويم لنقاط القوة والضعف التى قد تنكشف فيها ، وهذا ما يقودنا رأسا إلى الجغرافية التطبيقية ، جغرافية التخطيط ورسم السياسات الإقليمية والاستراتيجية القومية ، وبهذا الشكل تصبح جغرافية التخطيط في واقعها بمثابة جغرافية المستقبل -Geo Futurology ، توظف الماضى والحاضر ، فى كشف الطريق أمام مستقبل أفضل ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ، ص ص ٥٧ - ٥٨) .

● (.. والآن فإن من المحقق أن طبيعة الجغرافية الكاملة الكامنة هذه .. لا تتحقق فى شىء كما تتحقق فى دراسة الشخصية الإقليمية ، فليست الشخصية الإقليمية مجرد تقرير حقيقة علمية مطلقة .. يمكن أن تخضع تماما للقياس

الرياضى الإحصائى ، وذلك على الرغم من أنها تعتمد على مادة علمية موضوعية بحتة ، إنها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى ، فكما يقول "جلبرت .. إن الجغرافية فن التعرف على شخصيات الأقاليم وتفسيرها ، وأن شخصية الاقليم كشخصية الفرد يمكن أن تنمو وأن تتطوز وأن تتدهور .

على أننا نرى أن فن تناول المادة العلمية لا يكفى وحده ، ولهذا فنحن أيضا مع "دبنام" حين يعرف الجغرافية بأنها "فلسفة المكان" ، ومع "ماكيندر" حين يتحدث عن 'الجغرافية الفلسفية" ، وذلك دون أن نذكر دعوة البعض المتطرفة إلى ما يسمونه Geo- Sophy ، ولا يعنى هذا أو ذاك فلسفة محلقة غامضة ، بل فلسفة عملية واقعية Concrete Philosophy قد ترفع برأسها فوق التاريخ .. ولكن تظل أقدامها راسخة فى الأرض ، فلسفة تخلق بقدر ما تحدق .

وهكذا فإن المطلوب جغرافية حية ، بمعنى جغرافية الحياة اليومية every day Life geography ، تلك التى إذا عرفتها عرفت كل شىء عن نمط وطبيعة وظروف وقوانين الحياة فى هذا المكان أو ذاك ، جغرافية الحياة التى وإن بدأت من أعلى آفاق الفكر الجغرافى فى التاريخ والسياسة ، فإنها لا تتقاعس عن أو تستنكف من أن تنفذ أو تنزل إلى أدق دقائق حياة الناس العادية فى الاقليم ، باختصار جغرافيا تنسج الحياة اليومية ودورة حياة الناس الجارية فى نمط الاقليم ومورفولوجية الأرض ..) (من كتاب شخصية مصر ص ص ١٥ ـ ١٨) .

ليس كتاب شخصية مصر عملا موسوعيا .. كما يوصف أحيانا .. ربما بسبب تعدد أجزائه (٤ أجزاء) وضخامة عدد صفحاته (٣٥٥٢ صفحة) ، بل إنه على العكس تماما (ضد موسوعى) على حد قوله ، ذلك أنه إذا كانت الموسوعة ـ تعريفا ـ عملا تجميعيا معلوماتيا بالدرجة الأولى ، فإن شخصية مصر عملا عقليا بنائيا من جذوره ، يستند إلى مقولات فكرية .. يبدأ منها ، وينتقل إلى ما يثبتها واقعيا .. جغرافيا وتاريخيا ، يدل على ذلك عنوانه الرئيسى "شخصية مصر" .. دراسة فى عبقرية المكان .. ومن مفهوم "العبقرية" الأساسى .. تشتق عناوين فصوله (٣٧ فصلا) بل وعناوينه الثانوية داخل صفحاته ، كما يدل على ذلك التحديد المبكر لملامح هذه الشخصية (ص ٣٣) ، هذه التى يفترض تقليديا أن ترد فى صفحاته الأخيرة ، والمرجح أن حمدان قد وضع بعد تأمل طويل وعميق .. منظومة كتابه الفكرية أولا (شكل ٣) ، ثم عكف بعد ذلك على البرهنة عليها وإثباتها تفصيليا ، محاذرا فى موضوعية صارمة .. أن يتعسف قط فيما يعرضه من أدلته .. أو يغفل ما يتعارض معها ، عامدا إلى تفنيدها .. باعتبار أن ذلك مما يؤكد مقولاته ولا يضعفها ، لا يثبت هذا قائمة مراجعه ـ (وهى بالمئات) فحسب .. بل وأيضا ما يورده فى تحليلاته من مناقشة آراء غيره ، وقد مكنته قدراته العقلية من السيطرة على موضوعه .. وبنفس الدرجة على ضده ، ملتقية مع طموحه العلمى نحو بناء النظرية ، ومطوعة مهاراته الفائقة الأخرى (اللغوية بصفة

خاصة) لتحقيق هدفه .. أو أهدافه المتعددة على وجه الدقة ، لقد احتشدت قواه جميعها تحت إمرة عقله ، يتجلى ذلك تماما فى كل سطر كتبه ، الرؤية الفلسفية ، وقدرات التجريد والتعميم والتخيل والتوقع ، ومهارات التصوير والإحساس الإيقاعى المرهف ، ودانت له اللغة فى تركيباتها المركبة والسلسة ، هذه التى وظفت ببصيرة نافذة لتجسيد مشروعه الفكرى ، بمستويات نفعيته المتعددة لوطنه وعلمه ، وبما يلبى طموحه المتقد .. لأن يعكس عمله شخصية مصر عند الذروة .

● (.. ولئن حق لنا أن نبغى تفاصيل التفاصيل عن كل قطعة من أرض مصر ، فحق علينا كذلك ألا نغرق فيها أو نتوه ، وإنما علينا أن نتجاوزها ، نقفز منها وفوقها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات ، فوصف المكان وحده ليس يكفى ، بل لابد بعده من فلسفة المكان ، وإلى جانب النظرة التحليلية الميكروسكوبية والجغرافية المجهرية ، لا غنى عن النظرة التركيبية التليسكوبية والجغرافية والماكروسكوبية Macroscopic الواسعة الأفق .

وإذا كانت الدراسة الاقليمية التحليلية .. تثرى معرفتنا بالمعلومات ، غير أنها قلّ أن تتقبض على روح المكان ، أو تجسد العبقرية بإحكام ، إنها تشرّح الاقليم .. إلا أنها فى غمار ذلك تضحي بروح الاقليم ، ولهذا فإن علينا لكي نقبس شخصية مصر في الصميم أن نتحول من التخصيص إلى التعميم .. من الجزء إلى الكل ، نضع رقعة الوطن فى بؤرة واحدة ، لننظر إليها من منظور سماتها وخصائصها وملامحها

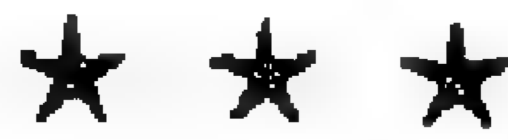
الرئيسية السائدة ، وهكذا نبدأ بدراسة "التجانس" بجوانبه المختلفة ، التجانس الطبيعى فى الأرض والمناخ ، التجانس المادى فى الزراعة والمحاصيل ، فالتجانس العمرانى فى توزيع السكان ، فالتجانس الحضارى فى القرى والمدن ، ثم أخيرا التجانس البشرى فى السلالة والتكوين الجنسى ، ومن التجانس نتقدم منطقيا إلى الوحدة ، الوحدة السياسية بكل مقوماتها ومكوناتها .. من وحدة إقليمية ووطنية ولغوية ونفسية (شكل ١) .

تلى هذا سلسلة فصول التطورات التاريخية ، قل سلسلة "من .. إلى" ، من السبق الحضارى إلى التخلف ، من الطغيان الفرعونى إلى الثورة الاشتراكية ، من امبراطورية إلى مستعمرة ، والموضوع الأخير بالذات يستدعى ويشمل وقفة مفصلة أمام الاستعمار الأوربى الحديث ، باعتباره آخر وأعلى مراحل الاستعمار ، ثم وقفة معممة عند شخصية مصر الاستراتيجية ككل ، ومن السياسة والاستراتيجية ننتقل إلى البناء الحضارى وأساسه الطبيعى ممثلاً أولاً فى الموقع .. قلب العالم .. ثم فى الموضع .. هبة النيل .

وهذا الأساس الصلب يضعنا تلقائيا على الطريق إلى دراسة شخصية مصر الاقتصادية ، التطور العام والخصائص الرئيسية أولا ، ثم الزراعة فالصناعة والثروة المعدنية ، كل على حدة ، وكل بهياكلها ومشاكلها وتخطيطها ، ثم من الاقتصاد نتحرك منطقيا إلى الاجتماع ، فنرسم خريطة المجتمع المصرى فى بحثين أساسيين ، الأول يعالج السكان

تحت عنوان "كثافة بلا هجرة" والثانى محوره المدن .. تحت عنوان "مركزية رغم الامتداد" .

بعد هذا ننتقل بحرية وسرعة محلقين بين آفاق الزمان وأبعاد المكان ، لندرس أولاً : تعدد الأبعاد ، ثم التوسط والاعتدال ، ثم الاستمرارية والانقطاع ، والموضوع الأخير ينقلنا منطقيا إلى الباب الختامى فى الموضوع كله ، وهو موضوع مصر والعرب ، فتدور فصوله بين الوطنية المصرية والقومية العربية أولاً .. ثم مصر فى عالم عربى متغير ثانيا ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ، ص ص ٤٨ ـ ٥٠) .



كيف توصل حمدان إلى تحديد الملامح الأساسية لشخصية مصر ؟ وكيف تمكن من ارتياد منطقة من العلم .. غير مطروقة لشدة وعورتها من قبل .. على الأقل بالنسبة لمصر ؟ تلك قضية منهجية بالدرجة الأولى (شكل ٢) ، ذلك أن أدنى اختلال فيما يعرضه .. لا يميع مقولاته فحسب .. بل يوهن من مصداقيته العامة على الفور ، فالمنهج هنا فى هذا المجال الصعب .. مثل حبل مشدود شديد الحساسية .. عليه أن يجتازه فكريا ولغويا ونفسيا .. ملتزما بأدق القواعد المنهجية .. محافظا فى نفس الوقت على مرونته وحيوية أدائه .. بطول صفحات مشروعه الضخم ، ويمكن القول ـ من بعد ـ بأنه قد حقق دربته الأساسية من كتاباته التى سبقت مشروعه .. هذه التى دلت على لياقة عالية مهدت له ، والمؤكد أنه لم يشرع فيما خطط له .. قبل قراءة واسعة .. يصعب

الإحاطة بأبعادها .. وإن دلت عليها ببولوجرافيته فائقة الثراء والتنوع بالقطع ، ثم هو رغم فطرته التجديدية المتوثبة .. آثر أن يلتزم بالمنهج الجغرافى التقليدى فى عمومياته .. بمثابة ركيزته الراسخة من قبل .. مؤجلا تحليقه لما بعد ، فجاء مشروعه فى إطار التقسيم المستقر للعلم .. إلى فروعه الرئيسية .. الطبيعية .. البشرية .. الاقتصادية .. دون أن تمس ، مخصصا لكل فرع جزءا منه .. يغطى تفصيلاته كما ينبغى لها بالتوضيح والشرح ، مستخدما كافة الأساليب المعتادة .. من خرائط إلى جداول .. إلى نماذج .. متبعا فى عرضها ذات الطرق المعروفة .. من تحليل ووصف ونقد ، متوصلا إلى تحقيق الألفة المنهجية بداية .. بما يضمن له توصيل إضافاته المنهجية بعد ذلك بيسر ، هذه التى ساقها بعد ذلك فى سياقاتها .. بحذر أولا .. ثم شاعت وأشاعت الجدة والأصالة فى نسيجه المنهجى ، فهو عندما يبدأ بالصورة العامة فى إيجاز وإحكام .. إنما يمهد لما بعدها .. حين يصيغ مقولته عنها فى شكل المعادلة ، وهى إن كانت معادلات لفظية بأكثر منها كمية .. إلا أنها بمثابة أسلوبه الأساسى لأن يحفر مقولته حفرا فى الذهن .. فتصبح وكأنها حكمة أو مثلا سائرا على الأقل ، ثم هو يعمد إلى "جمع النقائض" .. بما يثير الذهن ، متوجها منها إلى إثباتها أو دحضها .. مستعينا بالأدلة من كل علم ، مطبقا بذلك بجدارة فائقة ما يعرف بمنهج العلوم المتعددة Interdisciplinary APP. حيث يخضعها للفحص من كافة الزوايا .. مقلبا لها من كافة وجهات النظر ، منتهيا إلى ما يريد إثباته بالفعل ، بعدما

يكون قد طرق وراء ظاهرته كل فج ، ثم هو يطبق بيسر المنهج الأيكولوجى .. المستند إلى تحديد العامل الرئيسى .. ومن حوله منظومته .. بعلاقاتها المعقدة المتشابكة ، مسيطرا على فروضه الصعبة .. المتصلة بتحديد درجة التوازن .. وعلامات الاختلال .. على منحنى شديد الحساسية للمتغيرات الدقيقة منها قبل الكبيرة ، ويدخل بهذا المنهج مجالات غير معهودة .. اقتصاديا وعمرانيا وسكانيا .. فتتفتح له سراديبها .. وتنجلى غوامضها الدفينة ، ورغم أن المنهج الكمى .. لا يظهر ضمن أدواته إلا نادرا .. خاصة فى صياغاته الرياضية الحديثة ، فإنه يعوض غيابه .. بشتى الأساليب المنطقية . المدعمة بأداء لغوى فائق .. ومهارات تحليلية تركيبية .. تكشف الظواهر .. وتقنع بما يتوصل إليه من حقائق .. وما يوصى به لمواجهة المشاكل ، ويتجلى المنهج التاريخى عصبا أساسيا فى كتابه ، فمن التاريخ ينهل رصيده ، ليعيد تنظيمه .. فى رؤية شاملة محيطة ، بل هو يدمج المنهج فى الجغرافية بحذافيره ، وذلك فى إطار مقولة "التفسير الجغرافى للتاريخ" .. متخذا منها قاعدة لتفسير المراحل المتتابعة لتاريخ مصر الألفى كما يسميه ، بل هو يساوى بين أهمية الجغرافية التاريخية لمصر . وبين جغرافيتها الطبيعية والبشرية (.. ولهذا فإن دراستنا هذه دراسة فى الجغرافية التاريخية .. كما هى دراسة فى الجغرافية الطبيعية والبشرية .. ص ٥٦ ، جـ ١) ، وأخيرا .. فإن تمرسه الطويل بالمنهج الأقليمى .. باعتباره دربة جغرافية أساسية ..

وباعتبار موضوعه .. قد جعلت من عناصره أوتادا .. يشق بها طريقه ، بل إنه لا يمانع فى أن ينسب عمله جميعا إلى الجغرافية الأقليمية الخاصة Specielle Geographie التى ترادف الكورولوجيا أو التباين الأرضى (ص ٥٧ ، جـ ١) التى هى بالضرورة مصب ومجمع ونهاية وقمة الجغرافية .. بالمعنى الأكاديمى .

● (يفتتح العمل ابتداء بالجغرافية الطبيعية ، ثم يمضى قدما لخوض آفاق الجغرافية البشرية بكل مراحلها ومراتبها ، وهو إذا يضغط فى الشق الطبيعى على الأرض والمناخ بنوع خاص ـ لا قيمة عمليا للغطاء النباتى والحيوانى فى مصر الصحراوية ـ فإنما ليضغط على علاقة التكامل والتواصل الحتمية والصحية بين الجغرافية الطبيعية والبشرية من حيث المبدأ ، وتأتى الأخيرة فى دراسة أصولية إقليمية .. بمفهوم المدرسة الفرنسية ، وهاهنا بالضرورة يرقد مركز الثقل فى العمل ككل ، من ناحية لأن تلك هى طبيعة جغرافية مصر ، ومن ناحية أخرى لأن الشخصية الاقليمية إنما تبرز وتترجم من خلال الإنسان وأعماله فى الدرجة الأولى ، والمهم داخل هذه الحدود أن نحتفظ بالتوازن السليم بين النظرتين الطبيعية Geocentric والبشرية Homocentric بين دراسة اللاندسكيب الطبيعي واللاندسكيب الحضارى .

(وتكاد جغرافية مصر البشرية تعنى الجغرافية الاقتصادية تقريبا ، خاصة منها الزراعية ، مع رشاش أو تهميش هنا وهناك من جغرافية السكان والمدن عادة ، ذلك فى رأينا قصور معيب لا يستقيم ، ومن هنا حاولنا معالجة متكاملة

متكافئة بقدر المستطاع لكل مراحل ومناحى الجغرافية البشرية . من الاقتصادية إلى الاجتماعية ، ومن الجنسية إلى السياسية ، ومن الحضارية إلى الثقافية ، وسيجد القارىء - ربما لأول مرة - اهتماما خاصا بتلك الجوانب المهملة من جغرافية مصر البشرية : القرية والمدينة ، جغرافية السكان ، الجغرافية الجنسية ، جغرافية الدولة السياسية والاستراتيجية .

ومادمنا قد قلنا الجغرافية البشرية .. فقد قلنا توا الايكولوجيا .. أى العلاقة بين البيئة والإنسان ، وما دمنا قد قلنا الأيكولوجيا .. فقد قلنا إما فلسفة الحتم الجغرافى .. وأما مدرسة الحرية .. إمكانية كانت أو احتمالية أو ضرورية ، والجانب الذى نسترشد به فى هذه الدراسة .. هو أنه ليس هناك حتم جغرافى ، ثمة فقط حسم جغرافى ، فالجغرافية عامل هام فى تفسير الحياة والحضارة والتاريخ فى مصر ، ولكنها بالتأكيد ليست العامل الوحيد ، فلا مكان فى العلم الاجتماعى للأحادية monism ، والكثير جدا من النظريات البيئية ليست فى الأساس جغرافية ، وإنما وضعها علماء آخرون من سائر العلوم الاجتماعية والإنسانية والطبيعية .

والجغرافية البشرية لمصر .. ومثلها الطبيعية .. لا تقتصر على الحاضر .. وإنما هى مضروبة فى الماضى ، فى تاريخها الطويل بمراحله المتعاقبة ، والجغرافية التاريخية تصل الحاضر بالماضى ، وتضيف إلى الجغرافية الراهنة جغرافيات

عديدة .. تتضاعف بها أعماقا وأبعادا وأعماقا ، وهى أكثر ما يسبر روح أى إقليم ويعبر عن جوهر كيانه ، ليس فقط بكشف الثوابث المتكررة أو المتغيرات فى سلوك الأقليم ودوره ، ولكن أيضا بالإحاطة والشمول الزمنى ، وليس صدفة أن أغلب من درسوا الشخصية الاقليمية من الجغرافيين - إنما دخلوها من الجغرافية التاريخية أساسا ، والملاحظ أن دراسة الجغرافية التاريخية لمصر .. بينما أبدت اهتماما معقولا بالجوانب الاقتصادية خاصة كالزراعة والرى والصناعة ، والاجتماعية إلى حد ما .. كالسكان والمدن ، أهملت الجوانب السياسية إلى حد بعيد ، وتضع دراستنا هذه الجانب السياسى من جغرافيتنا التاريخية فى البؤرة ، فهى تتبع نمو الدولة المصرية وأقليمها .. عبر العصور ، كما تعالج استراتيجياتها السياسية والعسكرية فى صراع القوى التاريخية من حولها ، مثلما أخضعت مراحل الصعود والسقوط ودورات المد والجزر التاريخية فى أقدارها ومصائرها .. لمقاييس وتكنيك الجغرافية السياسية المعاصرة ، وبهذا وبغيره ننسج على مدى فصول الكتاب شخصية مصر الجيوبوليتيكية والجيوستراتيجية .. منذ تبزغ فى البداية ، إلى أن تبرز لنا تامة النضج والأكتمال ..) .. شخصية مصر جـ ١ ، ص ص ٥٠ _ ٥٦ .



يقرر أن النظرية العامة التى يفسر بها شخصية مصر تستند إلى التفاعل بين بعدين أساسيين فى كيانها ، وهما

الموضع Site والموقع Situation (جـ ١ ، ص ٣٥) ومن ثم فإنها بالدرجة الأولى نظرية مكانية ، ويعنى الموضع البيئة بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها ، أى البيئة النهرية الفيضية بطبيعتها الخاصة ، وجسم الوادى بشكله وتركيبه ، أو كما يقول أحمد فخرى بحق فى (مصر الفرعونية) .. "لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها" ، أما الموقع .. فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة إلى توزيعات الأرض والناس والانتاج حول مصر ، وتضبطه العلاقات المكانية التى تربطه بها ، الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة ، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة (جـ ١ ، ص ٣٥) .

وبعد أن يضع يده على هذا العصب الأس .. لا يتوقف عن تطبيقه .. متلمسا به طريقه - عبر عناصر شخصيتها جميعها ، طبيعية وبشرية واقتصادية وعمرانية وسياسية .. منفردة ومجتمعة ، ولكنه بداية يكشف عن التناقض بين هذين البعدين من حيث الأهمية .. حيث أن حجم الموضع لا يتكافأ دائما مع خطورة الموقع ، وبينما يدفع الأول إلى قدر من العزلة .. يدعو الثانى إلى فيض من الاحتكاك ، ولكنه تناقض يفضى إلى التكامل أيضا ، وبصيغة رياضية فإن معادلة القوة فى شخصية مصر هى (الموقع × الموضع) جـ ٢ ص ٦٩٣ ، وبمعنى آخر فإن توظيف إيجابياتهما يحول التناقض إلى تناسق ، ويفجر مكامن القوة ، مستدلا على ذلك بمتابعة مراحلها الحضارية ، هذه التى تثبت ذبذباتها بين

سموق إلى حد الأمبراطورية .. وهبوط إلى حد المستعمرة .. حقيقة التكامل بينهما ، فحين تـزدهر مصـر داخليا (الموضع) .. يصبح الموقع محميا .. ويصب موارده فى بنيتها ، وتطفر مصر كقوة إقليمية ، أما إذا ضعفت بنيتها .. تدافعت القوى إليها .. لتسيطر على الموقع ومن ثم الموضع بعده ، وبهذه الفرضية يفسر تاريخها ، ومن ثم يقرر بأن كيان مصر ومصيرها .. وظيفة مباشرة للعلاقة المتغيرة بين قوتها كموضع وقيمتها كموقع ، ذلك مفتاح الماضى مثلما هو دليل المستقبل (جـ ٢ ص ٦٩٣) .

وتتمحور مواردها الموضعية فى نيلها .. مائيته وتربته ، ثم بالتالى فى الزراعة وانتاجها ، وفى سهولة سطحها عامة .. هذه التى جعلت من موضعها (السهل الممتنع) ، وفى الموارد المعدنية لصحراواتها ، خاصة بترولها وفوسفاتها ، وفى مناخها .. الذى كيّف دورة محاصيلها ، وفى جبهاتها المائية .. بحرية وبحيرية ، وفى غير ذلك مما لم يستغل ..ولا يزال كامنا ، ومن موضعها تدفقت خصائص شخصيتها المتفردة ، يتصدرها التجانس (جـ ٢ ، ص ص ١٣ ، ٣٦٢) .. خاصية مستمرة فى طبيعتها (ص ص ١٣ - ٥٨) ، واقتصادها (ص ص ٥٩ - ١٦٥) ، وعمرانها (ص ص ١٦٦ - ٢١١) وحضارتها (ص ص ٢١٢ - ٢٥٤) وسكانها (ص ص ٢٥٥ - ٣٦٢) ، متبعا ذات مناهجه التاريخية والأيكولوجية والاحصائية .. فى إثبات ظواهره .. فى هذه المجالات جميعها ، ومن بعده يأتى "التكاثف" .. أو

ما يعبر عنه بالكثافة المكثفة .. حتى لتبدو مصر كأنبوبة مغلقة .. مكتظة بالعمران والبشر ، ولكنه تكاثف يرتبط بالنيل وحده .. منفصلا عن بقية مصر بحدود قاطعة بمثابة تنويعة شديدة العمق .. فوق سطح التجانس مرتبطة بمائيته ، أو هو لحن منفرد .. متميز بتجانسه الداخلى ، مرتبط بالصحراوات التى تحيطه .. ارتباط اليرقة بشرنقتها ، فى علاقة تكاملية تفاضلية معا ، تكاملية بحكم حاجاته الدفاعية .. بما يكفل استمراريته ، وتفاضلية .. بحكم جاذبية النيل بالقياس للصحراء الطاردة ، ولكن للصحراء امكاناتها الكامنة .. التى قد تؤدى إلى التوازن يوما .. أو على الأقل بالتخفيف من كثافة النهر المكثفة ، وبعدهما (التجانس + التكاثف) .. تأتى "الوحدة" .. خاصية ثالثة ، يدل عليها وحدة التاريخ والثقافة والدولة المركزية المبكرة ، وحدة قلما انفرطت أو قسمت ، تبلغ أعماقها فى شخصية المصرى .. بسيكولوجيته وسلوكياته المحددة ، وهى وحدة تأطرت بمركزية موضعية وسياسية صارمة ، فرضتها ضرورات الرى .. وتجسدت فى العاصمة ..، وتورمت ببيروقراطية متشعبة .. يعلوها الفرعون على طول عصورها (جـ ٤ ص ٢٧٠) .

وتتمثل مواردها الموقعية .. فى توسطها الفلكى والجغرافى على مستوى القارات والأقاليم المجاورة ، وبالتالى أهميتها لخطوط الحركة التجارية طوال عصورها ، هذه التى ترمز لها قناة السويس فى هذه المرحلة ، وفى إطلالها على البحرين المتوسط والأحمر معا ، وفى نيلها الذى يشق صاعدا إلى قلب

افريقية .. وإن تفاوتت سهولة الملاحة بين قطاعاته ، وفوق ذلك توسطها الحضارى والثقافى بين أوربا وأفريقية والعرب ، ومنه ـ الموقع ـ انبثقت مجموعة من خصائص شخصيتها المركبة ، يتصدرها "التوسط" كما سبق تحديده ، بكل تداعياته السياسية والثقافية والنفسية معا ، وبعده "تعدد أبعادها" .. خليط من الأفريقية والأوربية والآسيوية معا ، جوهرها العربية .. التى تفاعلت معها جميعا .. لتكون روحها ، فإذا كانت الثلاثة الأولى أبعادا موجهة .. فالعربية هى الوجهة والوجه معا ، ومن بعدهما (التوسط + تعدد الأبعاد) .. تأتى الخاصية الثالثة .. الاعتدال .. تجسيدا لملكة الحد الأوسط عند شعبها ، وبها يفسر استمراريتها عبر هذه القرون المتطاولة ، خاصية مدعمة بقدرة إسفنجية فائقة .. على امتصاص الثقافات الأخرى وتمصيرها ، تؤكد تجانسها المستند إلى النيل كمحرر للاستقرار والسكن ، وإلى الصحراء الحامية .

ومن تدامج الموقع والموضع فى شخصيتها .. نبعت بعض سماتها ، وبها يفسر "الانقطاع فى استمرارية ثقافتها .. كظاهرة تكررت فى تاريخها .. خاصة من الفرعونية إلى العربية .. كأبرز الأمثلة ، هذه التى يعود بها أيضا إلى تعدد أبعادها ، وإلى ضعف موضعها عن الدفاع عن موقعها غالبا ، ومع ذلك فإن الاستمرارية تبقى سارية .. وإن تغيرت أطرها ، هذه بعض خيوط نظريته عن تأثير "الموضع والموقع" .. فى شخصية مصر .. باعتبارها محور متنه .

● (.. ليس سهلا أن نركز الشخصية الاقليمية فى معادلة موجزة لاسيما إذا كانت غنية خصبة كشخصية مصر ، فمصر وإن كانت جزيرة صحراوية بالموضع ، فإنها بالموقع إقليم مرور وعبور ، فى قلب الدنيا وعلى ناصية كل التيارات الحضارية والثقافية ، إنها برج أو مرصد ـ يغطى العالم القديم برمته ، ولهذا فلم تملك مصر أن تنعزل قط عن تيارات التاريخ وحركات الحضارة ، ونحن نستطيع أن نرى التناسق الدقيق بين أثر الموقع والموضع فى مصر ، بما جعل منها منطقة اتصال Zone of Junction ومنطقة انفصال disjunction فى الوقت نفسه ، وبالتالى منطقة توصيل وتأصيل معا ، ومن هنا حيويتها التاريخية وبقاؤها ، إن هذا التناسق الدقيق هو مفتاح جوهرى لشخصية مصر التاريخية ، وبه نستطيع أن نحلل كيانها الحضارى .. ما كان منه وما سيكون .

وسواء من حيث الموضع أو الموقع تحتل مصر مكانا وسطا ، وسطا بين خطوط الطول والعرض ، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الإنتاج ، بين القارات والمحيطات ، وحتى بين الأجناس والسلالات والحضارات والثقافات ، بل يمكن القول أن هذا التوسط هو مصر نفسها ، فالشعور العام ـ أكثر مما يقول لا بلاش عن فرنسا ، هو الشعور بمتوسط ، تمتزج فيه الصفات المتباينة فى سلسلة شديدة التدرج (جـ ٤ ، ص ٤٨٢) .

والتجانس الطبيعى صفة جوهرية فى البيئة المصرية ، فالوادى كله وحدة فيضية ، أرضه من تشكيل مائه .. مثلما هى من صنعه وصلبه ، فالنهر هو بانى واديه الوحيد ، والضابط الأساسى لشكل اللاندسكيب الطبيعى ، ولهذا فإن النيل يمنح أرض مصر من التجانس بقدر ما يسيطر على حياتها ، ومن الناحية الأخرى يقرر بيرجرن Berg- gern "مصر بلد مفارقات طبيعية درامية" .. ولا تناقض ، فمصر تتألف من بيئتين أساسيتين هما الصحراء والوادى ، وإذا كان من الجغرافيين الألمان من يميز بين الأقاليم ذات النغمة الثلاثية drieklang والثنائية Zweik lang فإن مصر بهذا المعنى من الأقاليم ذات النغمة الثنائية ، ومع ذلك فإن هذه الثنائية تترك مكانها فى الحقيقة لأحادية مطلقة ، إذا نحن اعتبرنا الحياة فى مصر .. أى مصر المعمورة ، وفى استطاعتنا إذن أن نعد مصر الفعالة بيئة أحادية بمعنى الكلمة ، ذات نغمة واحدة einklang .. النيل والنيل وحده ضابط إيقاعها .

والتدرج قانون التجانس المكمل ، أو فلنقل إنه التجانس فى تدرج ، أو التدرج داخل التجانس ، ويترتب على هذا أن التغير لا يتراكم حتى يتبلور .. فى فروق محسوسة بدرجة أو بأخرى .. إلا فى أقصى الطرفين من مصر فقط .. وهكذا نعود فنجد أن كل شىء فى مصر الوادى والصحراء .. لا يتغير إلا عند أطرافه القصوى ، ليس فقط فى النواحى الطبيعية بل والبشرية أيضا ، وإذا جاز إطلاقا أن نتحدث عن قطبين

متنافرين فى اللاندسكيب المصرى ، فهما تجاوزا القطبان الشمالى والجنوبى .. فى برارى الدلتا وفى النوبة السفلى ، ومع ذلك فليس الأمر تنافرا ينقض مبدأ التجانس القاعدى ، بقدر ما هو اختلاف إقليمى ثانوى الدرجة ، ويظل الجسم الأساسى من مصر والتجانس جوهره والتدرج مظهره (جـ ٢ ص ١٤) .

ومن التجانس إلى الوحدة .. فمنذ فجر التاريخ بزغت مصر كشعب واحد تجمعه وطنية فى وطن واحد على شكل دولة أحادية ، وراءها تكمن عوامل التبلور الجغرافى ، ووحدة البيئة الطبيعية والوظيفية والتجانس الأرضى والجنسى والبشرى ، والبيئة الأحادية عادة نقطة قوة فى كيان الدولة السياسى .. ولكنها كذلك يمكن أن تكون سلاحا ذا حدين .. إذا اعتبرنا أيضا أنها قد تحد نسبيا من تنوع الموارد الطبيعية ، وتجعل الأساس الطبيعى للدولة ضيق القاعدة أحادى الجانب ، خاصة أن الوحدة تفضى إلى المركزية .. بقوة المركزية الجغرافية والوحدة الوظيفية وطبيعة الرى فى البيئة الزراعية الفيضية ، بما يؤدى إلى تعدد وجوهها .. ومن ثم أصبحت "المركزية ، الحكومة ، البيروقراطية ، العاصمة" .. أطرافا أربعة .. لمشكلة مزمنة متوطنة فى مصر .

لا عجب أن يأتى الغطاء البشرى من عمران وسكان أشبه بإرسابات بشرية سميكة متضاغطة .. لا تعرف التخلخل أو الفجوات ، ومنذ فجر التاريخ تبدو مصر الوادى مكدسة كغابة

متراصة من البشر فى أرخبيل غاص بالحلات والقرى والمدن ، وفى داخل هذه البيئة .. يبدو كل شىء مكثفا إلى أقصى حد ، مضغوطا متضاغطا على نفسه بشدة ، ابتداءً من التضاريس نفسها إلى السكان .. مرورا بالتربة والمائية والسكن والزراعة ، فالزراعة المصرية من أكثف الزراعات فى العالم تقليديا ، إن الزراعة المصرية كانت دائما أقرب إلى فلاحة البساتين ، والفلاح المصرى بستانى محاصيل حقل وإن لم يكن صاحب أشجار مثمرة بصفة خاصة (جـ ١ ص ص ٣٣ ـ ٤٣) .

وبالنسبة للموقع .. تتبدى لنا فى المحصلة العامة أبعادا أربعة فى توجيه مصر ، الأسيوى والأفريقى على مستوى القارات ، والنيلى المتوسطى على المستوى الإقليمى ، على أن الكل يتداخل فى الاطار العربى الكبير ، بيد أن الإطار العربى ليس مجرد بعد توجيهى ، إنما هو خامة الجسم وكيان الجوهر ذاته ، هو الجسم حيث الأبعاد هى الأطراف ، هو الوجه وهى الوجهة ، هى الهوية وهو هوائيات الإرسال والاستقبال ، بوضوح أكثر .. العروبة وجود .. ولكن الأبعاد توجيه ، إن تكون الأبعاد هى اتجاهات البوصلة .. فإن الأساس العربى هو جسم البوصلة ذاته ..) (جـ ٤ ص ٤٠٠) .



من موقع العروبة فى عقله وقلبه .. أراد أن يطهر عمله مما قد ينسب إليه دعوى إعلاء الإقليمية الضيقة .. على حساب

القومية الشاملة ، أو أن يتخذ منه البعض أداة لترويج ما يرفضه .. من أفكار التعصب والشوفينية المتحيزة ، مقدما مقولته الأساسية بهذا الشأن .. (بأن على القومية أن تحترم الوطنية وتقر بها ، بمثل ما أن على الوطنية أن تعترف بالقومية وتقربها) .. وبذا يعقد صلحا فكريا .. ينطلق لما بعده ، فالوطنية والقومية ثنائية متكاملة .. لا تناقض بالضرورة بينهما .. يدلل على ذلك بالتاريخ والجغرافية معا ، فالتاريخ المشترك .. ينطوى على تنويعاته .. التى تخص كل بلد على حدة ، واللغة الواحدة تتضمن لهجاتها المحلية الخاصة بكل منطقة ، وهناك داخل الوطن الواحد .. العديد من الاختلافات بين وحداته المتجاورة ، ولكن القاعدة الثقافية تتشرب ذلك كله وتستوعبه .. وتتغذى به ، وليس الاقليم فى الجغرافية بمثل معناه الدارج المقترن بالانفصالية وحدها ، وإنما هو مصطلح منهجى ، يسهل للعلم تحقيق مقاصده ، وإذا كان الإقليم من هذه الزاوية ـ يعنى منطقة متجانسة ، فإنه من الزاوية القومية .. يعنى العالم العربى بأكمله ، فالتجانس هنا .. كما يعنى التقارب .. فإنه يتضمن التكامل فى جوهره ، ومن شأن التكامل أن يلاشى النتواءات المحلية ويجمع بينها ، ليست المسألة إذن تضادا بين الوطنية والقومية مطلقا ، وإن المشكلة فى نظم الحكم القائمة .. وكل لبيب بالإشارة يفهم .. على حد قوله (جـ ٤ ص ٦٣١) .. وانعدام الرؤية العامة للمصلحة ، عدا ما يمكن أن تدسها القوى الأجنبية المناوئة .. من جراثيم التفرقة ، ثم هو يوضح بأن اختيار مصر موضوعا

لكتابه .. كان ضرورة مطلقة ، دون أن يعنى ذلك أن كتابه عنها يفصلها عن شقيقاتها ، بل إنه يتضمن الصفحات تلو الصفحات .. عن انتمائها ، كما خصص بابه الأخير عنها وعن العرب ، بل إنه ينوى أن يصدر مثله .. إن طال عمره .. عن كل بلد عربى مثلها ، بل إنه قد بدأ بشخصية الشام عموما .. وسوريا الحبيبة خاصة (جـ ١ ص ٢٥) .

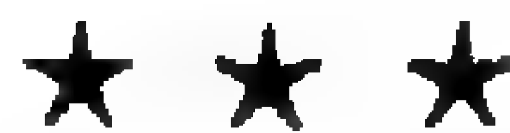
● (فرعونية هى بالجد .. لكنها عربية بالأب ، غير أن كلا الأب والجد من أصل مشترك ومن جد أعلى واحد ، فعلاقات القرابة والنسب متبادلة ، وما كان الإسلام والتعريب إلا إعادة توكيد وتكثيف وتقريب ، ولهذا فإن التعريب .. وإن كان أهم وأخطر انقطاع فى الاستمرارية المصرية ، إلا أنه لا يمثل ازدواجية بل ثنائية ، فلا تعارض ولا استقطاب بين المصرية والعربية ، وإنما هما اللحمة والسداة فى نسيج قومى واحد .

ومنذ آلت إليها زعامة العالم العربى ، أصبحت مصر خير تصغير وتكبير له ، خير تصغير .. لأنها الوحيدة التى تتمثل فيها معظم العناصر الجنسية والجاليات الوطنية من جميع الشعوب والأقطار العربية تقريبا ، وخير تكبير لأنها بالحجم والموقع هى الرأس والقلب وضابط الإيقاع ، إنها فى العالم العربى كالقاهرة فى مصر نفسها ، أم العرب أكثر منها ابنتهم ، إنها العالم العربى لا ظله ، ومرآة مكبرة بالتحديد.. فيها يستطيع أن يرى صورته المستقبلية .

ذلك أنه كما تم تعريب مصر قديما فى عصر الإسلام ،

فإننا نشهد تحت أعيننا بداية عملية تمصير العرب فى عصر البترول ، وهذه العملية الهادئة البطيئة السارية .. تتم من خلال شبكة العلاقات والمصالح الجديدة المتلاحمة عموما ، والوجود المصرى الذى لأول مرة توزع وانتشر فى ربوع الوطن الكبير خصوصا ، والواقع أن مصير العرب مصرى حضاريا ، كما أن مصير مصر عربى سياسيا ، ومصر لا مستقبل عالمى لها خارج العرب .

ومصر بالذات محكوم عليها بالعروبة والزعامة ، ولكن أيضا بتحرير فلسطين ، ولقد خلق البترول العربى نمطا جديدا .. وإن يكن ثانويا ومؤقتا .. من توازن القوى السياسية داخل العالم العربى ، وهذا الاختلال أثار وعرى كل كومن الحساسية الوطنية بين العرب ، حتى ليوشك أن يكون عامل تفريق وتمزيق لهم .. بعد أن كانت مأساة فلسطين عامل تجميعهم .. (شخصية مصر ، جـ ١ ، ص ص ٤٥ ـ ٤٦) .



يستهل عمله منهجيا وموضوعيا بالأرض ، منهجيا لأنها بداية الخيط ، وموضوعيا لأنها هيكل الشخصية وعظامها الفقرية .. تكتسى بعد ذلك باللحم (الجغرافية البشرية) وبالشحم (الجغرافية الاقتصادية) . بما يحقق رؤيته الأساسية للمكان ككائن حى ، وكدأبه .. يمهد بالصور العامة .. أشبه بنظرة الطائر eye's bird view من عل .. ولكن بعيون الصقر ، يلتقط عناصرها البارزة .. ويحولها إلى

صورة فى الذهن ، ثم يخلصها من سكونها وجمودها Moving geog .. بتوجهه إلى كشف ديناميتها على مستويين ، يظهر أولهما فى متابعة العملية Process التى أدت إليها ـ باعتبار أن حالتها الراهنة ليست سوى مرحلة Stage من مراحل وجودها ، ويتمثل ثانيهما فى تحديد علاقاتها بغيرها .. باعتبارها جزءا من كل ، وبذا يبعث فيها حياة من نوع خاص .. يهدف إليه ، فالجغرافية الطبيعية ليست عنده سردا تقريريا .. أو وصفا شكليا فحسب ، بل علاقات تبادلية ونمو طبيعى ، وما المنظور الطبيعى .. كما يطلق عليه .. سوى صفحة مفتوحة من كتاب مطوى ، تسبقها صفحات بمقدار التاريخ الجيولوجى ، وتمهد بذاتها لصفحات تالية بلا عد ، وهو لا يبدأ فى تنميط Typology ظواهره إلا بعد أن تتخلق أمامه فى تدفقها الحى ، تنميطا لا يلغى تفردها Suigeneyis, unique الذاتى الداخلى ، مستجيبا بالتنميط لأهداف العلم .. ومحققا بالتفرد .. حرفة الجغرافى المساح فى الأصل ، ومشبعا فى الحالتين قدرته على التفلسف والمسح ، ثم يرضى بعد ذلك هدفه النهائى ، باعتصار روح المكان فى معادلة مبتكرة .. يستقطر فيها خلاصة القول ، جامعا بينها وما سبقها من معادلات .. وواصلا بينها وما بعدها منها .. فى بناء تركيبى ، طامحا إلى هذه المعادلة الشاملة الأحادية الحاكمة .. أو النظرية العامة كإطار فكرى .

● (.. لقد ألفنا أن ننظر إلى صفحة مصر .. على أنها تتألف من عنصرين طبيعيين أساسيين .. هما النهر

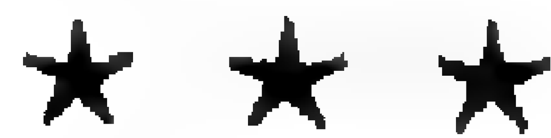
والصحراء ، ولكن البحر بالتأكيد عنصر ثالث .. بعد ثالث ، يكمل صورة مصر الجغرافية ، ولا يمكن لهذا أن تفهم بدونه ولهذا فلابد لأى تحليل متكامل أن يأخذ فى اعتباره هذه الثلاثية من الخطوط الطبيعية .. النهر ، الصحراء ، البحر ، وعلى الفور يبدو قدر من النظام والترتيب أو الإيقاع والتوازن العريض ، قدر من التناظر الهندسى العام باختصار ، فى كل واحد من عناصر تلك الثلاثية ، فالتناظر إذن هو القاسم المشترك ، والنغمة الأساسية فى صورة مصر الجغرافية

وجه مصر مربع منتظم ، أو قل إن جسمها ربعة مكتنز يمكن الالمام بها بسهولة تامة .. مصر مربع مليونى ، يحتل الركن الشمالى الشرقى من إفريقية ، مربع ذو زوايا أربع قوائم .. أو أشباه قوائم هندسيا ، وطول كل ضلع نحو ١٠٠٠ كم نظريا ، أما واقعيا وبالطبع .. فإنه يختلف قليلا أو كثيرا ، أساسا بسبب ميل ساحل البحر الأحمر بالدقة عن الخط العمودى وانحرافه عن الزاوية القائمة ، والنتيجة المثيرة لهذا الاختلاف النسبى .. أننا نجد أن أقصى عرض مصر أكبر من أقصى طولها ، فالأخير من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب يبلغ ١٠٧٣ كم ، مقابل ١٢٢٦ كم للأول من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب .

وداخل هذا الإطار .. يسيطر على خطوط التضاريس الكبرى محوران أساسيان ، يبدوان وكأنهما احداثيا مصر .. المحور الطولى والمحور العرضى ، أو محور البحر الأحمر ومحور البحر المتوسط ، ومن تقاطع وتعاقد هذين المحورين

الفقريين .. تبرز شبكة مركبة من الاحداثيات الثانويا والثالثة ، تغطى وجه مصر ، وتضبط ايقاع معظم معالم وملامح "اللاندسكيب" فى تناغم موحد ، وتمنحه خطة مهندسة بالطبيعة ، ولكنها مبسطة بالضرورة ، مما يؤكد البساطة الكامنة فى صورة مصر الجغرافية جميعا ، ومحور البحر الأحمر بين الاثنين هو الإحداثى الطاغى الغلاب خارج كل مقارنة ، فهو حاكم الخطوط الرئيسية ، بينما يحدد المحور المتوسطى الخطوط الثانوية نسبيا .

والنتيجة النهائية هى أنه فى كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة (النهر ، البحر ، الصحراء) تأتى الاختلافات فى الدرجة الثانية من الأهمية ، أو قل فى الدرجة أكثر منها فى النوع ، بينما تظل الوحدة الأساسية هى القاعدة الأصولية ..) شخصية مصر ، ص ص ٢٢٣ ـ ٢٣٦ .



إذا كان من السهل نسبيا .. تحديد خصائص مصر من الناحية الطبيعية .. وصياغتها فى مجموعة من المعادلات والتناظرات المبسطة ، فليس الأمر كذلك بالنسبة لخصائصها البشرية .. المتراكمة والمتضاغطة .. عبر تاريخها الممتد وهو يملح فى عبابها .. مبتدئا بسكانها .. ومستندا إلى تعداداتها الدورية المسجلة (١٨٨٢ ـ ١٩٧٦) ، ومهتديا بما ورد فى تاريخها المدون .. بطول عصورها ، مطبقا مناهج جغرافية السكان الممتدة بحذافيرها ، يحاول دائماً

استخلاص ما يتاح من قواعد التوزيع وضوابطه ، وقوى الحركة والنمو الظاهرة والباطنة ، وجذور مشكلاتها المعقدة .

ويدل على اهتمامه أنه يخصص لدراسة السكان فصلين من مشروعه ، فى ٢٥٠ صفحة .. بما يكون كتابا بذاته ، فضلا عما يرد ضمنا فى غيرها من فصوله اللاحقة ، وتعكس عناوينها الداخلية ـ أى بناؤها ـ رؤيته الخاصة كدأبه ، فهو لا يشبع مقتضيات المناهج وحدها .. وإنما يدمجها بمقولاته التى تضيف لها .. بمثل ما تضيف الأشجار الظل إلى الطرق المعبدة ، فتحت عنوان "كثافة بلا هجرة" .. يدرس تغيرات خريطة مصر السكانية عبر تاريخها ، فالمنهج التاريخى هنا بمثابة الطريق المعبدة ، تظلله مقولته أو عنوانه ، متوصلا إلى أن ما تختلف به مصر وتنفرد .. إنما هى كثافتها ونمط توزيعها ، وتحت عنوان فلسفة الخط المنحنى .. يضع فى نقاط عشر قواعد النمو وضوابطه ، مثبتا خضوع تاريخها السكانى لفكرة الدورة Cyclic محددا ثوابتها ومتغيراتها ، ومشيرا إلى ذبذباتها ، فضلا عن ضوابطها الحيوية والاقتصادية وغيرها ، وتحت عنوان "سكان مصر فى عالم متمدد .. يخوض غمار المقارنات بين مصر وغيرها ، بل وبين مصر ونفسها فى مراحل تاريخها ، متواصلا إلى ما أسماه بـ "الثورة الديموجرافية" .. التى تفجرت بها بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وتضاعفت بها من نحو ٣ ملايين إلى ٤٦ مليونا (١٩٨٣) .. أى بمعدل مرة كل عشر سنوات تقريبا .. تبعا لحساباته ، وهو يقسمها إلى مراحل دالة .. يسمى كل

منها تسمية مبتكرة .. من صياغته ، منتهيا إلى فرضية "سلم النمو المتصاعد .. بمثابة قانون يشمل المراحل كلها ، متوقعا زيادة قدرها مليونا كاملا كل نصف سنة" (جـ ٤، ص ٥١) .. مع نهاية هذا العقد الذى نعيشه .

وتحت عنوان "قوى النمو" .. يدرس الزيادة الطبيعية دراسة مفصلة ، متتبعا عواملها الحيوية (المواليد + الوفيات) ، ومثريا لها بوجهات النظر البيئية والاجتماعية والبيولوجية .. وغيرها ، ومتخذا من الزوايا الاقتصادية مؤشرات لها ، يفسر بها تفاوتها بين المستويات المعيشية .. فى الريف والحضر ، متوصلا إلى نتيجة بارزة .. بأنه كلما ارتفع مستوى المعيشة والتعليم والطبقة الاجتماعية .. قل حجم الأسرة مع تناقض معدل مواليدها ، وهى بمثابة قاعدة هادية .. لما يطرح على المجتمع من دعاوى ضبط النسل .. إعلاميا فقط ، ثم هو ينتقل بعدها إلى دراسة تركيب السكان .. من زواياه جميعا ، النوع والعمر والنشاط الاقتصادى .. والوظيفى وغيرها ، واضعا الخطوط تحت نتائجه ، فالتركيب العمرى يعانى من اختلال نسبة الإعالة Dependency. R. بين العائلين من فئات العمر المنتجة .. وعيالهم المقدرين بنحو ثلثى المجتمع ، وبهذا المؤشر الدال القاطع .. يظهر الهرم التركيبى مختلا بأكمله .

ويعود للكثافة .. حجر الزاوية ، ويرى مصر مثل زجاجة مغلقة إلى عنقها .. مسدودة فى الوادى ومصندقة

emboilee ، ويتابع تطورات كثافتها بتطبيق فرضيته عن "آلية السلم الصاعد" .. وقياسها حسابيا وزراعيا واقتصاديا ـ تبعا لجداول التعدادات .. والتقديرات قبل اجرائها محددا بأنها أكثف الدول الزراعية على إطلاقها ، ويستغرقه البحث فى دواعى الكثافة وضوابطها .. هذه التى تتمثل فى نمط الزراعة الكثيفة وتركيبها المحصولى .. والمستوى المعيشى المتجذر فى الريف والقرى ، وما يقترن بكل ذلك من التقاليد الموروثة السائدة ، وتأخذه الكثافة إلى الهجرة الداخلية والخارجية .. بمستوياتها ، هذه التى يخصص لها الفصل الثاني من دراسته السكانية بأكمله .

ويعود فيطبق المنهج التاريخى على الهجرة .. كظاهرة معقدة ، ولكن ليس قبل وضع معادلتها التى تظلل منهجه ، معادلة ثلاثية الحدود قوامها (.. كثافة الهجرة الداخلة + ضعف الهجرة الخارجة + قوة الهجرة الداخلية ..) ، ويتابع شقها الأول .. ويفسره بالفراغات المكانية الهامشية الجاذبية .. وبانصراف المصريين عن بعض الحرف .. وإن كانت قد انقلبت مؤخرا .. بالخروج المصرى للدول المجاورة .. فأصبح فى معظمها "مصر صغيرة" .. بين سكانها ، كما يتابع الهجرة الخارجة .. نافيا الفكرة الشائعة عن المصرى بأنه نبات بشرى أو مخلوق نهرى immobile جامعا الأدلة حول انتشارهم .. تحت ظروف معينة ، ومصنفا الانقلاب الهجرى الأخير نحو الخارج .. إلى ثلاث مراحل (جنينية ، تكوينية ، انفجارية) ، ومحللا نوعياتها بين

الحرفيين وإلى الياقات البيضاء White Collrs من المثقفين وغيرهم ، مفتقد الأرقام الرسمية اللازمة .. لتوثيق هذه التيارات كميا ونوعيا معا ، فجميع جداوله تقديرية .. لا تلبى أهدافه فى الإحاطة بها ، ثم يتساءل تحت عنوان ميزان الهجرة (جـ ٤ ، ص ١٦٩) عن وزن قوة العمل المصرية بين القوى الأجنبية العاملة فى العالم العربى عامة .. ومنطقة الخليج خاصة ، مدققا وراء المد الآسيوى المنافس من الهنود والكوريين وإخوانهم ، خاصة بعدما تعادلت نسبتهم العاملة مع جملة العرب .. متضمنة العمالة المصرية ذاتها ، وراصدا ما أدت إليه المنافسة .. وزيادة العرض على الطلب .. إلى انهيار سلم الأجور بدرجة مخزية ، وتحت عنوان "تقييم وتقويم" (ص ١٧٦ ، جـ ٤) يناقش احتمالات المستقبل .. التى قد يكون مفيدا .. إيراد مقتبس منها .. يعكس رؤيته ، بعد انتهاء استعراض مكونات فصلى السكان من دراسته .

ويفرغ بعد "الهجرة" .. لقضية السكان فى مصر .. أو المشكلة ، محددا أبعادها فى سباق السكان والموارد .. الذى انتهى إلى اختلال خطير فى شتى جوانبه ، متمثلا فى انخفاض ما يخص الفرد من الأرض والمساحة المحصولية والدخل والكفاية الغذائية وغيرها ، متخذا من العمالة والبطالة مؤشرا لا تخطىء دلالته ، وفى الزحف الريفى إلى حد تورم المدن ، وفى تضخم العاملين فى المجالات غير المنتجة .. أو تكوين دولة الموظفين حسب تسميته (ص ٢٠٧) ، مصورا حلولها المطروحة .. بأنها سياسات الصعود إلى الهاوية ..

حيث يؤدى حل المشكلة إلى أكثر من مشكلة ، منتهيا إلى تقديم حلوله الأربعة .. (إعادة توزيع الدخل + زيادة الدخل القومى + تنظيم الهجرة + ضبط النسل) .. فهذه خلاصة رؤيته .

● (.. لمصر أطول تاريخ سكانى معروف أو مسجل ، تاريخ مفعم بقدر ماهو مطول ، زاخر بالتقلبات والذبذبات الكمية والنوعية ، حافل بالتجارب والسياسات السكانية المخططة والعفوية ، وذلك بحق يجعل مصر صاحبة أطول تجربة سكانية فى العالم ، بل معمل تجارب ديموجرافى تاريخى ، ولكنه حى سابق غير مسبوق ، ولا مثيل له فى عالم أو علم السكان على الأرجح .

على أن مصر طوال هذه التجربة الثرية .. لم تكن بدار هجرة وحركة بدرجة مذكورة ، بل دار استقرار وإقامة أساسا ، على أنها قبل ذلك وبعده .. كانت دار كثافة فى الدرجة الأولى ، فكانت بذلك على الدوام مزرعة سكانية بالغة التكثيف والتزاحم ، تبدو بيئتها المائية ورقعتها الضئيلة وسط اللامعمور الصحراوى الشاسع .. أشبه بصوبة زجاجية من الزراعة .. إلا أنها صوبة طبيعية وزراعة بشرية .

وفى الوقت الحالى .. فإن ما تتميز به مصر وتتفرد سكانيا .. ليس هو بصفة خاصة تركيبها الديموجرافى .. بمعنى هيكل السكان من حيث الخصائص ، ولا حتى مشكلتها السكانية على خطرها ، ففى هذا لا تكاد تخرج صورة مصر

عن نمط دول العالم الثالث النامية ، الانتقالية حضاريا بين التخلف والتقدم ، والانتقالية ديموجرافيا من المرحلة البدائية فى النمو إلى المرحلة الناضجة ، وإنما تنفرد مصر سكانيا فى باب الكثافة ونمطها الجغرافى ، ذلك الذى بات اليوم أشد وزنا وتضاغطا منه فى أى وقت مضى ، ولم يعد لها مثيل فى العالم المعاصر ، وعلى هذا فإذا كان هناك عنصر واحد أو أكثر . يمنح مصر المعاصرة شخصيتها الديموجرافية المميزة ، فليس ذلك ديموجرافيتها التركيبية بالمعنى الضيق ، وإنما بالدقة تاريخها الديموجرافى فى جانب . وجغرافيتها السكانية الفريدة فى الجانب الآخر ، ولعل فى هذه المتناقضة يكمن صميم شخصية مصر السكانية ..) شخصية مصر (جـ ٤ ، ص ١٣ ، ١٤)



تشعر به مستمتعا وهو يكتب ، متعة فنية بغض النظر عن أهمية القضية ، متعة مبعثها اندماجه فيما يعرض .. وحرصه على النفاذ إلى روحه ولبه ، يقلبه على شتى الأوجه .. ويتحسسه أولا ثم يتعمق ، يتلمس سياقه - ثم يستطعم ، وينهض إلى مراجعه وثبا ، كل تفصيلة تهمه وكل ثنية - يدس أصابعه ويستخرجها ، يعرى ويكشف فى جرأة .. ولا يتورع أمام الحقيقة أو يغمض ، رصيده كلماته .. ومنبع كلماته فكره ، وسخونة صياغاته مبعثها عاطفته ، يتقد عقله ثم قلبه .. وتسرى الحرارة فى كيانه .. ولا تتوقف ، تعادل الكلمة موضوعه .. لا تحيد عنه .. فيصدق ويصدق ، لا يكل ولا

يهمد .. فى كل وقت يفكر ، مشغول فى كل لحظة .. وغير مستعجل .. لا يرضى ولا يقنع .. ولا ينتظر شكرا ، تصخب الفكرة فى رأسه .. وتصيبه بدوار مسكر ؛ يمسك بها ولا يفلتها .. ويتأملها مثل جمرة ، ويستغرق .. حتى يصبح هو الفكرة ، يدق عليها بأزميله فتتفتت .. ويتشربها فتتحلل داخله .. وتختلط بغيرها .. وتنطوى حين يكتبها على جماع نفسه .

تنبعث متعته من التاريخ رأسا .. كل ظاهرة مهما تضخمت يبدأ معها من البذرة ، كاشفا عما يعبر عنه بالنبض والايقاع والحركة ، راصدا ومسجلا أدنى تغير ، رابطا بينه وما قبله وما بعده ، باحثا عما يسميه باللحن أو نغمة الأساس المستقرة ، وحين يمسكها .. لاينى عن تجريبها ، مؤكدا بالأدلة اتساقها وجدارتها بأن تفسر ، فيما يمكن تسميته بالتنويع الهارمونى على لحنه ، وأنغام الأساس عنده غالبا مكانية .. تضبط ما يظهر متناثرا مبعثرا دون وحدة ، ومنها نغمته الأساسية عن الموضع والموقع .. هذه التى تفسر العديد من جوانب شخصية مصر .. العمرانية والثقافية والسياسية ، وبعدها نغمة العزلة والتواصل والانتشار .. يطلقها فتضىء باطن الشخصية وتضاعيفها .. الحضارية والاجتماعية والنفسية ، وبعدها نغمة الندرة والوفرة .. يخلص بها المكان جموده ، ويستلخص دلالات الحركة البشرية فى الزمان والمكان .. بأبعادها ومستوياتها ، وحين يتوصل إلى قاعدة الاستمرار والانقطاع .. يدندن بها .. فتجاوبه أحداث

التاريخ بايقاعات القرار .. وتنطق وتبوح بما خفى فى الأعماق ، ومن قاعدة "عضوية المكان" .. تنبثق الحياة من التربة والصخور والحرارة والرياح وسلاسل الجبال ، وتفصح عن دورها الخاص ، وعن علاقاتها بغيرها . ومردوداتها فى شخصية الإقليم ، وحين يتحرك فوق قاعدة المجهرى Microcosm والكبير Macrocosm يكشف عن نسبية الوجود والتوزيع ، وأن أهمية المجهرى لا تقل عن أهمية الكبير ، ويتخذ من قاعدة التنوع فى إطار الوحدة Variaty Within Unity محورا ممتداً لدراسة الطبيعة والاقتصاد والسكان .. ومقياسا لتماسك المكان ، وما هذه سوى أنغام الأساس .. وهناك غيرها الكثير .

وتصل متعته العقلية والشعورية إلى ذروتها .. حين يعكف على نحت مصطلحاته المبتكرة التى تشيع فى سفره .. بما يصعب حصره ، مكونا بها ما يمكن تسميته بقاموسه الخاص ، بالمئات هى أو بالالاف . وفيما يلى بعضها داخل قوسين .. تدل على براعته كما تدل على متعته .. وقيمتها العلمية فائقة فى جميع الحالات .

(.. استراتيجية المناخ ، جيوب الاقليم ، تشريح القرية ، خطة بلا تخطيط ، انشطار القرى ، الامتصاص ضد التدفق ، ملكة الامتصاص ، أنبوب مغلق لا صندوق ، بروفيل مقارن ، من السبق الحضارى إلى التخلف ، سيناريو الزراعة ، اللاندسكيب السياسى ، الوحدة السيكولوجية ، المجتمع الهدرولوجى ، الديموكتاتورية ، من إمبراطورية إلى

مستعمرة ، السيولة السياسية ، تخلف الموضع عن الموقع ، خريطة الخطر ، نظرية جناية الموقع ، عبقرية الموقع ، انقلاب المواقع ، سباق حواجز التضاريس ، تناسق الماء والطمى ، بين الترشيح والتكثيف ، تراجيديا الفيضان ، بروفيل المجاعة ، النبض المناخى والسكانى ، النبض الهامشى ، بتر البدارى ، النبض الموجب ، منطق الطبيعة والشريعة الجغرافية ، الانقطاع الرأسى ، شخصية مصر التكاملية ، الاقتصاد الانقلابى ، مفارقات وانزلاقات ، الاعتدال المصرى ، بين الموارد والمواهب ، ثورة الغضب ، الثورة الصاخبة للأرز ، الثورة الصامتة للبساتين ، صراع المحاصيل ، ثنائيات المحاصيل ، من الكفاية إلى العجز ، المساحة المستوردة ، الأمريكى القصير ، الصراع بين الإنسان والحيوان ، تجريف المركب المحصولى ، قوارض الأرض ، الرمل ضد الطين ، الميت ضد الحى ، دستور الأرض ، القصة والقضية ، النبض والإيقاع ، التنوع والتركيز ، قرص دلتا خط الاستواء الصناعى ، نقطة الانعكاس ، أرضية بلا سقف ، رأس كاسح وجسم كسيح ، من الثروة إلى الثورة ، فلسفة الخط المنحنى ، خريطة الحياة وفرص الموت ، العد التصاعدى ، مركزية رغم الامتداد ، عقدية القاهرة .. الخاصرة والعنق والقمة والرأس ، الهرم الأكبر أم الورم الأكبر ، آفاق الزمان وأبعاد المكان ، تعدد الأبعاد ، قطب فى دائرة الحلقة السعيدة . ذبذبة البوصلة ، تعدد لا انفصام ، التوسط والاعتدال ، ملكة الحد الأوسط ، الاستمرارية والانقطاع ، الاستمرارية القاعدية ، الصورة

والظل ..)

هذه بعض حصيلة التصفح السريع للعناوين ، أما مابين العناوين .. فيحتاج إلى دراسة خاصة عن فنية نحت العبارات عند حمدان ، ولو رتبت ربما كشفت عن جانب من وظيفية الكتابة عنده والتى تجمع بين الإبداع والإمتاع ، ومزج المصطلحات من شتى العلوم ، بما يحقق قصده من التكثيف والتلخيص ، وصنع مفاتيح التحليل ، ويشيع الحيوية والاثارة عند عرض الموضوعات ، فقد أراده عملا يجمع بين المتعة والأصالة والخلق والجدة والابتكار (جـ ١ ، ص ٦) ، وفيما يلى مقتبس من جغرافية مصر الاقتصادية .. ربما يعكس جانبا مما ذكر .. وليس جميعه بطبيعة الحال .

(.. العائلة المحصولية :

من ثنائيات المحاصيل نتقدم منطقياً ونهائيا إلى الصورة الكاملة علاقات التوازن بين المحاصيل المختلفة ، داخل مركبها العام كوحدة واحدة ، وابتداء فمن الواضح أن صراع المحاصيل ليس علاقة تنافس وحسب ، بل تنافس وتعايش أيضا ، ليس مسألة تفاضل فقط ، بل تفاضيل وتكامل معا ، ومن هذه العلاقة الديالكتيكية المركبة ، يخرج المركب المحصولى كله وهو بناء متوازن بقدر ماهو حساس ، وهيكل متماسك أكثر مما هو متهالك ، وأخيرا وبالتالى وهو كائن عضوى أو متعضون لا ـ مجرد تركيبة آلية صماء .

وفى الواقع أو فى النتيجة .. فإن مركبنا المحصولى يأتى أشبه بمجتمع عائلة محصولية متكاملة ، سواء جاء التشبيه من مجتمع الإنسان أو مملكة الحيوان ، فإذا كنا قد أشرنا إلى البرسيم والذرة ، بكل ثقلهما الواثق كجيروسكوب الزراعة المصرية ، ووثوق خطوهما الساحق كبولدوزر هذه الزراعة ، وإذا كنا قد أشرنا إليهما كفيلى رهان ، فإن لك أن تقول كالفيل والحوت على الترتيب ، وفى هذه الحالة فإن "القطن" دينامو الزراعة المصرية ، هو بلاشك الأسد فى هذه العائلة الحيوانية ، حيث القمح المتحدى هو النمر ، والأرز المائى المتمدد هو التمساح .

على أن تشبيه العائلة البشرية قد يكون أقرب وأنسب ، فالقطن .. هو الرأس وسيد العائلة وعمودها الفقرى وقلبها النابض ، ليس فقط بدوره كركن الزاوية فى الدورة الزراعية ولكن أيضا لدوره فى الاقتصاد القومى والتجارة الخارجية ، برغم تناقص مساحته وشحوب أولويته .. فمازال القطن ملكا فى دولة الزراعة على الأقل .

الذرة والقمح ، بعد القطن ، هما الشقيقان الكبيران فى العائلة ، إلا أن الذرة بجسمه الأضخم ووزنه الأثقل ووظيفته كغذاء الفلاح .. هو أكبرهما سنا ، غير أنه ، كما يحدث عادة للأخ الأكبر فى الريف ، قنع منذ البداية بالإقامة فى قريته ليعمل فلاحاً فى الزراعة ، فى حين أن الأصغر سنا كان الأكثر

طموحاً وفرصة ، فرحل منذ الصغر إلى البندر ، حيث تغ
وتحضر وأصبح ابن المدينة ، أصبح غذاء سكان المدن

والقصب مع الخضراوات والفواكه هما الشقيقان الوس
في العائلة ، إن يكن الأول أصغرهما مساحة .. فهو أكبره
عمرا ، غير أنه في الأساس هو "الفتى المدلل enqant gote
في العائلة ، إن لم يكن الابن المسرف ، وذلك بما يستهلك م
مياه ، كأنما هو يتقاضى ثمن وسامته وحلاوة مذاقه السكري

أما الخضراوات والفواكه .. فلقد تكون بحداثتها النسبي
تاريخيا "آخر العنقود" ، إنها آخر الوافدين الجدد في عائل
المحاصيل المصرية ، ولكنها بسرعة أصبحت أكبر الصغار
أو أصغر الكبار .

وأخيرا يتمم نسل العائلة الكبيرة هذه .. رهط حاشد م
الأبناء والأطفال الصغار ، كالفول والعدس أو كالشعير
والكتان ، أو من التوائم الأقزام كالسوداني والسمسم .

على أن دوار العائلة لا يكتمل بغير الخدم ، فثمة
خدمتها شغالان مجتهدان لا غنى عنهما ، بحيث يوشك أ
يتحقق بهما القول "سيد القوم خادمهم" ، والاشارة بالطب
إلى البرسيم والأرز ، والبرسيم أقدمهما .. مع العائلة م
نشأتها الأولى ، وهو إلى هذا ضخم الجثة حتى ليفوق ك
سادته ، غير أنه شديد التواضع والقناعة ، هو خدوم ، يعط
الكثير ويطلب القليل ، فهو غذاء الحيوان .. ولكنه لا يحتا
إلى غذاء أي سماد ، هو نفسه غذاء وسماد ، مجند بصا

خاصة لخدمة كبير العائلة وسيدها .. القطن ، ذلك المتحكم المتشدد فى طلباته ، لهذا كله يتمتع البرسيم باحترام الجميع ، حتى ليكاد يرقى عمليا إلى واحد من أفراد العائلة ، أما الأرز .. فهو أحدث كثيرا فى خدمتها ، أقل جرما وقوة من البرسيم ، غير إن له وضعا خاصا يجعله أقرب إلى فقراء العائلة منه إلى الخادم الأجير ، حتى لتفرد له حجرة معيشة مستقلة وإن تكن متواضعة على هامش البيت الكبير ، وفضلا عن هذا فإن له موارد خاصة تمنحه مكانة اقتصادية فوق العادة ، بل إنه قد قفز بسرعة ليصبح أحد أهم أفراد العائلة نفسها .

فالأصل فى الأرز كمحصول مائى نهم للمياه من ناحية ، وكمحصول استصلاح تكميلى أو تابع من ناحية أخرى ، أنه يعيش على فضلات مياه الرى ، بل والصرف أحيانا ، المتبقية أو المتخلفة بعد حاجات المحاصيل الأخرى ، ومن ثم فإنه بين المحاصيل جميعا آخر ما يعمل له حساب فى ميزانية مياه الرى .. وأول ما يستبعد أو يطرد فى الجفاف أو الشدة ، إنه يكاد يذكر بالزنجى بشهرته المأثورة ولكن غير الأثيرة فى الولايات المتحدة .. آخر من يوظف .. وأول من يفصل ، ومن هنا سمي الأرز فعلا .. ولا غرابة بخادم المحاصيل .

على أنه منذ زالت عنه قيوده المادية التى كبلته طويلا ، قيود الماء ، انفتحت أمامه مدارج الرقى الاجتماعى والتصعيد الطبقى ، ليغير مرتبته وطبقته بين أفراد العائلة من موقع التابع إلى موقع الثورى المتقدم والعصامى المناضل

المكافح الذى لا يكل ، فقد نشط نشاطا خارقا فى العقو
الأخيرة ، ليصبح مساحة وإنتاجا وعائدا على مستوى كبل
أبناء العائلة "حذوك الرأس بالرأس ..) (شخصية مصر
جـ ٣ ، ص ص ٢٢٦ - ٢٣٠) .



لقد شغلته قضية تخلف مصر .. كما لم تشغله قضي
أخرى ، استثارته عاطفيا بقدر ما أثارته عقليا ، وفى إطار
رؤيته الحضارية .. وضعها تحت مجهره التاريخى بعنوان
"من السبق الحضارى إلى التخلف" ، مستهلا تحليله
بمناقشة مسألة العزلة فى شخصيتها ، متوصلا إلى أن مصر
تجمع فى تناسب نادر بين قدر من عزلة فى غير تقوقع ، وقدر
من احتكاك لا يصل إلى حد التمييع ، وتحفظ لها هذه المعادلة
شخصيتها القوية ، منطلقا بعد التوصل إلى معادلته الخاصة
كشأنه .. إلى متابعة تاريخها من بدايته الخفية .. تحت عنوان
"النظرية العاملة" ، متابعة تعود به إلى العصور الحجرية .
هذه التى شهدت نزول الإنسان الباليوليثى من الهضبة إلى
النهر .. تحته دوافع الجفاف الطاردة .. منذ نهاية
البلايستوسين ، هذه الدوافع (الطرد والجذب البيئى) هى
بمثابة لب النظرية العاملة ، وهو يضرب فى هذا الخضم غير
المدون .. بنفاذية تكشف قوانين الحركة .. كما سجلتها
البقايا الحجرية والأركيولوجية ، حتى يصل إلى سؤال
المحدد .. لماذا عرفت مصر الحضارة قبل غيرها ؟.. باعتبار
أن الكشف عن جذور السبق .. قد يفيد فى علاج ظواهر

التخلف ، وتأتي اجابته مستندة إلى انبثاق نظامها الاقتصادى الأساسى .. كما يتمثل فى الزراعة .. من قاعدة طبيعية شديدة الاتساق .. تتمثل فى النهر والمناخ والتربة ، ومن هذه الجديلة الطبيعية الاقتصادية .. حققت مصر سبقها الحضارى التاريخى ، بتكوين مجتمعها المستقر وثقافتها الخاصة ، وبذرت قراها فى الزمامات .. كما تبذر الحبوب فى الحقول ، تنساب فوائضها إلى أسواقها .. التى نشطت العلاقات المكانية .. بقدر ما وثقت الارتباطات والمصالح .. التى تنامت لتؤدى إلى أول دولة مركزية فى التاريخ ، ولتشع بعد ذلك تأثيراتها .. فى دوائر متتابعة .. تواصلت حتى الرافدين ، وهكذا كان سبقها ذاتيا .. وبقواها الخاصة .. أعقبه الانتشار والتأثير ، تلك كانت إجابته عن الشق الأول من السؤال ، فكيف كانت عن شقه الثانى .. المتصل بالتخلف ؟

إنه يقسم تاريخها الحضارى إلى مراحل .. يمنح كل مرحلة منها تسميتها الدالة ، فالمرحلة الفرعونية .. هى مرحلة صناعة وتصدير الحضارة ، وبانتهائها ينكمش دور مصر .. وتدخل مرحلة الاكتفاء الذاتي .. التي تسود العهدين الهيلليني والروماني ، ومع العصر العربى الإسلامى .. تدخل مصر مرحلة لعلها وسط بين الاكتفاء الذاتى والتصدير الحضارى ، لقد كانت خلية مضطرمة فى قلب العالم الإسلامى ، وبقيت هكذا حتى الكشوف الجغرافية .. التى دفعت مصر نحو العزلة ، ومعها العالم العربى الإسلامى كله ، ودخلت مرحلة

اجترار استنفدت طاقاتها ، وانكفأت على وجهها فى العصر العثمانى .. فى بيات شتوى لم يسبق له مثيل فى تاريخها .. إنها فترة العزلة Seclusion Period الكاملة ، تحولت فيها مصر إلى ما يشبه أهل الكهف ، وحين استيقظت بعد قرابة ثلاثة قرون مع الحملة الفرنسية ، وجدت نفسها فى عالم غريب تماما عنها ، ولم يكن أمامها لتعرفه .. سوى أن تدخل مرحلة "استيراد الحضارة" لقد وجدت نفسها متخلفة عن ركبها .. بحكم فترة سباتها .. ذلك تشخيصه وهذه إجابته عن الشق الثانى ، وهى لا تزال الآن تحاول أن تلحق بها ، متمسكة بتراثها .. بحيث لا تبتلع enculturation ، تبادلها transculturation وتتداخل معها Crossculturation وبما يحقق المعادلة بين الأصالة والمعاصرة ، وتتحقق معادلته الأساسية .. عزلة بغير تقوقع .. واحتكاك لا يؤدى للتميع ..

وتبدأ مرحلة "استيراد الحضارة" .. حين انتقلت قبلة الحضارة العالمية من الشرق إلى الغرب ، واقتحمت الحضارة الحديثة والمواصلات العالمية أركان الأرض ، وراحت تنفجر حول العالم تغزو الشرق كله حضاريا ، وهنا لم يعد للعزلة مكان وأصبحنا بحق فى عصر الاحتكاك الحضارى الذى تعيشه مصر ، كما يعيشه بقية العالم المتخلف أو النامى أو العالم الثالث عموما : أو حرفيا العالم الترسو Tiers Monde و il Mondo Terzo ، ولكن الشىء الذى يميز مصر خاصة عنه فى كثير من مناطق العالم .. أنه لم يكن عملية إحلال وذوبان وإنما أساسا عملية تبادل حضارى ، بعبارة أخرى ..

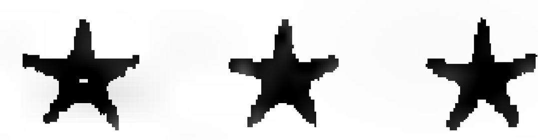
لم تتحول مصر نافورة الحضارة القديمة إلى مجرد بالوعة للحضارة الجديدة ، وإنما إلى بوتقة صهرتها لتشكلها بما يتفق وتراثها ، ونحن نرى أن هذا ليس إلا صورة جديدة معاصرة من معادلة التوازن الدقيق المتأصلة بين الموقع العقدى على مفترق طرق العالم ، وبين الموضع المحمى فى إطاره الصحراوى ، والواقع أن عملية الاحتكاك مع الغرب مرت فى ثلاث مراحل واضحة بما فيه الكفاية ، ولا تبعد عن منطق الديالكتيكية .. من تقرير فنقيض فتركيب .

فالأولى مرحلة الانبهار الحضارى والانبهار النفسى ، فقد فوجئنا بأننا أقزام أمام عمالقة ، وكان رد الفعل "مركب نقص" حضاريا شديدا ، أفقدنا كل ثقة فى تاريخنا وتراثنا وكياننا ، وجعلنا نتهافت على النقل والتقليد بلا تمييز ، وأنذرت من ثم بتحويل مصر إلى لافقرية حضارية ومخلوق شاذ مخلط Pseudomorph .

ولكن المرحلة الثانية جاءت رد فعل عكسى ، زال الانبهار وعادت إلينا بعض الثقة فى النفس ، وأدركنا فضلنا غير المباشر فى أصول هذه الحضارة ، ولكن البعض تطرف فطالب بالرجوع إلى الماضى ، واشتدت الحركات السلفية ، وقد كانت هذه مرحلة الانتفاض السياسى أيضا ، وأدى نجاحها بالبعض إلى تطرف جديد ، وصل إلى درجة الغفلة أحيانا ، فقد انقلب مركب النقص الحضارى إلى مركب عظمة .. هو فى الحقيقة مركب نقص مقلوب .

غير أن المرحلة الثالثة بدأت بسرعة .. وربما كنا نعيشها اليوم ، وهى مرحلة الاتزان ، فأدركنا أننا لابد أن نستعير، لكن استعارة رشيدة انتخابية ، استعارة هضم وتمثيل لا إغراق وذوبان ، واستعارة تمالك لا تهالك ، ولهذا فنحن الآن نجمع بين الأصيل والدخيل والقديم والجديد .. فى نسب متفاوتة وفى اتزان واختيار محسوب .. (شخصية مصر .. جـ ٢ ، ص ص ٤٤١ ـ ٤٤٣) .

(.. لا السكان ولا الفقر .. ولا حتى الاستعمار فى الماضى أو إسرائيل أو البترول العربى فى الحاضر ، هى المشكلة الأم فى كيان مصر ، وإنما مشكلة المشاكل وقضية القضايا هى قضية الديمقراطية / الدكتاتورية أو نظام الحكم المطلق ، إنها هى جماع مشكلة مصر كلها : شخصية مصر ، مصير مصر ، بل وبقاء مصر ، شخصية المصرى ، كرامة المواطن المصرى ، نفسية الإنسان المصرى ، إعادة بناء الإنسان المصرى .. والشخصية القومية ، فى كل هذا وغيره "فتش عن الديمقراطية أو غيابها" فإنها هى حاكمها ومقررها وضابط إيقاعها مثلما هى مفتاح حلها جميعا ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٦١١)



من بين جوانب شخصية مصر الإقليمية المتعددة .. يتبدى اهتمامه بالجانب السياسى فائقا ، بما يمكن اعتباره معها هوايته ومتعته ، يستغرق فيها بكليته .. وتنطلق قدراته النظرية .. ومهاراته العملية إلى أبعد مدى ، ومن بين

مستويات الجغرافية السياسية .. يظهر شغفه بالمستوى الاستراتيجى منها .. أو الجيوستراتيجى بمعنى أدق ، حيث تندمج الجغرافية مع الاستراتيجية .. في بنية مركبة .. تجاوب مهاراته فى الحل والربط ، وتستجيب لاستخلاص الفروض النظرية .. ووضعها على المحك .. بهدف الكشف عن خصائص فضلا عن تنمية شخصية مصر ، وتتحدد نظريته العامة فى الجغرافية السياسية .. بما تنطوى عليه من فروضه الجيوستراتيجية فيما يلى .. مع تأجيل تطبيقاته وتوصياته .. حسب المتبع .. لما بعد ..

* الأساس الطبيعي للوطن السياسي ..
* التطور التاريخى للوحدة السياسية ، وتغير خريطة الموارد .
* مورفولوجية الحدود .. ومشاكلها الكامنة والظاهرة .
* مقاييس التدامج والتماسك الوطنى والمجتمع السكانى .
* الخصائص والخطة الجيوستراتيجية لمكونات الدول .
* القوة العامة .. والدور السياسى محليا وإقليميا وعالميا وتغيرات الوزن .

تلك هى خطوطه النظرية العامة .. فكيف جاءت نتائج تحليلاته لها بالنسبة لمصر ؟

فالأساس الطبيعي لمصر .. يؤدى بها للوحدة على مستويين ، الوحدة التركيبية .. من اقسامها المورفولوجية الطبيعية .. وعصبها النهر ، والوحدة الوظيفية .. وقوامها

الزراعة ومحورها الرى ، وتتجسد فى معمورها الريفى الحضرى المتصل .. فى وحدات تركيبية وظيفية مطبوعة من الأصل ، كما تظهر فى سيولة الحركة الإقليمية فى الوادى والدلتا .. موجهة أيضا من النهر .. ورياحات وترع الرى .

ولم يكن تطورها التاريخى بأقل دفعا لها نحو الوحدة من النهر ، بل إن تاريخها كما نبع منه .. انطبع عليه ، فكما اجتذب إليه سكانها .. لتتراكم ثقافتهم الزراعية حوله وبه ، دعا إلى تكوين الدولة مرتكزة عليها وعليه ، ومع الدولة والنهر بذرت المركزية .. التى أصبحت قيدا فيما بعد .

ولم تتغير إلا نادراً حدود مصر ، فهى طوال تاريخها السياسى .. إما برقعتها الراهنة غير منقوصة .. وإما بإضافات إمبراطورية اختفت مع الوقت ، ذلك أن حدودها الطبيعية قد حفظتها مثل شرنقة .. تحيطها الصحراوات من كل جنب ، ورغم أنها مورفولوجيا تصنف كحدود فلكية فى معظمها .. فإن بنيتها الربعة قد كفلت لها من المساحة ومن التخوم الصحراوية المجدبة .. ما أمسى بمثابة قلعتها الدفاعية الطبيعية ، وكذا أضعفت من احتمال النزاع حولها مع جيرانها ، إلا ما يمكن أن تستثيره السياسات الضيقة أو القوى المناوئة .

أما عن مقاييس التماسك السكانى والوطنى .. فإنها تتمثل فى الوحدة اللغوية .. التى هى مطلقة فى واقعها .. بحكم العربية ، كما أنها قد استوعبت أديانها ، إلا فيما يطرأ أو

يزمن تحت ستارها .. وليس بسببها ، ثم هناك الأصل الاثنولوجى .. فهى بوتقة صهرت جميع عناصرها ، وليست لها انعكاسات أو شروخ داخل بنيتها السياسية ، بل إنها حققت قدرا نادرا من الوحدة السيكولوجية .. التى تكاد تتكرر بوتيرة متقاربة من أسوان إلى الإسكندرية .. قوامها الشخصية المصرية التي نعرف خصائصها وردود أفعالها .. وما يرضيها وما يحزنها .. ضاربة بجذورها إلى عصر الفراعنة .. ومتواصلة متدامجة بعده .

أما عن خصائصها الإستراتيجية ومنابع قوتها ودورها .. فيوضحه المقتبس التالى .. مع بعض فروضه الجيوستراتيجية .

(.. يتحدد الموقف الجيوستراتيجى المصرى بإيجاز وتركيز فى صيغة سلسلة من المعادلات على النحو الآتى :

- من يسيطر على فلسطين .. يهدد خط دفاع سيناء الأول .
- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط .. يتحكم فى سيناء .
- من يسيطر على سيناء .. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير .
- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير .. يهدد الوادى .

ولقد أدركت مصر منذ أقدم العصور حقائق الاستراتيجية المصرية الصحيحة ، وقواعد الدفاع السليمة عن الوطن ، الأول .. أن مصير مصر مرتبط عضويا وتاريخيا وجغرافيا

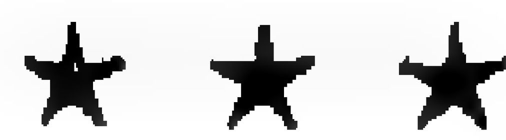
بمصير الشام ، بل وأدركت مغزى جبال طوروس بالذات لأمنها ، قبل أن يؤكد ذلك جنرالات الاستعمار البريطاني بعشرات القرون ، كما يعترف المؤرخ العسكرى البريطاني هـ . د . كول ، ومن هنا كانت سيناء دائما محصنة تحصينا أساسيا ، ومن هنا كانت مصر تسارع إلى ملاقاة أعدائها خارج سيناء ، وتنقل المعركة إلى بر الشام ، إذ أن فرص النصر المصرى كانت تزداد .. كلما كانت المعركة أبعد عن قلب الوطن .

سيناء إذن ليست مجرد "صندوق من الرمال" كما قد يتوهم البعض ، إنما هى "صندوق من الذهب" - مجازا كما هى حقيقة ، استراتيجيا كما هى اقتصاديا ، وهى استراتيجيا ليست مجرد فراغ أو حتى عازل ، إنما عمق جغرافى وإنذار مبكر ، يمكن أن نشترى فيه الزمان بالمكان ، إنها ككل خط الدفاع الأخير عن مصر الدلتا والوادى ، وإن كانت فلسطين هى الخط الثانى وطوروس الأول .

وإذا كانت سيناء قد فقدت بتكنولوجيا الحرب الحديثة بعضا من عمقها ، فإن ذلك لم يفعل سوى أن زاد من أهميتها وخطورتها الحيوية ، وأصبح أى خطر يهدد سيناء .. يهدد القناة .. وما يهدد القناة يهدد مصر ، دافع عن القناة .. تدافع عن مصر ، لقد أصبحت سيناء استراتيجيا جزءاً من القناة ، فضياع سيناء معناه شل القناة ، هكذا اثبتت التجربة المعاصرة مرتين فى عقد واحد تقريبا ، ومن هنا يتحول المبدأ الاستراتيجى فى الأمن القومى إلى شعار .. دافع عن

سيناء .. تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعا .. موقعا وموضعا .

أكثر من هذا .. فإن معنى سيناء قد أصبح فى الوقت يتجاوز أمن مصر وحياة مصر ، إنها الآن حياة العرب جميعا ، ودرع العروبة من المحيط إلى الخليج ، وإن وقعت فى قلبها وليس على هامشها ، لماذا ؟ لأنها قد أصبحت منذ إسرائيل وهى أرض المعركة العربية وميدان حرب العرب Battle field of the Arab world المعارك على الجبهات العربية الأخرى .. كالضفة الشرقية للأردن أو الجولان يتحدد مصيرها إلى حد بعيد بمصير معركتها ، لقد أصبحت سيناء بهذا المعنى أرضا عربية مثلما هى مصرية منذ الأزل ، وبمثل ما أن مستقبل العربى "مصرى" فى نهاية المطاف ..) (شخصية مصر ، جزء ٢ ، ص ص ٧٧٠ ـ ٧٧٣) .



الريف عنده نسيج شخصية مصر ، قاعدته الزراعة .. ونقوشه القرى والعزب والكفور ، بمثابة الأس الرئيسى من ثوابتها الحضارية Cultural immobilia ، ودليل التجانس القاعدى الأكيد ، فالقرية وتوابعها الأصغر .. بمثابة البعد الثالث ـ بعد العرض والطول ـ للحقول ، تمثل امتدادا رأسيا تشكيليا تكعيبيا للأرض السوداء ، فجسمها وأرضيتها من تربة مصر مباشرة ، والكل مرتبط تماما بالبيئة النيلية الأم ، تلك هى لب نظرته العمرانية للريف ، نظرة عضوية تركيبة .. تتجمع جزئياته حول التجانس .. كمحور تفكيرى للتفسير ، لا يفلتها حين ينتقل من التوزيع إلى التركيب ، فالتوزيع يرتبط

بالنيل ـ وفرعيه .. وما يخرج منهما من ترع ومصارف ورياحات .. وما تنتهى إليه جميعا من البحيرات ، ارتباطا يماثل ارتباط القرية بزمامها المزروع ، ومواضعها الطبيعية فوق الربوات .. التى هى إما تلال وإما أكوام ـ تفاديا للفيضان .. إرثا موروثا من رى الحياض ، وتظهر عضويتها حين تتركب دائريا .. يحيطها داير الناحية يفصل بينها وزمامها المزروع ، ويؤكد التجانس بتحديد الاستثناءات .. فلكل قاعدة شواذ ، هذه التى تظهر كظلال فى النوبة جنوبا .. وشمالا حول البحيرات ، حيث تمتد القرية فى النوبة طوليا .. مضغوطة داخل السهل الضيق بموازاة النيل ، وتتبعثر فى السياحات والمستنقعات حول البحيرة ـ فيما يسميه حلات المستنقعات Marchhufendorfer ، فالتكيف مع البيئة من خصائص العمران .. ويؤكد عضوية الأخير ، بل إن خطتها العامة المتراكمة .. ليست عشوائية كما يقال ، هى خطة بلا تخطيط .. تستجيب للعناصر الطبيعية فى المكان .. خاصة الرياح والأمطار ، وكما تستمد مادة بنائها من طين الحقول .. وما يخلفه ترع المصارف والقنوات ، فإنها تكيف الحرارة أو تتكيف معها .. باعتبارها عازلة لها .. خاصة مع مضاعفة سمك الجدران ، والدور ككل بعد هذا جسم مضغوط متحوصل كأنه تل النمل ، تتسع طرقه بما يكفى لسير الدواب ، وهى تنمو بالانشطار .. حيث تنفصل عن القرية الأم نوايات كالبراعم .. صورة مصغرة عن الأم .. وكلها متشابهات ، وهى لا تنفصل إلا إذا زاد التكدس عن الحد .. وكذلك إذا طالت

رحلة العمل اليومية .. من الدار إلى الغيط ، ومن بعد متابعته لكافة التفصيلات .. يعود إلى التقعيد .. تلخيصا لها .. وتمهيدا لوضعها تحت مجهر الإصلاح ، فإذا كانت عناصر السكن تتحدد فى (القرية + العزبة + المنزل المنفرد) .. فإن ما يسود مصر هى القرية Dominants ، باستثناء شمال دلتا النيل .. حيث تسود العزبة .. وما يدنو عنها من الأشكال ، والمقياس الأمثل لأصلاحها يتمثل فى الخدمات ، وقد أثبتت الأبحاث التخطيطية أن هناك حدا أدنى من الحجم ، يتفق مع مبادىء العادلة الاقليمية لتوزيع الخدمات (المدرسة ، المستشفى ، الطريق) ، هذه التى يجب أن تتوافر بمستوياتها الأولية .. فى كل مركز سكنى ريفى يبلغ حجمه السكانى ٥٠٠ نسمة كمتوسط عام ، ثم يعلو مستوى الخدمات .. من المدرسة الابتدائية إلى الإعدادية .. ومن الوحدة الصحية إلى المستشفى المجهز بالأسرة .. مع تضاعف الأحجام ، فى هيراركية متدرجة .. تراعى عناصر المسافة وخصائص التوزيع ، تعلوها ـ أى الهيراركية ـ خدمات المدينة المحلية التى يجب أن تضم كافة الخدمات المركزية .. بما يلبى حاجة الإقليم ، خاصة مركز الشرطة ومقر القضاء والسنترال العام .. فضلا عن البنك ومراكز الترفيه ، مع ما تقتضيه الحركة إليها من الطرق الريفية والمعبدة والرصوفة .. تيسيرا للسيولة الاقليمية .. وتدعيما لوحدة وتماسك الإقليم حول النواة .

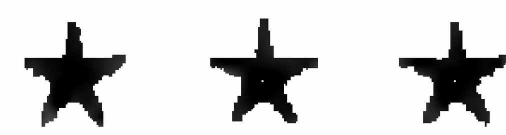
وتعلو رؤيته .. كما تخشن كلماته .. وهو يطالب للريف

بحقوقه المسلوبة على مر التاريخ ، فالقرية المصرية بوضعها الحالى وصمة فى جبين مصر (جـ ٤ ص ٣٨٧) ، فكما بنى الريف مصر المدن والعمران ، وكما أن القرية بذرة ونواة مصر .. وهى بحق أم المدنية ، فقد آن الآوان لأن تسترد الدين ، وأن تنال نصيبها المشروع من خطط التنمية الشاملة فى كل مكان ، ومقياس ذلك ليس أقل من أن يعود للريف ـ ما يعادل إسهامه فى الدخل المصرى العام .

(.. ومن هنا .. فإن القرية ، الريف ، هى التحدى الحقيقى فى مصر ، ولن تتغير مصر وتتطور جذريا إلا إذا تم هز الريف المصرى بجسمه الثقيل ولن يتغير وجه مصر تحت الجلد ما لم تتغير القرية المصرية حتى النخاع ، وإلا إذا تم رفعها إلى مستوى المدينة ، وبغير القرية الحديثة لن تكون الدولة العصرية ، ولن تصبح مصر دولة متقدمة لا نامية .. إلا يوم تهدم آخر قرية باللبن ، وإذا كان قد قيل على المستوى السياسى أن للانقلاب تاريخا فقط ، ولكن الثورة وحدها هى التى لها تاريخ وجغرافيا ، فيمكن أن يضاف أنها إذا كانت جغرافية مدن لا جغرافية ريف .. أصبحت إصلاحا فقط ، ولهذا يعود التخطيط الإقليمى ضد التركيز العاصمى .. وهو كلمة المستقبل ومفتاح استراتيجته ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ص ٣٨٩) .

(.. إعادة بناء القرية تنتظم تخطيطيا عدة أبعاد وعناصر كأشكالها وأحجامها وخطتها وكثافتها ، يمكن أن تكون مجالا واسعا للاختلاف .. كما للتفاوت والابتكار ، لكن عاملا واحدا

بعينه نراه الفيصل وفصل الخطاب .. فى مصير القرية الجديدة جميعا ، وذلك هو المادة الخام ، فاللطوب الأخضر . أى اللبن . ومازال أنصاره والمدافعون عنه لميزاته الطبيعية العديدة خاصة الحرارية ، غير أن نقطة الضعف الخطيرة أنه بلا مواربة مادة غير حضارية على الإطلاق ، ومهما غلف بالطلاء الأبيض أو غير ذلك ، فليست هناك مناقشة فنية أو غير ذلك .. يمكن أن تقنعنا بها بيئة للسكن الإنسانى الكريم ، بل لعله أن يكون النقطة السوداء فى القرية المصرية جميعا ..)
(شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٣٨٧)



المـركـزيـة :

من فروضه الأساسية .. التى يفسر بها العديد من ملامح شخصية مصر .. وتتخلل تطبيقاته ، يراها منتشرة فى بنيتها .. طبيعيا وإداريا وحضاريا معا ، ويحددها مفرطة صارخة .. فى علاقة القاهرة بأقاليمها .. فيطلق عليها .. العاصمية القاهرة .. ويشخصها كعلة مزمنة .. ترقد الخصائص الطبيعية وراءها ، تتمثل فى هذه المركزية المورفولوجية التركيبية للنيل وفروعه .. داخل شرنقة الصحراء الشاسعة ، يعبر عنها بأن مصر مسافة لا مساحة .. في مقولة مكثفة ، بكل تداعياتها الإدارية المعقدة ، وبما أدت إليه من إهمال الأطراف المتطوحة النائية ، وهى مزمنة تاريخياً أيضا ـ حيث هى تكمن في أعمق جذور تاريخ مصر ..

منذ تأسست دولتها الأولى .. مركزية فى لبها ، وسرت إلى ساقها وفروعها ، فرضت موقع عواصمها من منف إلى القاهرة ، فتوطدت عند الخاصرة ، التى يشبهها أيضا كزر ماسى يمسك مروحة الدلتا ويد صعيدها ، وإذا كانت قد تأرجحت موقعا عبر تاريخها .. فتلك استثناءات القاعدة ، فالموقع المركزى وإن كان عتيقا .. إلا أن القاهرة معتقة .. بمعنى أن وظيفة العاصمة .. وإن نأت عنها فترات محدودة معينة ـ تعتقت خلالها .. وأثبتت جدارتها المطلقة .. الموقعية بالخصوص وخاصة ، بل إن المركزية أمست خاصية ملازمة لبقية المدن الإقليمية .. تكرارا لسمات الأم .. وبما يثبت فرضيته ، بل هى ـ المركزية ـ قد شرطت تركيب المدن والقرى .. فجميعا دائرية نووية .. فى لبها ، وإن فجرتها المواصلات الحديثة .. فنمت محوريا على طول طرقها ، بما يخالف خصيصة المركزية .. وإن ارتبطت بها غالبا .. تبدأ منها ـ وتنتهى لها ـ ولا تفسير لكثافة سكانها .. إلا بالنيل .. هذا المحور الطبيعى المركزى .. الذى كما اجتذب إليه مراكز العمران بصوره .. شد إليه وإليها سكانها ، بل واستشرت إلى وظائفها الإدارية جميعها ، فالبيروقراطية .. من ثمارها .. وإن كانت حنظلا ، ومنها يضع قاعدته الإصلاحية كعهده ، فلا يوجد بلد كمصر .. تتأثر بالإدارة صالحة أو فاسدة ، ولا مفر بعدئذ .. من تخليص إدارتها من أوخامها وأوشابها ، وتطهير بنيتها من إفراط مركزيتها .. التى وإن استندت إلى جغرافيتها .. إلا أنها تورمت بتاريخها ، وذلك بصياغة تجمع بين المركزية والإقليمية .. فى معادلة محكمة .

ويعود فيعلو بنظرة الطائر فى رؤيته .. فيرى أن المركزية لا تزال تضغط مصر كلها فى أنبوبها ، فإذا كان الإقطاع قد صفى بقوة الاشتراكية العابرة ، قد عاد بعد زوالها .. بقوة الرأسمالية المعربدة ، متمثلا فى تعمق الانقسام الطبقى بين العاصمة وريفها ، وطمت وعمت بعد الانفتاح المنساح خاصة ، فقد تعملقت القاهرة كالمارد المريد .. لتصبح بانفجارها العمراني .. بالوعة مصر الرأسمالية خاصة ، كما كان الريف بالوعة مصر الأقطاعية سابقا ، وإذا كان اسماعيل قد أرادها قطعة من أوربا .. فالانفتاح يريدها بأبراجها (مثل عش الغراب المشئوم) على حد قوله .. قطعة من أمريكا .. وبذا أصبح هو أعلى مراحل نمو القاهرة (ص ٢٨٤ جـ ٤) ، بما يفضى حتما إلى فقر وتحجر اقاليمها ، ترجمة واستمرارا لتناقض بشع بين لاندوقراطية العاصمة .. وبروليتاريا الريف الفرعونية .. التى لم تنقطع ، تناقضا يعبر عنه بمتناقضة " العاصمة الكاسحة والجسم الكسيح ، سوف تفضى بمصر تبعا لتوقعه .. بأن تتحول فى صورتها النهائية إلى قزم ضخم الجمجة A macrocephal from Lilliput .. على حد قوله .

(.. من بين المركزية التركيبية والمركزية الوظيفية ، تخرج لنا القمة النهائية المجسدة للمركزية فى مصر عموما ، ونعنى بها المركزية الحضرية التى ترادف توا العاصمية المفرطة ، وإذا كان لهذا التركيب من معنى .. فهو بلا شك أن مصر إنما كانت تتألف فى الحقيقة من مدينة كبرى وقرية

كبرى ، المدينة الكبرى هى العاصمة .. والقرية الكبرى هى الاقاليم ، ومن ثم فالسؤال المحورى .. لماذا هذا التضخم العاصمى المفرط؟، هل هى قضية الحتم الجغرافى مرة أخرى؟، والرد الفورى هو النفى المؤكد ، حقا إن المركزية الطبيعية تدعو إلى وتساعد على النمو العاصمى البارز ، ولكن فى حدود الاتزان لا الإفراط ، والجغرافية مسئولة إلى نقطة معينة ، ولكنها بريئة بعدها ، وإذا كان من المتعذر أن نحدد أنسب حجم ، أو الحجم الطبيعى كما تفرضه الضوابط الجغرافية ، فإن من المحقق أن إفراط العاصمية عندنا ظاهرة غير طبيعية .. ترجع إلى عوامل غير طبيعية ، عوامل بشرية شتى .. تاريخية واجتماعية وسياسية وحضارية ، بل وإلى عوامل آلية بحتة كامنة فى ميكانيزم نمو المدن ، تتداعى بها ككرة الثلج ، فلئن كانت المركزية تورث الحجم ، فإن الحجم أيضا يورث الحجم ، والكل يمرتبط فى النهاية بصورة بأخرى بسياسة "دعه يمر" والتى تترك الأمور تجرى عشوائيا فى أعنتها (جـ ٤ ، ص ٢٨٣) .

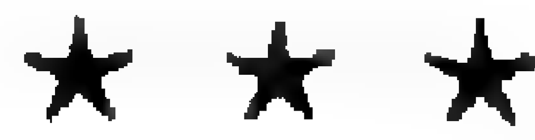
والنتيجة النهائية أن المعادلة الإقليمية فى مصر .. كانت تتألف طبيعيا وللأسف .. من رأس كاسح وجسم كسيح عامة ، ولعل هذا كان منتهى التناقض وقمة الثنائية فى مصر عموما ، فكما كان النهر الواحد الهائل ضد الصحراء المطلقة ، دونما مناطق انتقالية بين الطين والرمل على المستوى الطبيعى ، والحاكم المستبد المطلق ضد المحكوم المسحوق المنسحق على المستوى السياسى ، والطبقة الإقطاعية المالكة ضد

القاعدة البروليتارية المعدمة .. دون طبقة متوسطة على المستوى الاجتماعى ، كانت هناك العاصمة العاتية ضد الريف الأجوف .. دونما أقاليم فعالة أو طبقة من المدن الوسطى المتزنة على المستوى الحضرى ، وفى جميع الحالات لم تكن مصر قط هرما مدرجا ذا قمة وقاعدة بينهما وسط أساسى ذهبى أو حديدى ، وإنما كانت تقريبا مسلة لها قمة وقاع فقط ، كأنهما القطب الموجب والسالب فى محور غليظ على أكثر تقدير (جـ ٤ ، ص ص ٢٨١ ، ٢٨٢) .

كل هذا .. وهو قليل من كثير .. عن معنى تضخم العاصمة على حساب البلد ، ولكن يبقى أخيرا كيف أنه جاء على حسابها هى نفسها ، لعله منطق الطبيعة فى التصحيح ، أن هذا التضخم مثلما أدى فقر الدم الحاد .. ولين العظام والضمور والشلل الزاحف فى الأطراف ، أى فى الريف والأقاليم ، ارتد على الرأس أى العاصمة نفسها ، مهددا إياها بلا أقل من خطر انفجار الشرايين Apoplexy ، وبهذا وذاك أصبحت العاصمة تهزم أغراضها بنفسها وتعاقب نفسها بنفسها ، فى الوقت الذى تدفع فيه الأقاليم والريف الثمن مضاعفا : إنها القاهرة .. تعانى من التضخم المؤدى إلى التفجر الباثولوجى ، فباتت كل مؤسسات مرافق العاصمة .. تئن وتتآكل وتنهار تحت ضغط سكانها .. لا تكف عن التزايد الفلكى ، تعانى من مشكلات الاسكان والمواصلات والتلوث وغيرها .. فما حلولها ؟

إنها تتراوح بين "حماقة العاصمة الجديدة" ، والعاصمة

المغلقة ، وحلول المضاعفة والتثبيت والتنصيف ، والمدن الجديدة حولها ، تفتقر جميعها بدرجة أو أخرى إلى التخطيط الإقليمي ـ المستند إلى الإقليمية واشتراكية المكان وعدالة التوزيع الإقليمية ، وأفكار التوازن الحضرى الإيكولوجى العام ، وبدونها تبقى الصورة المريضة قائمة ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ص ٣٣٧ ـ ٣٨٤) .



الإقليمية Regionalism :

عنده بمثابة المعادل الجغرافى .. لمصطلح اللامركزية بزواياها جميعا ، وتعنى تعريفا .. أن تتكون الدولة من اتحاد مجموعة من الأقاليم الحية القوية بذاتها ، بما يوفر لها التنوع الفعال ، والتفاعل المثمر .. الذى يصيب معطياته فى البنية العامة للدولة .. وفى كل إقليم من أقاليمها ، وبذا تستوعب بهذا التعريف جانبا هاما من رؤيته ، التى تجمع بين الكل والجزء .. فى إطار تركيبى مفعم بارتباطاته ، ومن ثم لا ينى عن تطبيقها .. منتقلا بها من مجال إلى مجال .. ومن دائرة إلى دائرة ، متخذا منها نواة لما يسميه "عملية إعادة بناء أقاليمنا" (ص ٣٨١) ، هذه التى يجب أن تبدأ من أصغر وحداتها فى الريف والحضر .. من شتى تفصيلاتها الاقتصادية والاجتماعية والسكانية والإدارية .. إلى النظام السياسى .. الذى يجدر به أن يخلع مركزيته .. التى أرهقته .. بقدر ما أوهنت أقاليم الدولة معه ، وتتمثل الوحدة الصغرى فى الريف .. فى خلية القرية مع توابعها وزمامها ،

ثم دائرة مجموعة القرى المتجاورة بزماماتها ، ثم تنداح إلى عاصمتها المحلية الصغيرة .. التى نبتت من باطنها .. مكونة متصلا ريفيا حضريا متكاملا ومتماسكا ، وداخلها تتحقق الإقليمية فى تعريفها الجغرافى ، متجاوبة مع اللامركزية الإدارية الواجبة ، ومتناقضة مع المركزية .. خاصة إذا كانت مفرطة قاهرة ، تتدخل فيما يجوز ولا يجوز .. من أشد تفصيلات حياتها ، فإذا ما عادت الأمور إلى نصابها .. حيث أهل مكة أدرى بشعابها ، تواصلت مع الأقاليم المجاورة .. فى إطارات إدارية أوسع بالضرورة ، تربطها حسابات التنظيم المكانى والمصلحة ، مقترنة بعدالة توزيع الأعباء .. الناجمة عن المشروعات المشتركة ، وعدالة توزيع العوائد بينها تبعا لأنصبتها ، ومن ثم لا تصبح الديمقراطية صيحة أو مظهريات زائفة .. بل ضرورة مبثقة من العدالة ، الإقليمية ذاتها .. ومرة ثانية .. فمن يقدر على الدفاع عن المصلحة سوى أصحابها .. المنتخبين لتمثيل كل منطقة .

ولاشك فى استحالة الاستغناء عن المركزية كلية ، وإلا تفككت الدولة ذاتها ، ولكنها مركزية منخفضة ، يقتصر فيها دور الدولة على مهام معينة .. تتصل بالسياسة الخارجية والدفاع والمشروعات الرئيسية الكبرى أو القومية وحدها ، ليس تخفيفا عنها فقط .. وإنما لأن ذلك بالنسبة للاطارات الأصغر .. يقلل الأعباء ويخفض التكلفة ، وبالنسبة للعاصمة المركزية .. فإنها تغدو وقد تحررت مما يثقل رأسها ، وتفرغت لآداء ما يحقق المصلحة العليا للوطن ، ومن بعد فإن إدارة

أقسامها الداخلية وأحيائها .. يجب أن تعود لا مركزية من أساسها ، فالمسألة ليست أختيارا بين طرفى المعادلة .. أختيارا ينتهى بتبنى أحدهما ونبذ الآخر .. بل الجمع بينهما فى سياق من الضرورات .. يحكمها التنظيم المكانى والمصلحة ، وفيما يلى مقتبسا من بعض ما أورده عن الاقليمية .. مع ما طبقه منها على القاهرة .

(.. إن مصر لم تعرف الاقليمية كفلسفة مكانية .. طوال تاريخها الاستبدادى الاقطاعى ، لم تعرف إلا اللا إقليمية Irregiomalism الوائدة ، التى تركت اقاليمنا مجرد صحراء حضارية ، وينبغى أن يكوّن مفهوما لنا أن المركزية العارمة فى شكل العاصمة الطاغية .. ليست إلا الترجمة المكانية للأقطاع والرأسمالية ، والأقليمية بهذا هى الوجه الآخر للمركزية أو العاصمية ، فالعلاقة بينهما حتمية وتوازنية ، وليس من الضرورى أن يتعارض الوجهان فى المجتمع المتزن السليم التركيب عمرانيا وحضاريا ، فلابد وأن يكون ذلك على حساب الآخر ، فتصبح العلاقة بينهما عكسية نصا ، والخطر دائما هو أن تتطرف المركزية بالذات نحو إفراط العاصمية بدرجة أو بأخرى ، والضحية بالتالى هى الأقاليم والريف التى تضمحل حينئذ وتضمر بالدرجة نفسها .

ولا مفر من أن نعترف بتخلف الأقاليم فى مصر وتدهورها ، وبإحباط الريف وتردى مستوى الحياة فيه إلى مستنقع حضارى راكد آسن ، ولابد أيضا من أن نقرر أن هذا التخلف وهذا الأحباط إنما يرجع مباشرة إلى تضخم واكتناز العاصمة

المتخمة المنهومة ، واستئثارها بكل أجهزة وأدوات ووسائل الحضارة الحديثة ومرفهاتها دون سائر الأقاليم والريف ، وتفاهة القرية المصرية العادية ، فضلا عن المدينة الاقليمية العادية ، لا يمكن أن تنفصل سببيا ووظيفيا عن عظمة وشموخ العاصمة العاتية .

فهناك شعور عام .. بل هى حقيقة واقعة إلى حد صارم ، أن ثمرات الحضارة الحديثة وتسهيلاتها تحجب عن أبناء الأقاليم والريف .. لتكرس حتى التخمة فى العاصمة أو العاصمتين ، وتكاد المقولة القديمة "أهل الكفور .. أهل القبور" .. تصدق على ريفنا كله ، كفورا وغير كفور ، فى أكثر من معنى .. إنه برمته "كفر" واحد حضاريا ، كفر القاهرة ، ولذا فلا علاج لإجهاض الريف وإحباط الأقاليم هذا .. إلا بتحديد وإيقاف نمو القاهرة .

هذا وليست الاقليمية أو اللا إقليمية سياسية فحسب ، بل واقتصادية أدبية كذلك ، لذلك نجد أن الحكم المحلى لا يعود إلى الاقاليم وحده ، بل ومعه الأنتاج والصناعة والثورة والملكيات ، كما أن الفنون الشعبية والآداب الفولكلورية التى طال إهمالها بل واحتقارها ، بدأت تجد تقديرها والاحترام ، ولم تعد السلطة والنفوذ والثروة والأنتاج والفنون والآداب مركزة تماما فى العاصمة ، بل وأخذت تنتشر فى لا مركزية واضحة خلال كل خيوط الشبكة القومية ، غير أن هذه البادرة لم تزل هى الأخرى فى المرحلة الجنينية . ولم يتجاوز الحكم المحلى حد الإدارة المحلية إلى الحكومة المحلية ، أو يزد عن

مجرد زرع بعض الطغاة الصغار فى كل محافظة باسم توزيع السلطة المركزية .

وإذا كانت الدولة تأخذ بقوة بالتخطيط القومى ، فإنها لا يمكن ولا ينبغى أن ترى فى التخطيط الأقليمى الذى هو ببساطة التوزيع الجغرافى للخطة القومية ، ترفا كماليا أو بذخا غير اقتصادى ، والملاحظ حتى الآن أننا نبدى أشد الاهتمام بالتخطيط القومى .. ولا نتعامل مع التخطيط الاقليمى إلا باستخفاف كحلية زخرفية لمجرد استكمال الشكل ، وبينما نما التخطيط الأقتصادى والتنمية الأقتصادية عندنا نموا مشجعا ومرضيا بالقياس النسبى ، مازال التخطيط الجغرافى والتنمية الأقليمية مهملة إلى حد مثير ، وهذا كله تناقض غير منطقى ، ولكنه منطقى جدا مع التناقض الأكبر بين المركزية والإقليمية وبين العاصمة والريف .

هذا وعادة ما يعترض أعداء التخطيط الاقليمى بأنها غير اقتصادية ، وأن للعاصمة الضخمة وفوراتها الخارجية وبناءهل التحتى الجاهز ، بعكس أقطاب التنمية الاقليمية التى ستبدأ كل شىء من الصفر تقريبا ، لكن هذا مرفوض علما ، لأنه منطق الحلقة المفرغة ، لا تنمية إقليمية لغياب الأبنية والأجهزة التحتية ، ولا أبنية وأجهزة تحتية لغياب التنمية الأقليمية ، ينبغى أن تتم أعادة توزيع الثورة والحضارة والخدمات بين أقاليم الدولة ، لابد ، يعنى ، من أعادة بناء أقاليمنا وأعادة تأهلها re - habiltatian إلى أقصى حد ممكن ودون أدنى تحفظات أو ذرائع .

ومن الناحية الأخرى .. فكما أن العدالة الاجتماعية لا تعنى المساواة المطلقة التنميطية ، بل العدل فى تكافؤ الفرص بين الأفراد ، فكذلك لا تعنى العدالة المكانية تسوية كل بقعة فى الدولة بمثيلاتها ، وإنما المقصود تكافؤ الفرص بين الأقاليم حتى ينمو كل منها بحسب مواهبه الجغرافية الكامنة وإمكاناته الطبيعية ، بعيدا عن ضغط الاندفاع التاريخى أو القصور الذاتى أو المواقع والمزايا التراكمية المكتسبة .

من هنا وهناك وفى المحصلة الصافية ، فلا مفر من أن تتحول العاصمة الطاغية بالتدريج وحسب الخطة الموضوعة إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب ، تحويلا لشرايين الحياة إلى الأقاليم والمدن الأقليمية والريف العريض ، إلا أن تتخلق فيها ومنها تلك الوحدات الحية القوية النابضة ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠) .



المكان وثيقته الأولى .. واسطته إليه الخريطة ، وسيلته إليهما الكلمة .. فى لغة تصويرية رفيعة ، والمرجح أن قاموسه الخاص قد تكون .. من قراءاته فى مجالات عديدة ، فيزيائية ورياضية وبيولوجية .. وليست فقط فى مجال الإنسانيات بفروعه ، ومكنته درايته بأسرار الأنجليزية والفرنسية .. من الأطلاع والترجمة عنهما بسهولة ، وقد أثرى ذلك كله من قائمة المصطلحات عنده .. واستناده إليها فى تحليلاته ، وتظهر إضافاته فى تطويع المصطلح منها .. واستخدامه فى غير

مجاله ، فمصطلحات البيولوجيا عن النمو العضوى .. يعبر بها عن عملية نمو المدينة .. فتضيؤها بالدلالة ، والمصطلحات الدالة عن الحضارات الحجرية (نيوليتى ، ميزوليتى ، باليولينى) .. يطوعها للتعبير عن التطور فى شتى مجالاته ، دون أن يتعسف فى فى أيها إلا قليلا .

ويظهر تأثير الخريطة فى لغته .. فى مهارته بالتعبير عنها بالكلمة .. متابعا خطوطها الدقيقة ، يحاول أن يجعل من كلماته بديلا للخريطة ، متصاعدا بها لتعبر عن المكان فى كلياته ، مسهبا فى مترادفاته أحيانا ، بهدف تأكيد الصورة العامة .،، وقد يؤخذ عليه غموض لغته .. فى بعض محدود من تحليلاته ، وغالبا بسبب رغبته فى تكثيفها .. فتأتى محملة بما قد تنوء به من الظلال والمعانى ، فالمرجح أنه حين يكتب .. يستمد معينه من مستويات ثلاثة ، الفكرة العامة ثم المكان الأصلى ثم الخريطة ، ولكل منها رصيده اللغوى عنده .. بما قد يتداخل أحيانا ، فيبهم المعنى قليلا ، فإذا ما تواصلت القراءة .. سلست وانفرجت الزوايا ، حيث يتبين القارىء تدريجيا .. منابع ومعانى ألفاظه ، ويستوعب قاموسه .. ويألف صوره وأيقاعاته ، وينتقل إليه تدريجيا قاموس المؤلف بمستوياته .. فيأنس ويواصل طريقه .. وقد يعاود القراءة .

(.. يتلخص تاريخ الصناعة فى مصر الحديثة فى منحنى مديد كالقوس المقعر ، أو بالأحرى كسفحى واد مدرج غير منتظم ، أو إن شئت فقل كرقم ٧ وإن يكن غير متناظر الضلعين ، وضلعاه متغضنان بالذبذبات المحلية .. التى

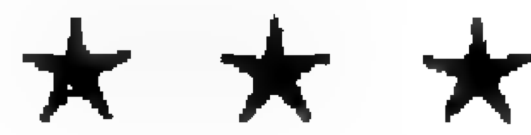
تحددها خمس وقفات تاريخية حادة، فالضلع الساقط يبدأ من قمة محمد على الشاهقة الواعدة ، ولكنه يهوى منها بعده بعنف ، إلى أن يعود إلى الأرتفاع فى قمة أدنى بكثير جدا أيام أسماعيل ، غير أنه لا يلبث بعدها أن يتهاوى بسرعة ويتسارع فى التهاوى منذ الأحتلال البريطانى وبفعله ، إلى أن يصل مع كرومر وقبيل الحرب الأولى إلى نقطة الحضيض الدنيا والصفر المطلق ، وهنا أيضا نقطة الأنكسار فى المنحى كله ، حيث ينتهى الضلع الساقط ويبدأ الضلع الصاعد .

ببطء شديد جدا يبدأ ، وذلك مع الحرب الأولى التى منعت الأستيراد ، فأرغمت الصناعة الوطنية على شىء من الظهور الطفيف ، والأستعمار على القبول بها ؛ غير أنها تنتكس بسرعة وبحدة بعد الحرب بعودة المنافسة الأجنبية ، ولا تفيق وتعود إلى الصعود البطىء إلا فى الثلاثينات . مع فورة الوطنية المصرية وترشيد التعريفة الجمركية ، ثم تأتى الحرب الثانية ، أكثر جدا من الأولى ، لتمثل القمة الثانية والضخمة ، خط الصعود ، ورغم أنها تتعرض لبعض الأهتزاز بعد الحرب ، إلا أن ثورة يوليو لا تلبث أن تجىء لتدفع الخط إلى أقصى قمة عرفها على الاطلاق التاريخ الحديث جميعا ، منذ وبما فى ذلك محمد على ، إذ لا وجه الآن للمقارنة بين مستوى تلك البداية وهذه النهاية التى تتفوق خارج كل حدود بحكم اختلاف العصر تماما .

وعدا العلاقة العكسية أو السلبية مع الاستعمار ، والتى هى نغمة الأساس ، وإن تكن النغمة الحزينة بالطبع ، فلعل

أبرز مغزى لهذا المنحنى هو العلاقة الموجبة بين صناعتنا وبين الحروب العالمية ، الحرب الأولى والثانية ، ولولا الأخيرة كحماية طبيعية قسرية ، لما أنتزعنا أول خيوط التصنيع من بين براثن الأستعمار ، أو بالأصح من فك الأسد المفترس ، وبهذا الايقاع وهذا النبض .. تبدو حركة صناعتنا أشبه بحركة القمح وعكس حركة القطن فى زراعتنا ، تزدهر أثناء الحروب العالمية .. وتنتكس بعدها أو بينها ، وإذا كان أثر ترشيد التعريفة الجمركية سنة ١٩٣٠ .. يمثل استثناءً جزئيا من هذه القاعدة أو العلاقة ، فإنما هذا يأتى ليكمل القصة باللمسات النهائية فقط .

فالقصة فى واقع الأمر تكتمل مراحل وضوابط فى هذا السيناريو : بعد ولادة الحرب الأولى الجنينية ، كان ترشيد التعريفة الجمركية بمثابة حضانة وحصانة للصناعة الوليدة ، ثم كانت الحرب الثانية فأتت بالمزيد من المناعة والدفعة ، عبرت بها الصناعة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا والمراهقة ، إلى أن جاءت يوليو أخيرا .. فعبرت بالصناعة من مرحلة البلوغ والمراهقة إلى سن الرشد والشباب حاليا ..) (من كتاب شخصية مصر ، جـ ٣ ، ص ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩) .



المكان كائن عضوى .. تلك من فروضه الأساسية بلا شك ، إذ كيف نبحث عن شخصيته .. بل وعبقريته .. دون رؤيته فوارا متدفقا بروحه الخاصة .. متجليا بها فى ظواهره جميعا ، تجليا يبرز به الإنسان بثقافته وتاريخه ، ثم يتدرج

إلى غيره من الكائنات الحية .. دون أن ينقطع فى الجوامد ، حيث تشملها العلاقات العضوية جميعا .. بقوانينها العامة ، هذه التى حين وضع يده عليها .. باتت من أهم أدواته ، مستكشفا بها روح اقليمه - وسابرا أغواره ، مدللا على عضويته .. بما تتعرض له ظواهره من "تغير" دائب .. حيث لا جانب أيها يبقى مطلقا على حاله ، ومتتبعا لها فى دورة وجودها .. سواء كانت مجتمعا أم نباتا أم هضابا ، تصعد جميعا دورة حياتها .. على منحنى يبدأ بالطفولة وينتهى بالشيخوخة .. مفضية إلى دورة جديدة ، ثم هى "تتفاعل" .. عبر ما لا يحصى من خطوط التبادل ، وهى أيضا "تتلاحم" وتختلط وتتماذج .. وتتوحد شرايينها فى بنية مركبة .. معقدة .. بقدر ما هى حال تبينها بسيطة ، وهى حين تتمايز .. لا تنقطع ارتباطاتها بغيرها بتاتا ، بل تتواصل منداحة فى دوائر .. تضمها مع غيرها .. فتمس جزئية من بنية الأرض العامة ، بل هى أيضا تتحرك .. ليحل بعضها محل الآخر .. سواء كانت بشرا أم صحراوات أم بحارا ، كما هى تتكيف .. إنسانا ونباتا وحيوانا ، وتقاوم عوامل الفناء .. كل بطريقته الخاصة ، بهذا وغيره .. دفع عن مشروعه أن يكون جامدا أو سكونيا .. على حد تعبيره ، والواقع أن اختياره لفرضه الصعب "المكان كائن عضوى" .. كان أيضا أستجابة لدينامية عقله وقدراته ، ولولا ذلك ما أستطاع أن يمضى فى تطبيقه بطول وعرض مشروعه ، فجاءت تطبيقاته مجلوة معبرة عن الواقع وعن تصوراته ، بل وصعد بفرضه العضوى خطوة .. وتمثله كدراما ، دراما الإنسان المصرى .. كما هى

دراما الطبيعة . يدق مع الكوارث طبوله .. ويعزف عند الرخاء بمزماره ، باحثا فى المكان عن نبضاته .. وفى التاريخ عن ايقاعاته ، ناشرا أضواءه فوق ما ينفع وطنه .. فهذا هدفه النهائى .

● (.. لعلنا الآن فى موضع يسمح لنا بأن نصل إلى قانون هام للغاية فى كيان وتكوين مصر ، وفى شكلها وتشكيلها ، إنه النيل يكاد يحكم تشكيل كل مظاهر العمران تقريباً ، وتوزيع الحياة من حوله ، ويضبط ايقاعها فى كثافة معينة ، تقل بصورة عامة .. كلما بعدنا عنه شرقا وغربا ، فكل شيء فى مصر تقريبا يميل إلى أن يقل وزنا وقامة .. وربما قيمة كلما بعد عن النهر ، عدد السكان ، كثافتهم ، أحجام المدن ومعدل تباعدها بل وأحجام القرى ، مستوى أحياء المدن وثرائها والتوزيع الجغرافى للطبقات الأجتماعية داخلها ، ومن تحت ذلك كله سمك رواسب التربة الفيضية ونسبة الطمى المخصب فيها ، ماء الرى نفسه ، فضلا عن منسوب الأرض الطبوغرافى البحت ، حتى اللغة (بالمناسبة أو الأستطراد) النيل يحكمها هى الأخرى بنفس النمط والأيقاع فيما يبدو .

ذلك إذن ايقاع الحركة الأساسية فى مورفولوجية مصر الطبيعية .. وفى وجه مصر البشرى ، إن الوادى كله بفضل وحدة الأصل النيلى .. يخضع لايقاع ونغمة موحدة ، تتطور ببطء وبتدريج شديد فى الطبيعة واللاندسكيب والمجتمع ، أى أن النمط البشرى يكاد يتناسب طرديا مع سمك غطاء التربة النيلية من تحته ، وسطحه محدب كسطح الوادى أسفله ،

ومصر فى مجمل جسمها البشرى .. بشكله الخطى الدقيق النحيل ، المكثف المتضاغط مع ذلك ، وبانحدارات كثافته الموقعة والموزعة ، مصر أقرب شيء إلى سلسلة جبلية طويلة عالية ، تنحدر بانتظارم من ذروتها فى الوسط ، عبر سفحين متناظرين إلى سفح الجبل وأقدام السلسلة على الأطراف .

وإذا كان معنى هذا أن التدرج الهامشى هو قاعدة الحياة البشرية .. وقانون مورفولوجية جسم مصر ، فإن معنى آخر أن النيل .. كما هو مانح الحياة موضوعا Life Giuer .. فإنه شكلا موزع أو رشاش الحياة Life Sprayer على وجه الدقة ، حيث يقل عطاؤه نوعا بالتدريج على الأطراف ، إن طبوغرافية النهر ترسم تضاريس المجتمع أو الطبوغرافيا الاجتماعية ، النهر مرة أخرى .. هو جغرافى مصر الأول والأكبر .. إنه النهر الجغرافى .

معنى هذا أيضا وأخيرا .. أن النيل على كل امتداده من الشمال إلى الجنوب .. هو قمة مصر طبيعيا وبشريا ... وإن بدا القاع تضاريسيا ، إنه محور مصر وعمودها الفقرى الصلب ، على سيولته الرجراجة ، يمثل خط الذروة فيها كسلسلة السمكة أو الجبال أو كالهرم منه تنحدر وتدق وتخف شرقا وغربا فى كل شيء .

باختصار .. النيل هنا .. هو اللحن الأساسى فى السيمفونية الجغرافية ، وإن المرء ليشعر بسهولة تامة ، أن كل قوة مصر وحياتها وكيانها .. تحتشد وتتركز بكل كثافة فى

خط واحد محدد هو النيل ، ما من إقليم فى العالم بالتأكيد تتركز كل قوته في خط وحيد مثلما تفعل مصر النيلية ، إنه خط "القوة العظمى" بها فى الاستقرار ، مثلما هو خط المقاومة الدنيا فى الحركة ، ومصر بدورها إذن نيلية التركيز والاستقطاب Nilo Centric . فالنيل ليس عصب وشريان مصر وشارعها الرئيسى فحسب ، ولكنه كذلك مرآتها ومغناطيسها وموجهها ، وهو الذى يمنحها التجانس التركيبى ، ويعطيها نسيجا شبكيا متدرجا فى آن واحد ، وتقع هذه العلاقة الحميمة كلها لا من خلال حتم جغرافى موهوم أو مزعوم .. وإنما ببساطة من خلال مطلق السببية العلمية ..) (شخصية مصر ، جـ ٢ ، ص ص ٢٠٩ ـ ٢١١) .



لم يكن المكان وحده عضويا عنده .. بل التاريخ أيضا ، ليس فقط بهدف بعث الحيوية والتدفق فى ظواهره ، وإنما أيضا كضرورة منهجية ، فالتاريخ رصيده .. والجغرافية حقله ، وشخصية مصر بنية متدامجة جغرافيا وتاريخيا .. متلاحمة فى الزمان والمكان .. فكيف يفصم مكانها عن زمانها ؟، ومن ثم .. فلم تفلت ظاهرة مكانية .. دون متابعتها زمانيا إلى جذورها ، بحيث لو قسمنا متنه فرضا .. فسينجلى عن نصفين شبه متعادلين للتاريخ والجغرافية ، وتتراوح معالجته التاريخية .. ما بين الإطلالة الشاملة .. لمئات من السنوات .. يلخصها فى فقرة ، وما بين المتابعة التفصيلية

التى تشغل عشرات الصفحات .. بل وفصولا بأكملها (شخصية مصر الجنسية ، ص ص ٣٠٨ ـ ٤٧٨ ، جـ ٢) مثلا ، عدا أخرى عديدة تقل عنها ، لكنه يعود فيلخص سياقاتها .. فى معادلة مكثفة .. هى بالضبط ما يهدف إليه .. وما يسعى لاثباته من ملامح شخصيتها الاقليمية الأساسية ، وربما تكون مقولاته الفكرية من نتائج رحلاته التاريخية أو العكس ، فكيف يثبت "المركزية ، والانقطاع والاستمرارية ، وملكة الحد الأوسط ، والاعتدال والتجانس والتوسط ، وغيرها من المقولات الثرية بمستوياتها والمتشابكة بأبعادها ، دون أن يجدف فى النهر مرة .. ويشرع قلوعه فى البحر مرة . ويملح ويبحر .. فى طبقات التاريخ المتراكمة ، ولقد يبطىء أحيانا ويسهب .. ربما للمتعة أو لأن الرياح لم تكن مواتية ، فيضطر للغوص بنفسه .. ويقتضى ذلك منه صفحات ووقتا لا يضن به ، ثم هو يتوقف عند الموانى والجزر .. ليجادل ويحاور .. ويستخلص المعنى .. إما من خبرة من سبقه .. وهم كثر .. ومؤلفاتهم متضخمة حجما ، وإما بجدليته الخاصة مع فروضه الأساسية ، فهو لا ينى عن تقليبها عبر مراحل التاريخ المختلفة ، ويقارن بينها وبين آراء غيره ، ولا يتراجع عن خوض معركة .. يشهر فيها أسلحة نقده .. فلا تنجلى غالبا إلا وقد دحر خصمه (راجع معركة النيل والفرات ص ٤٠٣ ـ ٤٠٨ ، جـ٢) ، ورغم بحثه الدعوب عن المنحنى التاريخى فى صعوده وهبوطه .. إلا أنه يلجأ دائما لتقسيماته الخاصة لمراحله ، تقسيما يتفق مع مقولاته ويوضح فروضه .

ثم هو يربط بين جزئياتها .. فليست عنده جزئية مستقلة ، وإن شذت أو واجهته صعوبات موضوعية أو منهجية .. فهو إما أن يراها من باب اثبات القاعدة .. أو يترك أمرها للمستقبل .. (راجع تحليلاته للسد العالى .. كذروة لتطور الرى المصرى ، جـ ٢ ، ص ١٠١٦) ، وتتجلى مهاراته التوقيعية المستقبلية .. مستندة إلى قراءة تاريخية ، فلا تجاوز خطوة للأمام بعدها ، متسقا مع إدراكه بكم المتغيرات اليومية .. وأحيانا شبه الانقلابية ، هذه التى قد تخالف بعضها .. حتى القريبة منها ، ومن ثم يعود فيفسرها .. بأن السياسات الغشوم . تفسر التاريخ كما تفسد الجغرافية ، ولكنه لا يفقد يقينه بصلابة توقعاته ، ويعود فيؤكد بأن التاريخ يوما سيصحح .. وكذلك الجغرافية ، يدل على ذلك تحليلاته عن إسرائيل وقضية العرب معها (جـ ٤ ، ص ٦٣٢) ، بل هو يرى بأن متنه كله عن شخصية مصر .. وثيقة تاريخية .. وإن كانت جغرافية ، فالمكان ذاته يتغير يوميا ، انظر قوله (.. وإنما عذرنا .. وهو أيضا رجاؤنا ، أن يكون النص بصورته الأصلية وثيقة تاريخية دامغة ، مثلما هى صافعة لكل من كان له قلب أو لم يزل .. أو القى السمع وهو شهيد ، وتذكرة وعبرة لمن لم يفقد بعد آخر قطرة من حسه الوطنى والقومى ..) ، فهل كان أيضا يقصد نفسه ؟.. ربما .. ولكن هذه مسألة أخرى ، وربما أيضا آن أوان عرض ما يوضح منهجه التاريخى ويفسر أهميته عنده .

● (.. شخصية أى بلد هى كجبل الجليد الطافى ، لا

يظهر منه إلا اقله .. وهو الجغرافية المعاصرة ، أما الجسم الغاطس الأكبر فهو البعد أو العمق أو الوراء التاريخى ، والأمر فى هذا ليس مجرد اهتمامات أنتيكية antiquarian أو ولع بالماضى ، وإنما الجغرافية الحالية لأقليم ما .. هى إلى حد أو آخر محصلة جغرافيات الماضى ، ومن أجل هذا قيل أن الخريطة الجغرافية وثيقة اجتماعية ، الخطوط التى عليها هى خط يد التاريخ ، ومن أجله أيضا قيل كذلك أن التاريخ هو البعد الرابع للجغرافيا ، بل ويذهب "جونز" إلى حد القول بأنه "إذا كانت الجغرافية قد أصبحت تعنى دراسة علاقات الإنسان ببيئته الطبيعية .. فإن كل الجغرافية هى إذن جغرافية تاريخية ، ومن هنا جميعا تصبح الجغرافية التاريخية ، عنصرا جوهريا .. فى دراسة الشخصية الاقليمية ، لأنها بإيجاز متوسط التاريخ مضروبا فى جذر الجغرافيا .

والتاريخ بعبارة أخرى هو منجم للجغرافية ثرى لا ينضب ، منه تستمد خامة ثمينة لا غنى عنها ، وهو إلى ذلك معمل الجغرافية البشرية . يقدم لها تجارب الماضى التى لا بديل عنها ، حيث يستحيل إجراء التجارب على الإنسان والمجتمعات المعاصرة ، ويندمج العلمان فى الجغرافية التاريخية ، التى هى جغرافية ديناميكية متعددة الطبقات والأعماق ، وبصيغة أخرى لا جغرافية بلا تاريخ أكثر مما هناك جغرافيا بلا خرائط عموما ، كل الفرق أن الخريطة أداة أما التاريخ فمادة ، الخريطة وسيلة إيضاح وأسلوب تعبير ، أما التاريخ فخامة للتشكيل ومصدر للتقنين ، وكما أن تاريخ

مصر ككل .. تاريخ لا يمكن فهمه بغير جغرافيتها . كما يدرك كل مؤرخ واع ، فإن جغرافية مصر ككل .. جغرافية تفقد الكثير جدا من معناه ومبناها ، ومن مغزاها ومحتواها .. بغير تاريخها ، ولعل الجغرافيا التاريخية لهذا كله .. هى من بين كل الجغرافيات أكثر ما يسبر روح أى إقليم ويعبر عنه فى جوهر كيانه ، ليس فقط بكشف الثوابت المتكررة .. أو المتغيرات فى سلوك الأقليم ودوره ، ولكن أيضا الإحاطة والشمول والعرق الزمنى .



لم تفت حمدان .. جماليات المكان aecsthetics of Landscape ، ليس فقط فيما يتحسسه من قسماته .. أو يتسمعه من إيقاعاته .. أو يتشممه من روائحه .. أو يصوره من ألوانه ، أو غير ذلك مما يبثه دافئا بين سطوره ، وإنما أيضا بتوجه خاص .. يضع له المقاييس .. ويفرد له الصفحات ، وكأنه يدفع عن تخصصه .. ما اشتهر به من صلابة الحقائق .. وخشونة السياق .. هامسا بقلمه .. كم الجغرافية علم جميل ، ورغم أن رؤيته لتجليات الجمال .. وظيفية فى الأساس ، تتمثل فى التجانس والتناسق والاتساق .. وفى إنسيابية الحركة وتكامل الأجزاء ، إلا أن غرامه يتبدى فائقا أيضا بجمال الأوصاف ، جمالا فطريا مزوقا بذاته .. متزينا لذاته .. معطرا من ذاته .. ظاهرا وخفيا ومتعريا .. متحابثا ورصينا .. يعلن بشتى الطرق عن ذاته ،

ولكنه لا يدع غرامه يغلبه .. فهو يدرك ما قد يصيبه من العائلة الجغرافية المحافظة بالطبيعة .. إن لم يكبح غرامه ، فليس أقل من اعتباره شاعرا أو أديبا .. تبعا لتقاليد العائلة الوقورة ، فيعود خفيفا .. بعد أن يبث في بعض السطوز مكنونه ، ليدمج ذاتية الجمال في موضوعه ومضمونه .. منقبا عن النفعية والوظيفة ، واضعا جماليات المكان في سياقها الاقتصادى ، باعتبارها من موارده وامكاناته ، وتتركب رؤيته الجمالية بذلك من مستويات ثلاثة ، بما يضيفه إلى المستويين الشكلى والوظيفى .. بهذا المستوى اقتصادى ، موضحا أن استثمارها وتنميتها .. لابد وإن تتضمنها بداية سياسة عامة . تترجم تفصيلاتها إلى برامج ، تبدأ بالمحافظة على مقوماتها الخاصة .. وتمنع تدمير أو تشويه الطبيعة ، وتعلو بتنميتها .. استنادا إلى خصائصها الذاتية .. وليس بالمشروعات الزاعقة الدخيلة ، وتتضاعف بتكاملها مع جماليات التاريخ والثقافة ، فتاريخ مصر .. وإن يك فائق الجمال حقا .. إلا أن نفعيته تتدفق من تفرده المكاني ..، وتفيض خيرا إن اتصلت بغيرها .. من مجالات الانتاج الاقتصادى ، بحيث تصب فيضها في البنية الاقتصادية للعامة ، ولا يقتصر نفعها على شريحة بعينها .. وإنما يعود على الشعب جميعا .

● (.. الواقع أن من الخطأ أن نقلل ـ كما فعل هيرودوت قديما ـ من جماليات الأقليم فى مصر ، حقا إن مصر تخلو من الغابات والجبال .. قطبى السياحة الباردة ، ولكنها تملك فى النيل ما يمكن أن يعد بمثابة عقد متصل ـ لا ينفرط بين

البحيرات السويسرية أو الأيطالية مجتمعة ، وحقا إن اللاندسكيب المرئى فيها زراعى من صنع الإنسان .. ولكنه دائم الخضرة والروعة والثراء ، وليس متوسط الجمال أو بسيطا كما يصوره البعض ، ومن ثم فاللاندسكيب المصرى سياحى بدرجة كبيرة ، وموهبة مصر السياحية تكمن فى الأرض بقدر ما تبرز فى المناخ ، والسياحة فى مصر "جغرافية" .. فى كل معنى ، بمثل ماهى "تاريخية" إلى أقصى حد .

إن التجانس الطبيعى حقيقة ملموسة ، ولكنها ليس صورة باهتة .. خالية من هزة التباين ومفاجآت التغير ، فذلك أمر ينفيه التدرج الأساسى ، فضلا عن دقائق التفاصيل المحلية والموضعية التى لا تنتهى ، ويقول "فيدون" - إنه نظرا لشفافية التباين ودقائق التغير فى اللاندسكيب المصرى .. فقد يظن المرء خطأ أنه لا ملامح له ، وقد يصل الظن أخيرا إلى أنه لم ينتقل أبدا .. وأن تقدمه لم يكن إلا وهما ، فبعد سفر طول النهار .. قد تحسب انه لم يكن ثمة إلا منظر واحد عبره شاهدت تلاعب الضوء والنور والشكل اللانهائى ؛ هذا فجر وهذا ظهر وهذا غروب ، فهذا الحكم اقل من نصف الحقيقة ، وإلا فماذا نقول عن هولنده أو الدانمرك السهليتين مثلا ؟ ولعلهما أكثر من مصر تجانسا طبيعيا تجانسا ورتابة .

ولا ننسى فى النهاية أن جانب المنفعة فى اللاندسكيب المصرى .. يرجح الجانب الجمالى على قوته ، فهو منتج غزير الأنتاج ، وليس مجرد زخرف طبيعى فحسب ، وكثيرون -

يقينا ـ يغطبوننا على طبيعتنا ، أو يودون لو استبدلوا ببيئاتهم المشجرة المضرسة بكل جمالياتها بيئة كمصر ، تجمع بين روعة المناخ وبراعة الإنتاج دون أن ينقصها المنظر الطبيعى ..) .



تعدد الأبعاد والجوانب فى شخصية مصر وكذلك المصرى من أهم ما توصل إليه فى دراسته عنها ، تعددا يعود به إلى أبعاده الجغرافية وأغواره التاريخية ، ويختبر سماته على محك نظريته الأساسية عن الموقع والموضع ، فهى على مستوى القارات .. أفريقية وآسيوية ، وهى على المستوى الأقليمى نيلية وبحر متوسطية ، ولكل بعد منها تأثيراته فى شخصيتها ، كما أن له مقتضياته السياسية ، وهى على محور التاريخ والثقافة .. فرعونية بحر متوسطية عربية ، بكل ما يعنيه ذلك من تنوع توجهاته ، وهى قد تشربتها كلها داخل بنيتها .. فلم تؤدى مثل غيرها إلى أنفصام الشخصية .. ولم تصبها بدوار جغرافى على حد قوله (ص ٤٥) ، فقد أتاح لها تاريخها الطويل أن تستوعب معطياتها جميعها ، وذلك فى إطار سمة أخرى قدرها لها .. وأسماها .. ملكة الحد الأوسط .. أو الاعتدال كخاصية أساسية فى الشخصية المصرية ، ولا تقل هذه أهمية عن "تعدد الجوانب" .. فى المحصلة الأخيرة لدراسته ، بل هما (التعدد + الاعتدال) .. بمثابة شقى المعادلة ، يؤدى عدم اقترانهما أو ضعفه .. إلى شروخ فى الشخصية ، أى أن مصر قد امتصت تعددها باعتدالها ،

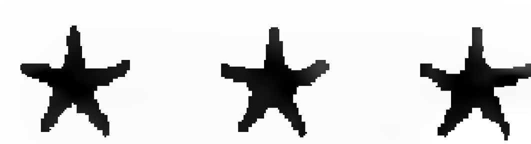
ومزجت بين تنوع أبعادها .. بملكة الحد الأوسط ، متوصلة بذلك إلى ما أسماه بـ "الاستمرارية" ... وهذه سمة ثالثة أخرى ... .لا تقل أهميتها عن سابقتيها ، وإذا كانت استمراريتها قد تقطعت ظاهريا .. فقد بقيت سارية في دفائنها ، مؤدية آخر الأمر إلى ما يمكن تحديده جملة في شخصيتها ، ولا يعنى ذلك خلوها من شوائبها .. على كافة مستوياتها .. السياسية والاجتماعية والفردية ، بل على العكس .. هيَ تعانى فى جميع هذه المستويات من أمراضها ، ولكنها تواصل طريقها ، وقد آن لها أن تواجه نتائج ما اختارته وما فرض عليها ، مستندة إلى سماتها (التعددية + ملكة الحد الأوسط + الأستمرارية) .. متطهرة من أوخامها وأوشابها .

(.. ماهى خصائص الشخصية المصرية ؟. التدين على رأسها .. مردودا لحضارتها الزراعية ، بكل ما يتصل بها من سمات الصبر والدأب والجلد والتحمل ، ثم المحافظة .. نتيجة للاستقرار وبسببه ، فالاستقرار استمرارية والاعتدال .. وإن يكن غير بعيد عن المحافظة ، ولكنه يوفر هامشا معقولا من المرونة والتلاؤم والتغيير والحيوية .. التى تضمن له على أقل تقدير القدرة على التطور البطىء ، التطور خطوة خطوة وبالجرعات الصغيرة ، وبالتالى تضمن له البقاء الطويل على المدى البعيد ، وبحكم الاعتدال فالمصرى أميل للشخصية الاجتماعية المنطلقة extrauery غير المنغلقة ، كما أنه أجنح للتعاون منه للتنافس ... ومن الاعتدال إلى الواقعية ، فقد

علمته البيئة والتجربة .. أى الجغرافية والتاريخ .. احترام الواقع .. وعدم الانفصال عنه أو التناقض معه ، وإلا فهو يهرب منه بالتدين أو يواجهه بالنكتة ، ومن المسلم به أن مصر لم تعرف كراهية الأجانب قط Xenophobia .. بحكم موقعها وسط الدنيا ، لم تعرف العنصرية أو التعصب الجنسى ، ولا رفضت الاختلاط الصحي بالغير ، ولا عرفت حاجزا لونيا فى تاريخها ، ولقد رأينا كيف امتزجت العناصر فى مصر كيماويا ، وذلك بفضل قوة امتصاص نادرة ، ولعل الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الناحية الدينية ، فالتسامح الدينى من أقدم خصائص المصرى القديم ، جعلته يتقبل الأديان ويقبل عليها على مر التاريخ ، وليس صدفة على الأرجح أن مصر هى التى أضافت إلى المسيحية الرهبنة ، وإلى الإسلام من بعدها التصوف ، كما لم تعرف المذابح الدينية أو محاكم التفتيش ، فقد جب تعدد الأديان التعصب الدينى وجعل التسامح ضرورة حياة ، أما فى الحضارة فلا يبرز عنصر التوازن والاتزان والاعتدال والتعادلية ، كما يبرز فى التفاعل مع الحضارة الغربية الحديثة ، والمدنية المصرية اليوم تجسيم واضح لتعاصر القديم والجديد ، وريفنا بدوره يمثل تضاغطا للتاريخ فى أكثر من ناحية ، فإلى جانب المحراث والشادوف وغيرهما من أدوات القرن العشرين قبل الميلاد ، نجد الجرار والخزان وغيرهما من نتاج القرن العشرين بعد الميلاد) .

والواقع أن المثير حقا فى كل هذا .. هو كيف تتمتع مصر بنظرة عالمية رحبة الأفق كوزموبوليتانية ، دون أن تفقد قوامها

الذاتى ، وكيف أن الجوهر الدفين فيها لا ينسخ وإنما يتناسخ ، ولكن يمكن أن نضعها كقاعدة .. إن مصر كلما زادت تغيرا وتطورا .. زادت شخصيتها وذاتيتها تأكيدا واستمرارا ، كأنما هى تجسيم للمثل الفرنسى المعروف . كلما تغير ذا .. كان ذا نفس الشىء .. Pluscachange Pluscest La meme chose حتى فى الماضى البعيد .. مصر كانت "تمصر" كل جديد ، تهضمه وتمثله وتفرزه كائنا مصريا صميما .. الموجات الأجنبية ابتلعتها ومصرتها ، الرعاة امتصتهم فى قالبها الفيضى .. وصاروا زراعا مستقرين ، هذا عن مصر القديمة .. أما اليوم فيقول فيدون .. "مصر عازفة عن أن تكون أى شىء إلا مصر" ، إن ملكة الحد الأوسط هى بوضوح كلمة المفتاح فى شخصية مصر الحضارية ، فى مواجهتها للجميع ، وفى التوفيق بين الماضى والحاضر ، بين المحلية والعالمية ، بين الأصالة والمعاصرة ، وبين التراث والاقتباس ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ص ٥٢٤ ـ ٥٣٤) .



تعود جسارته الفكرية .. إلى عقله وقوة روحه الفطرية ، آثر باعتزاله ألا يبددها .. فى صراعات جانبية .. ، قد شحنت بقدرات ومهارات متوثبة .. هى نقيض العزلة .. وفى نفس الوقت تعوض عنها .. فاستثمرها مكثفة فى عمله .. ولم يضيعها ، مكنته جميعها من مواجهة الحقائق .. فى عيتها (جـ ١ ، ص ٣٠) ، مستندة إلى مكتبة موسوعية .. من الناحية الموضوعية ، والى الإحاطة بمقاييس الفحص .. من

الناحية المنهجية ، هو يقرأ أولا .. ويسجل الفكرة .. ثم يقرأ ثانية .. للإحاطة بأبعادها .. ثم يقلبها ويتأمل جوانبها .. وقد يكتب آنذاك بعض خواطره عنها ، ثم يقرأ مرة أخرى .. غير متعجل أو متحيز .. عن النظرية ، باحثا عن تطبيقاتها فى العلوم الأخرى .. محددا تغيراتها ومستوياتها .. ومتفاعلا برأيه الخاص معها ، ثم يربطها وهى جزئية .. بالمنظومة العامة لمشروعه .. ويرتق ثقوبها .. ويجمع خيوطها .. ويكشف تناقضاتها .. ويعالجها ، ساعيا لوحدتها ، وحين يتأكد أن صافى ذهنه .. قد غدا معادلاً لموضوعه .. ومعادلا لكل ما كتب عنه قبله ، يشرع قلمه .. وتبدأ معاناته الحقيقية .. ذلك أنه يطمح لأنه يدمج ما فى ذهنه مع موضوعه مع جملة ما قرأ عنه ، طامحا أيضا لأن تكون لغته علوية فلسفيا .. واقعية جغرافية .. فنية صياغة وايقاعا ورسما ، وقبل ذلك وبعده .. مصيبة كبد الحقيقة .. كالمشرط . ومن معاناته تنبثق متعته .. تشعر به مستمتعا وهو يكتب ، متعة شخصية .. بغض النظر عن أهمية القضية ، مبعثها اندماجه فيما يعرض .. وحرصه على النفاذ إلى روحه ولبه وتفريغ أيها من صديدها المزمن يقلبه بكلماته على شتى الأوجه ، يتحسسها أولا ثم يتعمق ، يتلمس حروفها .. ثم يستطعم .. ويتابع فيضها وثبا ، كل تفصيلة تهمه وكل ثنية .. فيقربها ويكبرها بالكلمة ، وكما اندمج من قبل فى القراءة والفكر .. هو الآن مندمج فى الكلمة ، لا يرضى ولا يقنع .. إلا بأن تكون مشعة بما فى باطنها .. فيصدق ويصدق ، يعرى بها ويكشف

في جرأة .. فبعد كل هذا .. كيف يكذب ؟ لقد وعد بأن يواجه الحقيقة في عينها .. وفيما يلى ما يدل على صدق وعده .

(.. قضية إعادة بناء الإنسان المصرى .. هى ببساطة .. قضية هرم الديكتاتورية المصرية الغاشمة الجهول ، ودك صرحها الاجرامى العاتى المتهرىء ، وتصفية الطغيان الفرعونى المخضرم المتقيح البغيض .. تصفية أبدية ، وهى قلعة الاستبداد المصرى الشوهاء المشئومة ، ومن هنا .. فحين يأتى الحديث عن إعادة بناء الإنسان المصرى والشخصية المصرية من أعلى .. من وكر السلطة الغاصبة ، فلكم يبدو حديث إفك حقا ، ولكم يبدو منتهى السخرية وقمة الاستخفاف بالحق والعقل والعلم ..) ، (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٥٢١) .

● (.. إن معظم سلبيات وعيوب الشخصية المصرية .. إنما يعود أساسا .. وفى الدرجة الأولى إلى القهر السياسى الذى تعرضت له ببشاعة وشناعة طوال التاريخ ، هذه .. ولا سواها نقطة الابتداء والانتهاء .. مثلما هى نقطة الاتفاق والالتقاء ، السلطة ، الحكم ، النظام ، الطغيان ، الاستبداد ، الديكتاتورية ، البطش ، التعذيب ، التنكيل ، الإرهاب ، الترويع ، التخويف ، تلك هى الآفة الأم .. وأم المأساة ، ومن هنا .. يجمع الكل على أن النغمة الأساسية أو اللحن الخفى المستمر وراء الشخصية المصرية فى علاقتها بالسلطة ، ومفتاح هذه العلاقة التعسة ، هو العداء المتبادل والريبة المتبادلة ، هى الحب المفقود .. والبغض الموجود .. بلا حدود ..) ، (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ٥٢٢) .

●● (.. روح السماحة والدماثة . المقولة تلك .. هى أيضا المسئولة الأولى عن واحد من أخطر عيوب مصر .. وهى أنها تسمح للرجل العادى المتوسط .. بل "للرجل الصغير" بأكثر مما ينبغى .. وتفسح له مكانا أكبر مما يستحق ، وفى الوقت نفسه ، وكأنما لتضيف الإهانة إلى الجرح .. فإنها على العكس تضيق بالرجل الممتاز ، إذ لا مكان له فى توسطها ووسطيتها ، وأفضل مكان له خارجها ، فشرط النجاح فى مصر أن تكون اتباعيا ولا ابتداعيا ، ومواليا لا معارضا ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٥٣٩) .

●●● من المركزية إلى الطغيان ، فلا جدال أن الدولة المركزية ، والمركزية العارمة ملمح ملح وظاهرة جوهرية فى شخصية مصر ، فبقوة المركزية الجغرافية .. فرضت المركزية السياسية والإدارية نفسها فرضا ، فى شكل حكومة طاغية الدور .. فائقة الخطر ، وبيروقراطية متضخمة وعاصمة كبرى .. منذ الفرعونية وحتى اليوم ، ومنذئذ وإلى الآن كقاعدة أيضا .. أصبحت المركزية والحكومة والبيروقراطية والعاصمة .. أطرافا أربعة أو مترادفة لمشكلة واحدة مزمنة ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ص ٤٠) .

●●●● وسواء أكانت مصر أم الدنيا أو أم الديكتاتورية .. أو كان حاكم مصر هو أقدم أمراضها . كما يذهب البعض ، فلا شبهة أن الديكتاتورية هى النقطة السوداء والشوهاء فى شخصية مصر بلا استثناء وهى منهج كل

السلبيات والشوائب المتوغلة فى الشخصية المصرية حتى اللحظة ، ليس على المجتمع فحسب . ولكن الفرد أيضا ، ليس فى الداخل فقط ولكن فى الخارج كذلك ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ص ٤١) .

●●●● ولقد تغيرت مصر الحديثة فى جميع جوانب حياتها .. بدرجات متفاوتة ، إلا نظام الحكم الاستبدادى المطلق .. والفرعونية السياسية وحدها ، فهى ما تزال تعيش بين أو فوق ظهرانينا بكل ثقلها وعتوها ، وإن تنكرت فى صيغة شكلية ملفقة هى الديموقراطية الشرقية ، أو بالأحرى الديموكتاتورية ، والمؤكد أن مصر المعاصرة لن تتغير جذريا ، ولن تتطور إلى دولة عصرية وشعب حر ، إلا حين تدفن الفرعونية السياسية مع آخر بقايا الحضارة الفرعونية ..) (شخصية مصر ، جـ ١ ص ٤١) .

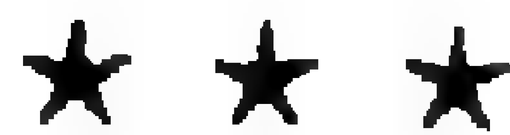
●●●● والحقيقة أن الحكومة هى كل شىء فى مصر ، تحكم كل شىء ، ووحدها تملك كل شىء ، بما فى ذلك الحكمة والرأى الصواب وفصل الخطاب ، ولما كانت الحكومة ملك الحاكم ، والوطن ملك الحكومة ، فإن مصر فى النهاية ليست شعبا له حكومة بقدر ما هى حكومة لها شعب ، حتى ما يسمى فى مصر الثورة .. هو حكومى أيضا ، انقلاب عسكرى .. أليس انقلابا من الدولة على الدولة ؟ انقلاب جزء من الدولة على الدولة ..) (جـ ٤ ، ص ٦١٠) .

●●●● (.. لقد تحرر الإنسان المصرى أخيراً .. أو يوشك على التحرر من التخلف ، ولكنه لم يتحرر قط أو بعد من

الأسر ، لقد ظفر بالتنمية نسبياً ، لكنه لم يظفر بالحرية إطلاقاً ، أصبح إنسانا متقدما نوعا .. لكنه ليس إنساناً حرا حقا ..) (جـ ٤ ، ص ٦١٤) .

●●●● (.. ومصر التى كانت ومازالت هى حاكمها ، لن تتطور وتصبح شعبا حراً ، إلى أن تصبح هى شعبها لا حاكمها ، وإلى أن تصبح ملكا لشعبها ، راقيا عزيزاً أبيا فى دولة حقيقية متقدمة متطورة ، إلا إذا صار الشعب هو الحاكم والحاكم هو المحكوم ، فى كلمة واخدة .. لن تتغير مصر فى جوهرها الدفين .. ولا مستقبل لمصر .. إلا حين يتم دفن آخر بقايا الفرعونية السياسية والطغيان الفرعونى ..) (جـ ٤ ، ص ٦١٣) .

●●●● (.. وبالمثل إذا كانت مصر لم تعرف طبقة حاكمة ، فإنها لسوء الحظ عرفت العصابة الحاكمة (ولا نقول أحيانا الحثالة الحاكمة) ، بمعنى عصبة مغتصبة تستمد شرعيتها من القوة غير الشرعية ، ومن هنا فلئن كانت مصر الطبيعة حديقة لا غابة ، فقد كانت على العكس بشريا غابة لا حديقة ، وإن كانت زراعيا مزرعة لا مرعى ، فقد كانت سياسيا مرعى لا مزرعة ، وبالتالى وكثيرا ما كانت مصر إلى حد بعيد حكومة بلا شعب سياسيا ، وشعبا بلا حكومة اقتصاديا ..) (جـ ٤ ، ص ٥٧٦) .



لا ينتهى الموضوع عنده بالتحليل والتشخيص .. بل يتبعه فورا بالعلاج ، ويبدأ التشخيص عنده بالتاريخ .. تاريخ

المكان أو الحالة أو الموضوع .. إلى أدق شعيرات الجذور ، متتبعا لها فى تأن وحذر .. حتى يتحسس موضع الورم ومكامن الداء (راجع تحليله التاريخى لأزمة مصر الاقتصادية .. على سبيل المثال ، جـ ٣ ، ص ص ١٧ ـ ١٤٦) ، ثم هو يصيغ ما توصل إليه فى سياقه التركيبى العضوى .. محددا علاقته بالأغراض ، فى نظرة شاملة لعناصر البنية ، لا تغفل ظواهر الصحة فى بعضها .. حيث توضح النسبية العناصر كما توضح الارتباطات ، ومنها ينتقل إلى الأساس الجغرافى فى المشكلة كقاعدة انطلاق ، يرصد منها كما يتابع أبعاد البنية الحضارية والاجتماعية ، والسياسية والعسكرية والعالمية ، بل والثقافية . كما تعكسها سلوكيات الإنسان ، دون أن يتوقف عن إجراء المقارنات .. تاريخيا بالنسبة للحالة .. وجغرافيا مع غيره من المجتمعات ، مستندا فى كل ما يقوم به ويجريه إلى الأرقام من مصادرها .. دون أن يغرق القضية فى خضمها ، ملتقطا دلالاتها .. ومعانى تغيراتها ، على طول منحنيات بسيطة أو مركبة .. تفسر الظاهرة .. وتوضح قصده .. كما تغذى نتائجه .. وتمنحها صلابة كمية .. تضفى صدقا على التوصيات ، هذه التى تصاغ آخر الأمر فى عبارات قوية موحية ، منذرة بقدر ماهى دافعة ، مشحونة بعاطفته القوية نحو الإصلاح ، متفائلة بقدر ماهى مخوفة ، محددة فى شكل المعادلات . طرق العلاج :

* تدعيم ما أسفر عنه التشخيص من نقاط القوة فى بنية المكان .

* تقديم ما يراه ناجعا من توصيات الشفاء من العلل والأمراض .

ويتبع فى المستويين أسلوبا واحدا لا يحيد ، يتمثل فى استثارة كافة القوى الذاتية للبنية فى الأساس ، بما يحقق مضاعفة القوة الخاصة من ناحية ، وتخليصها من ناحية ثانية . من الأمراض ، فيما اصطلح على تسميته بالعلاج الإيكولوجى .. سواء للجغرافية أو التاريخ ، ويستند بيئيا إلى أن من شأن مضاعفة القوة .. تخليص البنية من الأمراض ، كما يؤدى شفاؤها إلى مضاعفة القوة بالتأكيد ، ضمن تأكيد صارم من الطبيب .. بذاتية العلاج ، وتتراوح بعد ذلك أساليب تدعيم القوة .. مرتبطة أساسا بالإنسان .. باعتباره لب القوة .. وقاعدة التطوير ، وبعده الموارد .. التى تقتضى حصراً شاملا .. يتضمن المستغل منها فعليا .. والمتاح ، فى نظرة ترى بصلاحية جميع الموارد الطبيعية للاستغلال ، وبأن تحويلها إلى موارد اقتصادية .. لا يجب توقفها مهما بلغت الصعوبات ، وبالنسبة لمصر .. فإن سيناء والصحراوات والبحار والبحيرات والواحات بمثابة رصيدها الذى ينتظر التحويل ، ثم ينتقل بمشرطه إلى نظم الحكم والإدارة والقوانين .. وهو ما يدخل به إلى باب معالجة العلل والأمراض .

وتتراوح أساليبه مابين البتر والكى والفصد والتطهير من الصديد ، البتر لكل ما يعوق الديموقراطية بدرجة من الدرجات ، ولكل ظواهر النمو العشوائية فى الحضر والريف ،

والكى لكل الآلام المفصلية فى الإدارة المحلية والنقل والمواصلات ، والفصد لكثافة السكان بإعادة التوزيع وتعمير سيناء والصحراء ، والتطهير من كل ما علق بالثقافة المصرية عبر العصور ، هذا باختصار بعض ما ورد فى روشتة الحكيم حمدان ، وفيما يلى مقتبسا مما فى شخصية مصر .. ورد وجاء ، يتصل بمشكلة مصر الاقتصادية بوجه خاص .

(.. من المفيد والضرورى .. أن ننظر فى البداية إلى اقتصادنا الراهن ككل واحد ، فى نظرة تركيبة شاملة ، تضع كل عنصر من عناصره فى مكانه النسبى من مركبه العام ، ثم تحدد علاقته بسائر تلك العناصر ، وذلك قبل أن نتفرغ لتحليل تلك العناصر بتفصيل وعمق ، ولهذا الغرض يمكن أن نحلل مركب الاقتصاد المصرى إلى عناصره الأولية الآتية ، الزراعة وتثويرها ، الصناعة وانقلابها ، البترول وثورته ، موارد الموقع من قناة وسياحة ، وموارد العمل من خارج الحدود .. أى تحويلات المصريين المغتربين ، ثم أخيرا التجارة الخارجية ، وفى ضوء هذا الاستعراض الدينامى يمكن أن نصل فى الختام إلى حكم متكامل على الهيكل الاقتصادى ككل مترابط (جـ ٣ ، ص ٥٧) .

ومن المسلم به إجماعا أن مصر تجتاز فى الفترة الأخيرة أزمة اقتصادية طاحنة خانقة كعنق الزجاجة تكاد أعراضها تتمثل وتتغلغل فى كل جوانب ونواحى الحياة الوطنية واليومية ، ولا يكاد يبدو لها على الأفق القريب نهاية أو حل ، والواقع أن مصر برمتها قد أصبحت مشكلة من مشاكل ، أى

مشكلة عظمى واحدة .. تتألف من حزمة كثيفة ضخمة من المشاكل النوعية والمنوعة ، بل لقد وصل الأمر فى تقدير البعض إلى حد أنها باتت تحل مشكلة بمشكلة أخرى ، مثلما تفعل فى مشكلة السكان بمشكلة الاسكان ، وغدت مصر أو بدت دولة مشكلة Problemstate بين دول المنطقة وربما العالم ، وعلى الأقل فإنها أحدى الحالات القليلة من دول العالم الثالث التى تزداد تخلفا وتأزما .. بدل التطور والتقدم . (جـ ٣ ، ص ١١٨ - ١١٩) .

ويخطىء من يظن أن هذه الأزمة قد برزت فجأة أو أنها وليدة السنوات الأخيرة وحدها ، وإن كانت قد بلغت ذروتها أثناءها وربما بسببها ، كما يخطىء من يحسبها أزمة عابرة ، فإنما هى أزمة مقيمة .. بل وتصاعدية ضاربة الجذور ، وستظل معنا إلى عقود .. إنها أزمة تاريخية كما هى اقتصادية ، ويخطىء من يظنها بسيطة .. فإنما هى أزمة مركبة ، وهى فى التحليل الأخير أزمة تاريخية حضارية سكانية اجتماعية سياسية عسكرية .

والأساس الجغرافى ، إذا بدأنا من البداية ، واضح تماما فى فقر الموارد الطبيعية نوعا ومحدودية الرقعة الزراعية شبه الثابتة ، لاسيما إذا قورنت بحجم السكان الضخم ، حيث يبرز عدم التناسب .. فتتخذ الأزمة البعد السكانى بلا جدال فأزمة مصر الاقتصادية الراهنة إذن جذرها فى الأرض وساقها فى السكان ، أو قل إن قدمها فى الأرض وجسمها هو السكان ، ويظهر البعد الحضارى فى الأزمة فى انخفاض مستوى

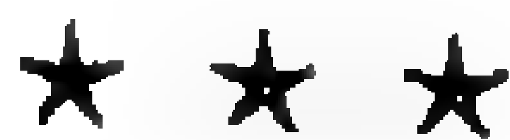
التكنولوجيا والتطور الفنى والعلمى العام ، أما البعد الاجتماعي فيظهر فى تطورات التركيب الطبقى للمجتمع المصرى حديثا ، وما استتبعها من تغيرات فى أنماط الاستهلاك وما خلقت من تطلعات ، أما البعد العسكرى فيبرز فى حاجات وإنفاقات الدفاع ، والحروب الدفاعية المتكررة ضد العدوان الإسرائيلى ، أما البعد السياسى فيتمثل فى اتجاهات السياسة المصرية .. وتقلبها بين سياستي الانغلاق والانفتاح أو الانطواء والانسياح ، وأخيراً وليس آخراً .. ففى تضاعيف كل ذلك .. فى صورة استيراد التضخم الأجنبى والغلاء الغربى مع الواردات السلعية يتسلل البعد العالمى إلى نسيج الأزمة .

ورغم هذا كله .. فإن أزمة مصر الاقتصادية قابلة للحل ، لا مكان هناك للافراط فى التفاؤل ، كما أن الإسراف فى التشاؤم مرفوض ، ولكن السبيل إليه لا يخرج عن معادلة بسيطة ولكنها قاطعة قاسية ... وهى قاطعة لانها لا بديل لها البتة ، وقاسية لانها صعبة التنفيذ للغاية ، هذه المعادلة هى تعظيم الايجابيات وتحجيم السلبيات فى الهيكل الاقتصادى الراهن ، تعظيم الادخار والاستثمار والإنتاج ، والانتاج السلعى خاصة ، والدخل القومى والفردى إلى الحد الأقصى ، وتحجيم الانفاق والاستهلاك والاستيراد والاستدانة ، ويمكن أن نضيف الأسعار والسكان ، إلى الحد الأدنى ، ومن هذه الزاوية .. فحسنا فعلت الخطة الخمسية الجديدة ، حيث

حددت هدف زيادة الصادرات السنوى بنحو ٨٪ مقابل ٤٪ فقط للواردات أى النصف ، ولو أن المطلوب أكثر بكثير .

وقد يكون من الصعب على مصر أن تضاعف إنتاجها السلعى بالذات ، سواءً فى الزراعة أو الصناعة ، ولكنها بالتأكيد تستطيع أن تضاعف دخلها القومى مرات ، وذلك بالتصنيع الكامل لكل زراعتها وإنتاجها وخاماتها بالاضافة إلى الخدمات العليا ، كذلك فقد تبقى مصر طويلا ، مهما فعلت فى الدتخل والخارج ، فى دائرة التخلف والفقر النسبى داخل العالم الثالث ، ولكن ليس هناك بالقدر التاريخى أو بالحتم الجغرافى سقف أعلى ولا حاجز نهائى لمدى تقدمها وامكانيات تطورها .

القضية أذن فى التحليل الأخير .. قضية الإنتاج ضد الاستهلاك الحد الأقصى من الإنتاج ضد الحد الأدنى من الاستهلاك ، فالبقاء للمنتج لا للمستهلك ، وكل استهلاك لا يقابله إنتاج يعنى الإفلاس فالضمور فالانقراض فى النهاية .. أى الموت ، فى حين أن كل إنتاج يفوق الاستهلاك يعنى الانتعاش والرخاء والنمو إلى النهاية .. أى الحياة ..) ، (شخصية مصر ، جـ ٣ ، ص ص ١٤٦ ـ ١٥٠) .



من بين مهاراته العقلية العليا المتعددة .. تتحدد قدرته على التوقع باعتبارها الأعلى : وهى مهارة تحولت إلى قدرة بتغذيتها المستمرة موضوعيا ومنهجيا ، وبالانصات الصبور

لروح العصر ، موضوعيا بمعنى الاحاطة المعلوماتية .. ومنهجيا بإخضاعها لشروط التفكير العلمى ، ومن ثم يقود المرئى إلى غير المرئى .. وتضيق مساحة المجهول لحساب المعلوم .. ويلقى شعاع البصيرة ضوءه .. متجاوزا دائرة الحاضر .. داخل مسافة ما من المستقبل ، وإذا كان المنهج التاريخى بمثابة نهجه المفضل .. فقد قدم له رصيده أيضا للتحرك خطوة نحو ما قد يأتي ، فإذا كان الأمس مستمرا بداهة إلى اليوم .. فبنفس الدرجة يتواصل مع الغد على الأرجح ، وبعبارة أخرى .. إذا كان اليوم متضمنا الأمس .. فالمتوقع أن ينطوى أيضا على الغد .. وبدرجة أقل ما بعد الغد ، ومن هنا فإن أقرب التوقعات المستقبلية للصدق .. هى من باب أولى أقربها إلى اليوم ، وهنا تتحدد السمة الثانية من قدرة التوقع عنده .. حيث الأولى هى الإحاطة بالأمس والثانية أن توقعاته قريبة لا تجاوز الغد .. حرصا على قاعدة الصدق ، ثم تتمثل الثالثة .. فى متابعته الخط .. أو المنحنى الخاص بالظاهرة .. كما يطلق عليه ، أى أنه لا يفلت الخط فى مساره الطولى المتصاعد .. محددا ذبذباته ومستخرجا دلالاته .. بما يكشف قوانين حركته الخاصة وبما يتسق مع رؤيته الشاملة ، هو لا يفلته .. ولكن يتلفت حواليه .. باحثا عن ارتباطاته بغيره .. وعن سياق التأثير المتبادل .. وعن أوجه الاختلاف والتشابه ، وهذه تقود إلى سمته الرابعة .. وتتحد فى المقارنة بالطول وبالعرض ، بالطول تاريخيا .. عبر مراحل الظاهرة الواحدة .. وبينها وغيرها المتزامنة معها ، وجغرافيا

بالعرض ، أينما أتيحت له الأمثلة ، ليست المتشابهة أو المتقاربة وحدها ، وإنما المختلفة والمتباينة أيضا معها ، فالتوقع لا يقوم على المتشابه بين الظواهر .. إلا فى مستواه الأدنى ، ويعلو برصد المختلف .. وتوظيفه فيما يلقى الضوء على الغد بتوصيات عملية قابلة للتنفيذ ، هذه مهارته - وهذه قدرته .. وهذه سمات أسلوبه .. وفيما يلى ما يدل عليها وعليه ، فى المجالين السياسى والاستراتيجى الاقتصادى حيث تتجلى قيمة التوقع النفعية إلى أقصى .

● (.. لا يمكن أن نتكلم عن البعد النيلى لمصر .. دون أن نضع أكثر من خط تحت السودان ، فموقع الجوار الجغرافى ووحدة وادى النيل الهيدرولوجية جعلته من أشد الأقاليم التصاقا وارتباطا بمصر طوال التاريخ ، شأنه فى ذلك شأن الشام ، حيث الرابطة هى موقع الجوار والوحدة الاستراتيجية ، هذه الوحدة الهيدرولوجية وهذه الوحدة الاستراتيجية ، أى بين مصر والسودان كما بين مصر والشام .. علاقة خاصة بمعنى ما ، وكلتا العلاقتين قديمة وسابقة للعروبة .. كما هى لاحقة عليها .

وفى العصر الحالى . حيث قد تلعب السياسات الوطنية الضيقة أو الضحلة أحيانا دورا يفتقر إلى الرشد ، ولكن بالأخص منذ تفجر عصر البترول فى الجزيرة العربية بكل جاذبيته ومغناطيسيته ، وأيضا بكل اغراءاته وغواياته .. فإن

الملاحظ أن السودان قد يتأرجح ، حيث لا ينبغى ولا يجوز ، متذبذبا بين البعد المصرى فى الشمال والسعودى فى الشرق ، وعلى هذا مهما يكن الأمر .. يلقى مسئولية خاصة على مصر ، فى تقويم ورعاية بعدها السودانى بخاصة كبعدها النيلى بعامة ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٤٤٠) .

●● (.. مازالت حدود مصر الجنوبية معلقة ، فبين السلم والصمت .. تحولت حلايب ومنطقة جبل علبة إلى أشبه بالأعراف بيننا وبين السودان ، فلقد كانت كثير من القوى الأجنبية المعادية لمصر .. تواقة إلى تأجيج المشكلة والوقيعة بين الشقيقين ، فلم تتوان عن أن تغفل الحدود السياسية والقانونية إغفالا تاما فى أطالسها وخرائطها الرسمية وغير الرسمية .. تمهيداً لأثارتها ..) (شخصية مصر ، جـ ٤ ، ص ٥٠١) .

●●● (.. ستنتقل مصر سنة ٢٠٠٠ إلى الغرب عموما ، بعد أن ظلت طويلا معلقة بين الشرق والغرب ، وستكون مصر بذلك أول دولة هامة فى الشرق .. بعد اليابان تنتقل جغرافيا إلى الغرب ، وبالمثل سيتزحزح خط التقسيم بين الشمال والجنوب ، لتعبر مصر البحر المتوسط ، وتصبح بصفة نهائية دولة شمالية ، بعد أن ترددت طويلا أو قليلا بين الدول الشمالية والجنوبية ..) (جـ ٤ ، ص ٦١٨) .

●●● (.. لم يترك الفراغ العمرانى سيناء .. أرضا جاهزة لمعركة العدوان وملائمة لاغراضه فقط ، ولكنه تركها

نهبا للأطماع الاستعمارية الآن وفيما مضى ، وبصفة عامة يمكن القول أنه كان هناك دائما عدو ما يشكك بطريقة ما فى مصرية سيناء .. ويطمع فيها بصورة ما .. بالضم .. بالسلخ .. بالعزل أو بغير ذلك .. لن نذكر هنا البيع أو الايجار ..) (جـ ٢ ، ص ٧٧٣) .

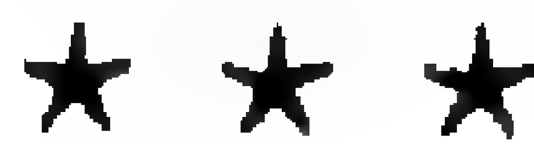
●●●● (.. من الوجهة الاستراتيجية البحتة .. فلم يعد معنى لأن يتوقف ارتباط سيناء بمصر الوادى عبر القناة على كوبرى سكة حديد قابل للتدمير .. بعد إعادة البناء ، لابد من سلسلة انفاق تحت القناة تحمل شرايين المواصلات مثلما تنقل المياه ، فمثل هذه الانفاق تعد مجازيا بل عمليا ، بمثابة إعادة تحقيق للاستمرارية والوحدة الأرضية بين الوادى وسيناء ، ولرقعة مصر الجغرافية السياسية عموما .. رغم وجود القناة ..) (جـ ٢ ، ص ٧٧٧) .

●●●● (.. اهتبلت إسرائيل فرصة النكسة لتحقيق خططها القديمة والموضوعة لوراثة دور القناة نهائيا ، ومعروف أن إسرائيل كانت تهدف دائما إلى سرقة موقع مصر الجغرافى ، وتحلم بأسر تجارة المرور منها وتحويلها إليها ..) (جـ ٢ ، ص ٨٠٦) .

●●●● (.. القناة محكوم عليها بالخطر "الراجع" .. وموقعنا مهدد أبدا وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل ، ومن ثم يصبح المبدأ الاستراتيجى الأولى فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء -

تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعا ، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو ، غير أن هذه قضية متروكة للمدى البعيد ..) (جـ ٢ ، ص ٨١٠) .

●●●● (.. وماذا بعد السد العالى ؟ ماذا بعد أن تمتلىء بحيرة ناصر إلى قمتها بالطمى بعد ٥٠٠ سنة كالمقدر ؟ ثمة احتمالان لا ثالث لهما . إما أن يشق النيل له مجرى جديدا إلى البحر المتوسط ، وإما أن يقتحم الوادى ليحتله من جديد ، ومن ثم لابد من إنشاء قناة تحويل جانبية ، تستدير حول البحيرة ، بادئة من أمام السد .. فى النقطة التى يتكدس فيها الطمى أغزر ما يتكدس ، لتنتهى خلفه بعد أن تكون قد تفادت مصيدة السد ، حاملة بذلك الطمى إلى مجرى النهر الطبيعى مرة أخرى ..) (جـ ٢ ص ١٠٠١) .



تقتنع به حين يدافع عن شخصية مصر وشخصية المصرى ، ذلك لأن دفاعه يسبقه نقده ... ولأنه أيضا يختار قضاياه كمحام بارع بدقة ، فدفاعه يقتصر على ما ألصق بها وبه ظلما من وجهة نظره ، أما غير ذلك .. فإنه يخضعه لنقده .. ويتحول إلى مهاجم فى أحيان أخرى ، متبادلا أدوار الدفاع والاتهام والقاضى .. تبعا للقضية ، وفى جميع الحالات حين يتصدى للشائك منها .. يظهر مستندا إلى رصيد كاف من الأوراق عنها ، يخضعها لعقلية نقدية تقلب الأوجة وإلى قوة شعوره وعاطفته .. لا يترك زاوية معلقة

منها .. بل يطرحها أرضا .. ويعومها تاريخا .. ويشرحها عضويا ، ثم يعود فيركبها ويسجل أوزانها .. ويحدد الكفة الراجحة .. فى حياد وموضوعية .. تبعا لقوانينها العامة .. وأيضا لرؤيته الخاصة ، ذلك أن للقاضي قانونيا مساحة تقديرية ، يستهل مرافعاته بسؤال محدد "ما القضية" ، وبعد أن يعرفها .. يتوجه إلى تحليل أبعادها ... مستعرضا فى توازن وجهات النظر المختلفة ، بما قد يثير الحيرة حول رأيه .. لأنه يعرض أيها مثل صاحبها ، ثم يجمعها ويوجز خلاصتها .. بما يتيح لك أن تصدر أنت حكمك ، ثم يعرض رأيه .. وغالبا ما يكون رأيك مثله .. أو قريبا منه ، وخاصة حين تكون القضية دفاعية .. وبالأخص عن ثقافة مصر وشخصية المصرى ، وقد يثير ذلك الريبة فى شبهة تحيز .. منك ومنه ، يدفعها أنه يهاجم سلبياتهما بضراوة .. قد تشاركه فيها أيضا ، داعيا إلى تغييرها بعقل المحب وقلبه ، فتسلم بوجودها .. لأنه يعرض الأفضل ، هى العقلية النقدية إذن .. فى كافة وجوهها . الهجومية والدفاعية والتقيمية والتقويمية .

وفيما يلى عناوين بعض ما تصدى لدحضه .. أترك تفصيلاتها كى تقرأها بنفسك .

* قضية العزلة (جـ ٢ ، ص ص ٣٦٣ ـ ٤) .
* مصر أصل الحضارة (جـ ٢ ، ص ص ٤٠١ ـ ٤٢٨) .
* السبق والتخلف (جـ ٢ ، ص ص ٤٤٦ ـ ٤٥٦)

* الحكومة والمجتمع (جـ ٢ ، ص ص ٥٤٢ ـ ٥٤٦) .
* النظرية الاقطاعية فى تفسير التاريخ المصرى (جـ ٢ ، ص ص ٥٤٦ ـ ٥٦٥) .
* نظريات خاطئة فى التاريخ المصرى (جـ ٢ ، ص ص ٥٨٦ ـ ٥٩٣) .
* نظرية الشعب غير المحارب (جـ ٢ ، ص ص ٧١ ـ ٧١٤) .
* نظرية جناية الموقع (جـ ٢ ، ص ص ٧١٤ ـ ٧١٦) .
* نظرية الأمن المصرى (جـ ٢ ، ص ص ٧٧١ ـ ٧٧٣) .
* التشكيك فى مستقبل القناة (جـ ٢ ، ص ص ٨٦٨ ـ ٨٧١) .
* السد العالى فى الميزان (جـ ٢ ، ١٠١١ ـ ١٠١٧) .
* بين الوطنية المصرية والقومية العربية (جـ ٤ ، ص ص ٦٣٣ ـ ٦٦٦) .

هذا بعض أمثلة .. وإليك نموذجا من أسلوبه فى الدفاع النقدى .

● (.. تلك هى خريطة المسيحية أو جغرافية الأقباط فى مصر ، فماذا تعنى سياسيا من حيث النسيج والتماسك الجيوبوليتيكى والوحدة الوطنية أو السياسية ؟.. ابتداء .. إن كثافة المسيحية تزداد كلما تعمقنا جنوبا ، أى كلما بعدنا عن مدخل الإسلام من الشمال ، فهذا لا يعنى مطلقا أن الموجة العربية الإسلامية ـ إذا كان لنا أن نضع الحاضر فى إطار

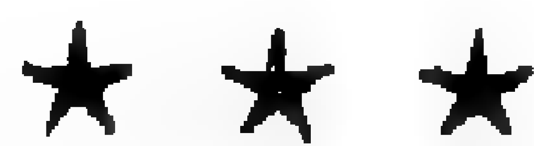
الخلفية التاريخية ـ قد أزاحت الاساس القبطى إلى جيب الجنوب المغلق فى الصعيد ، وذلك كما حدث مثلا للفرشات الأساسية فى الشام والمغرب .. حيث التجأت إلى المعاقل الجبلية والمرتفعات ، فالانتشار العربى فى مصر كان أشبه شىء بعملية الانتشار الغشائى الاسموزى ، عملية تغلغل لا زحزحة ، وتخلل لا إزاغة ، ولهذا فقد أثبتت الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة خطأ النظرية التى كانت ترى أن بين الفلاحين والقبط فارقا كالذى بين العرب والبربر فى المغرب ، فالأقباط والفلاحون يكونون جسما واحدا ، ميتة طبيعية لنظرية غير طبيعية .

والواقع أن الغريب فى هذه النظرية ليس سقوطها وإنما أساسا قيامها ، ذلك لأن وحدة الأصل بين المسلمين والأقباط ليست علميا إلا تحصيل حاصل ، ومجرد بديهية انثروبولوجية ، ببساطة لأن تكوين مصر الجنسى سابق على تكوينها الدينى ، أو كما يضعها "حزين" بكل وضوح .. لأن "الطابع الجنسى العام للمصريين .. قد وجد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون" .

وفى هذه ، بالمناسبة ، رد ضمنى وتوضيحى أيضا على النظرية الشائعة من أن الأقباط.أقرب إلى تمثيل المصريين القدماء من المسلمين ، ولاشك ابتداء أن هذا صحيح ، وإنما بالنسبة إلى جزء من المسلمين لا كلهم ، فليس كل المسلمين بالضرورة قد داخلتهم دماء عربية أو غير عربية ، فهؤلاء إذن لا يقلون قربا من المصريين القدماء عن الأقباط ، والأصح

أيضا أن نقول : عن معظم الأقباط لا كلهم ، ذلك لأن الأقباط هم أيضا قد داخلتهم بعض مؤثرات خارجية ، وأن تكن غير عربية أو إسلامية بالطبع ، وذلك من خلال الزواج المختلط مع بعض العناصر والجاليات المسيحية الليفانتية والأوربية .

بعبارة أخرى فإن معظم المسلمين أو الكثير منهم اليوم .. إنما هم معظم القبط المصريين أسلموا بالأمس ، بمثل ما أن أقباط اليوم هم بقية قبط الأمس الذين استمروا على عقيدتهم ، ومن هنا وحده نتفهم أن المصريين إما قبط مسلمون ، وإما قبط مسيحيون ، حيث كلمة قبط إنما هى تحريف لكلمة إيجيبت أى مصر ، ولقد تكون هذه طريقة خاصة جدا للتعبير عن وحدة الأصل بين الطائفتين ، ولكن الجوهر فيها سليم عمليا ، وهو تلك الوحدة بعينها ، وإذا صح التشبيه الشائع عن الزواج الطبيعي بين أرض مصر وفيضان النيل ، فإن من الصحيح أيضا أن ثمرته هى المصريون جميعا . فالنيل أبوهم ومصر أمهم ، ولعل العقاد كان عالما باحثا .. قبل أن يكون أديبا متحمسا حين لخص الموقف كله فى قضية الوحدة الوطنية بقوله الجامع "ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية ..) (جـ ٢ ، ص ص ٥٠٧ ـ ٥٢٠) .

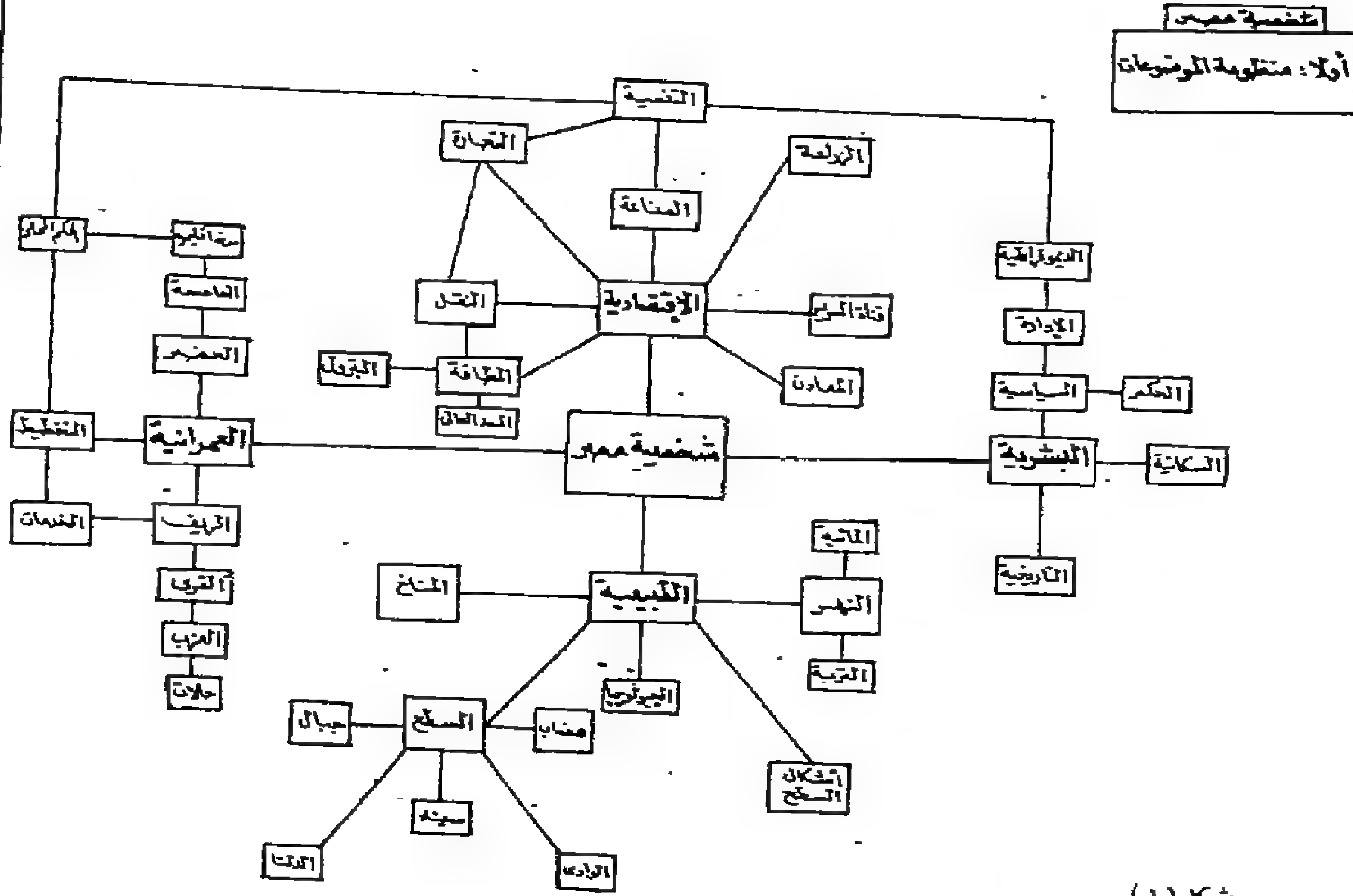


● لا أظنه يرضى بأن يعرض له دون نقده ، فيلسوف ناقد هو .. وعقلية نقدية ، لا تكتمل دائرة ما يكتبه .. إلا بمن يقرأه ـ وينقده ، لقد حاولت إرضاءه بنقده .. ولكن المشكلة أن لعمله طبيعة خاصة جدا .. تدعو إن شئت لأن تتقبله كله .. عظامه

ولحمه وشحمه ، كالنهر يتدفق من منبعه إلى مصبه .. محملا بمائيته وطميه .. وثمة علائق أخرى ، ولكن هذه طبيعة النهر .. فهل ننتقده ؟ وليس هذا تشبيها صرفا .. لأنه ـ حمدان ـ يفيض أحيانا ويسهب ، ويتناقض أحيانا ويركد ، وقد يعلو ويغيب المقصد ، وقد يهجر ضفافه المنهجية .. وأحياناً يتشدد فيما يقطع ، وقد تتداعى عناوينه الداخلية بما يربك ، وأحيانا يكرر صفحات بأكملها ، ولكنها جميعها مسبوقة بكلمتي قد ، وأحياناً .. وهي نادرة أيضا .. ونادرة جدا ، سيدي النهر .. أعتذر عن نقدك .. وأتقبل مائيتك مع طميك مع علائقك الأخرى .

ومن بعد .. فلم يك ما فات وما قبله .. سوى جرعة من بئره .. أما بحره فمستعص ، إلا أن يقرأ سفره كله ، أما آفاقه ورؤاه .. فمتروكة للمستقبل .. عسى لا يبعد ، والمؤكد أن متنه كما أراده تماما .. ملحمة علمية ، ونظاما فكريا ونسقا منهجيا ومعمارا بنيويا .. يتفيأ الأصالة والجدة (جـ ١ ، ص ٦٠) بل ووثيقة تاريخية الكلمة ، تضاف بجدارة للذاكرة الوطنية .

وإزاء عجزي عن قبس متنه المعجز ، آثرت أن أختم هذه المحاولة بمنظومات ثلاثة توجزه .. كما فعل ، الأولى عن فكره والثانية عن مناهجه والثالثة عن موضوعاته ، عسى تفيد قراءه أو من يستعد منهم وقد يتردد ، ببساطة أعدت .. دون التقيد بحرفية أساليبها المتبعة .



شكل (١)
"شخصية مصر"
منظومة الموضوعات

شكل (1)
"شخصية مصر"
منظومة الموضوعات

شخصية مصر

ثانيا : المنظومة المنهجية

شخصية المكان

المنهج الجغرافي
الفلسفة
القوانين
الفروض
المصطلحات
التحليل
الربط
الشمول
التركيب
الترتيب
الضوابط
التوقيع
الهيئة
إعادة التوقيع
الأرقام
الأشكال
العلوم الأخرى

المنهج الكمي
الإحصاء
المعادلات
رياضية
الغوية
القياس

المنهج التاريخي
المتابعة
المقارنة
الاستقراء
المصطلحات
الفلسفة
التحليل
الاستنباط
الوثائق

المنهج الايكولوجي
التفاعل
العضوية
العلاقات
النظام
التوازن
التلوث
الأثر
المحافظة
التدهور
السابق


"شخصية مصر"
شكل (2) المنظومة المنهجية

شخصية مصر

ثالثا: المنظومة الفكرية

المستقبلية

التحدي

الحكم

الكاملية

الإستقطاب

الموقع والموضع

السبق

الأوتوقراطية

القومية

الوطنية

الوحدة

الأحادية

المركزية

عبقرية المكان

التجانس

التلاقي

الإقليمية

التدرج

الاعتدال

الوسطية

الاستمرارية

ملكة الحد الأوسط

شكل (٣) 'شخصية مصر'

المنظومة الفكرية

تلخيص النص .. عن .. شخصية مصر

مقدمـــة :

تشغل مقدمة كتابه خمسين صفحة من جزئه الأول (ص ص ١١ ـ ٦١) ، يستهلها بسطور عن قيمة التعرف على شخصيات الأقاليم Regiona Personality .. (الاقليم قلب الجغرافية ، والشخصية الاقليمية قلبه ، ومن ثم فهى أعلى مراحل الفكر الجغرافى ، ص ١١) ، ثم يعرّفها (.. الشخصية الاقليمية أكبر من المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الاقليم ، فهى إنما تتساءل أساسا عما يعطى منطقة تفردها ، محاولة أن تنفذ إلى روح المكان .. لتستشف عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة ، هذه هى فكرة الهيكل المركب .. أو ما يعرف كاصطلاح عام بعبقرية المكان Geniusloci ، ص ١١) ، ويمكن القول بأن فكرة الهيكل المركب Campage .. هى الفكرة المفتاح فى عمله كله .. كما سيأتى ، ويحدد الهدف (.. والبحث الحالى .. يحاول أن يرسم صورة عريضة .. ولكنها دقيقة بقدر الامكان لشخصية مصر ، ومصر لاشك موضوع مثالى لمثل هذا البحث ، نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية .. واضحة الحدود والتقاطيع ، ولما تملكه من تاريخ الفى حافل ، ص ١٨. م إلى ، ويشير إلى ضرورته (.. لم نكن قط أحوج مما نحن الآن الى فهم كامل

معمق موثق لوجهنا ووجهتنا ، ولكياننا ومكاننا ، لامكانياتنا وملكاتنا ، ولكن أيضا لنقائضنا ونقائصنا .. كل أولئك بلا تحرج ولا تحيز أو هروب ، ص ٢٠) .

ويطهر عمله فكريا .. من شبهة الاقليمية الضيقة (.. من الخطأ أن نظن أن الحديث عن تفرد الشخصية الجغرافية وعبقرية المكان . لهذا القطر العربى أو ذاك .. يعنى تدعيم الدعوة الانفصالية ، فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية .. أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصية .. بدرجة أو بأخرى داخل الاطار العام المشترك ، ص ٢٣) ، ويؤكد (.. الواقع أن على القومية أن تحترم الوطنية وتقرها ، بمثل ما أن على الوطنية أن تعترف بالقومية وتقر بها ، ولعل المطلوب ليس تذويب الوطنية فى القومية .. بقدر ما هو تزويدها بها ، ص ٢٤) .

ويلخص ملامح شخصية مصر (.. ليس سهلا أن نركز الشخصية الاقليمية فى معادلة موجزة ، لاسيما إذا كانت غنية كشخصية مصر ، إنها تجمع بين أطراف متعددة وأبعاد وآفاق واسعة ، بصورة تؤكد لديها ملكة الحد الأوسط ، وتجعل منها أمة وسطا بمعنى الكلمة ، وهى شخصية متفردة Sui generis ، والنظرية العامة التى نقدم فى تفسيرها .. تتمثل فى التفاعل بين بعدين أساسيين فى كيانها .. وهما الموضع Site والموقع Situation ، ويعنى الموضع البيئة النهرية الفيضية ، أما الموقع .. فيتمثل فى موقعها الحاسم على

ناصية العالم وركن الزاوية ، وهى بعد ذلك نموذج البيئة الفيضية المطلق ، وتجسيم بيئة الرى المطلقة ، وهى بالدرجة نفسها مثال الصحراء أيضا ، ومن متناقضة النهر والصحراء ـ تشكلت ، وهى أرض المزروعات لا النباتات الطبيعية .. ولا مراعى طبيعية بها ، وفى داخل هذه البيئة المتبلورة ، يبدو كل شىء فى مصر مكثفا ، مضغوطا على نفسه ومتضاغطا ، ابتداء من التضاريس نفسها .. إلى التربة والمائية والزراعة والسكان والسكن ، مثلما هى بمورفولوجيتها الطبيعية مسافة قبل أن تكون مساحة ، والتجانس بعد التكاثف بمثابة النغمة الأساسية فى هذه البللورة المركزة ، أشبه بأقليم واحد .. وإن انطوى على أقاليم ثانوية باهتة ، ومن التجانس إلى الوحدة السياسية .. هكذا بالفعل كان .. وهكذا بقيت دائما ، ومن الوحدة إلى المركزية .. تتبدى فى حكومتها وبيروقراطيتها والعاصمة ، تلك سلسلة متداعية من السمات الكامنة .. انبثقت عن الموضع ، أما بالنسبة للموقع .. فقد تفاعلت سماته مع ما سبق ، ومنه تداعت أيضا من خصائصها سلسلة ، هى مدارية بعروضها .. متوسطية بجسمها ، افريقية بالموضع .. متوسطية بالموقع .. وأيضا آسيوية بوقعها ، وهى البلد الوحيد الذى يلتقى فيه النيل بالمتوسط ، أبو الأنهار وابو البحار .. مهد الفلاحة ومدرسة الملاحة .. نهر الحضارة .. وبحر الحضارة معا ، وفى جميع الأحوال .. كانت أسبق للحضارة .. فى استمرارية نادرة ، ومن أول أمة فى التاريخ .. إلى أول دولة .. إلى أول

امبراطورية .. وأيضا من أسف إلى أطول مستعمرة ، وكثنائية السبق والتخلف لا مفر من أن نعد ثنائية الامبراطورية المستعمرة من سماتها التاريخية التى انقضت ، وهى بجسمها النهرى قوة بر .. ولكنها بسواحلها قوة بحر ، وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم ، ولمصر أبعاد إقليمية أربعة .. تختزل توجيهها الجغرافى بدقة وحساسية .. وإن تداخلت ، بعدان قاريان .. الافريقى والآسيوى ، وبعدان إقليميان .. النيلى والمتوسطى ، فرعونية هى بالجد .. لكنها عربية بالأب .. وللأب والجد أصل مشترك ، وهى خير تصغير وتكبير للعالم العربى ، خير تصغير لأنها تجمع عناصره فى كيانها ، وخير تكبير .. لأنها بالحجم والموقع والوقع .. هى الرأس والقلب معا . (ص ص ٣٣ ـ ٤٧) .

وعن خطة العمل (.. التجانس الطبيعى والمادى والحضارى والبشرى ، الوحدة الطبيعية والسيابسية ، من السبق الحضارى إلى التخلف ، من امبراطورية إلى مستعمرة ، من الطغيان الفرعونى إلى الثورة الاشتراكية ، الأساس الطبيعى الخارجى للبناء الحضارى ، مركزية رغم الامتداد ، كثافة بلا هجرة ، تعدد الأبعاد ، التوسط والاعتدال الاستمرارية والانقطاع ، ثنائية الوطنية القومية ، تلك إذن فى رؤوس موضوعات .. هى أبرز خصائص شخصية مصر .. التى يتعين علينا أن ندرس ونحلل بالتفصيل ، ص ٤٧) .

ويضيف (.. لابد من مسح شامل لكل شبر فى أرض مصر ، دراسة تقديمية لشخصية مصر الطبيعية ، وبعد الحصر .. نضع رقعة الوطن كلها في بؤرة واحدة .. لننظر إليها من منظور سماتها وخصائصها وملامحها الرئيسية الغالبة ، وهكذا نبدأ بدراسة التجانس بجوانبه المختلفة .. الطبيعية والمادية والعمرانية ، ومنها إلى الوحدة .. الوحدة السياسية بكل مقوماتها ومكوناتها .. من وحدة إقليمية ووطنية ولغوية ودينية ونفسية ، تلى هذا سلسلة فصول التطورات التاريخية ، قل سلسلة .. من .. إلى ، من السبق الحضارى إلى التخلف ، من الطغيان الفرعونى إلى الثورة الاشتراكية ، من امبراطورية إلى مستعمرة ، ثم وقفة معممة عند شخصية مصر الاستراتيجية ككل ، من السياسة والاستراتيجية ننتقل إلى البناء الحضارى وأساسه الطبيعى ممثلا أولا فى الموقع .. قلب العالم ثم فى الموضع .. هبة النيل .

ويضعنا هذا الأساس الصلب تلقائيا على الطريق إلى شخصية مصر الاقتصادية .. التطور العام والخصائص الرئيسية أولا ..، ثم الزراعة فالصناعة والثروة المعدنية ، كل على حدة ، وكل بهياكلها ومشاكلها وتخطيطها ، ثم من الاقتصاد نتحرك منطقيا إلى الاجتماع ، فنرسم خريطة المجتمع المصرى فى بحثين أساسيين .. الأول يعالج السكان تحت عنوان كثافة بلا هجرة ، والثانى محوره المدن تحت عنوان .. مركزية رغم الامتداد .

وبعد ذلك ننتقل بحرية وسرعة ، محلقين بين آفاق الزمان وأبعاد المكان ، لندرس أولا تعدد الأبعاد ، ثم التوسط والاعتدال ، ثم الاستمرارية والانقطاع ، وينقلنا الموضوع الأخير منطقيا إلى الباب الختامى فى الكتاب كله ، وهو موضوع العرب ومصر ، ص ص ٤٧ ـ ٥٠) .

وعن المنهج (.. أين بالضبط يقع هذا العمل من المنهج الجغرافى العام ؟، والاجابة ـ إنه قطاع كامل من الجغرافية الشاملة بكل فروعها ، يغطى دائرتها التامة من المركز إلى المحيط ، هكذا يفتتح العمل بالجغرافية الطبيعية ، ثم يمضى قدما ليخوض آفاق الجغرافية البشرية بكل مراحلها ومراتبها ، ويركز على علاقة التكامل والتواصل الحتمية والصحية بين الجغرافية الطبيعية والبشرية ، ومن هنا حاولنا معالجة لكل مراحل ومناحى الجغرافية البشرية .. من الاقتصادية إلى الاجتماعية ، ومن الجنسية إلى السياسية ، ومن الحضارية إلى الثقافة ، ص ص ٥٠ ـ ٥٢) .

وعن فلسفة المنهج .. (.. مادمنا قد قلنا الجغرافية البشرية .. فقد قلنا الايكولوجيا .. أى العلاقة بين الإنسان والبيئة ، ومادمنا قلنا الايكولوجيا .. فقد قلنا إما فلسفة الحتم الجغرافى .. وإما مدرسة الحرية .. امكانية كانت أو احتمالية أو ضرورية ، وعندنا باختصار أن الجغرافية عامل هام فى تفسير الحياة والحضارة والتاريخ فى مصر ، ولكنها بالتأكيد ليست العامل الوحيد ، والجغرافية البشرية والطبيعية لا

تقتصر على الحاضر ، بل هى مضروبة فى الماضى ، فشخصية أى بلد هى كجبل الجليد الطافى .. لا يظهر إلا أقله .. وهو الجغرافية المعاصرة .. أما الجسم الغاطس الأكبر .. فهو البعد التاريخى "الجغرافية × التاريخ" ، أخيرا وليس آخر .. لك بالطبع أن تعد هذا العمل برمته دراسة فى الجغرافية الاقليمية ، ومن هذه الزاوية .. فإن لها جانبين .. هما الجغرافية الاقليمية الداخلية والخارجية ، أما الأولى ـ الداخلية ـ فهى تحليلية ، أما الثانية .. فتركيبية ، ومن هذا المنطلق .. كانت العناية بالمقارنات بين مصر والأقاليم الأخرى .. ذلك كله الجغرافية الطبيعية ـ البشرية .. التاريخية ـ الاقليمية .. على مستوى الجغرافية البحتة ، غير أن المستوى التطبيقى لا يقل أهمية وخطرا ، يتمثل فى تقييم وتقويم نقاط الضعف والقوة .. التى تتكشف فى الشخصية ، وهذا يقودنا رأسا إلى الجغرافية التطبيقية .. جغرافية التخطيط ورسم السياسة الاقليمية والاستراتيجية القومية ، واليوم أصبحت السياسة جغرافية أكثر منها فى أى وقت مضى ، ذلك لأن السياسة الآن فن الاشتغال بالمستقبل والتخطيط ، ولقد كان حتما لا صدفة .. أن يبزغ علم المستقبلية Futurlogy .. بعد بروز علم التخطيط ، وفى مصر .. فإن الجغرافية لا التاريخ هى أمل المستقبل ، ومن جانبها .. فإن الجغرافية إن تكن نظريا فلسفة المكان .. فإنها تطبيقيا هندسة المكان ، وما التخطيط الاقليمى ببساطة إلا هندسة إقليمية ، بينما أن المخطط الجغرافى ليس سوى

مهندس إقليمى تحت الجلد ، وبهذا الشكل تصبح جغرافية التخطيط في واقعها بمثابة جغرافية المستقبل Geo Futurology ، وفى دراستنا هذه .. كثير من الفصول .. نماذج من جغرافية المشكلات Problem Geo التى تركز على الجوانب العملية والتطبيقية والتخطيطية . وتبحث عن الحلول والعلاج ، سواءً فى مجال الانتاج أو الموارد أو الاستهلاك أو التوزيع أو السكان والمدن أو النقل والمواصلات أو الاستراتيجية والدفاع الوطنى والأمن القومى .

وختاما (.. فى هذا العمل إذن ـ وتلك حدوده وأبعاده ـ اجتمعت كل الثنائيات المعروفة فى الجغرافية .. الأصولية والاقليمية ، الطبيعية والبشرية ، التاريخية والمعاصرة ، الكورولوجيا والايكولوجيا ، اللاندسكيب والجيوفيزيقيا ، الكيفية والكمية ، المجهرية والملحمية ، البحتة والتطبيقية ، فيها أيضا وظفت كل أدوات الجغرافية ولواحقها فى خدمة جغرافية الحياة ، جغرافية اليومية والأشياء الصغيرة ، كيما تضفى الحيوية والأهمية والاهتمام على الحقائق الجامدة الصماء .. وتحيلها حية نابضة ناطقة ، وفى خلال هذا كله .. حاولنا دائما وعمدا .. أن ننظر إلى الاقليم نظرة لاندسكيبية بالتحديد ، تعتمد على .. وتدعو إلى الرؤية والحس المباشر ، فمن الثابت أن المنهج اللاندسكيبى ، الذى يعالج الإقليم كظاهرة مرئية وملموسة ، يضفى على الدراسة حياة وحيوية .. ومعايشة ـ بغير ذلك قد تفقدها ، مثال ذلك الآثار وأسماء

الأماكن Lyponomie والفولكلور والأمثال الشعبية .. وسائر مظاهر الحياة المحيطة بنا .. والتى نعيشها .

وبعد .. فإن عملا بهذا الحجم والطبيعة قد يبدو موسوعيا بالضرورة ، غير أنه فى الحقيقة أبعد شىء عن أن يكون موسوعة ، بل هو قل .. ضد موسوعة ، إلا أنه قبل ذلك وبعده نظام فكرى ونسق منهجي ومعمار بنيوى .. يتفيأ الأصالة والخلق والابتكار والجدة ، إنه بناء عقلى فى كبسولة يضع مصر برمتها كالبللورة فى البؤرة ، ويستقطر مكنون شخصيتها حتى تستقطب فى معادلة ، عسى دعنا نأمل .. أن يجد كل مصرى نفسه فى هذا الكتاب ولسوف يرضى .

* * *

أولا : شخصية مصر الطبيعية

الكلمة المفتاح فى شخصية مصر الطبيعية .. هى البساطة ، بساطة تتجلى فى بنيتها وعظامها الصخرية وسمات وجهها التضاريسى ، وتمتد إلى ثوبها الرسوبى ومزاجها المناخى ، بساطة تستند إلى قاعدة جيولوجية راسخة قديمة ، ورغم أن هذه القاعدة أركية .. أى تعود إلى أقدم عصور البناء الجيولوجى .. إلا أن عملية بنائها لم تتعقد كثيرا .. وإنما خضعت لايقاع منتظم .. من تتابع النمو التركيبى ، يتراوح بين عمليتى الاضافة والازالة .. فى علاقة متواترة بين البحر واليابس :. مع تداخلات تكتونية ـ أى من باطن الأرض ـ

بسيطة أيضا .. بصفة عامة ، وحين بدأ النهر .. يشق إليها طريقه .. خلال الزمن الثالث . فقد أضاف إلى مورفولوجيتها الصحراوية العامة رتوشه ، ولكنها على طول مجراه بها .. شكل مورفو لوجيته الخاصة ، متمثلة فى الدلتا والفيوم والوادى ، وما كساه بها من إرسابات ، وأيضا ما حددته فوق أديمها فروعه .. وما خلفه من بحيرات ومستنقعات وراءه ، وفوق ذلك منحها عمودها الفقرى الايكولوجى .. الذى هيأ لتعميرها بعد ذلك ، وإذا كانت هى قبله .. قد بقيت طويلا .. صحراوية الطابع .. فقد خلصها هو من أسرها الصحراوى ، وحررها بمائيته وطميه .. من براثن الجفاف والرمال المحيطة ، وحولها إلى واحة عريضة مديدة ، تلك هى قصة مصر الطبيعية القصيرة ، ولكنها كرواية .. استغرقت الجزء الأول (٨٤١ صفحة) من كتابه ، ذلك لأنه وثق كل حرف توثيقا .. وتابعه إلى أدق تفصيلاته ، دون أن يضل مطلقا طريقه .. فقد كان مفتاحه إليها البساطة .

● البناء الجيولوجى

يبدأ رواية مصر الطبيعية من الماضى الأركى السحيق ، منذ كانت نواة جيولوجية (.. ضمن قاعدة أساسية صلبة قدمتها القارة ، وبفرشات متلاحقة قدمها البحر ، تكونت أرض مصر بالتدريج ، أفقيا من الجنوب إلى الشمال ، ورأسيا من أسفل إلى أعلى ، حتى تحولت من نواة أولية إلى شرنقة

أرضية مركبة مديدة ، جـ ١ ، ص ٦٩ ..) ، ويتابعها وهى تتخذ مورفو لوجيتها الراهنة .. وذلك (.. عبر سلسلة من عمليات طغيان البحر من الشمال .. على نواة اليابس فى الجنوب .. ثم انحساره عنها بعد ذلك ، ونظرا لأحادية مصدر الطغيان واتجاهه ، فقد جاءت القصة بسيطة فى جوهرها ، ومعها جاءت خريطة مصر الجيولوجية فى النهاية بسيطة فى خطوطها العريضة ، جـ ١ ص ٧٠) .

وتتكون النسبة الكبرى من جيولوجية مصر من (.. القاعدة الأركية + الخراسان النوبى + التكوينات الطباشيرية الكريتاسية + الحجر الجيرى الايوسينى + الحجر الرملى الأوليجوسينى + الحرج الجيرى الميوسينى) ، وتغطى نحو ٩٥٪ من مساحة مصر (جـ ١ ص ٧٣) ، وتعود النسبة الباقية للعصور التالية (البلايوسين ، البلايستوسين ، الهولوسين) بنسبة محدودة ، وتظهر بساطة التركيب فى تتابع التكوينات من الأقدم إلى الأحدث .. من الجنوب إلى الشمال ، كما تظهر فى ميلها الطفيف الوئيد فى نفس الاتجاه ، يؤكدها النهر الذى يقطع هذه النطاقات العرضية ، متعامدا عليها كقطاع يكشف عنها وعن تتابعها ، مؤديا بمجراه إلى تكوين حافتين Escarpments على جانبيه ، دون أن يفصل استمراريتها شرقية وغربية ، وإن تمايزتا فى العديد من التفصيلات .

وكقاعدة عامة ـ تؤكد البساطة ـ تقل صلابة هذه التكوينات

أيضا من الجنوب إلى الشما ، بحيث يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام تركيبية رئيسية هى (.. النواة ، الرصيف الثابت، الرصيف غير الثابت ، جـ ١ ص ١٠٥) ، ويحدق الرصيف الثابت بالنواة .. ومساحته ثلثى مصر ، ويقع غير الثابت بمساحة محدودة .. فى أقصى الشمال ، وتبعا لدرجة صلابتها ومقاومتها .. تتوزع بها الانكسارات والالتواءات، كما خلقت البركنة بصماتها .. حول أخدود البحر الأحمر وجبل عوينات وسيناء ومنخفض الفيوم (جـ ١ ، ص ١١٥) .

وتستمر هذه البساطة إلى خطوط السطح وأقسام التضاريس ، حيث تحدد هذه الخصائص الجيولوجية طبوغرافية مصر العامة بشكل شبه تام ، فالسطح ينخفض معها باطراد نحو الشمال ، وتتفق أعلى مناسيبه مع أقدم وأصلب التكوينات .. والعكس بالضرورة صحيح ، ويمدفعه التطابق إلى تقرير (.. أقاليمنا التضاريسية هى أقاليم جيولوجية ، وأقاليم السطح هى نفسها أقاليم البنية تقريبا، جـ ١ ص ١٠٢) .

ويفصل بعد ذلك هذه الخاصية الهامة من شخصية مصر الطبيعية فى عشرات من الصفحات (جـ ١ ، ص ص ١١٥ - ٢٣٥) ، مبرهنا بها مقولته الأساسية .. عن بساطة جغرافية مصر .. انطباعا لجيولوجيتها ، وكاشفا أيضا عما تنطوى عليه من تناظر وانتظام ، ثم يلخص صورتها كدأبه فى عبارات

مكثفة .. تمهد للتفصيل .. (ولقد ألفنا أن ننظر إلى صفحة مصر على أنها تتألف من عنصرين طبيعيين أساسيين .. هما النهر والصحراء ، ولكن البحر بالتأكيد عنصر ثالث ، بعد ثالث يكمل جغرافية مصر الطبيعية ، ولا يمكن لهذه أن تفهم دونه ، ولهذا فلابد لأى تحليل متكامل لخريطة مصر الجغرافية أن يأخذ فى اعتباره هذه الثلاثية من الخطوط الطبيعية .. النهر ـ الصحراء ـ البحر ، وعلى الفور يبدو قدر من النظام والترتيب .. أو الايقاع والتوازن العريض ، قدر من التناظر الهندسى العام باختصار ، فى كل واحد من عناصر تلك الثلاثية ، فالتناظر إذن هو القاسم المشترك .. والنغمة الأساسية فى صورة مصر الجغرافية ، جـ ١ ص ٢٣٤) .

وقبل أن يفرغ لثلاثيته بما تقتضيه من تفصيل ، يعود فيؤكد ملمحين بارزين فى صفحة مصر الطبيعية ، ويضع تحتهما الخطوط ، متسائلا بالنسبة لأولهما عن درجة صحراوية مصر ؟ ويجيب (.. مصر فى جوهرها ليست إلا جزءا من نطاق الصحراوات الجافة فى العروض الوسطى ، ليست مجرد جزء فقط .. ولكن قلبه ووسطه ، ليست قلبه فحسب كذلك ، وانما جماع مصغر لكل خصائصه ، وتلخيص مركز لنمط الصحراء الحارة .. من حيث هى نوع فريد من الاقليم الجغرافى الطبيعى ، وإذا كانت الصحراء الكبرى النموذج الكامل للصحراء الحارة .. فإن مصر هى التصغير النموذجى الكامل لها ، جـ ١ ص ٢٤٣) .

ومتسائلا أيضا بالنسبة للثانى .. هل لمصر النيلية سطح أو تضاريس ؟.. ويجيب (.. على السطح يبدو الأمر مجرد سهل فيضى مستو .. ينتهى إلى دلتا أشد استواء وتسطحا ، بمثل ماهى أكثر اتساعا وأكبر مساحة ، والكل ينحدر بعد ذلك فى تدرج مطرد باهت .. لا يكاد يبين من الشلال إلى البحر ، وعلى السطح أيضا يبدو وجه الوادى شاحب الملامح فاقد المعالم تقريبا ، إن لم نقل بلا تضاريس فعلا ، فأنت أينما نظرت فثم الانبساط السهل والرتابة السائدة ، إلا من خطوط أو نقط تعلو أو تنخفض قليلا هنا وهناك عن المستوى العام للسطح ، ولكن لا يكاد يشعر بها السائر تحت قدميه ، ولا تكاد هى تكسر خط الأفق فى عين الناظر ، ولكنها مع ذلك مختلفة إلى حد أو آخر ، فلسطح الوادى تضاريسه ، وتضاريسه السالبة والموجبة أيضا ، صحيح أنها تضاريس الحد الأدنى minimal ، وقد لا تقاس إلا بالمتر .. وأحيانا بكسوره ، فأعلى نقطة فى الوادى كله فى أقصى الجنوب بالكاد تبلغ المائة ، وبذا يظل سطحه دراسة فى الفيزيوغرافيا الميكروسكوبية micro - Physiography وتضاريسه هى تضاريس مجهرية micro - Relief متواضعة المقياس خفيضة .. خفيفة لطيفة ودقيقة إلى أبعد حد .. لأنها أساسا تضاريس بيئة نهرية فيضية ، ص ص ٦٩٩ ـ ٧٠٠) ، ولكنها أيضا فاعلة ايجابية من النواحى الطبوغرافية والهيدرولوجية والبشرية ، فمتر واحد فقط وأحيانا كسوره .. قد تحدد الفرق بين الحياة والموت وبين النجاة والضياع .. سواء بالغرق أو

بالشرق .. بقدر ماهى سالبة إذن هذه التضاريس طبيعيا .. بقدر ماهى موجبة بشريا (ص ٧٠١) .

وجه مصر

يستهل الفصل الرابع (وجه مصر ، ص ٢٣٣ ـ ٢٨٥) من هذا الجزء .. بعبارة موحية (.. بقدر ما يمتاز تاريخ مصر بالتعقيد .. تمتاز جغرافية مصر بالبساطة ..) مؤكدا ذلك بتلخيص وجهها الطبيعى .. وتقسيم سطحها إلى أقسامه الرئيسية فى لمسات خاطفة .. (.. ولاتتبدى هذه البساطة النسبية .. كما تتبدى فى تلك السمترية .. أو ذلك التناظر الذى يسود عناصر اللاندسكيب الطبيعى فى مصر ، فعلى جانبى الوادى الذى تحف به حافتان هضبيتان فى توازن ملحوظ ، تتناظر صحراوان فى الشرق والغرب .. بصفة مستمرة ، والوادى نفسه ـ على وحدته الأساسية ـ ينقسم مابين الدلتا والصعيد .. اللذين يتوازنان بدورهما فى استقامة واضحة مابين الشمال والجتوب ، وحول الجميع يتناظر بحران رئيسيان في الشمال والشرق ، جـ ١ ص ٢٣٤ ، ويقتضيه تفصيل هذه الصورة العامة .. البابين الثانى والثالث كاملين .. من هذا الجزء من الكتاب ، حيث يخصص الثانى « للصحراوات » (ص ٢٨٩ ـ ٦١٨) والثالث « لوادى النيل » (ص ٦١٩ ـ ٨١٤)

تقع دراسته « للصحراوات » فى ستة فصول .. تسمح له بدراستها بغاية التفصيل ، يبتدؤها بمناقشة مسهبة لنظريات البناء والتكوين ، ومن ثم بتقسيمها إلى مجموعة من الأقاليم الثانوية .. تبعا لعدد من المعايير ، ولأن الصحراء الغربية تشغل ثلثى مصر (٦٨١ الف كم ٢) .. فإنها تستغرق من هذا الباب الثانى .. ثلاثة فصول (الخامس والسادس والسابع (ص ٢٨٩ ـ ٤٥١) يخصص الخامس منها .. لأبعادها المكانية .. وشكلها العام ، ثم لخصائصها الرئيسية ، فهى .. (.. تتخذ شكل المستطيل .. طوله نظريا ١٠٠٠ كم .. وعرضه ٦٦٦ كم ، وهى النموذج الكامل للصحراء) ويلخص موروفولوجيتها العامة .. (.. هى صحراء هضبة ومنخفض Plateau and depression فجسمها مصوغ أساسا فى قالب هضبة عظمى تفصصها إلى عدد من الهضاب الاقليمية والثانوية .. سلسلة من المنخفضات الكبيرة والصغيرة ، ص ٢٩٠) ويفصل من بعد . فى وصف هذه المنخفضات وتحليل خصائص كل منها ، منتقلا بتعمق إلى شرح نظريات تكوينها (ص ٢٩٩ ـ ٣٠٨) موضحا تكويناتها الصخرية .. تحت عنوان « صحراء الحجر والرمل » .. (.. من الناحية الليثولوجية .. فإن الرمال تسجل أعلى نسبة لها .. فى أى جزء من مصر على الاطلاق تشغل أكثر من ثلثها ، مقابل أقل من الثلثين للصخور ، فهى إذن صحراء حجر أو

حماد فى الدرجة الأولى ، وصحراء رمل أو عرق فى الدرجة الثانية ، وهى ليست صحرا حصى أو رق ، إلا بنسبة كسرية ضئيلة ، ص ٣٠٨) وبعد ذلك يأتى التفصيل .

وهى أيضا صحراء الواحات .. تتوزع بها واحات مصر الرئيسية .. (.. سيوة ، الخارجة ، الداخلة ، الفرافرة ، البحرية) ويخص هذا الملمح بدراسة مستفيضة (ص ٣٢١ ـ ٣٤٥) .. أى إلى نهاية الفصل ، وبذا يكشف عن خصائصها الرئيسية الثلاث .

★ هى صحراء الهضاب والمنخفضات .
★ وهى صحراء الأحجار ثم الرمال .
★ وهى صحراء الواحات .

وحسب المنهج الجغرافى المتبع .. فإنه يتبع الصور العامة بالتقسيم ، ويخصص الفصلين السادس والسابع (ص ٣٤٧ ـ ٤٥٠) .. لدارسة أقاليم الصحراء الغربية .. (.. تنقسم الصحراء الغربية إلى ثلاثة أقسام طبيعية واضحة ، تتابع كهضبات ثانوية من الجنوب الى الشمال ، وتتفاوت بدرجات مختلفة .. ليس فقط فى الموقع أو التركيب الجيولوجى ، ولكن كذلك فى المناخ والنبات وأنماط الحياة البشرية ، ولهذا تعد بحق أقاليم الصحراء الغربية ، تلك هى : ص ٣٤٧)

★ الهضبة الجنوبية .. جنوب خط الداخلة / الخارجة / ابومنقار .

★ الهضبة الشمالية .. شمال خط سيوة/ القطارة/ النطرون .

★ الهضبة الوسطى بين الخطين .

ويتابع كل إقليم منها بما يقتضيه من تفصيل ، من النواحي الجيولوجية والبنيوية والتضاريس ، باهتمام خاص بالهضبة الشمالية .. التى يفرد لها الفصل السابع بأكمله (ص ٤٠٣. ٤٥١) يتناول فيها خصائصها الطبوغرافية والمائية والاقتصادية .. وأقسامها الثانوية ، مع التركيز على منخفض القطارة والنطرون وهضبة مارمريكا ومنطقة مطروح

الصحراء الشرقية :

وإذا كانت الصحراء الغربية .. قد شغلت ثلاثة فصول من هذا الجزء الأول المخصص « لشخصية مصر الطبيعية » فإن دراسة « الصحراء الشرقية » .. قد شغلت منه فصلين (الثامن والتاسع ، ص ٤٥٣ ـ ٥٣٨) يأتى أولهما تحت عنوان « صورة الصحراء الشرقية » يتناولها فيه من حيث الشكل والامتداد (.. مساحتها نحو ٢٢٥ الف كم^{٢} .. فهى ربع مساحة مصر تقريبا ، ونحو ثلث شقيقتها الغربية ، بطول نحو ١٠٨٠ كم ، وعرض يتراوح بين ١٥٠ ـ ١٨٠ كم ..) ويتابع تركيبها الجيولوجى وتضاريسها ومناخها وشبكة تصريفها الأساسية ، محددا خصائصها الرئيسية فى كونها :

★ صحراء الحجر والحصى .. حيث لاتغطى الرمال -

بعكس الصحراء الغربية ـ سوى كسر ضئيل من رقعتها ، ويتشابهان فى ضآلة نسبة الحصى .. أى سرير العرب .

★ وهى بعد ذلك .. صحراء الجبل والوادى ، حيث تبرز الأودية بها باعتبارها أهم ملامحها ، فهى بالنسة لها كالمنخفضات والواحات .. بالنسبة للصحراء الغربية .

★ ونتيجة لهذه الأودية .. تبدو حالة تامة من الهضاب المقطعة dissected وهكذا ـ إذا كانت الصحراء الغربية .. هضبة حافات ومنخفضات .. فان الشرقية فى النتيجة الصافية .. على حد تعبيره .. هضبة جبلية وديانية .

★ وهى فى المحصلة الايكولوجية .. صحراء الرعى .. نتيجة مائيتها وسيول أوديتها (ص ٤٧٢) ولكنه رعى فقير .. ورعى بلا زراعة .. لم يؤد إلا إلى غطاء بشرى مخلخل (٤٧٦)

★ وهى بلاشك منجم مصر (٤٧٧)

★ وهى وان كانت صحراء عزلة .. إلا أنها اقليم عبور (ص ٤٨١) موجزا بذلك لب جغرافيتها وتاريخها .. ويفصل مقولته هذه ويفسرها ، محددا ضوابط عزلتها ودوافع عبورها .. عبر تاريخها ، متتبعا شبكة دروبها .. وموانيها القديمة على البحر الأحمر ، وعلاقة هذه الموانى بالمحور النيلى (ص ٤٨٤) مختتما هذا الفصل الثامن ـ بنظرة استشرافية .. تحت عنوان « بين الحاضر والمستقبل »

وكما اتبع بالنسبة للصحراء الغربية .. فإنه يخصص الفصل التاسع (ص ٤٨٧ ـ ٥٣٨) لأقاليم الصحراء

الشرقية .. (.. الآن .. وعلى أساس من البنية والتضاريس. يمكن تقسيم الصحراء الشرقية إلى أقاليمها الطبيعية الداخلية ، فهناك أولا .. الجبال فى الشرق ، ثم الهضبة فى الداخل ، ص ٤٨٧) ويفصلها فى ذات الصفحة إلى (جبال البحر الأحمر ، تلال البحر الأحمر ، الهضبة الجنوبية ، الهضبة الشمالية ، صحراء شرق الدلتا ..) متناولا كل قسم من هذه الأقسام الخمسة الطبيعية .. بشىء من التفصيل .. مقترنا بنظرته الايكولوجية .. التى تربط بين خصائصها .. والتوطن البشرى فى أجزائها ، متابعا أيضا علاقاتها عبر التاريخ .. بقطاع النيل الموازٍ لها غربا (ص ٤٩١ ـ ٥١٠)

وفى دراسته التفصيلية عن هذا الأقسام .. يذكر عن الهضبة الجنوبية .. (.. وتعرف أيضا بهضبة العبابدة ـ نسبة إلى قبائل الابل البدوية .. التى تسود المنطقة) ويحددها .. (.. هى هضبة مستطيلة طولها نحو ٤٧٠ كم ، تترامى إلى الجنوب من ثنية قنا ، منحصرة بين وادى النيل وجبال البحر الأحمر ، وتشغل نصف هضبة الصحراء الشرقية إلا قليلا ..) ويتابع تفصيلاتها .. من حيث دورة الأودية وخصائصها .. على وجه التحديد ، ويذكر عن قسمها الرئيسى الثانى .. الهضبة الشمالية .. (.. وتعرف بهضبة المعازة .. نسبة إلى القبيلة العربية البدوية السائدة بها ، وتمتد بمثل طول الهضبة الجنوبية .. أى ٤٧٠ كم .. إلى الشمال من ثنية قنا .. حتى طريق القاهرة / السويس منحصرة بين وادى النيل ووادى قنا وسلاسل البحر الأحمر ،

ص ٥١٧) ويتابع أيضا تفصيلاتها من حيث البنية والتضاريس و « شبكة الأودية » وينهى هذا الفصل .. بدارسة مسهبة عن « صحراء شرق الدلتا » .. باعتبارها .. (.. نهاية الصحراء الشرقية أقصى شمالها ، وأيضا فى أضعف صورها أو أعدل قطاعتها .. شكلها أقرب إلى مثلث قائم الزاوية ، أضلاعه طريق القاهرة / السويس جنوبا ، وقناة السويس شرقا ، وحدوده دلتا النيل غربا ، أما رأسه فعند نهايات بحيرة المنزلة ، ص ٥٢٩) ويقسمها إلى نطاقات .. يتابعها من حيث تاريخها الجيولوجى وسطحها وخطوط أوديتها ، وينهى دراسته عنها .. بما يتوقعه لها . (.. قد تبدأ الصحراء الشرقية .. لا من أطراف بحيرة المنزلة .. ولكن من تخوم وادى الطميلات ، بينما تتحول صحراء شرق الدلتا برمتها .. أو فى معظمها إلى جزء لايتجزأ من الدلتا الكبرى نفسها ، ص ٥٣٨) وذلك فى إطار برامج تنموية زراعية صناعية شاملة ، تدعو لها امكانات هذا المثلث الصحراوى الكبير وموارده .

شبه جزيرة سيناء

وبعد الصحراوين .. يتوجه إلى « سيناء » .. هذه التى تنال منه فائق الاهتمام فى مجموع أجزاء كتابه .. من النواحى الطبيعية والبشرية والاقتصادية والجيوستراتيجية جميعها ، يشير إليها دائما .. ويكرر التأكيد على أهميتها الجغرافية

والتاريخية .. فى الماضى والحاضر والمستقبل معا ، ويخصص لها هنا .. فى الجزء الأول منه .. الفصل العاشر بأكمله (ص ٥٣٩ ـ ٦١٢) .. لدراسة خصائصها الطبيعية وحدها ، يستهلها كمنهجه بصورتها الكلية .. تحت عنوان « الهيكل العام » .. ويحدده .. (.. سيناء .. ٦١ الف كم٢ ، حوالى ٦ ٪ من مساحة مصر ، أى نحو ثلاثة أمثال مساحة الدلتا ، وتبدو مثلها كمثلث منتظم بدرجة أو بأخرى ، ارتفاعه من رأس برون حتى رأس محمد نحو ٣٨٥ كم ، وأقصى عرضه بين السويس والعقبة .. نحو ٢١٠ كم ، أى أن طوله ضعف عرضه .. إلا قليلا ، ص ٥٣٩) .

وتحت عنوان « وجه سيناء » (ص ٥٤٥) .. يلخص خصائصها .. (.. سيناء توجز الصحراء الشرقية بصفة خاصة ، فهى تمثل تضاغطا مكثفا ومصغرا فى مثلث للأقاليم الطبيعية والجغرافية ، وهى العقدة الطبيعية التى تلحم أفريقيا بآسيا ، بل إن فيها تجتمع مصر والشام والجزيرة العربية جيولوجيا وتضاريسيا ، فالسهل الساحلى إنما هو استمرار لسهول فلسطين ، والهضبة الوسطى امتداد لهضبة بادية الشام ، أما كتلة الجبال الجنوبية فعقدة الالتحام المشتركة بين جبال حافتى الأخدود الانكساريتين فى حوض النيل والجزيرة العربية ، ص ٥٤٦).

ويفصل بعد ذلك فى خصائصها ، يستهلها بشبكة التصريف ، وتحليل عقديتها المناخية والنباتية ، ومواردها واقتصادياتها ، وهيكلها العمرانى العام ، ويقسمها إلى

أقاليمها (ص ٥٦٠) التى يحددها فى (السهول الشمالية ، إقليم القباب ، السهول الداخلية ، هضبة التيه ، هضبة العجمة ، جبل الطور ، شكل ص ٥٦١) ويتابع كل قسم منها بالدراسة التفصيلية (ص ٥٦١ ـ ٦٠٨) ويكمل صورتها بدراسة خليجيها .. السويس والعقبة (ص ٦٠٨ ـ ٦١٢) منتهيا إلى مقارنة لها دلالتها .. ينهى بها تحليله لهما .. وأيضا للفصل كله (.. السويس خليج بترول غنى أرضا وماء ، بينما العقبة خليج جاف بتروليا ، ويفسر هذا الفارق بعض مظاهر الاختلافات البشرية ، والعمرانية على شواطىء الخليجين وفى مياههما ، ولو أن الفارق التاريخى والبشرى الحاسم إنما أتى ـ يقينا ـ من تفرد خليج السويس بقناة ملاحة الشرق ـ الغرب العظمى ، فكان شريانا عالميا ، حيث ظل العقبة منزويا كزقاق مغلق شبه مهجور ، وان بدأ يتحول مؤخرا إلى حارة أو عطفة محلية لأسباب طارئة عابرة غالبا ، ص ٦١٢)

نهر النيل

ويتضمن الباب الثالث الخاص بوادى النيل (ص ٦١٥ ـ ٨٤١) أربعة فصول يخصصها لجوانبه الطبيعية بالتفصيل ، يبدأها « بفيزيوغرافية النهر » (الفصل ١١ ص ٦١٩ ـ ٦٧٨) ثم « مورفولوجية الوادى » (الفصل ١٢ ص ٦٧٩ ـ ٧٣٢ » ثم « الوادى والفيوم » (الفصل ١٣ ص ٧٣٣ ـ ٧٨٨) وأخيرا « الدلتا » (الفصل ١٤ ص ٧٨٩ ـ ٨٤١) .

وتتضمن دراسة « فزيوغرافية النهر » العشرات من العناصر التفصيلية ، تشمل « الامتداد والانحدار » المجرى ، الخوانق ، الجنادل ، الأودية المنتهية إليه ، فرعا الدلتا ، التعرجات ، الجزر النهرية ، البحيرات المقتطعة ، المائية ، الحمولة .. ولكل منها تفصيلاتها وعناوينها الثانوية ، وفيما يلي أبرز ماورد ذكره في هذا الفصل ، خاصة مايتصل منها بموزاييك الشخصية الطبيعية لمصر المعمورة :

● خصائص المجرى :

ـ إن الأطوال الفعلية مقيسة على واقع خريطة النهر ، توضح أن طول فرعى الدلتا ٤٨٤ كم ، مقابل ١٠٥٢ للصعيد ، أى أن فرعي الدلتا .. نصف نيل الصعيد بالكاد ، وهذا على الفور يأتي عكس المساحة تقريبا ، حيث أن الدلتا ضعف مساحة الصعيد (٢٢ الف كم٢ مقابل ١١ الف كم٢ ترتيبا) وفى النتيجة فالدلتا خارجية بحرية أكثر بالموقع ، والصعيد بالطبيعة أكثر نهرية من الدلتا .. داخلى قارى أكثر ، ص ٦٢١ .

ـ القاعدة العامة أن الانحدار يقل بالتدريج .. كلما تقدم النهر شمالا ، ولكن الدلتا أشد من الصعيد انحدارا بصفة عامة ، فعلى حين يبلغ معدل الانحدار من أسوان إلى القاهرة نحو ٥ بوصات فى الميل ، فإنه يبلغ فى الدلتا ٨ بوصات فى الميل ، (ص ٦٢٣)

- الاتجاه العام للنهر .. هو إلى الشمال بالطبع - أى طولى المحور ، ولكن مع وجود انثنئات وتعرجات إقليمية ، وأحيانا ابتعادات وانحرافات ، تتمثل فى ثنية كورسكور الدر ، وثنية قنا بصفة خاصة ، حيث قد يتعامد النهر على محوره العام (ص ٦٢٥)

- عرض النيل فى مصر يناهز فى متوسطه نحو ثلاثة آرباع الكيلو ، ولكنه يتفاوت كثيرا إقليميا ومحليا ، وهذا يشير إلى علاقة طبيعية دالة ، وهى أن عرض المجرى يتناسب طرديا مع عرض الوادى نفسه بعامة : (ص ٦٢٨) .

- يزداد المجرى تعرجا وانثناء .. كلما اتجهنا شمالا ، مع كل مايرتبط بها من أشباه جزر وشطوط رملية وبحيرات متقطعة .. (ص ٦٤٠)

- النيل المصرى لاشك نهر جزر - نهر جزرى - يغص بالجزر النهرية التى ترصع مجراه على امتداده من الشلال للبحر ، فهناك نحو ٣٠٠ جزيرة تختط المجرى من أديندان حتى المصبين .. (ص ٦٤٥)

● مائية النهر

- بالأرقام يقدر ايراد النهر الطبيعى السنوى عند أسوان نحو ٨٣ مليار م^{٣} ، ولكن هذا الايراد يتفاوت حول متوسطه من

عام إلى عام ، قد يصل إلى أن يعادل الحد الأقصى .. أكثر من ثلاثة أمثال الأدنى ، أو بنسبة تراوح ٣ : ١ (ص ٦٦٥)

ـ يبلغ نصيب الفيضان منها ٦٨ مليارا ، أى بنسبة ٨٢ ٪ ومعنى هذا عمليا .. هو أنه إن تكن مصر هى النيل .. فإن النيل هو الفيضان ، ومن ثم فمصر هبة الفيضان (ص ٦٦٥)

ـ الدخل المائى لمصر .. يعادل بصيغة المكافىء المطرى ٨٠ ـ ١٠٠ بوصة سنويا ، أى قدر مايصيب الغابة الاستوائية أو الموسمية .. (ص ٤٨٦)

ـ يعد النيل نموذجا مثاليا لذلك النوع من الأنهار الذى يعرف بالغربية المتداخلة,Intrusive exotic فهو يجرى بالمياه فى وسط جاف تماما ، مستمدا مائيته من بعيد خارج الحدود ، فليس مصدره موضعيا أو محليا ، ولايكاد يستفيد من الأمطار المحلية . (ص ٦٦٤)

ـ وفى رحلته داخل مصر .. يتعرض النهر لقدر معين من الفاقد .. سواء بالبخر أو التسرب ، وقد قدر الفاقد بما يتراوح بين ١٥ ـ ٢٥ ٪ من مائيته ، ويقدر فاقد التسرب بنحو ٥ مليار م^{٣} .. وبقية النسبة فاقد التبخر . (ص ٦٦٥)

ـ ألغى السد الدورة المائية السنوية للنهر ، فقد وضع نهاية للفيضان وكل أوضاعه ومظاهره ، أى وضع نهاية لفزيوغرافية النهر الطبيعية ، وأدى بدلا بدلا منها إلى نظام نهرى جديد .. من صنعه . (٦٦٨)

ـ كم هى مذهلة كمية المياه الجوفية المرتدة إلى النهر فى فصل الجفاف ، حسبها أنها كافية لتعادل كل فاقد البخر الحاد فى ابريل ومايو ويونيه ، ويقدر بنحو مليار م^{3} سنويا ، نصفه فى الدلتا ونصفه فى الصعيد . (ص ٧٢٣)

ـ ليس النيل الذى نراه يتوج لاندسكيب الوادى .. هو كل النيل الحقيقى ، ثمة فى الواقع نيلان : ظاهرى على السطح .. هو النيل العلوى أو السطحى ، وباطنى هو النيل السفلى ، فما يتسرب فى الأرض .. يعود فيتجمع فى طبقات معينة منها ، تستغل فعلا منذ القدم .. وعلى نطاق واسع للزراعة والشرب ، وتقد جملة المخزون منها فى الطبقة الحاملة للمياه الجوفية ٧٠٠ مليار م^{3} تتوزع بين الدلتا .. ٥٤٠ مليارا ، وبقيتها فى الصعيد . (٧٢٤)

ـ الرى أسهل شمالا ، والصرف أسهل جنوبا . (ص ٦٧٠)

● الارسابات النهرية :

ـ ينقل النيل إلى مصر وجبة الغرين الشهيرة ، التى بنى بها واديه الرسوبى وسهله الفيضى ودلتاه عبر العصور ، وإليها ترجع خصوبة مصر ، ويتفاوت حجم الحمولة بحسب حجم الفيضان ، وتقدر فى المتوسط عند وادى حلفا بنحو ١١ مليون طن . (ص ٦٧٤)

ـ تصنف التربة المصرية الى أربعة أنواع أساسية . هى التربة الصلصالية السوداء الكثيفة السميكة ، والصلصالية السوداء الكثيفة متوسطة السمك ، ثم الصلصال الرملى ، وأخيرا التربة الرملية أو الحصباوية . (٧١٠)

ـ وكما يتدرج اتساع الوادى من الجنوب إلى الشمال ، فكذلك تتطور طبيعته الرسوبية ، فرواسب الطمى والغرين لاتكاد تظهر قبل أسوان ، ومن هنا التسمية الفرعونية بجزيرة فيلة Pi - lac بمعنى الزاوية .. أى نهاية الأرض ، ثم تظل الرواسب ضيقة حتى ثنية قنا ، ثم تفترش أرض الوادى بسخاء إلى أن نصل إلى الدلتا ، فتنفرج كالمروحة بلا حدود ، وبهذا أيضا ينقسم الوادى من حيث الارسابات النهرية إلى ثلاثة قطاعات رئيسية ، الوادى بلا سهل حتى جنوب أسوان (نقطة الصفر) والسهل الفيضى من أسوان إلى القاهرة ، ثم أخيرا الدلتا . (ص ٦٨٥)

الوادى والدلتا والفيوم

أما دراسته للوادى والفيوم (الفصل ١٣ ص ٧٣٣ ـ ٧٨٨) فتبدأ بالوادى من حيث « البنية والتضاريس ، أشكال الأرض وأسماء الأماكن ، ثم أقاليم الوادى ، أما « الفيوم » فيستهلها بالتركيب الجيولوجى ، ثم الاطار الاقليمى ، وجه الفيوم ، هيدرولوجية جغرافية ، مشكلة الفيوم ، ويختتمها أيضا بأقاليم الفيوم الطبيعية ، مع اشارات مسهبة لمنخفض الريان .

ويحدد فى السطور الأولى من الفصل (٧٣٣) ، صعوبة تقسيم (الوادى + الفيوم + الدلتا) إلى أقاليم ثانوية .. بسبب تجانسها الطبيعى العام ، وحين يبدأ « بالوادى » يلخص بنيته في (.. سواء أكان الوادى فى نشأته التوائيا أو انكساريا أو وادى تعرية نهرية .. أو الثلاثة معا ، فإنه موضوعيا التواء مقعر تحف به الانكسارات فى معظم قطاعاته .. سواء بالموازاة أو الانحراف أو بالتقاطع ، ثم شارك النهر بالتعرية في تكوينه ، وعلى طوله يتناقض مع تركيب الاطار الهضبى المحيط فالوادى متجانس على الجملة باستمرار ، فى حين يتغير الاطار بانتظام ، ٧٣٣) .

ويربط بين تضاريس الوادى كأحواض متتابعة وبين الرى الحوضى القديم (.. وفكرة الرى الحوضى كمبدأ .. إنما هى تعبير هيدرولوجى أولى عن الحقيقة التضاريسية الأولى فى جغرافية الوادى ، مثلما هى إفادة أساسية منه ، ص ٧٣٧) وتعكس شبكة الترع هذه الافادة ، فالترع فى الصعيد أقصر ، فكل نقطة على قطاع النهر عبره هى مخرج ميسور لترعة جديدة ، ومن ثم فلا رياحات فى الصعيد .. حيث يقوم النيل نفسه بدور الرياح ، وكذلك هو المصرف الرئيسى (ص ٧٢٨) ومايحيط بالنهر وان اصطلح على تسميته بالجبل ماهى إلا حواف متماوجة مابين [illegible] التلال ومقعرات الأودية الفد [illegible]رة التى توصل [illegible] ها على التعاقب

ولعل أبرز حقيقة فى جغرا[illegible]ة الوادى بعد [illegible] هى تمثل

سهله الفيضى بنسبة ٩ : ١ بين الضفة الغربية إلى الشرقية ، ومعنى ذلك أن الصعيد ليس ببساطة سوى الضفة الغربية (حيث تتركز الأرض السوداء .. بكل ماتحمل من مظاهر الحياة والعمران والحضارة .. ص ٧٤١)

وكنظرة تركيبية ختامية ، يقسم الوادى طبيعيا إلى (النوبة ، الجنوب الأقصى ، ثنية قنا ، الجذع الجنوبى من نجع حمادى إلى أسيوط ، الجذع الشمالى بين منفلوط وديروط ، وإقليم العنق من الواسطى إلى رأس الدلتا ، ص ٧٥٢)

ويخصص لكل قسم منها مايوضح خصائصه بشىء من التفصيل .

وتبدأ دراسته للقسم الثانى (الفيوم ص ٧٥٨) بتركيبه الجيولوجى ، ثم إطار المنخفض الاقليمى (٧٦) أما وجه المنخفض فيصوره (.. بين الدائرة والمثلث والكأس ، يبدو شكل الفيوم أشبه على الجملة بورقة شجر الاسفندان maole غصنها أو عودها القصير هو وادى بحر يوسف من اللاهون إلى مدينة الفيوم ، وعروقها هى شبكة الترع والمصارف المتشعبة داخلها بهذا الشكل .. وبمساحتها البالغة ١٧٠٠ كم^{٢} ويبلغ محيطها ١٨٠ كم .. تذكر على نطاق مصغر .. ولكن بشدة بصورة دلتا .. بل ووادى النيل كله ، ص ٧٦٩) .

ويحدد خصائص المنخفض فى انخفاضه (أعمق أقاليم الوادى جميعا ، ص ٧٦٥) وأشدها انحدارا (.. يكاد يعادل انحدار وادى النيل بأسره من أسوان إلى البحر المتوسط ص ٧٦٥) وفى انحداره على شكل مدرجات (.. فهناك ثلاثة مدرجات أساسية .. تتسارع فى الانحدار باطراد ..) وعلى إتلك المنحدرات المتجهة نحو بحيرة قارون بعامة .. تجرى شبكة المجارى المائية الطبيعية والصناعية التى تعكس شكل سطح المنخفض ، وبهذا الانحدار الطبيعى تتمتع الفيوم ـ حتى من قبل عصر الرى الدائم فى وادى النيل ، بالرى المستديم وبالرى وبالراحة معا .

ويطلق على الفيوم « مصر الصغرى » .. مفسرا ذلك (.. من هنا عدت الفيوم فى منخفضها المنعزل تصغيرا مركزا مكثفا ومتضاغطا لمصر النيل ، وجاء التسمية الموفقة « مصر الصغرى Little Egypt تماما كما تعد سيناء على ضلوع مصر الصحراء « مصر الصغرى الأخرى Egypt Minor وان إختلف المعنى والوضع والطبيعة فى الحالين بالطبع ، وفى هذه التسمية أيضا اختزال معبر بما فيه الكفاية عن جوهر شخصية الفيوم الاقليمية فى ذاتها ، ثم عن جوهر تفردها داخل شخصية مصر الاقليمية ككل ، ص ٧٧٠)

أما عن أقاليم الفيوم الطبيعية ـ فتتمثل فى (.. دلتا اليوسفى ، قارون وسهلها ، تجويف الشمال ، التجويف الجنوبى ، حوض الغرق ، ص ٧٧٣ ـ ٧٧٧)

ويأتى دور « الدلتا » فى النهاية (الفصل ١٤ ص ٧٨٩ ٨٤١) يتصدرها عنوان « النموذج .. النضج الفزيوجرافى ووراء ه عناوينه التفصيلية (المساحة ، البروز ، البحيرات ، الساحل الانسيابى ، قمة النمو أو نهايته ، ثم يأتى عنوانه الرئيسى الثانى « مروحة الدلتا .. الشكل والرقعة » ووراءه أيضا عناوينه الخاصة (بين شرق وغرب الدلتا ، مدى التناظر ، بين دوائر العرض ، ثم العنوان الرئيسى الثالث « صفحة الدلتا : السطح » .. مشتملا على تفصيلاته (مدرج خفيض ، الفاصل الرأسى ، أقواس منتظمة ، مدرج مائل ورقة شجر مقلوبة ، السطح والمائية ، درجة الاستواء ، فى مرآة أسماء الأماكن) ويختتمها كالعادة بالأقسام الداخلية تحت عنوان « أقاليم الدلتا الطبيعية ، مع اشارات مسهبة لنطاقها الشمالى وبحيراته .

وعن شكلها يذكر (.. دلتا النيل شكلا وحجما وتركيبا هى من أقرب دالات الأنهار جميعا إلى فكرة الدلتا النموذجية ، وهى دلتا ناضجة فيزيوجرافيا ، فسيحة تجاوز ٢٢ الف كم^{٢} بما فى ذلك البحيرات والكثبان ، هلالية الساحل ، ضعيفة المد والجزر ، ص ٧٨٩ ـ ٧٩٠) ويتابع مراحل بنائها .. محددا المرحلة الحالية (.. بأنها مرحلة توقف نسبى .. إن لم يكن نهائيا عن النمو ، وذلك منذ انشاء السد العالى الذى احتجز كل الطمى ، لقد ولى .. الى الأبد فيما يلوح .. عصر تقدم ونمو الدلتا ، وأضحى خطر التآكل يهدد الساحل

الشمالى ، دع عنك مشروع الدلتا الكامنة تحت البحر الذى لن يكون بعد الآن أبدا ، ص ٧٩٤)

وعن مروحتها من حيث الشكل والرقعة (.. جسم الدلتا الأساسى فرشة غطائية أو رقعة غطائية واحدة متصلة) ويتابع حدودها الغربية والشرقية والشمالية ، أما صفحتها .. فانها رغم ماتظهر به (.. كسطح بحر هادىء .. إلا أن بها قدرا هاما من الانحدار والتغضن ، تقع نصف مُساحتها تحت خط كونتور ٥ م ، ص ٨٠٢) وفى متابعة شيقة ـ يضع أسماء قراها فى مرآة خصائصها (ص ٨٠٧ ـ ٨١٠) وكعهده مع الوادى والفيوم .. يحدد أقاليمها الطبيعية فى (.. الاقليم الجنوبى بين رأس الدلتا وكونتور ٧ م ، واقليم الوسط بين كونتورى ٧ ـ ٣ م والاقليم الشمالى دون كونتور ٣ م وحتى البحر ، ص ٨١٠ ـ ٨١١) ويقدم ظواهرها الفزيوغرافية الرئيسية فى نوع من التحليل الجيومورفولوجى المسهب ، من قبيل ظهور السلحفاة (ص٨١٢) نطاق البرارى (ص ٨١٦) البحيرات الشمالية (ص ٨١٨) نطاق الكثبان الرملية (ص ٨٣٤) وينهى بذلك الجزء الأول الرئيسى من عمله .

البحر المتوسط

الدلتا

الوادي

النهر

التربة الغنية

النظام الزراعي

سيناء

الواحات

المياه

الغربية

الصحراء

الشرقية

نبات صحراوي

كثبان رملية

وجه مصر

البادية

جبال البحر الأحمر

البحر الأحمر

المائية

شخصية مصر (البساطة)

الصحراوية

النظام المناخي

المنخفضات

البناء الجيولوجي

الأودية الجافة

الصخور الرسوبية

المطيرة

المناخ القديم

الصخور النارية

هضبة الجلف الكبير

القاعدة الأركية

جبل العوينات

شكل (٤) منظومة عناصر شخصية مصر الطبيعية

ثانيا : شخصية مصر البشرية

إذا كانت الكلمة المفتاح فى شخصية مصر الطبيعية هى « البساطة » فإنها بالنسبة لشخصيتها البشرية .. تتحدد فى التجانس ، وبالنسبة لهما معا .. فهى البساطة المؤدية للتجانس وتستند نظريته العامة عن التجانس .. إلى مجموعة من الفروض المتتابعة (التجانس الطبيعى ـ التجانس المادى ـ التجانس السكانى ـ التجانس العمرانى ـ وحدة الوطن السياسى) .. وذلك على النحو التالى :

★ التجانس الطبيعى .. فى مصر المعمورة .. بمثابة القاعدة لكافة صور التجانس .

★ إذا كان النهر .. (بمائيته + تربته) وراء التجانس الطبيعى .. فقد أفضى ذلك إلى التجانس المادى (الزراعة) .

★ انطبع التجانس السكانى فوق الزراعة ، ومقاييسه .. وحدة الأصل والتوزيع والكثافة .

★ صيغ التجانس العمرانى حول ماسبق .. من القرية إلى السوق إلى المدينة المتوسطة .

★ وحدة الوطن السياسى .. ثمرة ماسبق ، ومقاييسه الدولة المركزية وثبات حدودها .

ومن بعد .. يتوجه بكل قوة لاثبات فروضه ، بطول صفحات

الجزء الثانى (١٠١٨ صفحة) من كتابه ، وخاصة الباب الرابع منه (ص ١٣ ـ ٣٦٢) .. الذى يتصدره « التجانس » .. كعنوان رئيسى يفسر جميع فصوله (من ١٥ إلى ١٩) ويتصاعد من قاعدة التجانس السارية .. ويكثفها فى صيغة « الوحدة » (التجانس ـ الوحدة) .. حين يتناول « الوطن السياسى » مفردا لذلك البابين الخامس والسادس (ص ٣٦٣ ـ ٧٨٣) .. بفصولهما الستة (من ٢٠ ـ ٢٥) ويمكن اعتبار الفصل العشرين من بينها .. وعنوانه (.. من السبق الحضارى إلى التخلف ..) بمثابة همزة الوصل بين الباب الرابع .. والبابين الخامس والسادس ، أما الباب الأخير من هذا الجزء .. والسابع من كتابه .. فيخصصه لنظريته العامة .. عن « البناء الحضارى والأساس الطبيعى » .. المستندة إلى فرضيته الجذرية عن « الموضع والموقع » .. هذه التى تتردد كنغمة أساسية فى تحليلاته ، حيث يتناولها بالتفصيل فى فصول هذا الباب (من ٢٦ إلى ٢٨) الثلاثة .



ويأتي الفصل الأول من هذه الجزء (فصل ١٥) تحت عنوان « التجانس الطبيعى » (ص ١٣ ـ ٥٨) يتابع فيه ماخصص له الجزء الأول بأكمله (شخصية مصر الطبيعية) بما يمكن معه اعتبار هذا الفصل .. تتمة له واستكمالا ، مع تميزه بتوجيهه وتكييفه للكشف عن التجانس الطبيعى ، أى اخضاعه لذات الرؤية العامة ، بما يجعله فوق كونه ملحقا وتتمة .. بمثابة هزة الوصل المنهجية والموضوعية والفلسفية .. بين الجزئين الأول (الطبيعى) والثانى

(البشرى) .. من خطة كتابه وبنائه ، تدل على ذلك مقولته الأساسية التى يستهل بها هذا الفصل (.. التجانس الطبيعى .. صفة جوهرية فى البيئة المصرية (جـ ٢ ص ٣) بما يعنى أن كافة صور التجانس التالية .. إنما تنبثق من هذه القاعدة الطبيعية ، وحين تواجهه مشكلة ثنائية البيئة الطبيعية المصرية .. بين الصحراء والوادى .. يعالجها بمقوليته عن البيئة الفعالة .. أى المنتجة .. وتتمثل فى الوادى ، والبيئة غير الفعالة .. أى الصحارى ، وبذا تستمر قاعدة التجانس .. ولكن بتمثل ثنائى (تجانس البيئة الفعالة + تجانس البيئة غير الفعالة) ، مكتفيا ذلك فى أن مصر (.. من الأقاليم ذات النغمة الثنائية Zweiklang جـ ٢ ص ١٣)

ويعود بتجانس البيئة الفعالة إلى النهر بصورة مطلقة (... فالوادى كله وحدة فيضية ، أرضه من تشكيل مائه ، والنهر هو الضابط الأساسى .. إن لم يكن المطلق لشكل اللاند سكيب الطبيعى ، ولهذا فإن النيل يمنح أرض مصر من تجانسه .. بقدر مايسيطر على حياتها .. ص ١٣) وهكذا يتصاعد التجانس حتى يتخلل نسيج شخصية مصر .. ويصبغ جميع خيوطه ، ويجعل النيل من مصر المعمورة بيئة أحادية تماما .. ذات نغمة واحدة eimklang يضبط ايقاع الحياة فيها (ص ١٤) وتتحدد عملية تجنيسه لها فى هيدرولوجيته وارساباته .. أى الماء والتربة ، فهما عاملا التجنيس الطبيعى (ص ١٤) ومن ثم البشرى فالاقتصادى .

لكن هذه النغمة الواحدة تفصح عن ذبذباتها المكانية ،

هذه التى يفسرها بمقولته الثالثة عن « التدرج » (... وفى النتيجة .. فإنه من الصعب أن نجد بلدا يخضع فى ملامحه لقانون التدرج كوجه مصر ، فإذا كان التجانس هو قانونه الأول .. فإن التدرج قانونه المكمل ، والتدرج ضد التغير أو التحول المفاجىء ، وهو لا يؤدى إلى التراكم بحيث يؤدى الى تبلور فروق محسوسة ، فإذا ماظهرت فروق نوعية بين أقصى شمال الوادى وجنوبه ، فإنه لايعنى تنافرا ينقض مبدأ التجانس القاعدى الأساسى ، بقدر ماهو اختلاف إقليمى ثانوى الدرجة ، ويبقى الجسم الأساسى من مصر والتجانس جوهره والتدرج مظهره ، ص ١٤) وبذا ينفى أيضا بالتدرج .. ماينطوى عليه التجانس المطلق من اختفاء القسمات وشحوب الصورة (ص ٢٠) .

وبعد أن يدعم قاعدته النظرية بمقولاته .. ينطلق إلى تطبيقاتها فى المجالات المختلفة ، وكما ربط بين التركيب الجيولوجى والتضاريس .. يربط بين الأخيرة والتربة (.... ترتبط التضاريس الطبوغرافية توا بطبيعة وتوزيع التربة ، إلى حد التداخل الكامل واستحالة الفصل بينهما ، بحيث تصبح دراسة سطح مصر الوادى .. هى فى الوقت نفسه دراسة فى تربتها تقريبا ، وهما التضاريس والتربة من صنع النهر وصياغته وتشكيله .. جـ ١ ص ٤٠١) كما يشير إلى إلى تجانسها توزيعا وتركيبا .. (.. بالموازاة مع هيئة الأرض يسير تركيب التربة ، فنسبة الرمل الأثقل أعلى ماتكون قرب النهر وتقل بالتدريج ، بينما تزيد نسبة الطين الخفيف .. كلما

تقدمنا نحو حافة الصحراء ، وبالصيغة البيدولوجية المحلية ، قرب النهر والفروع تسود التربة الرملية التى تتراوح فيها نسبة الطين حول الربع ، تتدرج بعيدا عنهم إلى الطفل Loam حين تتعادل نسبة الطين والرمل تماما ، ثم إلى التربة الطينية أو الأرض السوداء ، التى ترتفع فيها نسبة الطين إلى أكثر من النصف ، ثم فى النهاية على هامش الصحراء الواسعة تأخذ التربة الصفراء الخفيفة جدا فى الظهور ، جـ ١ ص ٧٠٩)

● ويمنح « المناخ » اهتماما خاصا (جـ ٢ ص ٢١ - ٦٥) فى سياق التدليل على التجانس (... إن لم يكن مناخ مصر .. هو نموذج التجانس النادر ، فإنه على الأقل أكثر عناصر البيئة المصرية تجانسا بالتأكيد ، ص ٢١) وبقدر ما يفسر التجانس المناخى جغرافيا وفلكيا ، يتابعه إلى تفصيلاته المكانية من كافة عناصره وخصائصه التى تدل على التجانس أيضا وتثبته (الحرارة ، القارية ، الرياح ، التساقط وغيرها) وكما يكشف عن تجانسه يوضح تدرجه ، ويضمه إلى منظومته الطبيعية المتجانسة ، ويكثفه إلى صورته العامة كما يلى (.... إن الجزء الأكبر من رقعة مصر يقع تحت سيادة نوع مناخى واحد هو المناخ الصحراوى ، ومن هنا التجانس الأساسى العام فى مناخ البلد ، واذا جاز أن نتكلم عن ثنائية فى مناخ مصر ، فقد نضيف إليه هامش مناخ البحر المتوسط فى الشمال ، والواقع أن نسبتهما المساحية إلى بعضهما البعض على المستوى المناخى ، هى تقريبا كنسبة مساحة

وادى النيل إلى الصحراء على المستوى الطبوغرافى ، وداخل هذا الاطار .. يمتاز مناخ مصر بثلاث خصائص قوية ، (الانتقالية ، القارية ، الاطراد .. بعبارة جامعة ، جـ ٢ ص ٢٢) ولمزيد من تجسيم الصورة المناخية فى إطارها الايكولوجى .. يقرر (... فى غياب المطر كلية وسيادة الجفاف ، تصبح الحرارة دون الرطوبة هى العامل الأساسى فى التمييز بين فصول السنة ، ص ٢٣) ويضيف فى لمسة انسانية تقرب الصورة بعد العقل من الشعور .. (.. والحق لقديصل اطراد واستمرار المناخ فى مصر .. إلى حد أن المرء كثيرا مايشعر أن الطقس الذى يحس به فى فصل من فصول السنة ، بل فى أى يوم ، قد سبق أن مر عليه فى عام سابق ، ص ٢٥) ويؤكد فى ذات السياق .. (.. كأنما هو استعادة لشريحة من جهاز آلي لتسجيل الجو .. أو من ذاكرة اليكترونية للمناخ ، يحدث هذا فى أيام الخماسين كما فى الخريف ، وفى أى يوم من قلب الشتاء كما فى عز الصيف ، ويحدث بعد هذا ـ لا مرة كل بضعة أعوام .. وإنما تقريبا من عام إلى عام .. وذلك لاشك قمة الاطراد والرتابة ..) ويستمر فى التدليل على هذه الصورة أو الانطباعات العامة ، من واقع انعكاساتها على الحياة اليومية وفى البيئة (ص ٢٥ ـ ٢٨) بما يجعل من المناخ وانعكاساته .. مقياسا للتجانس ، تجانسا يسرى من ظاهرة لأخرى .. حتى يضمها جميعا فى إطاره .

● التجانس المادى :

وكما سبق تبعا لفروضه .. فانه يتصاعد بها .. بعد ما دلل فى الفصل ١٥ على التجانس الطبيعى - إلى ما يطلق عليه « التجانس المادى » .. فى الفصل التالى ، ويثير عنوان الفصل ١٦ (جـ ٢ ص ٥٩ - ١٦٥) السؤال عن المقصود بالتجانس المادى ؟ ويتضح ذلك على الفور من عنوانه الثانوى (خريطة مصر الزراعية ص ٥٩) وبذا يصعد بالتجانس الى مستواه الاقتصادى .. كما انطبع تبعا لرؤيته فوق التجانس الطبيعى ، وكان قد سبق تحديد « الرى والزراعة » .. باعتبارهما من عوامل التجنيس البشرى حسب تعبيره (ص ١٧) ثم أضاف إليهما العمران فى سياق آخر ، ويبرز دور « المناخ » فى تجانس الزراعة بصفة خاصة .. (... ذلك التجانس الطبيعى الأساسى فى البيئة ، خاصة التجانس المناخى .. ينعكس بالضرورة فى الزراعة ، فضلا عن النبات الطبيعى من قبلها ، ص ٥٩) وكنتيجة مباشرة للجفاف .. فإن مصر تقريبا بلانبات طبيعى .. أى بلا غابات أو مراعى ، وكنتيجة مباشرة للنهر .. فان خضرة واديها تعود للزراعة ، واذا وجدت معها ثنائية رعى طبيعى .. فإنها وبصورة محدودة تقتصر على صحاريها .

وتعود هذه الخضرة المتجانسة المزروعة إلى منظومة ايكولوجية ، يحدد عناصرها فى (ص ٦٠ - ٧٠)

★ الرى .. باعتباره توظيفا لمائية النهر .. وعامل التجنيس الزراعى الرئيسى .

★ الحرارة .. باعتبارها أهم الضوابط المناخية المؤثرة فى الزراعة .

السكان .. وخاصة الكثافة .. التى دفعت لاستزراع كل شبر .. عبر تاريخ الزراعة ومراحلها فى مصر المعمورة .

★ المدن .. بما شكلته من نطاقات الزراعة حولها .. وبنموها على حساب الزراعة .. كظاهرة متفاقمة خطيرة .

ولكن الأمر بالنسبة لتجانس هيكل الزراعة .. يبقى متطلبا اثباته (.. أيمكن بعد أن نقيس درجة هذا التجانس ومداه احصائيا ؟ وكيف ؟ ص ٨٣) وتحت عنوان « مقياس التجانس » يجرى دراسة كمية دقيقة .. للاجابة عن سؤاله ، يتبع فيها عدد من الطرق الاحصائية ـ من بينها مقياس التكاثف (ص ٨٣) ومقياس التركز (ص ٩٣) يتوصل بعدها إلى مايسميه قاعدة التجانس (ص ١٠٥) .. يخلص منها بما يلى (.. إن الزراعة المصرية .. ككل عناصر الطبيعة أو الحياة التى سبق أن عرضنا لها .. إنما تتغير على أطرافها وهوامشها وحدها ، وتبقى زراعتنا فى مجملها .. وبعيدا عن أى طمس للمعالم الثانوية والتباين المحلى .. وهى أقرب إلى التجانس العريض منها إلى غيره ، وهو تجانس يرتبط وثيقا بالتجانس الطبيعى العام فى مورفولوجية مصر ، ذلك الذى لاينفصل بدوره عن ضبط النيل أو ضط المناخ .. أو كليهما معا ، ص ١١٦ ..)

وكما يثبت التجانس .. فإنه يسعى إلى اثبات التكامل معه .. متسائلا (عما نخرج به فى الخلاصة .. من هذا التحليل الاحصائى لمحاصيلنا الزراعية ؟ .. وكيف تتكامل ؟) ويفيض فى دراسة مسهبة عن كثافة الزراعة وديناميات المحاصيل وتوزيعها ، ويتابعها رقميا إلى تفصيلاتها .. فى قرابة مائة صفحة (ص ١٠٥ - ١٩٨) .. يضمنها جداوله ، ويقوم بتنميطها حسب المناطق والمحاصيل معا ، مستندا إلى ما أسماه « بالقاعدة الرباعية » للمحاصيل فى مصر (القطن ، القمح ، البرسيم ، الذرة) هذه التى تتوزع فوقها ظلال المحاصيل الأخرى .. بنسب متفاوتة ، فضلا عن تباين نسبها هى ذاتها ، بما يؤدى إلى توضيح وإثبات أنماطها ، متوصلا فى صدد اثبات تكاملها .. إلى تحديد الشخصية الزراعية لكل محافظة .. فى دراسة تيبولوجية تطورية .. هى إضافة هامة لشخصية مصر الزراعية بعامة (ص ١٢٥ - ٢١١) فى حد ذاتها .

هى إضافة .. لأنها توصلت استنادا الى فروق احصائية ضئيلة .. لنوع من التصنيف المكانى .. الضرورى للتخطيط المستقبلى .. والكشف عن ثراء المكان بالتنويعات .. رغم تجانسه ، وهى إضافة هامة .. لأنها تثبت بهذه التنويعات تكامله ، ويقرر تحت عنوان أقاليم مصر الزراعية (.. من فعل التجانس الغالب .. وبرهانا عليه أيضا .. صعب جدا أن نجد فى مصر أقاليم زراعية صارمة الجدود متبلورة .. بل مناطق انتقالية متداخلة متكاملة ..)

وأخيرا .. فإن هذا الفصل الهام (جـ ٢ ، فصل ١٦) .. ليس فقط همزة الوصل بين الجزأين الأول (شخصية مصر الطبيعية) والثانى (شخصية مصر البشرية) من كتابه فقط ، بل هو بنفس الصفة .. بينهما وجزئه الثالث (شخصية مصر الاقتصادية) .. ومن هنا التنويه عن أهميته .

● التجانس البشرى

يأتى الفصل السابع عشر (جـ ٢ ص ١٦٦ ـ ٢١١) تحت عنوان « التجانس العمرانى (السكان + السكن) .. تبعا لترتيب فروضه فى نظريته ، ولكنه يخصصه لدراسة « الغطاء البشرى » بعنوان ثانوى .. وهى تسمية موفقة للسكان .. تتسق وتوحى بما يسعى لاثباته عن تجانسه .. فالغطاء ينطوى على المعنى ذاته ، ويؤكد بانتقاله من التجانس المادى (الزراعة) الى التجانس البشرى (السكان) .. بناءه المنهجى الهرمى فى تصاعده ، غير أن الضرورة هنا تقتضى .. اضافة ماورد عن السكان .. فى غير هذا الفصل السابع عشر .. فى مجمل كتابه .. خاصة الباب التاسع من الجزء الرابع .. تكثيفا لرؤيته ، كما تقتضى تلخيصا مبكرا .. لما ورد عن تاريخ مصر الجنسى القديم (فصل ١٩ جـ ٢) .. باعتباره يؤصل للمجتمع السكانى فى مصر .. ويحدد جذوره وبدايته .

ويبدأ فصله السابع عشر .. بسؤال .. لاتتأخر إجابته (.. والآن .. ماذا عن الانسان ؟ هل يتفق هو الأخر مع مبدأ التجانس والتدرج في مورفولوجية مصر ؟ أيرسم النيل خريطة الحياة .. أعنى السكان .. بما فيها القرى والمدن أيضا ؟ إن نظرة إلى خريطة توزيع السكان أو الكثافة فى مصر .. جديرة بأن تضع أيدينا على حقيقة جذرية .. كأنها القانون ، إن نهر النيل ليس فقط مانح الحياة فى مصر .. ولكنه أيضا موزع الحياة على وجهها ، ونستدرك بأن هذا لايعنى أن النيل وحده هو العامل الوحيد فى تفسير كثافة السكان .. فهناك عوامل أخرى عديدة .. طبيعية وبشرية .. اقتصادية واجتماعية .. وحتى تاريخية ، ولكن النهر يكمن خلفها غالبا .. مباشرة وغير مباشرة ، وهو وحده العامل المفتاح والمسيطر ، جـ ٢ ص ١٦٦)

● التجانس العرقى

نحن المصريين .. من نكون ؟ ما الأصل والعرق والنسب ؟ ، ومنذ متى ظهر المصريون كشعب وشعبة من البشر ؟ .. كيف يبدون اليوم شكلا ؟ وأين يقع الانسان المصرى فى العائلة البشرية ؟ أيبدى المصريون من التجانس البشرى مثلما تبدى مصر من التجانس الطبيعى والمادى والحضارى وغير ذلك ؟ قد لاتكون مصر مهد الجنس البشرى ، ولكن الانسان المصرى يعد بالتأكيد من أقدم

سلالات الأرض ، فمن المحقق أن تعمير مصر .. بدأ مبكرا جدا .. منذ وقت بالغ القدم ، يسبق فجر التاريخ المكتوب .. بمراحل سحيقة على أقل تقدير ، فالانسان ظهر على مسرح الحياة فى هذا الجزء من العالم فى عصر البلايستوسين .. أى فى العصر المطير على الأقل ، ومنذ أوائل العصر الحجرى القديم بالقطع .. تظهر مصر وهى منطقة مسكونة بواسطة جماعات مختلفة منتشرة فى معظم أجزاء الوادى ، تدل عليه بقاياه المادية .. ولكن دون بقايا جثمانية أو عظمية .. تبين صورته كإنسان (ص ٢٥٥) فمتى يمكن القطع بالأصول الجنسية الأولى لسكان مصر ؟ .. وكيف حدث التجانس والتجنيس ؟

وفى سياق بحثه عن إجابات لما طرحه من أمثلة .. يعرض بالتفضيل لعدد كبير من الآراء والنظريات المتوافقة والمتعارضة ، ويسلط عليها ضوء رؤيته العامة ، ويفرد لذلك فصلا كاملا .. تحت عنوان « تاريخ مصر الجنسى (فصل ١٩ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ ـ ٣٥٩) يستهله كما سبق بهذا السؤال المحورى (.. نحن المصريون .. من نكون ؟) وتقتضيه اجابته ـ أكثر من غيره ـ رحلة فى التاريخ وماقبل التاريخ طويلة ، ليس فى مصر وحدها .. بل فى مجمل العالم القديم .. خاصة الشرق الأدنى .. وفى مناطق حضاراته الرئيسية تخصيصا . ومنها يتبين أن الجنس الأوروأفريقى Eurafrican بمثابة الجد الأعلى للانسان الحجرى القديم فى افريقية (جـ ٢ ص ٢٥٧) وصل إليها كموجة حامية من

الجنوب ، أما أولى سلالات ماقبل الأسرات .. فهى (.. أهل نقادة فى ثنيه قنا .. ص ٢٥٩) وبعد مناقشة نقدية للنظريات المختلفة المطروحة فى هذا المجال .. يقرر (.. أن المصريين القدماء .. ينتمون أساسا إلى مجموعة الحاميين الشرقيين .. الذين ينتشرون حاليا فى شمال شرق افريقية .. حتى القرن الأفريقى ص ٢١٩)

وينتقل من الأنثروبولوجيا التاريخية الى التشريحية ، هذه التى تنفى دراساتها .. وجود الصفات الزنجية بين المصريين القدماء ، وتشير الى سلالة بحر متوسطة .. متوسطة القامة .. داكنة الشعر والعينين ولا تختلف صورة المصرى بعد ذلك فى عصر الأسرات (ص ٢٧٥) مؤكدة استمرارية الصفات الاثنولوجية .. (.. فالفلاحون الذين يؤلفون جسم الأمة اليوم .. هم النسل المباشر لفلاحى سنة ٣٣٠٠ ق . م ، ص ٢٧٧)

منذ فجر التاريخ إذن يبرز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة الأصل .. متجانسة بقوة .. من حيث الصفات والملامح الجنسية ، وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم بوجه عام ، وبالنسبة للهجرة العربية .. فهى أول وآخر وأخطر هجرة استيطانية .. موجبة وفاعلة وناجحة فى تاريخ مصر ، ولكنها أيضا نقطة انفصال فى تاريخ مصر الجنسى ، فعرب الجزيرة من الساميين .. وهم مع الحاميين تعديلات من عرق جنسى مشترك ، بدليل أوجه التشابه الثقافية والعرقية ،

ومهما معا .. أقارب جنس البحر المتوسط ، وهكذا كان الاختلاط الجنسى المصرى العربى .. (.. بمثابة زواج بين ، أقارب بعيدين ، ص ٢٩٨) .

ويستخلص من رحلته الطويلة فى التاريخ .. ما يعتبره الأبعاد التى تحدد شخصية مصر الجنسية ، ويحددها فى أن التكوين الجنسى الأساسى قديم سابق للتاريخ ، تداخلت معه مجموعة من المؤثرات الثانوية - القوقازية عامة - والبحر متوسطية :. على وجه التخصيص ، وفى مواجهة التدفق البشرى من الخارج .. تأصلت فى مصر خاصية الامتصاص (ميكانيزم التجانس فى مصر .. الامتصاص ضد التدفق ، ص ٣١٥) بما كفل لها استمرار التجانس .. رغم الاختلاط ، منتهيا إلى أن شخصية مصر الجنسية .. هى فى التحليل الأخير (نهاية وبداية كلتاهما متجانسة ، يفصل أو بالأصح يصل بينهما قدر ضئيل من الاختلاط لا التخليط ، والاستمرار مع التجانس رغم الاختلاط ، تلك إذن فى معادلة ذات ثلاثة حدود هى شخصية مصر الجنسية ، ص ٣٢٣)

ويتصدى خلال دراسته الموثقة .. لعدد كبير من القضايا المعقدة .. المتصلة بما يحاول اثباته والتدليل عليه ، لعل أهمها مايتصل بمسألة « قبط مصر » .. وهل يمثلون شذوذا عن قاعدة التجانس العام ؟ يعرض فيها - قبل تفنيدها - لجملة الآراء التى ترى الأقباط أقلية دينية وجنسية معا .. وأنه يمكن التمييز بمجرد النظر بين الأقباط والمسلمين ، متخذة من

بعض الاختلافات الجسمية والسلوكيه .. أساسا للتميز ، وهو لايتصدى فقط لاثباته فرضيته عن التجانس .. وإنما أساسا لأن هذا التمييز .. يصيب وحدة الوطن السياسية فى الصميم ، ومن ثم يعمد إلى دراسة المسألة من الجذور ، متابعا مراحل الهجرة العربية الاسلامية إلى مصر عبر التاريخ (ص ٢٩٥) وموضحا كيف تمت عملية التمازج والاختلاط .. بينها والعناصر الأقدم فى مصر آنذاك ، ومفسرا جوانب الاختلاف ، ويعود الى تعدادات السكان (ص ٥١٥) .. يثبت بها خطل مايقال عن وجود تركز قبطى فى بعض المديريات والمحافظات ، وأن مايوجد بها لايعدوا ارتفاعا فى النسبة .. عن المتوسط العام ، وأن القاعدة الأساسية .. تبقى متمثلة فى الاختلاط والتداخل بين السكان .. مسلمين وأقباط .

ويعود فيقلب المسألة باسهاب (ص ٢٠٧ ـ ٥٢٠) .. من وجهة نظر الاثنولوجيا التاريخية .

(.. وفى هذه ، بالمناسبة رد ضمنى وتوضيحى أيضا على النظرية الشائعة من أن الأقباط أقرب إلى تمثيل المصريين القدماء من المسلمين ، ولاشك ابتداء أن هذا صحيح ، وإنما بالنسبة إلى جزء من المسلمين لا كلهم ، فليس كل المسلمين بالضرورة قد داخلتهم دماء عربية أو غير عربية ، فهؤلاء إذن لايقلون قربا من المصريين القدماء عن الأقباط ، والأصح أيضا أن نقول : عن معظم الأقباط لا كلهم ، ذلك لأن الأقباط هم أيضا داخلتهم بعض مؤثرات خارجية ، وان تكن غير

عربية أو إسلامية بالطبع ، وذلك من خلال الزواج المختلط مع بعض العناصر والجاليات المسيحية اليقانتية والأوروبية .

بعبارة أخرى فإن معظم المسلمين أو الكثير منهم اليوم .. إنما هم معظم القبط المصريين أسلموا بالأمس ، بمثل ما أن أقباط اليوم هم بقية قبط الأمس الذين استمروا على عقيدتهم ، ومن هنا وحده نتفهم أن المصريين إما « قبط مسلمون » ، وأما قبط مسيحيين ، حيث كلمة قبط « إنما هى تحريف لكلمة « إيجيبت » أى مصر ، ولقد تكون هذه طريقة خاصة جدا للتعبير عن وحدة الأصل بين الطائفتين ، ولكن الجوهر فيها سليم عمليا ، وهو تلك الوحدة بعينها ، واذا صح التشبيه الشائع عن الزواج الطبيعى بين أرض مصر وفيضان النيل ، فإن من الصحيح أيضا أن ثمرته هى المصريون جميعا ، فالنيل أبوهم ومصر أمهم ، ولعل العقاد كان عالما باحثا .. قبل أن يكون أديبا متحمسا .. حين لخص الموقف كله فى قضية الوحدة الوطنية بقوله الجامع (.. ينقض التاريخ كل مايقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية .. »

وبعد ما يستخلص من التعدادات دلالاتها حول تركز وانتشار الأقباط فى مصر .. كما سبقت الاشارة ، يصل إلى الوحدة الوطنية كنقطة أخيرة (تلك هى خريطة المسيحية أو جغرافية الأقباط فى مصر ، فماذا تعنى سياسيا من حيث النسيج والتماسك الجيوبوليتيكى والوحدة الوطنية أو

السياسية ؟ ابتداء . أن كثافة المسيحية تزداد كلما تعمقنا جنوبا ، أى كلما بعدنا عن مدخل الاسلام من الشمال ، فهذا لايعنى مطلقا أن الموجة العربية الاسلامية ـ إذا كان لنا أن نضع الحاضر فى إطار الخلفية التاريخية ـ قد أزاحت الأساس « القبطى » إلى جيب الجنوب المغلق فى الصعيد ، وذلك كما حدث مثلا للفرشات الأساسية فى الشام والمغرب .. حيث التجأت الى المعاقل الجبلية والمرتفعات ، فالانتشار العربى فى مصر كان أشبه شىء بعملية الانتشار الغشائى الاسموزى ، عملية تغلغل لازحزحة ، وتخلل لا إزاحة ، ولهذا فقد أثبتت الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة خطأ النظرية التى كانت ترى بين الفلاحين والقبط فارقا كالذى بين العرب والبربر فى المغرب ، فالأقباط والفلاحون يكونون جسما واحدا ، ميتة طبيعية لنظرية غير طبيعية .

والواقع أن الغريب فى هذه النظرية ليس سقوطها وإنما أساسا قيامها ، ذلك لأن وحدة الاصل بين المسلمين والأقباط ليست علميا إلا تحصيل حاصل ، ومجرد بديهية انثروبولوجية ، ببساطة لأن تكوين مصر الجنسى سابق على تكوينها الدينى ، أو كما يضعها حزين بكل وضوح .: لأن الطابع الجنسى العام للمصريين .. قد وجد واتخذ صورة المميزة قبل أن يكون هناك أقباط ومسلمون . (ص ٥١٩)

● تجانس الغطاء البشرى (السكان)

خريطةالسكان معقدة بطبيعتها .. زاخرة بالتباين والفروق المحلية ، وهناك اختلافات محلية وإقليمية هامة فى مصر .. ومع ذلك (.. فإنها لاتبتعد بها كثيرا عن التجانس العام أو النسبى ، جـ ٢ ص ١٦٦) ويتجلى ذلك فى كثافتها السكانية .. كما يظهر فى غيرها من الجوانب التركيبية والوظيفية ... وتختلف مصر عن غيرها فى باب الكثافة .. ونمطها الجغرافى بالدقة (.. ذلك الذى بات اليوم أشد وزنا وتضاغطا منه فى أى دولة أخرى ، ومصر انما تستمد شخصيتها السكانية الحقه .. من الخلفية التاريخية والأرضية الجغرافية .. أكثر مما تستمده من تشريح الجسم السكانى ذاته ، ولعل فى هذه المتناقضة الشكلية .. يكمن صميم شخصية مصر السكانية ، أو لعله لاتناقض هناك موضوعيا ، فإنما تلك الشخصية انبثاق طبيعى من تفاعل خصوصية المكان وعمومية السكان جـ ٤ ص ١٤) ويكثف من صورة السكان ويدمجها بالفكرة .. (.. ولاتكاد فكرة مصر تنفصل عن فكرة السكان ، بل توشك فكرة مصر أن تكون سكانا .. قبل أن تكون أرضا ، فقلما ترد فكرة مصر على الذهن .. إلا وتقفز إليه صورة الملايين الضاغطة المتكاثرة والكثافة الساحقة ، أو كما يصفها بحث شارل عيسوى .. فى وادى النيل .. من المستحيل حرفيا أن تكون خارج نطاق رؤية البشر جـ ٤ ص ١١٦)

وهكذا .. إذا كان التجانس السكاني ظاهرة مستمرة .. فإن الكثافة أبرز مؤشراتها ومقاييسها ، تؤكد ذلك نتائج معالجاته الاحصائية .. بواسطة التجانس Coefficient of uniformity (جـ ٢ ص ١٦٧) ومنها تكثيف هذا الاتجاه نحو المزيد من التجانس فى توزيع وكثافة السكان على المستوى القومى ، واستنادا اليه يقرر (.. تقترب مصر فى الواقع من قانون راتزل المعروف فى كثافة السكان ، ومؤداه أن كثافة السكان حين تزيد عن الحد .. وتبلغ حد الافراط .. فإنها من فرط طفحها تغمر كل المناطق .. بحيث تطمس الفروق بينها .. فتتقارب كثافات المناطق المختلفة .. وتتشابه مؤلفة غطاءا متجانسا وسميكا ، يشبه بقعة زيت واحدة متصلة ، جـ ٢ ص ١٦٩) وتتبع له مصادره التاريخية .. أن يقرر فى صياغة مكثفة عددا من خصائصها الكامنة المستمرة (.. لمصر أطول تاريخ سكانى معروف أو مسجل ، غير أنها طواله .. لم تكن دار هجرة وحركة .. بل دار استقرار وإقامة ..) على أنها قبل ذلك وبعده .. كانت دار كثافة فى الدرجة الأولى ، فكانت بذلك على الدوام .. مزرعة سكانية بالغة التكثيف والتزاحم ، تبدو بيئتها المائية ورقعتها الضئيلة وسط اللامعمور الصحراوى الشاسع .. أشبه بصوبة أو حوضة زجاجية من الزراعة الهيدربونية ، إلا أنها صوبة أو جوضة طبيعية وزراعة بشرية ، جـ ٤ ص ١٣)

ولأن الكثافة عنده من أهم قسمات شخصية مصر السكانية .. فإنه يخضعها لدراسة احصائية عبر التعدادات

المصرية المتتالية ، غير مكتف بما أورده عنها فى الجزء الثانى من عمله ، بل ويعود إليها ـ كما سبق ـ فى الجزء الرابع أيضا ، دون أن يغفل نظرته الايكولوجية لها فى أيهما .

وربما يكون مفيدا .. تقديم بعض ما انتهت اليه متابعة الاحصائية .. سواء بالنسبة للكثافة أو لغيرها من زوايا الدراسة السكانية (النمو والهجرة وغيرهما) ليس فقط باعتبارها من سمات شخصية مصر البشرية بل وأيضا باعتبارها مدخله لدراسة مشكلة مصر السكانية الراهنة .

● النمو السكانى :

يحدد بداية القرن ١٩ إطارا للفترة الحديثة من نمو مصر السكانى ، وذلك باعتبارها وحدة مورفولوجية مستقلة فى منحنى السكان التاريخى .. ويصفها بأنها (.. الثورة الديموجرافية بكل معنى الكلمة ، ونحن نعيش اليوم على آخر وأعلى قممها ، فالبداية ١٨٢١ تسجل بالتقريب ٢,٥ مليون نسمة ، والنهاية ١٩٨٣ تقدر بنحو ٤٦ مليونا ، فسكان مصر يبلغون على الأقل ثمانية عشر أمثال ـ كدت أقول أمصار ـ ماكانوا عليه منذ أكثر قليلا من قرن ونصف قرن ، ونسبة النمو الكلى تصل إلى ١٧ مثلا ، أى أن سكان مصر ضاعفوا عددهم نحو ١٧ مرة فى ١٦٢ سنة ، بمعدل مرة كل ١ سنوات تقريبا .

ويقسم مرحلة النمو الحديثة هذه إلى فترات ، يشتق لكل منها من طبيعتها الخاصة اسما ، ومتتبعا لها ولكل فترة

بالتحليل الديموجراف الدقيق ، ورابطا بينها وبين التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، متوصلا إلى هذه الحقيقة التى يجدر أثباتها (.. وعلى الجملة فإن المعنى العام أن السكان بعد أن كانت تتجه وئيدا ولكن أكيدا نحو مرحلة النضج والاستقرار ، عادت على أعقابها مرة أخرى بعد ١٩٧٦ ، ولأمر ما إلى مرحلة الشباب والانتقال ، باختصار حدثت عملية تجديد ديموجرافى Demographic Re-juvenation ونحن الآن مانزال ، بل وأكثر من أى وقت مضى على قمة المرحلة الانفجارية من منحنى السكان وفى صميم عنفوانها ، جـ ٤ ص ٤٦)

ويؤكد الحقيقة السابقة في صياغة أشد تحديدا (.. لقد عدنا منذ بضع سنوات إلى معدل من سرعة النمو لم نعرفه حتى فى بداية الثورة الديموجرافية ، وإلى قمة انفجارية خطيرة من التزايد الهندسى .. كأنما لنبدأ لا دورة لوجيستية جديدة فحسب بل وثورة ديموجرافية جديدة أيضا ..) منذرا ومحذرا (.. وهنا موطن الخطر والخطورة جـ ٤ ص ٤٩) ثم يؤكدها ويجسدها رقميا (.. إن اضافة مليون جديد إلى السكان يتطلب فترة زمنية أو عددا من الشهور ، يقل بانتظام من عام إلى عام ، ففي سنة ١٩٧٦ فقط كان هذا يتطلب سنة واحدة كاملة تقريبا ، ولكنه الآن ومنذ ١٩٨١ لايستدعى سوى ١٠ أشهر ، ستهوى إلى ٦ أشهر فقط سنة ٢٠٠٠ كما يقدر ، أى أننا سنزيد مليونا كاملا .. كل نصف سنة ، ص ٥١)

وعلى أساس معدل النمو الصافى لسنة ١٩٧٦ .. فقد كان من المقدر أن يصل عدد السكان سنة ٢٠٠٠ إلى ٧٢ مليونا ، وفى تقدير آخر ـ إذا أنجبت كل أسرة طفلين فقط ـ فسنصبح ٦٠ مليونا سنة ٢٠٠٠ ، ٨٤ مليونا سنة ٢٠٣٠ ، ٢٠٠ مليونا سنة ٢١٠٠ ، وعلى أية حال .. فمن الواضح فى كل هذه التنبؤات أنها كانت دائما أقرب للصواب .. على أساس افتراضات الحد الأقصى ، منها على أساس افتراضات الحد الادنى ، ص ٥٤)

وينعكس النمو السكانى على الفور .. تضاغطا وتضاعفا فى معدلات الكثافة خاصة (.. وأن السكان حبيسة الوادى ، والوادى حبيس الصحراء ، والوادى أصبح بمثابة قالب حديدى لافكاك منه Procrusteam bed والنتيجة الحتمية أن التعدادات السكانية المتعددة لاتفعل سوى أن ترفع الكثافة بصورة آلية من عقد إلى عقد .. إلى أن تبلغ مستواها الخطير الراهن ، وهكذا .. مرة أخرى على المستوى الديموجرافى ، بعد الطبيعى والماء والزراعى والاقتصادى ، نجد مصر جوهريا كثافة لامساحة ، جـ ٤ ، ص ١١٧)

ويجسد ذلك مكانيا ويوضحه (.. ففى إطار جغرافية مصر الخاصة كواحة صحراوية ضئيلة المساحة وكنواة مضغوطة من المعمور داخل شرنقة ضخمة من اللامعمور الصحراوى ، تبرز كثافة الوادى (٣ر٥ ٪ من جملة المساحة) كظل السكان الأساسى ، وحوله شبه فراغ سكانى ، مجرد كسر مئوى أو

أقل من جسم مصر السكاني ، والمعادلة ببساطة هى كثافة الماء : كثافة الزراعة : كثافة السكان ، جـ ٤ ص ١٢٦)

ثم يؤكد التجسيد المكانى احصائيا .. بمتابعة تغيرات الكثافة فى التعدادات الحديثة ، محددا دلالاتها (.. لقد تضاعفت كثافة مصر من ٤١٠ إلى ٨٤٥ نسمة / كم٢ بين ١٩٢٧ ـ ١٩٦٦ ، وارتفعت الى ١٠٠٠ نسمة حسب تعداد ١٩٧٦ ، ثم إلى نحو ١٣٠٠ نسمة حسب أرقام ١٩٨٣ ، ويقدر أن تقارب ٢٠٠٠ نسمة / كم٢ سنة ٢٠٠٠ .

وهذه أرقام نادرة أى مقياس ، وحتى مع ذلك فإنها أدنى من الحقيقة .. فهى احصائية بأكثر منها جغرافية ، وتبعا للأخير فانها قد تصل الى ١٨٤٠ نسمة (١٩٨٣) كثافة ساحقة Ecrasante بكل معنى الكلمة لاتكاد تعرف فى أكثف المجتمعات الصناعية ، بل توشك مجازا أن نقول أن هذه معدلات كثافة مدن لا دول ، أو قل كثافة ضواح لاريف ، وأن مصر وان لم تزل أقرب إلى القرية الطويلة وظيفيا فإنها أقرب إلى المدينة كثافة ، ولكن لعله ليس غريبا تمام أن تتحول مصر إلى ذلك .. وهى التى تحولت زراعتها من قبل إلى شبه فلاحة بساتين ، ومن الواضح فى النهاية أن الغطاء البشرى فى مصر يؤلف ارسابة سمكية .. لاتكاد تتكرر على رقعة مماثلة فى العالم ..) ولاشك أن كثافة الوادى فى مصر . أكثف منطقة زراعية فى العالم جـ ٤ ص ١٢٢ ـ ١٢٣)

ويكثف الصورة (.. هى أكثرها صحراوية .. وأكثرها

نهرية .. وأكثرها كثافة ، ص ١٢٤ ، ومن الصعب أن نتصور بلدا على وجه الأرض اكثف من مصر فى القرن الواحد والعشرين ، ولامعنى لذلك سوى أن الكثافة إذا لم تنفجر خارج الوادى الى الصحراء ، فلا معدى من أن تنفجر على نفسها من الداخل ، وهو انفجار لايمكن إلا أن يكون مدمرا ، ص ١٢٥) وهكذا يقدم مايراه حلا فى السياق ، إنه فى الخروج إلى الصحراء .

ويؤكد فى الجزء الرابع (.. وهنا مرة أخرى تبرز الصحراء كصمام الأمن الأخير ، بل المجال الحيوى الوحيد ، وهاهنا مرة أخرى تبدو الصحراء الغربية بالدقة وهى أمل المستقبل فى أكثر من معنى ، عمرانيا كما هى معدنيا ، وسكانيا كما هى اقتصاديا ومن هنا أخيرا انبثقت مؤخرا شعارات « الخروج من الوادى » و « غزو الصحراء » وسياسات نقل الكثافة السكانية اليها .. وانشاء « المدن الجديدة » بها إلى آخر ذلك (جـ ٤ ، ص ١٢٥)

الصحراء الغربية بامكانياتها المتوقعة خلال نصف القرن القادم ، والمقدرة باحتمال استيعابها لنحو ٢٣ مليون نسمة ، تتركز فى ٨٤ مدنية ، تتوزع بين ٤ مناطق جغرافية على النحو الآتى (ص ٣١٩ ، جـ ٤)

- الوادى الجديد ٤٢ مدينة
- غرب بحيرة ناصر ٢٠ مدينة
- الساحل الشمالى الغربى ١٥ مدينة

● منخفض القطارة ٧ مدن .

وليس ذلك عنده بنهاية المطاق ، فسوف يعود إلى المشكلة فى الجزء الرابع ـ كما سبقت الاشارة ـ بقدر أكبر من التفصيل .

● ايكولوجية التوزيع والكثافة

وتبعا لنظرته الايكولوجية .. يحدد العوامل البيئية المؤثرة فى تباين الصورة .. مهما كانت ضئيلة ، وفى تعدد ظلالها .. مهما كانت متلاشية باهتة فوق القاعدة العامة ، فالقاعدة أن الكثافة السكانية العامة قد تجاوزت فى مصر المعمورة عتبة الألف نسمة / كم^{2} إلا أنها تقل عن ذلك المتوسط فى الدلتا .. وتزيد عنه فى الصعيد قليلا ، بما يمثل خط التمايز الأساسى تقريبا ، يعود به إلى عوامله المكانية (التربة + الصرف والرى) .. دون أن يتجاهل تأثير اتساع الاطارات المساحية لأقسام الدلتا الادارية .. فى تفسير نسبة من هذا التباين ، وينتقل من هذا الخط الأساسى إلى ظلاله .. مقسما الصعيد إلى قطاعات ثلاثة .. متتابعة من جنوبه الى شماله ، ومحددا « سوهاج » كقمة كثافية بها جميعا .. وان تراجعت مؤخرا لحساب الجيزة .. دون أن يهمل تفسير ذلك (جـ ٢ ص ١٧٨) متوصلا إلى وضع ما أسماه « بروفيل الصعيد » .. كختام موجز لتحليلاته المستفيضة هذه التى يعود اليها فى الدلتا .. باعتبارها القسم الرئيسى الثانى ، حيث يقسمها

أيضا إلى مناطق ثلاثة تبدأ القمة الجنوبى (المنوفية والقليوبية بصفة خاصة) حيث تصل الكثافة به الى أعلاها (٣٥٠٠ نسمة/كم٢) متجاوزة بذلك قمة الصعيد ذاته .. فهو قمة الكثافة الريفية فى مصر .. صعيدها ودلتاها ، متابعا تغيراتها منذ نهاية القرن الماضى (ص ١٨٣ ـ ١٨٦) وتتجه الكثافة فى الدلتا للانخفاض كلما اتجهنا شمالا وغربا وشرقا .. وابتعدنا عن مثلث القمة الجنوبى ، وذلك على خطوتين .. تتمثل الأولى فى نطاقها الأوسط بصفة خاصة ويتضح التناقص فى النطاق الشمالى ، وكما قعد الصعيد فى بروفيله .. يوجز صورة الكثافة الدلتاوية فيما يسميه « خماسية المحاور المحيطة » فى صياغات لاتقل عن دلالة الخريطة (ص ١٩٠ ـ ١٩٨) متضمنة جملة العوامل المكانية (النهر + التربة + شبكة الرى) المؤثرة .. سواء فى التباين أو فى زيادة الكثافة بعامة .

ومهما تعددت الأسباب التاريخية والاقتصادية .. يبقى النهر بمثابة الجذر المشترك لها .. ولكافة تداعياتها السكانية والعمرانية ، ومن ثم يطلق عليه « النهر الجغرافى » (جـ ٢ ص ١٩٨) تعنى أن النهر لم يكون خريطة مصر المعمورة فحسب .. بل رسمها وشكلها أيضا بما قدمه لها من محاور توزيعها .. على طول مجراه فى الوادى وفرعيه فى الدلتا ، سواءً بالنسبة للغطاء البشرى أو وحداته السكنية ، يضبط توزيعها وأثقالها وانتشارها .. بنفس القوة التى يضبط بها كثافته ، ومن هنا العلاقة الوثيقة بين توزيع كثافة السكان

العامة .. وبين توزيع القرى والمدن .. التى تؤلف وحداتها الخلوية ، يؤكد ذلك .. (.. أن مدن الصعيد جميعا تقريبا .. صغيرها وكبيرها .. تقع على النهر مباشرة ، ولاتقل قبضة النهر إحكاما فى الدلتا ، وحتى بالنسبة للمدن الساحلية .. فأنها تستمد حياتها من ترع النيل التى تنتهى اليها ، ترعة الاسماعيلية لمدن القناة .. والمحمودية بالنسبة للاسكندرية ، ص ٢٠٢) وكما يضبط النهر توزيعها .. يضبط أحجامها السكانية .

وتحت عنوان « مورفولوجية مصر البشرية » (٢٠٩) ينهى هذا الفصل .. حيث يقرر (.. لعلنا الآن .. وفى النهاية .. فى وضع يسمح لنا أن نصل إلى قانون هام للغاية فى كيان وتكوين مصر .. وفى شكلها وتشكيلها ، إن النيل يكاد يحكم كل مظاهر العمران بها .. ويضبط ايقاعها فى كثافة معينة .. تقل بصورة عامة .. كلما بعدنا عنه شرقا غربا ، فكل شىء فى مصر تقريبا .. يميل لأن يقل وزنا وقامة وقيمة كلما بعدنا عن النهر ، كثافة السكان .. أحجام المدن وتباعدها ، وتوزيع القرى وانتشارها ذلك إذن هو ايقاع الحركة الأساسية فى مورفولوجية مصر الطبيعية ، وفى مورفولوجيتها البشرية ، وإن المرء ليشعر بسهولة تامة .. أن كل قوة مصر تتركز فى خط واحد محدد محدد .. هو النيل ، وما من إقليم فى العالم بالتأكيد تتركز قوته فى خط واحد .. مثل مصر النيلية ، إنه خط القوة العظمى بها فى الاستقرار .. مثلما هو خط المقاومة الدنيا فى الحركة ، وهو الذى يمنحها التجانس التركيبى ،

ويعطيها نسيجا مبكيا متدرجا فى آن واحد ، جـ ٢ ص ٢٠٩ ـ ٢١١)

● تجانس الريف

وتنمو رؤيته العامة .. وتسفر عن نتائجها ، ويطور من فكرته عن ثنائية الصحراء والوادى فى مصر ، ويصيغها ايكولوجيا (.. مصر إما رعى بلا زراعة فى الصحراء .. وإما زراعة بلا رعى فى الوادى ص ٥٦) فمصر المعمورة .. بيئة أحادية الى حد بعيد ، تمثل الزراعة قوامها وكيانها ، ومنها استمدت شخصيتها الريفية الغالبة .. بكل سماتها وتفصيلاتها ، وهكذا .. فان تجانس العمران الريفى فى مصر .. إنما يبدأ من ارتباطه العضوى بالزراعة (النهر ـ الزراعة ـ الريف)

والقرية تاريخيا .. هى أقدم وحدة مورفولوجية سكنية ظهرت فى الدلتا والوادى ، غرست مرتبطة بالأحواض المزروعة ، بمسافات تحددها .. رحلة العمل اليومية القصيرة (تجانس المسافة) وتتكاثر مع اتساع المساحة المزروعة .. ونموها السكانى .. بواسطة العزبة التى تنشأ عند هوامشها .. تبعا لقانون المسافة ، مورثة خصائصها للأخيرة ، وقد تكاثرت القرى فى مصر المعمورة (٤٠٢٣ قرية ، ص ٢٢٣) وحولها ٢٨٫٠٠٠ عزبة أو حلة صغيرة ، ولايفرق بين القرية والعزبة سوى الحجم السكانى ، ومع ارتباطه بالكثافة .. فقد بلغ متوسط حجم القرية المصرية قرابة ٥٠٠٠ نسمة فى التعدادات الأخيرة ، مع وجود قرى عملاقة (٣٠ الف نسمة)

أما العزبة ففى حدود بضع مئات فى الغالب ، وتتداخل جميعها فى فرشة عمرانية متجانسة توزيعا وتركيبا (ص ٢٢٤) ويستمر التجانس إلى المدينة الصغيرة والمتوسطة في الدلتا والوادى .. توزيعا وانتشارا ، بل إن معظم مدنها أقرب إلى القرى .. تركيبا ووظيفيا ، لاتجاوز مرتبتها الحضرية كونها (مدن أسواق Market towns عامة) أى مراكز للخدمات المحلية المتواضعة .. تخدم مناطقها المحيطة مباشرة .. فى حاجاتها العادية اليومية ، ولذا فان حجم نشاطها لايمكن أن يتجاوز امكانيات ريفها .. بل يعكسها بحساسية فائقة ، هى أذن مجاج طبيعى للبيئة المحلية .. وبالتالى بنت الكثافة السكانية المباشرة ص ١٩٩) وإذا كان النهر قد أدى للاستقرار والزراعة .. وأفرزت الأخيرة القرية .. فإن ماظهر من المراكز الحضرية قد تريف بدوره .. ولازال يتريف .

وترتبط القرية بالزراعة وظيفيا ، فالدار والحقل وجهان لعملية واحدة ، قاعدتها الاستقرار الذى عرفه المجتمع المصرى .. منذ النيوليثى Neolthic المبكر .. أى قبل عشرة آلاف سنة على الأرجح ، وتشير الدراسات التاريخية الى بضع مئات من القرى فى الوادى والدلتا .. قبل عصر الأسرات مباشرة ، تكاثرت مرتبطة بتطهيرها من المستنقعات وبالرى الحوضى مؤدية إلى سلالة من القرى .. يصعب التمييز بين الواحدة منها والأخرى ، متقاربة الطابع والتركيب الثقافة .. من مرحلة تعميرية لأخرى ، تتكاثر وتزيد عددا

بذات الدينامية .. فى إطار الاقتصاد المعيشى .. يدمغ حياتها وبنيتها ، واذا كانت قد حققت خلال العصر التاريخى فائضا هامشيا .. مع تطور الزراعة والعملية الانتاجية ، فقد امتص حكامها وغزاتها .. كل بطريقته .. نسبته الكبرى ، أما ما تبقى فقد تبادلته أسواقها المحلية ، وإذا كانت الأخيرة قد نمت لتصبح مدنا وعواصم لأقاليمها .. فإن قانون النسبة والتناسب قد حكمها ، وبقيت فى إطار ريفها ـ اقتصاديا وحضاريا ـ مجرد مدن ريفية الطابع ، هذه إذن هى العملية الايكولوجية التى جنست مصر الريفية (ص ٢١٤) .. ومازالت .

التجانس القاعدى

ويفرد الفصل ١٨ (جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢٥٤) .. لمتابعة هذه العملية شكلا ومضمونا ... ويسميها « عملية التجانس القاعدى » باعتبارها تضم النهر أيضا .. تربته ومائيته .. وخاصة ـ تاريخيا ـ فيضانه ، فالقرية المصرية خلية متكررة نمطية ، متجانسة من حيث التركيب والوظيفة (.. تمثل امتدادا رأسيا تشكيليا تكعيبيا للأرض السوداء الأفقية ، توشك وحدتها السكنية أن تكون امتدادا للحقول ، فجسمها وأرضيتها من تربتها مباشرة ، والكل مرتبط بالبيئة النيلية الأم تماما .. يستمد من تجانسها تجانسه ص ٢١٢) وبشىء من التفصيل يحدد ظواهر التجانس المشتركة بينها فى (الموضع فوق ربوة + نووية القرية + تسطح الدور + مادة البناء .

+ الخطة العضوية + النمو من خلال العزبة + رحلة العمل اليومية القصيرة + المسافات المحدودة بينها + الارتباط بالأسواق والعواصم المحلية + غير ذلك) وتدل تحليلاته على أن التكيف يسبق التجانس .. ويؤدى إليه بينها جميعا ، سواء من حيث اختيار مواضعها المرتفعة نسبيا .. تجنبا لفيضان النهر ، أو من حيث تلاحم مبانيها nucle-ated أو من حيث ارتباطها بمواقع النقاط الجافة dry point تجنبا للرطوبة ، أو من حيث شكلها الدائرى .. أو من غير ذلك ، كما تؤكد على مركزية القرية (خلية مصر) فى نظريته العامة للتجانس ، حيث تستمر خصائصها التركيبة ـ كما سبق ويأتى ـ إلى المدينة (.. ففيما عدا الحجم ومادة البناء .. فإن المدينة المصرية تقارب القرية .. سواء فى ذلك الموضع أو الخطة أو الشكل .. بل وأحيانا التركيب الوظيفى ، ص ٢٢٧)

ويفصل بعد ذلك فى تشريح القرية .. من حيث مواضعها ومواقعها .. وتركيبها .. بل وأسماءها متخذا من الأخيرة وسيلة ضمن أخرى .. للتعرف على كيفية نموها وانشطارها .. كما تدل عليها مسمياتها الراهنة (ص ٢١٨) دون أن يغفل أشكالها الصغرى .. المعروفة بالنجوع والعزب .. وما أشبه ، مختتما ذلك بهذه القاعدة (.. ذلك إذن تشريح القرية المصرية وتلك مورفولوجيتها ، التجانس جوهرها .. والتوحد منتهى تطورها ، فهى لاتبتعد عن نمطها الأساسى .. إلا على أطراف الوادى ، خاصة فى الشمال الأقصى من الدلتا

والجنوب الأقصى من الصعيد ، ثم هى حين تتطور .. لاتلبث أن تستعيد فى النهاية تجانس تركيبها العام ، ويظل الشعور بتجانس القرية المصرية المتوسطة ، قائما ، ومثل هذا يمكن أن يقال أيضا عن المدن ص ٢٢٧) ويقرر فى سياق آخر .. (.. صفوة القول .. أن الأقاليم المصرية .. تظل أساسا ريفا بسيطا ومجتمعا ريفيا Folk Society بنادره شبه ريفية أيضا ، وتخلو حياة المدن الحقيقية المؤثرة ، وتبدو مصر بنسبة ريفيتها العالية .. وكأنها بالتقريب قرية واحدة كبرى ، طويلة جدا .. تترامى على جانبى شارع رئيسى واحد هو النيل ، ص ٣٣ ، جـ ٤)

● التجانس الحضرى

باستثناء العاصمتين وقلة من الموانى ومدن القناة ، تشكل المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة - البندر التقليدى - وحدة مورفولوجية ثابتة الطابع والقالب والجو العام ، حتى ليؤكد « لوزاك » أن واحدة منها .. لاتعرف شخصية مدنية مستقلة .. تنفرد بها عن سواها (جـ ٢ ص ٢٢٧) ويتمثل تجانس هذه المدينة المتوسطة .. فى تركيبها وتوزيعها وتباعدها .. وفى أحجامها السكانية ووظائفها

.. أما بالنسبة للتركيب .. فقد بقى معظمها إلى نهاية القرن ١٩ .. مجرد قرى متضخمة فى ريفها ، وحين دخلت طور نموها الحديث بعد ذلك .. بقيت هذه النواه القروية كامنة فى تضاعيفها نمت حولها فى صورة تراكمية تحمل بعض

خصائصها .. أو امتدت بجناح طولى مواز للطريق السريع ، أو التفت حول المحطة الحديدية ، وقد بقيت هذه النواة حتى فى القاهرة والاسكندرية وان تطورتا بمعدلات أعلى كثيرا نوعيا ، هما ومدن القناة .. وبضعة من المدن الأخرى (ص ٢٣٣) والواقع أنه فى ذات الوقت الذى تتحضر فيه مصر .. أى تزيد فيها أعداد المدن وتتضخم حجما .. فإنها تتريف أيضا .. بحكم الوسط الريفى والهجرة الريفية ، كما أفضى التضخم البالغ للقاهرة ثم الاسكندرية .. إلى تشوه بنيتها التركيبية ، بقدر ما أدى إلى اختلال العلاقات الاقليمية برمتها .

وبالنسبة للتوزيع .. فالنهر وفروعه ـ كما سبق ـ ضابط ايقاعها (النيل شارعها الرئيسى .. وفروعه شوارع توزيعها الثانوية) ويعود بذلك الى خلو الطبوغرافية العامة من العقدية الطبيعية .. هذه التى تهيىء لنوعية مختلفة من الظهور والنمو الحضرى (باستثناء ثنية قنا ورأس الدلتا) فالصعيد يفتقر الى قلب طبيعى .. يجعل من امتداده الخطى طولا بلا عرض ، أحادى الحركة والتوجه لاتتميز فيه نقطة عن أخرى ، وكذلك الدلتا التى تخلو من بؤرة حاسمة .. فلئن كان بها حزمة من خطوط عرضية على المحور الشمالى الجنوبى .. متمثلة فى فروعها وترعها ، فإنها تعدم أى محاور طبيعية عرضية تتعامد عليها ، وتؤدى الى عقدية طبيعية Nadality فعالة ، فالدلتا كالصعيد .. هى رقعة بلا عقدة .. وهو خط بلا بؤرة ، وقد اتفق مع هذا الانسياح والامتداد .. توزيع العمران والمواصلات ،

ص ٢٥٢ جـ ٤) ويؤكد الصورة العامة للتوزيع الحضرى .. بمتابعتها فى لقطات سريعة عبر التاريخ ، منتهيا إلى ماسبق تقريره ، كما يضيف إليها بعض اللمسات الدقيقة .. التى تمنح شخصيتها غنى وثراء ، فإذا كان توزع المدن الدلتاوية - مثلا - يرتبط فى معظمه بسواحلها وهوامشها ، فقد تراجع بعضها بعد ذلك لحساب الهامش الصحراوى ، وذلك حين فقدت الموانى المصبية الضحلة الطامية قيمتها .. لمواقع جديدة عميقة .. أصلب .. خارج الدلتا الطينية الرخوة (.. أى فقدت البوابات الطينية قيمتها للبوابات الحجرية ؛ فورثت الاسكندرية نهائيا دور رشيد ، بينما ورثت بورسعيد دور دمياط ، وورثت الزقازيق بلبيس ، وآلت أهمية الصالحية للاسماعيلية ، ومن الناحية الأخرى .. فبعد أن كانت الصدارة تقليديا لمدن داخل الدلتا حتى العقود الأخيرة .. بفضل توسطها للمعمور الزراعى ، انتقلت اخيرا إلى مدن السواحل والأطراف .. بفضل النقل والتصنيع .. هذا هو سباق المواقع .. كما يسميه .. ومعه سباق الأحجام .. كما سيأتى بعد قليل .

وبالنسبة لأحجام المدن .. فإنها تستمد تجانسها من الكثافة السكانية بعامة ، خاصة شريحتها الصغرى (فئة ٣٠ - ٤٠ الف نسمة) وتتناسب باطراد معها (ص ١٩٩) أما عن الشريحة المتوسطة (٥٠ - ١٠٠ الف نسمة) فإنها (.. تخضع لضوابط التباعد الوظيفى .. بحيث تغطى كل منها منطقة خدمات متقاربة الامتداد والمساحة ، وذلك بحسب

عامل الخدمات المركزية .. كما حدده كريستالر .. فى وسط طبيعي واقتصادى وحضارى متجانس ، هاهنا نجد قدرا مثيرا من التجانس في التباعد .. وان اختلف مابين الدلتا والصعيد ص ٢٠١) ويكتف تحليله عن أن الفاصل المسافى - التباعد - يبلغ فى الصعيد (١٠٠ كم) أى ضعفه بالنسبة للدلتا (٥٠ كم) فالتباعد فى الصعيد يتم على محور خطى أحادى بسيط ، بينما هو فى الدلتا يقع على عدد من المحاور فى اتجاهات متعددة .. بحكم مساحتها الفسيحة ، أما المدينة المصرية القاعدية (أقل من ٤٠ الف نسمة) فهى أقل تباعدا (متوسط ٢٠ - ٢٥ كم) .. بحكم أنها أوسع انتشارا ، أما الشريحة العليا من المدن الكبيرة .. خاصة النصف مليونية والمليونية .. وبالاخص القاهرة والاسكندرية . فقد خضعت لمجموعة أخرى من العوامل المعقدة (.. العاصمية ، المركزية ، الصناعة ، الهجرة الريفية) وغير ذلك من الأسباب التى دفعتها لما يسميه بسباق الأحجام (جـ ٤ ص ٢٥٥) شذت بها بدرجات .. عن مستوى التجانس القاعدى العام المذكور .

● سباق الأحجام

لقد دخلت المدن المصرية دور نموها الحديث بعد القرن التاسع عشر ، واستثمرت كل منها معطياته .. بمقدار ماتيسر لها منها ، وقدمت لها الصناعة والمواصلات والهجرة

الريفية .. أهم دوافع نموها الحجمى ، وبذا دخلت سباقا فيما بينها .. وتبادلت مراكزها ، تقدمت الجيزة وشبرا الخيمة مثلا .. ليسبقا بورسعيد وطنطا .. وتقدمت المحلة لتسبق طنطا (.. فرغم المتوسط الهندسى Centrality لطنطا فى الدلتا .. فإن المحلة تتقدم وئيدا .. بسبب الصناعة عليها ، ص ٢٦٠) كما يتابع السباق بين القاهرة والاسكندرية (.. وتؤكد أرقام القرن المنصرم ١٨٨٢ ـ ١٩٣٦ .. فى الدرجة الأولى طغيان القاهرة من البداية للنهاية ، وفى الدرجة الثانية صعود الاسكندرية الطافر المتفجر .. لتنافس القاهرة باقتدار ، فبينما بدأت وهى ١ : ٢٠ من القاهرة تقف الآن وهى أكثر من نصفها ١ : ٢ إذن هو تكافؤ نسبى إن لم يكن ندية عملية جـ ٤ ص ٣٣٢) ويتم سباق الأحجام على حساب سكان الريف أساسا (الهجرة الريفية) .. والمحصلة .. (.. أن فى مصر ١٩٧٦ خريطة حضرية تضم ٢٠ مدينة مائة ألفية ، ٥ مدن ما بين ربع إلى نصف مليون نسمة ، ٣ مدن مليونية هى القاهرة والاسكندرية والجيزة .. تضم ٨٫٥ مليون نسمة ، أى بنسبة ٥٠ ٪ من جملة سكان المدن المصرية ؛ أى أن المدن الكبيرة .. تنمو أيضا على حساب المدن المتوسطة والصغيرة ، ص ٣٣٢) ويضيف ...

(نصل من هذا بسهولة .. إلى أن هرم مدننا شديد الاختلال والاعوجاج ، أساسا بقهر القاهرة .. فهى قاهرة المدن جميعا ، جـ ٢ ص ٣٣٢)

وفى النتيجة ينقسم هرم مدننا إلى مجموعتين متناقضتين .. لايكاد يعرف طبقة وسطى ، معقولة أو جديرة ، فهو يهوى عموديا بعد القاهرة والاسكندرية إلى المدينة الثالثة سواء كانت هذه المدينة طنطا أو بورسعيد أو المحلة أو شبرا الخيمة ، ودعك من خرافة الجيزة المستقلة ، وهذه المدينة الثالثة إنما تتصدر بذلك حفنة من المدن الضئيلة أو المتواضعة أو العاجزة ، ونفس الظاهرة فى الصعيد .. فأنت كلما ابتعدت عن القاهرة تصعد تدريجيا من بنى سويف إلى المنيا إلى اسيوط القمة ، قبل أن تبدأ أحجام المدن فى التناقص مع فقر البيئة فى الجنوب الأقصى ، ص ٣٤٢) ومن ثم يتوصل إلى قاعدته (إن أثر القاهرة على نمو وأحجام المدن الاقليمية تحديد وصارم وعكسى وصارم إلى حد بعيد ، لأنها تذوى وتحرم من الضوء فى ظل شجرة العاصمة الطاغية ، إذ لامبرر وظيفى ولافائض امكانية مادية لنموها ، والقاهرة الغلابة على هذا القرب ، ص ٣٤٢) .

وهكذا .. كانت دائما هناك فى قمة الهرم .. عاصمة عاتية .. دونما طبقة فعالة من المدن الوسطى المتزنة على المستوى الحضرى (.. وتماما كما نملك نهرا واحدا جبارا .. فى مقابل صحراء شاسعة جرداء ، فإننا نملك مدينة طاغية عظمى واحدة فقط .. هى العاصمة القاهرة .. مقابل إقليم ريفى واحد متخلف .. كأنه قرية واحدة ، ومازلنا لانملك إلا ميناء واحدة فقط كبرى .. تحتكر تقريبا كل تجارتنا الخارجية .. هى الاسكندرية ، فى مقابل سواحل متعددة

طويلة .. وعشرات من الموانى القزمية العاجزة أو المهملة ، والنتيجة النهائية .. أن المعادلة الاقليمية فى مصر .. تتألف من رأس كاسح وجسم كسيح تقليديا ، ص ٣٤٤)

واذا كان تضخم العاصمة قد أتى على حساب الأقاليم فإنه يقرر (.. بأنه جاء على حساب الصعيد بوجه خاص ، وهو مايثير ابتداء قضية الشمال والجنوب ، كفصل فى كتاب الاقليمية فى مصر ، وليس فى مصر عمليا شرق وغرب .. ثمة فقط شمال وجنوب ، وتلك بذاتها واحدة من أبرز الحقائق فى جغرافية مصر البشرية ، ص ٣٤٥)

ويدعم كشفه بمقارنة دالة سريعة بين أقسام مصر الرئيسية (.. إن التقسيم الادارى بين الدلتا والصعيد .. فى كل من المساحة المزروعة وقيمة الانتاج الزراعى .. يدور فى حدود ٦٠ : ٤٠ تقريبا لكل على الترتيب ، ولكن الدلتا تتفوق أكثر فى السكان ، ممثلة فى العادة نحو ٥٠ ٪ من سكان مصر ، ويتراجع الصعيد بانتظام تقريبا ، حيث هبطت نسبته من ٣٨٫٥ ٪ سنة ١٩٤٧ إلى ٢٨٫٥ ٪ سنة ١٩٦٦ ، أى بنسبة ١٠ ٪ فى عقدين ، وإن عاد للارتفاع إلى ٣٤٫٧ ٪ سنة ١٩٧٦ ، وقد حولت فترة الخسارة لحساب القاهرة .. التى ارتفعت نسبة سكانها فى نفس الفترة بين ٤٧ ـ ١٩٧٦ إلى ١٤ ٪ أو الى ١٩٫٨ ٪ إذا أضفنا الجيزة اليها ، وفى مقابل ١٠ مدن كبيرة من فئة ١٠٠ الف نسمة + سنة ١٩٧٦ بالدلتا كان بالصعيد ٦ فقط من هذه الفئة ، معظمها أيضا أصغر حجما من مثيلاتها بالدلتا ، وبينما جاوز اجمالى المجموعة

الأولى المليونى نسمة ، ظل مجموع الثانية دون المليون بكثير ، فإذا عدنا للسكان ككل ، فإن لنا أن نقول بالتقريب أن الدلتا الآن نصف سكان مصر سكانا ، والصعيد ثلثها .. بينما القاهرة الكبرى خمسها ، وبهذا فإذا كانت الدلتا بكاملها ضعف القاهرة الكبرى .. فإن الأخيرة تعادل الصعيد إلا قليلا ، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩)

ثنائية الشمال والجنوب :

تبقى التفرقة الاقليمية بين الشمال والجنوب فى مصر .. بمثابة أسوأ ظواهرها ، واذا كانت أسبابها الطبيعية .. تعود الى مورفولوجيتها (.. حيث مصر الوادى تختلف عن مصر الدلتا ..) إلا أن نتائجها الحضارية تعود الى اهمال الصعيد بدرجة متناهية ، ولايعنى ذلك أن الدلتا غير مهملة .. ولكن المسألة نسبية ، ويدلل على ذلك بعشرات من المقاييس التى تثبتها .. بالأرقام والمقارنات ، وبتحليل مايتاح من الوثائق والتقارير .

ونظرة عابرة إلى خريطة مصر الاقتصادية اليوم .. تكشف هذا الفارق بكل سهولة ، كل الخدمات والبنيات الأساسية الشبكية ، إن لم تكن فى الدلتا أضعافها فى الصعيد أطوالا وكثافة بحكم المساحة ، فإن بعضها يقتصر على الأولى دون الأخير .

ويدلل على ذلك بشبكات السكك الحديدية والطرق وأنابيب البترول ، كما يتخذ من أحجام المدن مؤشرا عليها ، باعتبارها

مراكز تقديم الخدمات للريف المحيط ، وكذلك من درجة تركز الصناعة بين الاقليمين .. متوصلا إلى (والنتيجة أن الصعيد يزداد على النسبة فقرا بضغط السكان المتزايد وقلة الموارد والتنمية المتخلفة ، وهما الدلتا والصعيد ضحية فى نموه وتنميته لافراط العاصمة القاهرة ، ولكن الصعيد الضحية الأولى والكبرى ، وبهذا التخلف ـ مع الموقف المتخلف ، أصبح الصعيد بحق هو الإقليم الخلفى Arrierl - Pays فى مصر ، من كل معنى .. جغرافيا وحضاريا ، ماديا وبشريا ، اقتصاديا واجتماعيا (ص ص ٣٣٤ ـ ٣٥٠) .

وهو حين يكشف هذه الثنائية .. فإنه يدعو إلى تصحيحها تبعا لما ذكره من جوانبها ، أو يذكر بما أهمل من خطط علاجها ، وتحت عنوان « مشروع للذكرى (جـ ٤ ص ٣٥٠) يذكر بخطة تنمية « جنوب مصر » التى قدمت فى أواخر السبعينات كمشروع قومي ضخم فى التخطيط الاقليمى ليدفع بالتنمية الاقتصادية والبشرية فى الجنوب المهمل ، ويرفعه على الاقل إلى مستوى الشمال ، لقد كان المشروع (يشمل مصر ابتداء من ثنية قنا بما فى ذلك الصحراوان يمينا ويسارا ، ولكنه يرتكز على قطاع الوادى ، فالى جانب تنمية الموارد الزراعية بالكامل باستصلاح البور وترشيد الرى وصرفه وتكثيف وتجديد المحاصيل ، بما فى ذلك حوض بحيرة ناصر ، وكذلك الواحات والأودية الصحراوية ، فقد كان المقرر أن تجتمع فى قطاع الوادى نفسه موارد الصحراوين المعدنية بصفة خاصة في ٨ مجمعات تعدينية ، تخدمها

جميعا شبكة جديدة من سكك حديدية ، وطرق سيارات وأنابيب مياه تربط الرقعة كلها ، مستغلة موقعها أيضا بين البحر الأحمر والسودان والسعودية ، لتحريك ثورة صناعية وعمرانية وحضارية شاملة ، وكان الهدف المرصود أن تستوعب منطقة المشروع نحو ٤٠ ـ ٥٠ ٪ من حجم الزيادة الطبيعية للسكان فى مصر حتى سنة ٢٠٠٠ ، أى نحو ٨ ـ ١٠ ملايين) .

على أن المشروع قد طواه النسيان ، وبدل أن يتحقق ليحد من طغيان العاصمة وهزال الجنوب ، ترك مكانه لمشاريع كمترو الانفاق أكثر تكلفة وأقل جدوى ، إلا أنها غير قابلة للنقض .. حيث أن الأمر يعنى العاصمة .. وما أدراك ماهى (ص ٣٥٥)

● التجانس السياسى

يمهد لدراسة التجانس السياسى فى مصر .. بفصل كامل .. يناقش فيه قضية هامة فى شخصية مصر ، تتمثل فى هذا السؤال المركب ـ كيف ارتدت مصر .. من السبق الحضارى إلى التخلف ؟ (الفصل ٢٠ ص ص ٣٦٣ ـ ٤٥٦) ويقدم فيه واحدة من نظرياته الهامة .. تلخصها هذه المعادلة (قوة مصر السياسية = الموقع × الموضع) يستهلها بمناقشة مسألة « عزلة مصر » .... منتهيا منها إلى أن مصر (.. تنفرد إذن بأنها تجمع فى تناسب نادر .. بين قدر من العزلة فى غير تقوقع .. وبين قدر من الاحتكاك ..

لايصل إلى حد التميع ، ص ٣٦٤) ثم يحدد القاعدة الأساسية لما حققته من سبق حضارى فى (.. التناسق الدقيق بين أثر الموقع والموضع فى مصر ، فقد زاوج فيها بين العزلة والاحتكاك فى زواج سعيد ، أخذ من كل منهما محاسنه دون أضداده .. وجعل منها منطقة اتصال Zone of Junction ومنطقة انفصال disjunction في الوقت نفسه ، وبالتالى منطقة توصيل وتأصيل معا ، ص ٣٦٤)

وينطلق فى متابعة قضية السبق عبر مراحل التاريخ المختلفة .. وما قبل التاريخ أيضا (ص ص ٣٦٩ ـ ٤٢٨) يحلل خلالها ظواهر السبق الحضارية المختلفة .. هذه التى برزت بها مصر .. فوق المستوى العام للتاريخ .. منذ وقت مبكر ، مستندا دائما إلى نظريته الأساسية .. عن الموضع والموقع.، وذلك عبر مراحل التاريخ المصرى .. منذ ماقبل الأسرات .. وطوالها .. ومابعدها .. إلى نهاية العصر الفرعونى .. ومابعده .. أيضا ، مدعما تحليلاته بما يسميه « النظرية العاملة » (ص ٣٦٩) هذه التى تفسر كيف تفاعل الانسان المصرى مع بيئته التاريخية .. وكيف تعامل ومعها واستثمر معطياتها (النهر + المناخ + التربة) .. وكيف طورها (الرى + الزراعة) وتطور معها .. منتهيا إلى (.. أن نشأة الحضارة فى هذه المنطقة ـ لم تكن صدفة ، وبغير حتم جغرافى .. كانت البيئة الجغرافية هنا مثالية لقيام الحضارة فى القديم .. ثم لاستمرارها وبقائها بعد ذلك لآلاف السنين ص ٣٩٠) ولايتوقف عن اجراء مقارناته بينها .. وبين مناطق

الحضارات الأخرى .. المتزامنة معها ، كما يفند بدقة .. مايسميه بالنظريات المضادة (ص ٣٨٣) هذه التى تعارض السبق المصرى .. أو تنسبه لغيره ، مؤكدا أن (السبق الحضارى سمة أصيلة فى شخصية مصر ص ٤٢٨) فلماذا حدث من بعد السبق المؤكد .. ما آلت اليه من تخلف ؟

وتأتى إجابته .. بأن السبق أصيل .. ينبعث من طبيعتها وبنيتها .. أما التخلف فطارىء مؤقت .. وبفعل ضغوط ومؤثرات من خارجها ، بدليل قدرتها الفائقة على استعادة ذاتها .. من بعد الكبوة ، أما سببه ـ التخلف ـ على مر تاريخها .. أى فترات ضعفها .. فيعود إلى (.. النتيجة المتغيرة للشد والجذب بين قوتى العزلة والاحتكاك فى شخصيتها .. أى الموضع والموقع على الترتيب ، ص ٤٢٨) .. فإذا ما اختلت العلاقة المتوازنة بينهما .. تدهورت وكبت لفترة .. واذا ماتوازنت .. أفاقت ودخلت من فورها السباق .. مرة أخرى ، ولايدع نظريته دون أن يثبتها تاريخيا .. (ص ٤٢٨ ـ ٤٥٦) ويقوم بتقسيم تاريخها تبعا لرؤيته .. وبما يثبتها .. إلى مايلى :

★ مرحلة صناعة الحضارة .. وتتفق مع مرحلة التاريخ النهرى Potamic حين كانت مصر مشتلا لتأصيل حضارة مبكرة سباقة ، مادتها الخام هى فيض الثروة الفيضية ، وصوبتها الزجاجية التى تحمى طفولتها هى الغلاف الصحراوى ، فالعزلة النسبية كانت لازمة فى هذه المرحلة

لضمان استمرارها .. إلى أن بزغت فى مرحلة نامية متطورة . دخلت بها إلى المرحلة التالية .

★ مرحلة تصدير الحضارة .. وتشمل العصر الفرعونى فى إبانه .. حين هيمنت ظواهر الحضارة المصرية على جيرانها وشكلت لها نموذجا حضاريا .. تقتبس منه وتتوجه نحوه ، وكما تقول مارجريت مرى . (فإن كل المناطق المحيطة تدين فى حضارتها لمصر ، ابتداء من الحضارة الأوروبية إلى روسيا وفارس والعرب والهند بل والصين أيضا ، ص ٤٣٢)

★ مرحلة الاكتفاء الذاتى : وتلى نهاية الفرعونية وتتسم بهبوط قوة مصر السياسية .. واستمرار قوتها الحضارية ، وخلالها أسهمت مصر فى الحضارة الهيللينية البحر متوسطية .. من خلال الاسكندرية .. وذلك كشريك مع غيرها ، وتأصلت فيها ملكة الامتصاص .. على حساب قدراتها الخلاقة ، واستمرت هذه المرحلة من البطالسة الى العصر التركى ، وكانت عند نهايتها قد وصلت إلى نقطة الحضيض حضاريا ، مصابة (بتصلب شرايين حضارى .. أو بيات شتوى .. لم يسبق له مثيل فى تاريخها ، إنها فترة العزلة Seclusion Period التى اختل فيها تماما التوازن بين عزلتها واحتكاكها .. وهما طرفا معادلة قوتها .

★ مرحلة استيراد الحضارة :

وتبدأ مع اقتحام الحضارة الأوروبية لمصر .. بالحملة الفرنسية ، وبعدها بدأت تخرج رويدا رويدا من شرنقة عزلتها ، وانتعش ميكانيزم المشاركة الكامن فى صميمها ، وخلالها (.. لم تتحول مصر من نافورة الحضارة القديمة .. إلى بالوعة الحضارة الجديدة ، ص ٤٤١) ولكن إلى بوتقة صهرتها .. لتشكلها بما يتفق وتراثها ، ويرى (بأن هذا ليس إلا صورة جديدة معاصرة .. من معادلة التوازن الدقيق المتأصلة بين الموقع العقدى على مفترق طرق العالم ، وبين الموضع المحمى فى إطاره الصحراوى ، ص ٤٤٢) لقد تجاوزت مصر بسرعة صدمة الانبهار الأولية ، وخرجت بنفس السرعة من حبائل التقليد المتهافت .. التى تبعتها ، وتدخل الآن عصر توازنها .. (.. تستعير .. لتهضم وتتمثل .. لا لتذوب أو تغرق ، استعارة تمالك لاتهالك ص ٤٤٣)

إن دور مصر الحضارى .. وهذا مجمل الخلاصة .. وصفوة القول (.. لم يختف عبر العصور .. وإن اختلف من عصر إلى عصر ، وكما يقول مارييت .. مصر لاتشرق بضع لحظات .. ثم تغيب فى ليل طويل .. مثلما حدث فى بلاد أخرى ، وإنما العكس هو الصحيح ، فلقد أراد لها طالعها العجيب .. أن تواصل عملها سبعين قرنا ، وأن تترك أثرها فى كل ناحية من النواحى واضحا جليا ، وخلال هذا الدور

المتصل .. كانت إما صانعة الحضارة وإما حافظتها ، وفى الجزء الأكبر من تاريخها .. كانت فى الصدارة أكثر منها فى الصفوف ، واذا كانت الأمم التى قادت العالم حضاريا .. قلة معدودة بالضرورة .. فمصر بالضرورة منها ، ص ٤٤٣)

ولكن المسألة - السبق والتخلف - لاتزال تتطلب تحديد ضوابطها ، حقا .. فسرها نظريا .. بمعادلته عن الموقع والموضع .. وترجمتها التاريخية الاحتكاك والعزلة ، ولكن الأمر لم يشبع بعد بعوامله الداخلية ، ويقدم بكل وضوح إجابته (.. إن مصر ليست هبة النيل وحده .. ولكنها هبة المصريين معه ، ص ٤٤٧) بل هو يمنح الانسان وزنا أكبر .. فكم من منطقة نهرية أخرى .. لم تحقق مكانة تاريخية تذكر ، وهكذا يعود السبق والتخلف إلى تطورات المجتمع ونظمه السياسية ، فبعدما حقق وحدته ودولته المركزية .. وقام بثورته الحضارية على أساس من الابتكار ، والاقدام والنظام (.. لم يلبث بعد أن اكتمل أن تحول إلى المحافظة على القديم والتقاليد ، وتحت ضغط وابتزاز النظام الاقطاعى والحكم المطلق ، أخذ المجتمع المصرى يتسم بالجمود والعقم والتكرار ، والواقع أن الحضارة والتطور .. ليست مسألة تكنولوجية فى بيئة طبيعية ، ولكنه أيضا قضية ايديولوجيا فى بيئة اجتماعية ، ص ٤٥٣) ومن هنا يطلق مقولته أو صرخته .. بأن التاريخ لايعرف دولة مثل مصر .. تتأثر سبقا وتخلفا .. بنظمها وحكامها ، ولايدع مقولته معلقة .. بل يواصل اثباتها .. ليس فى الفصل التالى وحده .. وإنما

يخصص لها فى الجزء الرابع من كتابه .. فصولا أخرى .. كما سيأتى .

● الوحدة السياسية :

ويأتى الفصل التالى (٢١ ص ص ٤٥٧ ـ ٥٣٥) تحت عنوان « الوحدة السياسية » .. بعنوان ثانوى « الوطن السياسى » .. وهى تسمية لها دلالاتها المرتبطة بفروضه المتصاعدة عن التجانس ، يدل على ذلك استهلاله هذا الفصل .. بتحديد الأساس الطبيعى للوطن السياسى (.. مصر السياسية .. هى تاريخيا وادى النيل من الشلال حتى البحر ، أى أنها جغرافيا مجموع السهل الرسوبى فى الصعيد والدلتا ، ص ٤٥٧) وعبر المصريون القدماء على وعيهم بهذه الحقيقة .. فى نص فرعونى منقوش .. (.. كل بلاد يغمرها النيل فى فيضانه هى من مصر ، وكل من يشرب من ماء هذا النيل تحت جزر الفانتين .. فهو مصرى ..) .. ولاتخفى دلالة النص .. التى تربط النهر بالوطن .. بالانتماء السياسى ، فضلا عن تصوره المبكر كوحدة بحدود معروفة مشروعة ، فما هى مقومات هذا التصور فى الواقع المكانى ؟

ويجيب (.. تستمد مصر وحدتها من إحاطة الصحراء والبحر بها من الخارج ، وفى الداخل من الوحدة المورفولوجية للوادى .. والوحدة الوظيفية للنهر ، ومنها تحقق لها قدر من الوحدة السياسية .. عرفت به الدولة المركزية منذ قرابة

٥٠٠٠ سنة .. أى سنة ٣٤٠٠ ق . م ، ص ٤٧٦) بما يعنى أن الأساس الطبيعى لم يقدم للوطن السياسى وحدته فقط .. بل وحدد كذلك نظامه ، ويؤكد ذلك فى نفس الصفحة (.. مصر وطن سياسى .. من معطيات الطبيعة .. natural) political territory ويوضح السياق التالى (ص٤٦٠ ـ ٤٦٢) أن النهر وان قدم لهذا الوطن جسده الحى .. فقد منحته الصحراء على جانبيه درعه الواقى ، بما وفرته له من الحماية .. سواء فى فترة تكوينه أو بعد ذلك .. (.. فرغم سلبية دور الصحراء طبيعيا وماديا .. فقد كان لها دور ايجابى سياسيا ، إنها لم تخلق وحدة الوطن فى مصر .. ولكنها أنضجتها وحفظتها ، ثم عادت فدعمتها وبلورتها ، لقد كانت الصحراء .. هى الرحم الجغرافى الذى ولد فيه الوطن الجنينى ، ثم كانت الصوبة الزجاجية أو البيت الدافىء الذى نمت فيه ، وأخيرا كانت الدرع الكثيف الذى احتمت به وقد شبت وترعرعت ، أو كما لخص ديودور الصقلى الموقف كله قبل الميلاد .. مصر محمية من كل الجوانب بواسطة الطبيعة ، ص ٤٦١) لقد حضنت الصحراء كالشرنقة الوادى .. وحمت سكانه .

ومن الداخل كفل له النهر الوحدة التركيبية والوظيفية فى آن واحد ، التركيبية .. باعتباره العمود الفقرى فى معمور ضئيل للغاية .. داخل لامعمور صحراوى ، بل هو نفسه المعمور الوحيد فيه ، ويكثف الصورة .. (.. إنه ليس حدا بل نواة .. ليس أطرافا .. بل قلب ، ص ٤٦٣) ويكفيه ذلك

لتحقيق الحد الأقصى من الوحدة التركيبية ، أما الوحدة الوظيفية .. فقد تكفل بها الرى .. بما يعنيه من توظيف مياه النهر للزراعة .. (.. تؤلف مصر سلسلة من الحلقات المتصلة المتكاملة هيدرولوجيا ووظيفيا .. يتفاعل الماء بين أجزائها المختلفة .. كما لو فى أوانى مستطرقة ، لابد وأن تعالج كوحدة هيدرولوجية واحدة ، وإلا اختل فيها ذلك التوازن الايكولوجى الحرج الدقيق .. وبالتالى اختلت فيها عناصر الحياة ص ٤٦٤) ويضيف (.. لقد قضى النهر .. الرى النهرى .. أن يتعامل السكان مع بعضهم البعض ، وأن يتشاركوا فى ماء الحياة .. لا عن طريق قبائل وعشائر تتحارب مع بعضها البعض ، ولكن عن طريق قنوات تصلهم ببعضهم البعض ، ص ٤٦٥) ويكفيه ذلك لتحقيق الحد الأقصى من الوحدة الوظيفية .. اللازمة للوطن السياسى ، ثم دعمها دور النهر الملاحى كشريان لاحم بالمصلحة من كافة أجزائه .

ويفيض بعد ذلك فى متابعة مراحل تطور وحدة الوطن السياسى (ص ص ٤٦٦ ـ ٤٧٨) .. يفند خلالها عددا من النظريات المتصلة بموضوعه ، ينتهى منها إلى أن مصر هى على وجه التأكيد (.. وطن سياسى طبيعى ، ص ٤٧٨) يحدد خصائصه فى (.. هى لاندسكيب سياسى ناضج ، وهى كيان سياسى موحد ، وهى رقعة سياسية ثابتة ، تتمتع ـ أخيرا ـ بحدود سياسية فاصلة ، ص ٤٧٨) وتعنى الأولى .. أن مصر تتمتع بقلب مركزى متبلور .. وبهوامش قاطعة حادة ، وهما شرطا اللاندسكيب الناضج ، وإذا كان الشكل الطولى لمعمورها attenutated state قد جعل منها مسافة لا

مساحة (٤٨٢) فإن قوى الوحدة قد امتصت نتائجها .. ولم تجاوز مشاكلها المستوى الادارى .

أما الثانية .. فتعنى أنها دولة مركزية من الدرجة الأولى .. لم تعرف الانفصال عبر تاريخها .. إلا فترات نادرة قصيرة ، فوحدتها السياسية إذن خصيصة أصيلة ، أما الثالثة .. فتعنى أن مصر استمرت برقعتها السياسية كاملة غير منقوصة .. وذلك على طول تاريخها السياسى الحافل .. سواء كدولة مستقلة .. أو كمستعمرة من قوى الخارج ، أما الرابعة .. فتكمل الثالثة .. حدودها دائما ثابتة تاريخيا وجغرافيا .. دون أدنى شبهة أو تداخل (.. ورغم أن حدودها فلكية فى معظمها .. وطويلة تصل إلى قرابة ٢٠٠٠ كم فى مجموعها .. فإنها منحتها جسما مكتنزا ربعة وملموما ، خاليا من الزوائد والأطراف والأسافين الناتئة أو الغائرة ص ٤٩٧) ولايدع هذه النقطة دون أن يعرض باستفاضة .. لكافة مشكلاتها الحدودية غربا وجنوبا . مستعرضا وجهات النظر المتعارضة ، ومقدما لوجهة النظر المصرية .. مايثبت جدارة حلولها المطروحة (ص ص ٥٠٠ ـ ٥٠٧)

● الوحدة الوطنية :

كما سبق فإن معادلة القوة المصرية .. تتجاوز مجرد طرفيها (الموقع × الموضع) .. لتضيف اليها طرفا ثالثا .. يتمثل فى الوحدة الوطنية ، بما تعنيه من تماسك نسيج

المجتمع .. وتلاحمه في إطار من الثقافة المشتركة ـ المستندة إلى المصلحة والحياة المشتركة فى بيئة فيضية .. مغزولة حول نهر مشترك (.. إن تكن الوحدة الطبيعية أخص خصائص الوطن السياسى المصرى كقطعة من الأرض ، فإن الوحدة الوطنية هى بلا ريب أبرز ملامح المجتمع السياسى الذى احتواه ذلك الوطن .. عبر العصور .. كقطعة من البشرية ، ومن مجموع وجماع هاتين الخاصيتين بالدقة والضبط .. جاءت مصر السياسية بلا زيادة أو نقصان ص ٥٠٧) .

وليست الوحدة الوطنية فى مصر .. تعبيرا انشائيا .. أو شعارا فارغا بل هى محصلة لتفاعل جغرافى مع المكان .. وتاريخى مع الأحداث والتطورات .. عبر مرحلة طويلة كفلت له العمق والنضوج ، تمتد بجذورها إلى فترة التكوين الأولى قبل التاريخ (الوحدة الاثنولوجية) وتتوطد بالثقافة المشتركة (اللغة) .. وتتعمق فى الشعور .. لتصبح من حقائق الوجود (.. فمن الوحدة الاثنية إلى اللغوية إلى السيكولوجية .. على هذا الترتيب .. نصل إلى متوالية تصاعدية أساسية ، وإلى هذه المتوالية جاء تطور الوحدة الوطنية ، ص ٥٠٧) وبالاضافة إلى الفصل ١٩ الذى يخصصه لاثبات التجانس العرقى للمصريين ، فإن البرهنة على صحة متواليته .. تستغرق بقية صفحات هذا الفصل الواحد والعشرين (ص ص ٥٠٧ ـ ٥٣٥) يتناول خلالها بكل دقة وتركيز .. الوحدة اللغوية (ص ٥٠٩) .. فبغيرها لا وحدة لشعب على

الاطلاق ، ثم الوحدة الدينية (ص ٥١١) .. فإذا كانت اللغة وحدة الفكر .. فإن الدين بلا ريب وحدة القلب .. وقد تحقق فى مصر فى إطار من التعايش .. وبفضل ملكة الامتصاص ، وذابت الفروق بميكانيزم الوحدة الاثنية .. والحياة المشتركة المتداخلة فى الريف والمدن .. بين الجميع (.. إن ثنائية المسلمين / الأقباط .. لاتتعارض مع الوحدة الوطنية .. بل ولا الدينية .. فبالأصل الاثنولوجى .. كما بالوضع الاجتماعى .. كما بالتوزيع السكنى .. تعد الأقلية القبطية من صميم الكيان المصرى الكبير ، ص ٥٢٥) وأفضت ثلاثية (اللغة + الدين + الأصل) إلى الوحدة الثقافية التى هى تراث التراب الوطنى .. وطابع الأمة المميز ، وكلها معا تصنع الوحدة السيكولوجية (ص ٥٣٠) .. أى (وحدة المزاج والطبع .. والنفسية والعقلية .. والسلوك والعادات وطريقة الحياة ، وهى وحدة ليست أقل خطرا من سابقاتها .. وإن كانت المحصلة النهائية لها ، فإنما هى فى واقع الأمر .. الوحدة الوطنية كلها فى التطبيق والممارسة المباشرة والحياة اليومية ؛ أكثر حتى ربما مما هى البعد الرابع من متوالية الوحدة الوطنية)

فإذا كانت الوحدة الوطنية على هذا القدر من التماسك والرسوخ .. فأين بالضبط ـ تقع مشكلة مصر السياسية .. على مر العصور ؟ ..

وتأتى الاجابة الفورية .. (.. وعلى وجه التأكيد .. إنها الحكومة ونظام الحكم بالتحديد ..)، وكدأبه يعود بإجابته إلى

مايؤكدها تاريخيا وايكولوجيا بالأسانيد ، ويضعها تحت عنوان « أيكولوجية النيل الاجتماعية » (ص ٥٣٧) متخذا من مصطلح « المجتمع الهيدرولوجي » .. مدخله للتحليل ، باعتباره تلخيصا لحقيقة أساسية في كيان مصر .. كبيئة نهرية ، وبداية أيضا لم أصبح عليه نظام الحكم بها .. وما أمست حكوماتها عليه ، فقد اقتضى تنظيم الرى بها كوظيفة للنهر .. حكومة مركزية .. تحكم قبضتها عليه ، وتمخضت التطورات .. عن الفرعون .. كرأس رئيس لهذه الحكومة .. متسربلا بالقداسة متخذا من هذه المتتابعة (النهر ـ الرى ـ الزراعة ـ المجتمع المنظم ـ الحكومة المركزية ـ الفرعون) الطبيعية البشرية السياسية .. أداته لتفسير الطغيان السياسى .. حتى أنه يطلق عليها (أمست مصر مع تركيز نظام الحكم .. أرض الطغيان ، ص ٥٨٦) ويؤكد .. (.. والآن من ينكر أن الطغيان والاستبداد .. هو كظاهره موضوعية .. نغمة أساسية .. وأسوأ خط فى دراما الشعب المصرى ..) ويتصدى تحت عنوان « نظريات خاطئة (ص ٥٨٦) لكل ما ألصق بالشعب المصرى .. من صفات الخنوع والخضوع للسلطات ، مستشهدا بالفلاح الفصيح . وبثورات هذا المجتمع الهيدرولوجى .. عبر العصور ، وينفى عنها صفة الحتمية الجغرافية ، ويعود بها بأوضح الكلمات (.. إلى انحراف السلطة بقيم المجتمع النهرى .. القائمة على التعاون وعدالة التوزيع .. الحكومة المركزية والمجتمع التعاونى .. هما الظاهرتان الحتميتان فى كيان مصر

الفيضية .. وليس الاستبداد والطغيان ..) فالاستبداد ثمرة مرة .. لشجرة خصيبة من التطور والتنظيم .. تجرعها الشعب المصرى على مضض .. للمحافظة على وجوده وكيانه الحضارى العام ، ولكن تلفظها بنيته باستمرار ، وبين هدف الوجود .. ورفض الطغيان .. تكونت نغمة أساسية فى تاريخه وشخصيته ، عالجها بالتمسك بوحدته (.. فمصر السياسية جسم بشرى واحد ووحيد .. ووسط جغرافى واحد بالتأكيد ..) فلم يفرط فى وحدته عبر التاريخ .. مع السعى الدءوب عبر الزمن وبالثورة .. لمحو الطغيان .

● من الطغيان إلى الثورة :

هذا موضوع الفصل الثانى والعشرين (جـ ٢ ص ص ٥٣٦ ـ ٥٩٩) .. وعنوانه أيضا باختصار ، يستكمل مابدأه فى الفصل السابق .. من تطور نظام الحكم فى مصر .. وتركزه فى قبضة الفرعون .. مع اختلاف تسمية الحاكم .. عبر العهود ، يستهلها بمعاودة تحليل « جغرافية مصر الاجتماعية » (ص ٥٣٦) مع التفصيل فى تحليل ايكولوجية المجتمع المصرى .. كمجتمع هيدرولوجى .. نواته النيل ، مستندا الى متتابعته الواردة فيما سبق من سطور ، مع التركيز على تطور دور الحكومة .. وكيفية تسممها بالطغيان (.. بدأت الحكومة كوسيط بين الانسان والبيئة .. وهمزة الوصل بين النهر والفلاح .. هى ضرورة ـ فكرة وأجهزة ـ

للتكامل الايكولوجى ، ضرورة كما هى نتيجة .. تتطور لتنتهى عاملا جغرافيا .. بكل معنى الكلمة ، ص ٥٣٩) أى أن الحكومة عامل ايكولوجى أصيل ، تستمد شرعيتها من عدالة التوزيع .. فالعدل كما يقول رفاعة الطهطاوى أساس العمران (ص ٥٤٠) ثم يضاف اليها وظيفة حماية العمران .. ومن هنا (عدالة التوزيع + الدفاع) تنبثق ضرورة أن تكون مركزية .. فى تتابع تنفرد به مجتمعات الأنهار .. خاصة من يتعرض منها للفيضان ، ولب المركزية هنا أن المياه مؤممة .. يملكها الجميع .. فكيف يمكن بغير المركزية أن تدار .. ومن يحمى العمران من الغزو والفيضان ؟ (.. ذلك إذن توجيه البيئة الفيضية .. وتأثيره السياسى .. وهو توجيه طبيعى وصحى وحكيم ، ولا علاقة بينه وبين الانحراف للطغيان ، فاذا وقع .. فلابد أن نبحث عن الأسباب ، ص ٥٤٦)

ويعود فى بحثه عنها للجذور .. إلى بداية تكوين « النظام الاجتماعى المصرى » (ص ٥٤٦) مستهدياً فى تحليله بثلاث نظريات ، النظرية الاقطاعية ، النظرية العبودية ، النظرية الأسيوية (٥٤٩) منتهيا إلى ارتباط تجذر الطغيان فى مصر .. بتحول ملكية الأرض بعد المياه .. إلى الحاكم .. (الذى أصبح يملك الأرض وماعليها .. والكل يخضع له خضوعا مطلقا كاملا ، ص ٥٥٢) وكان لابد وأن يتبع ذلك تكييف هيكل النظام .. بما يناسبه ويحقق مقاصده ، وهكذا نبتت البيروقراطية (ص ٥٥٦) من الأوتوقراطية ، وأحاطت ذاتها بقداسة الكهنة (٥٥٧) .. وبرجال الجيش (٥٥٨) ..

وبطبقة عليا غير أرستقراطية .. مرتبطة بالفرعون (٥٥٩) وتكاد هذه التحالفات القديمة أن تشكل صلب هذا النظام . الذى بقى بعد ذلك عشرات القرون .

وقد ضاعفت أحادية النظام الاقتصادى المصرى (الزراعة) .. من تصلب هذه البنية الاقطاعية (.. فنظرا لأحادية البيئة النيلية .. فقد حد ذلك من نمو طبقة من التجار والصناعيين .. بدرجة يمكن أن تنافس الاقطاع المتسيد ، ص ٥٦٦) ويضيف .. (.. وليس من الصعب أن ننتهى من هذا .. إلى أن مصر لم تستغل موقعها الفريد كما ينبغى وركزت أساسا على الموضع ، ولو فعلت فلربما تغير تاريخها وشخصيتها بعد ذلك ، أى أن الانطواء الزراعى القانع داخل قوقعة الموضع .. كان من عوامل استمرارية الأوتوقراطية واستشراء طغيانها ، وبعبارة أخرى لو أن مصر ركزت أكثر على استثمار الموقع كما ينبغى .. لأنقذها الموقع من نتائج تحريف الطغيان وتشويهه لامكانيات الموضع ، ص ٥٦٧) وبذا يذكرنا بمعادلة القوة المصرية (الموضع × الموقع) كأساس لتقدمها .

ويفسر الطغيان الداخلى .. وقوع مصر المتكرر الطويل تحت سيطرة الاستعمار ، فحين ينهزم النظام .. تسقطه مصر .. وتستبدل طغيانا بطغيان ، بل وسرعان مايتحالف الطغيان الخارجى .. مع الداخلى .. فى معظم الأحيان (الأتراك مع المماليك على سبيل المثال ، ص ٥٦٧) ومع انقطاع الصلة بين الحكام والمحكومين .. لاتجاوز المسألة

تغيير نظام بنظام ، دون أن يعنى ذلك التهوين من قدرة الشعب المصرى على التصدى فى الحالين ، فتاريخه سجل حافل بالهبات والثورات .. ولكن بطريقته الخاصة على مر التاريخ (.. ذلك لأن مصر بحجمها جسم ضخم لايتحرك باندفاع متهور .. بل بدفع محسوب ، ولذا فإن ثوراتها الشاملة .. وإن كانت قليلة العدد نسبيا .. إلا أنها فاعلة حين تقع ومحطمة ، ص ٥٦٨) وهكذا ينفى أن يكون الطغيان قرين مصر الاجتماعية (ص ٥٨٠) بل هو ضد روحها الكامنة ، وضد روح المكان Geniusloci ولايجاوز كونه انعكاسا لطبيعة Zeitgeist عصر من العصور ، عرفته المجتمعات البشرية .. كل فى مرحلة معينة .. بأدرانه تصاب ، هو إذن لايعبر عن روح المجتمع المصرى ، ولايمكن أن توصم روحه الوادعة وأصالته المنظمة .. بأنها استجابة فطرية .. لما عرفته من طغيان .. فى فترة طويلة من تاريخها (.. لاحتم جغرافي إذن فى الطغيان ص ٥٨٣) وإنما هى انحراف السلطة المركزية عما عهد إليها به ، هذا عدا ما أضافه الغزو الأجنبى والاستعمار ، أما الأصل .. أى المجتمع المنظم .. فالديموقراطية روحه ، قوامها عدالة توزيع المياه والأرض بين سكانها ، ديمقراطية سياسية واجتماعية واقتصادية معا فى أن ..) ص ص ٥٨٤ ـ ٥٩٩ ، بذا يحدد من الخصائص .. مايفسر التاريخ البعيد والقريب .

ورغم اقراره الموضوعي بما يمكن أن يخلفه الطغيان والاستعمار .. من رواسب وشوائب (ص ٥٨٤) فى شخصية

المصرى ومجتمع المصريين ، إلا أنه يتصدى لجملة من « النظريات الخاطئة » (ص ص ٥٨٦ ـ ٥٩٣) .. تسعى لدمغ شخصية مصر فى الصميم ، وبعدما يستقرىء التاريخ .. يقرر (.. غير أن الحقيقة التاريخية التى تثبتها مرارا وتكرارا تجربة الفى سنة .. مازالت مستمرة معنا حتى اليوم ، وهى أن كبرى الآفتين ليست الاستعمار الأجنبى .. ولكنه الحكم الداخلى المطلق .. إنه وجه مصر القبيح ، ص ٥٩٥) وهى الحقيقة التى سوف يستند إليها بعد ذلك فى كثير مما يلحق من الفصول ، بالاضافة إلى ماحدده منها فيما سبق من فصول ، يظهر ذلك على الخصوص فى الفصلين (٢٣ ، ٢٤ ، جـ ٢) وذلك حين يعود إلى تحليل شخصية السياسية عبر العصور ، متسائلا فى أولهما (.. كيف تحولت مصر من أول امبراطورية فى التاريخ .. إلى أطول مستعمرة عرفها التاريخ ؟ .. ص ٦٠٣) ، وتقتضيه اجابة السؤال .. خوض غمار قرابة أربعين قرنا من الزمان ، يتابع فيها دورات الازدهار والانتكاس بالتفصيل دون أن يكف عن اجراء المقارنات الموحية بين مصر وغيرها من قوى العالم القديم ، وحين يتوصل إلى اجابته .. تظهر كنظرية (تخلف الموضع عن الموقع ، ص ٦٤٢) صالحة دائما للتفسير (.. لقد تكشف المعمور المتمدد عن قوى جديدة .. وقواعد أرضية وبشرية من مقياس أضخم من المقياس المصرى ، وقد وجدت هذه القوى أن المفتاح يرقد دائما فى أرض الزاوية .. تلك مصر ، ومن هنا أصبحت قبلة الغزاة ، ونظرا لأن وزن موضعها لم يعد يسعفها إزاء هذه القوى الأكبر جرما .. فقد

وقعت مصر فريسة لها ، بمعنى آخر .. إن الانقلاب الذى حدث فى مصير مصر .. هو أن خطر موقعها قد زاد كثيرا عن قوة موضعها ، لقد تخلف الموضع عن الموقع .. ولم يواكب تطوره ، ولم تعد امكانيات الأول التقليدية .. ترقى إلى متطلبات الثانى الباهظة ، ص ٦٤٣) ... تخلف الموضع عن الموقع إذن اجابته .. وهى أيضا نظريته الثرية بلاجدال .

ويطبقها بعد ذلك فى الفصل الرابع والعشرين (ص ص ٦٥٤ ـ ٦٨٩) .. الذى يخصصه للاستعمار الأوروبى الحديث ، متابعا علاقته مع مصر .. منذ الحملة الفرنسية ، فالاستعمار البريطانى (٦٥٩) ، وتزايد نسبة الأجانب (ص ٦٦٧) .. وتأثيرهم فى المجتمع المصرى ، وفى الجوانب الاقتصادية المختلفة (وبالنسبة للأجانب فانهم كانوا وظلوا مجتمعا مغلقا .. منقول بجذوره وبيئته .. ومناخه الحضارى والاجتماعى ، باختصار جزر أوروبية فرضت على الأرض المصرية ، قطعة من أوروبا فى مصر .. التى لم تصبح على اية حال .. قطعة من أوروبا ، ص ٦٧٤) وبقدر مايظهر هذا الفصل استمرارا لسابقه .. ومجالا لتطبيق نظريته ، فإنه يمهد أيضا للفصل اللاحق له (٢٥ ص ص ٦٩٠ ـ ٧٧٧) .. ويخصصه لدراسة « شخصية مصر الاستراتيجية » متوجا بها الباب الخامس من الجزء الثانى من كتابه ، وبه يكون قد أفرد ستة فصول كاملة (٢٠ ـ ٢٥) .. أى مايزيد عن ٤٠٠ صفحة (ص ٣٦٣ ـ ٧٧٧) لدراسة شخصية مصر السياسية .

● فماذا يقصد من عنوان هذا الفصل « شخصية مصر الاستراتيجية » .. على وجه التحديد ؟ (.. الآن وقد درسنا مراحل وأدوار تاريخ مصر الجيوبوليتيكى .. مابين امبراطورية ومستعمرة ، وحللنا معانيها ودلالاتها ، نحن فى موضع يسمح لنا بالتعميم بعد التخصيص ، لننفذ إلى أعماق شخصية مصر الاستراتيجية ككل وكإقليم من الخارج ، ولنحدد جوانب القوة والضعف فيها ، ثم لنضع مصر كقوة سياسية فى الميزان .. بما في ذلك دورها ووزنها السياسي ، ثم أخيرا .. لنقيم ونقنن أركان وقواعد استراتيجية مصر من الداخل ، حتي نصل من ذلك جميعا إلى مؤشرات للعمل المستقبلى .. تفيد فى تخطيط أهدافه .. لاسيما فى الصراع المصيرى مع اسرائيل ، ص ٦٩٠) .

ومرة أخرى .. وليست أخيرة .. يضع قاعدة (الموضع × الموقع) أساسا لتحليلاته وتفسيراته باعتبارها لب شخصيتها الاستراتيجية .. محل الدراسة .. (.. الحقيقة العظمى فى كيان مصر .. ونقطة البدء لفهم شخصيتها الاستراتيجية - هى اجتماع موقع جغرافى أمثل مع موضع طبيعى مثالى ، وذلك فى تناسب أو توازن نادر ، ص ٦٩٠) ويفيض فى اثبات ذلك .. من زوايا جديدة ، تحلل دوائر القوة فى المناطق المحيطة .. مسجلا هذه الحقيقة (.. مصر كانت دائما مركز دائرة وقطب قوة .. ولم تنزلق إلا نادرا لتصبح على هامش دائرة أخرى ، وبحكم موضعها (السهل الممتنع) وموقعها (الصعب الممتنع) .. فإنها تصعد منحنى القوة كقوة

إقليمية ، إذا ماوظفت امكانيات موضعها وموقعها جميعا ، فذلك مفتاح الماضى مثلما هو دليل المستقبل ، ص ٦٩٣) .

وتحت عنوان « خريطة الخطر » (ص ٦٩٣) يتابع ماتعرضت له مصر من أدوار الغزو والاستعمار (.. لقد عاشت مصر دائما أو غالبا فى خطر ..) ويتناسب الخطر الخارجى تناسبا طرديا مع أهمية الموقع ، ولم يكن ذلك سلبيا .. فقد نضجت شخصية مصر بقدر ماتعرضت له ، وهو يجمل دوائر الخطر وحلقاتها .. ويدلل عليها عبر تاريخها ، متوصلا إلى عدد من الخصائص يراها دائمة ، من أهمها العلاقة الاستراتيجية العضوية بين مصر والشام (ص ٦٩٨) وبذا فان الدفاع عن مصر يبدأ من طوروس (٦٩٨) .

ويستغرقه بعد ذلك تحليل وتفنيد عدد من النظريات الخاطئة (٧٠٣) من قبيل نظرية « أطول مستعمرة » (ص ٧٠٤) ونظرية النضج المبكر والشيخوخة المبكرة (ص ٧٠٦) ونظرية المقاومة السلبية (ص ٧٠٧) ونظرية « الشعب غير المحارب » (ص ٧١١) ونظرية « جناية الموقع (ص ٧١٤) تفنيدا قويا يثبت به خطأها وصواب ضدها .

وفى اتجاه تحليل « مصر كقوة سياسية » (ص ٧١٦) يتابع وزنها عبر تاريخها ، محددا ذبذباته وارتفاعاته ، وانحداراته ، مستندا الى معادلته الأساسية (الموضع × الموقع) حيث أن من شأن تنمية موارد الموضع والموقع أن

ترفع بداهة من المحصلة ، ولقد حققت مصر بالنسبة لشق المعادلة الأول خلال القرن الماضى مادعمه حقا سواء فى مجال الزراعة (ثورة الرى الدائم ص ٧٤٠) التى بلغت نهايتها بالسد العالى ، أو الصناعة التى قطعت فى مضمارها شوطا لايستهان به ، وذلك ضد « خريطة الخطر » المحيطة بها .. والتى لاتكف عن محاولة اجهاضها وتبديد تراكماتها ، سواء من جانب الاستعمار العالمي أو اسرائيل ، وفي نفس الوقت فإنها رغم ماحققته .. فقد كان العالم المتقدم ينمو بمعدلات أكبر .. تضاعف المسافة بينه وبينها (.. لقد كانت مصر طوال العصر الحديث .. فعليا وفى حد ذاتها فى نمو مطرد .. حجما ووزنا وقوة وسكانا وتحضرا وتمدنا .. بيد أنها كانت تجد نفسها فى تناقص وتراجع وتخلف مطرد ، لا لشىء سوى أن العالم كان ينمو خارج كل حدود .. ص ٧٣٩) وبالنسبة للموقع .. فقد كللت مصر موقعها باستعادة القناة ، وبذا يمكن احلال (السد العالى + القناة) محل معادلة القوة المذكورة ، باعتبارها أعلى ماحققته مصر فى تاريخها الحديث .

وتحت عنوان « سياسة مصر الخارجية » (ص ٧١٧) يقرر (.. إن تكن الجغرافية وراء السياسة مقولة صحيحة ، فلعل سياسة مصر الخارجية تعكس شخصيتها الاستراتيجية .. ربما أكثر مما تعرف دولة أخرى (ص ٧١٧) ومن ثم يتابعها ويقسمها (.. يمكن أن نتعرف على ثلاثة مراحل رئيسية من السياسة الخارجية المصرية ،

تمثل فى جوهرها أبعادا جغرافية فى الدرجة الأولى ، وبالدقة أبعادا متوسعة متزايدة على التعاقب : مرحلة السياسة المحلية ، مرحلة السياسة الاقليمية ، مرحلة السياسة العالمية ، ص ص ٧١٨ - ٧٢٣) وبعد تحليلها تاريخيا وجغرافيا وجيوبولوتيكيا - يستخلص مايسميه « أجروميه أو قواعد سياسة مصر الخارجية فى خمسة مبادىء أو قوانين .. تدور تباعا حول العلاقات والمحاور الآتية (القوة والعزلة أولا ، العزلة والعرب ثانيا ، العزلة والاستعمار ثالثا ، العزلة والتحجيم رابعا ، المجال الطبيعى ..) وتوضح درجة ثقل العزلة .. فى هذه الأجرومية .. وتمثل بالطبع الوجهة السلبية فى السياسة المصرية الخارجية ، ومنها يخلص إلى قاعدته الأساسية فى هذا الشأن (... تتناسب قوة مصر السياسية تناسبا عكسيا مع درجة عزلتها وانغلاقها داخل حدودها ، وطرديا مع مدى انطلاقها خارج حدودها ص ٧٢٣) .

وفى متابعة شائقة لدور مصر ووزنها فى المراحل أو الدوائر الثلاثة .. منذ القرن التاسع عشر عامة ، ومابعد الحرب العالمية الثانية خاصة . يتوصل إلى مايسميه المجال الطبيعى (ص ٧٢٦) ويتمثل فى العالم العربى على وجه التحديد (.. والبعد الأمثل لسياستنا الخارجى هو البعد الاقليمى الذى يرادف العالم العربى ..) .

وكما يضع الخطوط تحت مسألة العزلة ، يضع مثلها تحت الدائرة الاقليمية من دوائر سياستها الخارجية ، وبالذات المجال العربى منها (.. ويتحدد دور مصر ووزنها فى الدائرة

الاقليمية بعامة .. والعربية بخاصة ، ص ٧٢٧) ويتابع دورها تاريخيا حتى المرحلة المعاصرة ، التى يرى مصر فيها وقد تدهورت .. ليس من حيث الدور وإنما من من حيث المكانة أيضا ، ويعود بتدهور المكانة إلى البترول ، وبتدهور الدور إلى الصلح مع اسرائيل (ص ٧٤٤) ويضيف إلى أهمية استعادة مصر لدورها الاقليمية .. مجموعة من الأسس يراها بمثابة قواعد دور مصر السياسى (.. لا أمان ولامستقبل لمصر إلا بالقوة الذاتية ، القوة العسكرية والمادية والاقتصادية ، سواء على مستوى الموضع أو الموقع ، سواء فى الداخل أو الخارج ، ص ٧٤٠.) .

ولا ينته الموضوع عنده بذلك .. بل يعاود طرحه من زاوية جديدة .. تحت عنوان « قواعد استراتيجية » (ص ٧٤٦) يحاول الإلمام فيها (بتركيب مصر الجيوستراتيجى) مستهلا ذلك باثبات ماينطوى عليه هذا التركيب من عناصر قوة البر والبحر معا ، وبتحلل عمقها الاستراتيجى (ص ص ٧٤٧ ـ ٧٥٥) ومنتهيا إلى مايسميه « مفاتيح مصر الاستراتيجية » (ص ص ٧٥٥ ـ ٧٧٧) ويحددها بداية فى (سيناء فى الشمال الشرقى ومرمريكا فى الشمال الغربى ، والنوبة فى الجنوب ، ص ٧٥٥) غير أن سيناء تستأثر بجل اهتمامه ، حيث يخضعها لدراسة مستفيضة ، توظف كافة المعلومات عنها لزاويته الجيوستراتيجية المختارة ، مع الربط عضويا بينها وبين القناة ووادى النيل ، وفيما يلى بعض أهم ما أورده فى هذا المجال .

● .. لم يترك الفراغ العمراني سيناء .. أرضا جاهزة لمعركة العدوان وملائمة لأغراضه فقط ، ولكنه تركها نهبا للأطماع الاستعمارية الآن وفيما مضى ، وبصفة عامة يمكن القول أنه كان هناك دائما عدو ما يشكك بطريقة ما في مصرية سيناء .. ويطمع فيها بصورة ما .. بالضم .. بالسلخ .. بالعزل أو بغير ذلك .. لن نذكر هنا البيع أو الايجار .. جـ ٢ ، ٧٧٣

●● .. من الوجهة الاستراتيجية البحتة .. فلم يعد معنى لأن يتوقف ارتباط سيناء بمصر الوادى عبر القناة .. على كوبرى سكة حديد قابل للتدمير .. ثم للتدمير بعد اعادة البناء ، لابد من سلسلة انفاق تحت القناة تحمل شرايين المواصلات مثلما تنقل المياه ، فمثل هذه الانفاق تعد مجازيا بل عمليا ، بمثابة اعادة تحقيق للاستمرارية والوحدة الأرضية بين الوادى وسيناء ولرقعة مصر الجغرافية السياسية عموما .. رغم وجود القناة . جـ ٢ ، ص ٧٧٧ .

●●● اهتبلت اسرائيل فرصة النكسة لتحقيق خططها القديمة والموضوعة لوراثة دور القناة نهائيا ، ومعروف ان اسرائيل كانت تهدف دائما إلى سرقة موقع مصر الجغرافى ، وتحلم بأسر تجارة المرور منها وتحويلها اليها .. جـ ٢ ص ٧٧٧ .

●●●● .. القناة محكوم عليها بالخطر .. « الراجح » .. وموقعنا مهدد أبدا وبانتظام بالاجهاض والشلل الجزئى مابقيت اسرائيل ، ومن ثم يصبح المبدأ الاستراتيجى الأول

فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء ـ تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعا ، ولاضمان بالتالى إلا بذهاب العدو ، غير أن هذه قضية متروكة للمدى البعيد) .

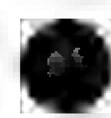
ويقرر فى الخلاصة (.. وعلى هذا نستطيع .. وفى الختام أن نعبر عن الموقف الجيوستراتيجى كله فى ايجاز .. فى سلسلة من المعادلات الاستراتيجية على النحو التالى :

ـ من يسيطر على فلسطين .. يهدد خط دفاع سيناء الأول .

ـ من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط .. يتحكم فى سيناء .

ـ من يسيطر على سيناء .. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير .

ـ من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير .. يهدد الوادى . وهذه بالضبط « نواة نظرية الأمن المصرى » (ص ٧٧١) فى صياغته الأخيرة .



فإذا كان وجود مصر يستند إلى هاتين الدعامتين :

★ الموضع .. ومحوره النيل . بكل ما أدى إليه من اقتصاد وعمران .

★ الموقع .. فى هذه الزاوية نادرة المثال من العالم ..

ورمزها قناة السويس .. فما هى درجة صلابة الدعامتين ؟ وماهى درجة متانة مايعلوها من بناء ؟ .

● الأساس والبناء :

يخصص الباب السابع من الجزء الثانى لدراسة « البناء الحضارى والأساس الطبيعى » (ص ٧٨١ ـ ١٠١٨) ويتضمن ثلاثة فصول (٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) يخصص أولها لدراسة « موقع مصر الجغرافى » ويأتى الثانى تحت عنوان « هبة النيل » ويكمله الثالث بعنوان « ضبط النيل » يمهد لها جميعا بمقدمة قصيرة ، يستهلها بهذا السؤال الموحى (.. ما الأساس الطبيعى لبنائنا الحضارى الشامخ الذى أقمناه عبر العصور ، بكل محمولاته من غطاء عمرانى وكيان اقتصادى إلى تراث مادى وهيكل اجتماعى ؟

هل هو يقوم على أرض صلبة بحيث تتكافأ قوة الأساس Substructure مع عظمة الصرح Structure وماهى نقط القوة والضعف فيه ؟ (ص ٧٨١)

ويحدد من بعد سؤاله طريقه بسؤال آخر (.. ما طبيعة ونوعية العلاقة فى كياننا البشرى بين الحضارة والبيئة ، وبين المصنوع والمطبوع وبين التاريخ والجغرافية ؟ وتأتى الاجابة فى معادلة بسيطة (.. تستمد مصر أساسها الطبيعى من عنصرين جوهريين .. الموضع والموقع ، الموضع هو الوادى

المعمور المزروع بموارده وانتاجه ، والموقع يتمثل فى تجارة المرور .. وتلخصه وتلخصها الآن قناة السويس .

غير أن هناك زواجا جغرافيا آخر كاملا ووثيقا وليس يقل خطرا بين النيل والبحر المتوسط ، وقد أثمر هذا الزواج الجغرافى السعيد مصر .. أم الأمم .. أم الحضارة .. أم التاريخ .. أم الدنيا ، ص ٧٨٢) غير أنه يحدد من فوره نقطة الخطورة (.. إن الكيان المصرى يستمد أصوله من مصادر خارج الحدود سواء فى ذلك الموضع أى الوادى الزراعى ، أو جانب الموقع ، أى تجارة المرور ، ص ٧٨٣) وبذا يضع يده على صميم دراما شخصية مصر .. وينطلق منها إلى تحليلاته .

قلب العالم :

وكما سبقت الاشارة .. فإن الفصل الأول من هذا الباب يخصصه « لموقع مصر الجغرافى » واضعا فوقه عنوانا (قلب العالم) وتحته عنوانا (عبقرية الموقع) ويستهله بما يسميه معادلة الموقع (.. إنها لاتمتاز فقط بالموقع المركزى المتوسط فى قلب الدنيا القديمة ، ولا بالموقع المدخلى أو موقع البوابة فحسب ، ولكن أيضا بالموقع العقدى البؤرى ، ص ٧٨٤) ويقتضيه تفسير ذلك رحلة طويلة ، تبدأ بتحليل « الموقع الجغرافى الطبيعى » (ص ٧٨٤) ومقارنة الموقع والموضع (ص ٧٨٧) وتذبذب الموقع (ص ٧٨٨) ودورات

الموقع وأدواره (ص ٧٩٠) منتهيا الى دور القناة .. باعتباره الدور الأخير (ولكنه وحده ثورة كاملة ، ص ٧٩٦) فبالنسبة لمصر .. (كان أبسط معنى للقناة أنها جددت شباب موقعها الجغرافى ، ص ٧٩٧) ويتابعها باسهاب منذ بدايتها الأولى (.. قد لا نبالغ كثيرا اذا قلنا أن تاريخ مصر الحديث المفعم المتضاغط .. إنما هو فى التحليل الأخير تاريخ القناة ، ص ٧٩٨) ويربط بينها وبين الاستعمار العالمى (ص ٧٩٩) ثم بينها وبين البترول (ص ٨٠١) وبالخطر الاسرائيلى (ص ٨٠٥) ويحذر من الخطر الاسرائيلى الراجح ، ويؤكد معادلته بأن من يدافع عن سيناء يدافع عن القناة ، وبعبارة اكثر مباشرة (.. لا أمان لقناتنا ولاضمان بالتالى لموقعنا الجغرافى الا بذهاب العدو (ص ٨١٠) .

● القناة وبدائلها :

وبعد ذلك وإلى نهاية الفصل دراسة موضوعية للقناة ، وتحليلا دقيقا لبدائلها المطروحة ويطلق عليها التحديات الثلاثة (ص ٨٢٨) وتتمثل فى (متغيرات البترول ، خطر الأنابيب ، الناقلات العملاقة ص ٨٣٣) منتهيا إلى (.. والخلاصة النهائية . أن كل الاخطار التى يمكن أن يتعرض لها موقع مصر عارضة ومفتعلة ـ وليست نابعة من طبيعته ، ص ٨٧٥) .

وفى الفصل الثانى من هذا الباب (هبة النيل) .. يتناول

الشق الثانى من معادلة الوجود المصرى .. أى الموضع ، ويستهله بمقولته (.. مصر هى النيل) ويعدد مايسميه « بالمزايا العشر » (ص ٨٧٨) للنهر ، بمعنى المقومات الطبيعية التى تجمعت له من منابعه لتؤدى به فى النهاية إلى مصبه فى مصر ، ومن أهمها بطبيعة الحال (ثنائية المنابع ، الماء والطمى) ويلخص ذلك كله فى (.. كما تتركز كل قوة مصر فى وادى النيل .. تتركز كل قوة حوض النيل فى مصر ، ص ٨٩١) .

وتحت عنوان « بيئة الرى المثالية » (٨٩٢) .. يقرر (.. وهاهنا وعلى وجه التحديد .. نصل الى جوهر الوجود المصرى وصميم كيان مصر وأساسها الطبيعى ، فمصر ليست فقط بيئة فيضية متداخلة بنموذجية وإنما هى النموذج المثالى لتلك البيئة الجغرافية ، وهنا يجرى مجموعة من الحسابات الطريفة يجسد بها النهر ، فهو يعادل من حيث المكافىء المطرى ٩٥ بوصة ، وتبلغ جملة مسطحه المائى ربع مليون فدان ، يضاف إليها نصف مليون آخر لشبكة الترع بمستوياتها والمصارف (جملة أطوالها ١٢٥ ألف كم ص ٨٩٥) ، بما يعادل ثمن جملة الأراضى الزراعية (٦ ملايين فدان) فاذا ما أضيف إليها بحيرتا ناصر والريان .. لبلغت مساحة المسطحات المائية المتصلة به أكثر من ٢ مليون فدان ، أى أن أكثر من ربع مساحة الوادى هى مسطحات مائية ، ومن ثم يضيف لمسة عميقة إلى موضع مصر (.. إن الماء والطين يتلازمان ويتقاسمان أرض الوادى

وثيقا فى الداخل .. مثلما يتلازم الطين والرمل من الخارج ص ٨٩٥) ثم يتبعها بأخرى (.. بيئة مصر مطبوعة Superimposed على اللاندسكيب الطبيعى ، لايكاد شبر منها يخلو من بصمات أصابع الانسان أو لايتشبع بعرقه ، ص ٨٩٧) .

غير أن لموضعها مشكلاته أيضا ، هذه التى يحددها ترتيبا .. فى أن مصدر وجوده يأتيه من خارجه ، كما أن مائية هذا المصدر ترتبط بالمناخ البعيد المتذبذب .. الذى ينعكس فى دورات فيضانه على مر عصورها (.. تراجيديا الفيضان ص ٩٠٣ ..) هذه التى يقننها فيما يسميه « النبض الهامشى » (ص ٩٠٩) بمثابة قانون ايكولوجى marginal vibrance لأن وقعه أوضح مايكون فى هوامش المعمور منها فى قلبه (.. بما يدل على أن النهر ضابط ايقاع جوهرى للعمران فى مصر الفيضية ، ص ٩٠٩) ..

ويتابع فى رحلة تاريخية طويلة « عملية استزراع مصر » واتجاهاتها (ص ص ٩١٠ ـ ٩١٩) يختمها بأن نهاية قانون النبض الهامشى قد ارتبطت بثورة الرى الدائم فى مصر .. وأن « السد العالى » قد وضع نقطة ختامه بالفعل .

ولأن السؤال الأساسى فى هذا الباب .. هو عن الدعائم الطبيعية للبناء الحضارى فى مصر ، فإنه ينتقل إلى تحليل متانة دعامتها الطبيعية الوحيدة .. كما تتمثل فى مياه النهر ، وذلك تحت عنوان « الماء والسياسة » (ص ٩٢٤) حيث

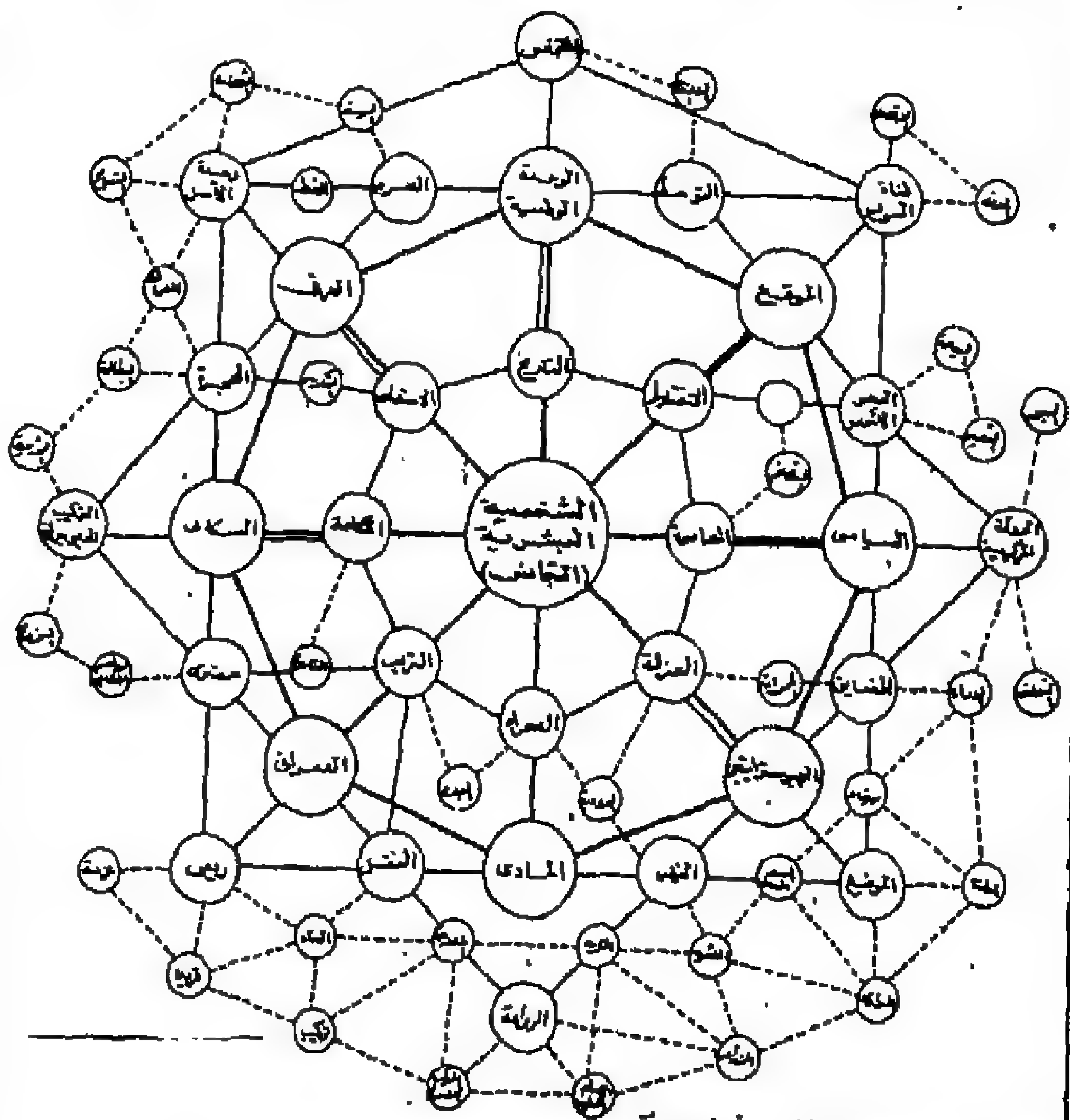
يناقش الماء « كسلاح سياسى » محددا لب القضية فى هذه العبارة (.. كقاعدة عامة يرى البعض أن دول المصب .. مثل مصر .. هى بالضرورة فى الموقف الأضعف جغرافيا .. فى حين أن دول المنبع فى الموقف الأقوى ص ٩٢٥) ويتابع هذه القضية تاريخيا بصفة عامة .. وفى مرحلة الاستعمار بصفة خاصة ، وبالأخص (السياسة البريطانية المخططة العامدة للاكثار من السدود والخزانات والمشاريع المائية والزراعية فى السودان ص ٩٢٨) وخاصة خزان سنار وجبل أولياء (.. بما يمكن من التحكم فى ايراد مياه النهر ، ص ٩٢٩) عدا مايثار أيضا بشأن منابع النهر فى اثيوبيا ، ويتصدى للقضية مستندا الى الحقوق القانونية التى تكفلها اتفاقيات توزيع مياه النيل بين دول الحوض من ناحية ، وإلى ضمانات الطبيعة (ص ٩٣١) من ناحية ثانية ، هذه التى تتمثل فى ثنائية المنابع أولا ، وفى استحالة كبح المياه الحبشية ثانيا (٩٣٢) وفى أن الطبيعة قد وزعت هباتها (المطر + النهر) بعدالة بين دول الحوض ثالثا ، بحيث يظهر دور النهر محدودا للغاية بالنسبة لدول المنابع الوفيرة المطر بالفعل ، بما يحقق مايسميه « الكفاية الطبيعية » للجميع (ص ٩٣٦) ومن ثم يحدد ستراتيجية مصر المائية فى (مبدأ حسن الجوار + وحدة المصلحة بين دول الحوض + السد العالى) .

وبتوضيح مكانة هذه الدعامة الطبيعية الثانية (الموضع) بعد أن أوضح مكانة الأولى (الموقع) ينهى هذا الفصل .

وبعد ذلك .. لايعدو الفصل الثالث من هذا الباب (ضبط النيل) أن يكون فصلاً مكملاً لما سبقه ، يحلل فيه أسس البناء الحضارى أو الصرح .. الذى شيدته مصر فوق دعامتين راسختين ، وتحت عنوان « تطور الرى المصرى » (ص ٩٤٤) يتابع مراحل الفن الزراعى . فى رحلة تاريخية كدأبه ، تبدأ من فجر التاريخ فى مصر ، حيث يحددها فى مراحل أربع (ص ص ٩٤٥ ـ ٩٦٧) يضيف خلالها العديد من اللمسات الى قسمات شخصية مصر (الرى الصيفى ، مرحلة الترع بلا قناطر ، مرحلة الخزانات والقناطر ، خزان أسوان ..) منتهيا إلى السد العالى (٩٦٨) الذى يخضعه لدراسة مستفيضة كموضوع شبه مستقل ، يبدأ معه منذ ولد كفكرة ، منتقلا الى تحليل موضعه (٩٦٩) ثم مائيته (٩٧١) ثم هندسته (٩٧٣) ثم نتائجه (.. السد واللاندسكيب ص ٩٧٧) هذه التى يحددها فى ثلاثة (نظام النهر ، البحيرة الصناعية ، نمط العمران ، ص ٩٧٧) ويفصل فى نتائجه المادية والاقتصادية (ص ٩٩٨) مبتدئا بتقرير (.. النتائج الايجابية لا تقل بالطبع عن انقلاب كامل ..) مثبتا ذلك هيدرولوجيا وزراعيا وكهربائيا ، أما آثاره الجانبية (ص ١٠٠١) فيلخصها فى معادلة واحدة (.. أن السد قد استبعد بمجاعة الماء .. مجاعة الطمى ..) بكل مايترتب عن الأخيرة .. من مشكلات تدهور الخصوبة وتآكل السواحل والنحر ونقص المادة اللازمة لطوب البناء ـ وهجرة السردين (ص ١٠٠١) ومن ناحية غير مباشرة .. فالسد قد

جعل من مياه الترع الرائقة مرتعا للنباتات .. التى تفقده نحو ٤٠ ٪ من مياهه (١٠٠٢) كما إنه لايحمى مصر من خطر الفيضانات العالية (وان كان مفيض توشكى قد تكفل بهذه المشكلة) وكذلك فإن مايوفره من مياه .. يدفع إلى الافراط فى الرى (ص ١٠٠٣) كما أدى إلى تفاقم مشكلة الصرف .. بسبب كما سبق (الافراط فى الرى + اختفاء الفيضان ميكانيكيا + نوعية المياه كيفيا) ويقترح مواجهتها بتدعيم نظام الصرف ، وتقوية قناطر النهر وجسوره ، والانتهاء من مفيض توشكى ، والتخصيب الصناعى للتربة ، وحماية سواحل الدلتا من التآكل (ص ص ١٠٠٣ ـ ١٠٠٨) كما يقترح انشاء قناة جانبية لاستعادة الطمى (١٠١١) وفى المحصلة وتحت عنوان « السد فى الميزان » . يرى بأن (السد هو قمة الرى الدائم . وهو بهذا قمة مزاياه مثلما هو قمة عيوبه ، ولهذا فكما أن السد نفسه ليس الكلمة الأخيرة فى الرى المصرى ، فإن المستقبل وحده هو الذى سيقول الكلمة الأخيرة ، والحكم النهائى فى أمر السد ، ص ١٠١٨) .

وبذا ينهى الفصل الأخير (الثامن والعشرين) وكذا الباب السابع .. والجزء الثانى من كتابه الكبير .



شكل (٥) منظومة عناصر شخصية مصر البشرية

ثالثا : شخصية مصر الاقتصادية

بهذا يعنون الجزء الثالث (٩٧٣ صفحة) من كتابه الكبير ، والتكامل مفتاحه .. من بعد (البساطة + التجانس) .. بالنسبة لشخصيتها الطبيعية والبشرية .. على الترتيب ، يضعه فى باب واحد (الثامن ، ص ص ١١ ـ ٩٧٣) ، ويصنفه إلى ثمانية فصول (من ٢٩ إلى ٣٦) ، يخصص الأول منها لتحديد خصائص خريطة الاقتصاد المصرى .. كما أسفرت عنها تطوراتها وتغيراتها .. منذ عهد محمد على .. ومشروعه الاقتصادى الكبير ، ويخصص للزراعة المصرية ثلاثة فصول . (ص ص ١٧٦ .. ٥٣٨) .. عدا ما سبق منها فى الجزء الثانى .. تحت عنوان التجانس المادى (فصل ١٦ ، ص ص ٥٩ ـ ١٦٦) ، رصيدا يعود دائما إليه ، ويخصص للصناعة فى مصر .. أيضا ثلاثة فصول .. تتيح دراستها بقدر مناسب من التفصيل ، من حيث التطور والتوزيع والتركيب الهيكلى والمشكلات ، ثم يخصص الفصل الأخير .. للثروة المعدنية وصناعة التعدين .

●

والتكاملية عنده فى المعنى الأخير .. لا تقتصر على تكامل عناصر البنية الاقتصادية فى المكان .. أى من حيث التوزيع ، بل هى تتواصل بالتطور عبر التاريخ ، وتتوثق وظيفيا بتبادل المزايا والاستثمار .. وإضافة القيمة للزراعة بالتسويق

والتصنيع ، كما تترابط عضويا مع غيرها من مقومات الشخصية المصرية .. تتبادل التأثر والتأثير .. داخل الإطار الحضارى العام ، هى إذن تكاملية متشعبة ممتدة .. جغرافيا وتاريخيا ووظيفيا وعضويا .. فذلك ما يعنيه .. ويسعى لاثباته فى هذا الجزء من مشروعه العام .

ولا تختلف معالجته لشخصية مصر الاقتصادية عن شخصيتها البشرية ، وتتفق نظرتهما إليهما من حيث استنادهما إلى قاعدة طبيعية .. شكلت خصائصهما الأساسية ، بما يعنى أساسا مشتركا لها جميعها ، كما لا تختلف أدواته التحليلية ـ كما تتمثل فى المتابعة والمقارنة التاريخية ، على طول منحنيات تكشف عن بداياتها وتحدد محصلاتها ، متضمنة ذبذباتها وتغيراتها ، وما تنطوى عليه من نقاط الضعف والقوة ، وهى أيضا لا تختلف من حيث نحت الصياغات الرامية إلى تلخيص نتائجها .. فى عبارات مشحونة بفكره ، بمثابة أوتاد يرتكز عليها ويعود إليها ، وهى أخيرا لا تختلف من حيث الرؤية للنظرية العامة .. الهادفة إلى التوصل لمحاور التوازن بين مكونات هذه الشخصية بما يسمح لطاقاتها أن تتفاعل وتتواصل وتتصاعد .. دون أن تختل علاقاتها أو يتهتك نسيجها .

وبقدر ما استوعبت مقولته الأساسية عن "التجانس" .. عناصر شخصية مصر البشرية .. وأبرزت مضمونها ، بقدر ما عبرت مقولته الأساسية فى هذا الجزء عن "التكامل" ..

واتسقت مع عناصر شخصيتها الاقتصادية ، والواقع أنه لم يستغنى عن التجانس اطلاقا .. بل جعل منه قاعدة للتكامل لا غنى عنها ، ومن هنا فإنه يستهل تحليل لشخصية مصر الاقتصادية بعنوان له دلالته (جـ ٣ ص ١٣) عن "الأساس الطبيعى للاقتصاد المصرى .. باعتباره لحن القرار فى عمله كله ، مرددا عبارة تكررت كثيرا عن أحادية بيئة مصر المعمورة .. مضيفا إليها (.. وقد انعكس هذا على الاقتصاد المصرى .. فكان هو الآخر أحاديا زراعيا) ، وبذا تتكامل أيضا نظريته العامة عن شخصية مصر .. من الجذور الطبيعية (النهر والبيئة الفيضية) .. إلى الجذع البشرى (الريف) .. إلى الفروع والثمار ، وبعد أن يطمئن إلى سلامة البناء .. ينطلق إلى التفصيلات .. متابعا التغيرات الكمية والنوعية ، ومحددا المحصلات الراهنة .. ومشيرا الى مقومات تطويرها فى الختام .

أبعاد التطور الاقتصادى :

كما سبق .. فإنه يخصص الفصل الأول من هذا الجزء (فصل ٢٩ ص ص١٧ ـ ١٧٥) كما يعنونه بـ "خريطة الاقتصاد المصرى" ، يبتدئها بقراءة "تفوز الاقتصاد الحديث" .. يمهد لها بتحديد خصائصها التى ارتبطت به منذ وجدت .. وحتى بدأت .. تطورها الحديث (.. جوهر الزراعة المصرية تاريخيا .. يتمثل فى كونها معاشية Subsisfemce

ecomomy أى غذائية كسائية ، ثم هى مغلقة اكتفائية ـ تهدف لتحقيق الكفاية الذاتية .. وليس التبادلات التجارية ، ص ١٣) ، وكانت التجارة محدودة .. قد أضعف منها .. ضرائب الدولة المركزية .. التى كانت تنزح النسبة الكبرى من فوائضها .. إلى مخازنها لتحقيق أهدافها ، ورغم ما أفضى إليه ذلك من اعاقة النشاط التجارى والصناعي ، الا انه قد حقق نوعا من التوازن .. كفل لهذا المجتمع الوجود والاستمرارية التاريخية (.. ان الاقتصاد الزراعى يبقى بلاشك .. الأساس المادى الصلب لقوة مصر التاريخية .. ورخائها وتفوقها ، وكونه إكتفائيا هو نقطة قوة .. ولا يجوز أن يعد نقطة ضعف .. كما يظن الذين ينظرون غير منصفين بمنظور اليوم ، ص ١٤) ، وسيعود إلى هذه النقطة عندما يناقش قضية الكفاية الذاتية ـ التى تعد الآن من أهم مشكلات مصر ، غير أن استمرارها كنقطة قوة . يجب أن يقترن بتنميتها وتطويرها .. وتنويعها ومضاعفة فوائضها ، بحيث تؤدى إلى دوائرها التكاملية ، هذه التى تتمثل فى دائرة الصناعة الوطنية .. ودائرة التجارية الخارجية ، دون أن يكون ذلك على حساب الكفاية ، أى دون أن يختل التوازن بين الدوائر الاقتصادية الثلاث للزراعة (الكفاية + التجارة + الصناعة) ، ويعود إلى معادلته الأساسية (الموضع × الموقع) فى شخصية مصر ، حيث يرى أن مصر (لم ترتفع تماما إلى مستواها .. من حيث استغلال موارد الموقع .. بالتجارة أساسا .. إلى القدر الذى وصلته بالزراعة فى

استثمار موارد الموضع ، ولو قد فعلت لتغير اقتصادها .. وبالتالى كيانها جذريا ، ولعاشت تاريخها منذ وقت مبكر على ساقين من الزراعة والتجارة .. بدل ساق الزراعة الأحادية ، بل ولا تفتح بذلك وبعد ذلك أيضا .. مجال الصناعة .. كما حدث فى أوربا ، ولتغير اختصار كل تاريخها ومصيرها على الأرجح ، ص ١٦) .

بهذا يضع يده على جذور المشكلة الاقتصادية المصرية المعاصرة ، واذا كانت مصر قد دخلت منذ القرن الماضى .. مرحلة من التطور الجذرى .. فانها جاءت متأخرة .. فضلا عن أنها اضطرت (لاقتراض اقتصادها الحديث من أوربا ، ص ١٦) .. مما سيؤدى رغم المحصلة الايجابية .. إلى مشكلات متفاقمة كما سيأتى .

والآن .. وقد بدأ الاقتصاد الحديث منذ أوائل القرن الماضى .. مع انقلاب الرى والزراعة .. فهل يمكن تقسيمه منذ بدأ إلى مراحل متمايزة ؟ ، ويجييب .. (.. يمكن أن نقسمه إلى ثلاث مراحل . مرحلة الاقتصاد الانقلابى .. نسبة إلى انقلاب محمد على ، فالاقتصاد الاستعمارى .. مع الاستعمار البريطانى ، والاقتصاد الثورى .. مع ثورة يوليو ، ص ١٧) ، وقد أدت جميعها إلى تغير الاقتصاد المصرى تغيرا جذريا .. يصفه بأنه (.. يكاد يصل الى حد الانقلاب الكامل ، ص ١٧) ، ويفيض بعد ذلك فى تحليل خصائص كل مرحلة منها ، ويحدد فى سياقه .. ما يعتبره نقطة التحول

الكبرى فى تاريخ مصر الاقتصادى .. تلك هى (الحرب العالمية الثانية وما تلاها ، ص ١٨) ، هى الحد الفاصل بين ما يسميه الاقتصاد القديم .. بما فيه عصر محمد على وما أعقبه من تغيرات شملت الزراعة والتجارة ، وحتى نقطة التحول ، التى يبدأ بها الاقتصاد الجديد .. ومحوره الصناعة ، ويكثف تحليلاته ومتابعاته (.. الاقتصاد القديم أولا .. كان اقتصاد زراعة أساسا ، وزراعة محصول واحد ، بهدف الكفاية ثم التصدير منذ عصر محمد على تحديدا وصناعة محدودة ، وصناعة بلا معادن تقريبا ، وارتد الاقتصاد زراعيا فحسب . ولكنه اكتفائى تماما .. معظم المرحلة الاستعمارية ، أما الاقتصاد الجديد .. فيكاد يكون الآن اقتصاد صناعة أولا .. وزراعة فى المحل الثانى ، وزراعته زراعة تصنيع بدل التصدير ، الا انها غدت بعيدة جدا عن الكفاية ، أما صناعته فصناعة إحلال محل الاستيراد ، ولأول مرة صناعة وتعدينا معا .. لا صناعة بلا معادن ، ص ١٩) ، وتنطوى هذه الفقرة المكثفة .. على جملة المنحنيات التى يتابع عليها تطور الاقتصاد المصرى ، ويستند إليها فى معظم تحليلاته التالية .. فى فصول الباب الثامن من كتابه ، ويعود إلى هذا الاقتصاد الجديد فى سياق آخر ، يكشف فيه عن مقوماته وعيوبه .

.. ويتلخص جوهر الاقتصاد الجديد فى أنه جمع لأول مرة بين ثلاثة أبعاد أساسية : الزراعة الكثيفة ذات المحاصيل الجديدة التجارية ، والصناعة الحديثة على أسس عصرية

عريضة ، ثم أخيرا التجارة الخارجية التى تربط بين الزراعة والصناعة ، وتربطهما بالسوق العالمية الجديدة ، وبذلك كله لم يعد الاقتصاد المصرى أحاديا بصورة معوجة تماما مثلما كان من قبل ، كما كان فى ذلك بداية ارتباط الاقتصاد المصرى كله بالاقتصاد الغربى أو الأوربى العالمى (حـ ٣ ص ٢١) .

فإذا أضفنا إلى هذه الثلاثية الأساسية .. ثلاثية البترول وثروته التى احتلت صدارة الاقتصاد كله ، ثم تحويلات المصريين الرافدة من خارج الحدود ، فضلا عن موارد السياحة ، لصح ان نقول ان شجرة الاقتصاد المصرى المعاصر .. ان لم تكن بمثابة شجرتين توأم ، فإنها أجدر أن تشبه بالنخلة : الزراعة جذورها ، والصناعة ساقها ، والتجارة فروعها ، بينما أن البترول والتحويلات والسياحة عراجينها (جـ ٣ ، ص ١١١) .

وبوجه عام فإن هذا الاقتصاد الجديد بجوانبه .. كان على ضخامته أشبه بقطاع عصرى فرض فرضا على قاعدة اقتصادية تقليدية عتيقة ، بلا علاقات عضوية وثيقة تماما ، ولذلك كان اقتصادا ثنائيا Duel ecomomy بمعنى تعايش صرح عصرى مع قاعدة عتيقة .. فى حالة تجاور أكثر منها حالة تفاعل (جـ ٣ ص ٢١) .

هذا البناء الضخم يعانى من الأساس إلى الصرح العديد من العيوب والثقوب ، والشروخ والشقوق بعضها موضعى ثانوى وبعضها عميم خطر ، ولكنها فى مجموعها تتركه

مخلخلا ، وبعض هذا الخلل كامن فى تركيب وهيكل الاقتصاد نفسه ، وبعضها تراكمى فى تطوره ونموه غير المتكافىء أو المتوازن ، غير انه على الجملة يترك الاقتصاد كله زاخرا بالمتناقضات والتشوهات والتقلصات الغريبة ، ص ١١١) ، هذه التى تفاقمت مع التحول الحاد المفاجىء . .. المتمثل فى الانفتاح فى سياسة الدولة الاقتصادية العامة ، ويؤكد الصورة (.. وجماع ذلك فى المحصلة العامة ، هو أن مصر تحولت ببساطة من الاقطاع القديم إلى الرأسمالية الفردية ، عبر مرحلة انتقالية من رأسمالية الدولة أو الاشتراكية الحكومية ،   ) ، ويتخذ من هذا الميراث المعقد المتناقض ـ مدخلا كما سيأتى ـ لتحديد مشاكلها الاقتصادية العديدة .

والواقع أنه يوجه عنايته فى الفصل الأول من جزئه الرابع (فصل ٢٩ ص ص ١٧ ـ ١٧٥) ، إلى تغيرات الاقتصاد المصرى .. بعد ثورة يوليو بصفة خاصة (مرحلة الاقتصاد الثورى ، ص ٤٤) ، فبعدما ينتهى مما قبلها .. يتوجه لها .. بفقرة مكثفة تكشف نظرته ومدخله .. ثم يتابعها تفصيلا .. (.. ففى الاقتصاد .. كما فى السياسية .. جاء يوليو بمعطيات جديدة ، أقلها ما تحقق .. وأكثرها ما تحقق عكسه ، بحيث انقلبت هى على نفسها ، وانتقلت من النقيض إلى النقيض تماما ، ص ٤٤) ، ويضيف (.. لكنها لا تخلو مما يجعلها موضوعيا .. شبه ثورة اقتصادية حقيقية بمعنى ما ، ص ٤٥) . ويقسمها إلى مرحلتين (الانطلاق والانزلاق .. بديلا عن الانغلاق والانفتاح ، ص ٤٦) . على طرف

النقيض ، تشغل كل منهما نصف المرحلة تقريبا ، ويحدد ايجابيات الأولى .. فى سعيها نحو الاستقلال الاقتصادى (ص ٤٧) ، ومحافظتها على الأمن الغذائى والصناعى (ص ٥٠) ، واعتصامها بالاستقلال المالى (ص ٥١) ، وهى بذاتها سلبيات المرحلة الثانية ، مدعما مقولتيه بالمؤشرات الاحصائية .. المستندة إلى أرقام الجداول ، كما يتخذ من الاصلاح الزراعى فى المرحلة الأولى (ص ٥٧) مقياسا يجرى عليه مقارناته ، ويربط ما بين دور البترول العربى وبين التحول للمرحلة الثانية (الانفتاح) .. أو الانحراف نحوها على حد تعبيره ...

(... من المحقق أن البترول العربى .. ممثلا فى تحويلات المصريين العاملين فى دولة ، فضلا عن تأثيراته وانعكساته وعدواه هو الذاتية ، خاصة بعد طفرة عائداته الخرافية منذ ١٩٧٣ ، كان أكبر عامل خارجى منفرد أثر فى الاقتصاد والمجتمع المصرى مباشرة وغير مباشرة ، مثلما كان أكبر عامل منفرد فى توجيه ... أو ان شئت فقل تحريف - سياسة مصر الخارجية تجاه العدو الاسرائيلى ، وبوضوح أكثر .. البترول العربى عامة هو أكبر سبب فى انحراف السياسة المصرية خارجيا نحو السلام ، وتحويلات البترول العربى خاصة هى أكبر سبب فى انحراف الاقتصاد داخليا نحو الانفتاح .

وعلى الجملة .. فإن البترول العربى بحد ذاته وبتحويلاته .. قلب كيان مصر رأسا على عقب وحتى النخاع

مرتين ، من الخارج ومن الداخل .. أفقيا ورأسيا ، خارجيا .. اذ قلب مكانة مصر فى العالم العربى من الصدارة والعروبة والصراع إلى الصلح والعزلة والعراء ، وداخليا : حيث قلب جزئيا نظام الطبقات وترتيبها الاجتماعى ، فجعل بعض عاليها وسطها ، وبعض وسطها سافلها ، وبعض سافلها وسطها أو عاليها ، ص ٦٥) .

ومع "الاصلاح الزراعى" كمؤشر ايجابى عن المرحلة الأولى ، ودور البترول كمؤشر سلبى عن المرحلة الثانية ، يجرى نوعا من المقابلة المقارنة بين التنمية الصناعية الانتاجية ، واستهلاكية الانفتاح الاقتصادى (.. ففى عصر أصبحت فيه القوة الصناعية هى نواة وعتاد وزناد القوة الاقتصادية الضاربة ، كان من الضرورى تحقيق الأمن الصناعى كجزء من الأمن الاقتصادى العام ، ولعل هذا أن يفسر الاصرار على إقامة نواة للصناعة الثقيلة بحسبانها أساس الصرح الصناعى برمته ، جنبا الى جنب مع القطاع العام كصاحب الدور القيادى فى التنمية جميعا .

ورغم أن الاستقلال الصناعى الكامل أو شبه الكامل لم يكن واردا ، فإن القطاع العام الجديد مع بداية التخطيط - على علاتهما - أثبت قيمة كبرى حين ساعد بصورة عملية على صمود مصر سياسيا واقتصاديا بل وعسكريا.. فى وجه الضغوط الخارجية العنيفة .. خاصة بعد هزيمة يونيو .. حـ ٣ ص ٥١) .

(.. ورغم أن سياسة الانفتاح انما فرضت لتنشيط ودفع الاقتصاد الوطني في مجمله ، فإن سياسة الباب المفتوح والاغراق بالاستيراد ، وتشجيع القطاع الخاص والرأسمالية الوطنية ورأسمالية الشركات متعددة الجنسيات .. أصابت الصناعة الوطنية والقطاع العام .. بنكسة خطيرة على أقل تقدير ، أبسط مظاهرها مخزون الراكد الصناعى الذى قدر بنحو ٣ ـ ٤ آلاف مليون جنيه ، كما انعكس فى تراجع كثير من خطوط الصناعة المحلية فى التصدير بما فى ذلك حتى غزل القطن ومنسوجاته ، وحتى القليل من الصناعات التى دخلها الانفتاح اتجه الى الصناعات الكمالية ولا نقول الطفيلية كالغازيات والمرطبات ، بالمقارنة إلى الصناعات الهامة كالنسيج والسكر والحديد ، بينما هرول أكثره إلى النشاطات غير الصناعية أصلا ، كالأعمال التجارية والخدمات العامة .. سريعة الربح والعائد ، جـ ٣ ص ص ٥٥ ـ ٥٦) .

●

وتحت عنوان "أزمة مصر الاقتصادية" .. التى يصفها بأنها تبدو (.. مثل كومة معقدة من الخيوط المتشابكة .. ، ص ١١٩) ، ثم يحصرها فى خمس مشاكل محددة :

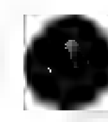
- الانفجار الإستهلاكى (ص ١١٩)
- التضخم : الانتاج والدخل القومى والفردى (١٢٥)
- الديون الخارجية (ص ١٣٠)
- المرافق والخدمات (ص ١٣٥)
- الغلاء (ص ١٣٦) .

وبعدما يتابع كل مشكلة منها تاريخيا وتحليليا ورقميا .. يضع عنوانه الختامى فى هذا الفصل (مفاتيح الأزمة ص ١٤٦) ، مقررا .. (.. ورغم كل ما سبق ذكره .. فان أزمة مصر الاقتصادية قابلة للحل .. وذلك فى اطار سياسة قاطعة صارمة .. تهدف الى تعظيم الايجابيات وتحجيم السلبيات فى الهيكل الاقتصادى الراهن ، تعظيم الادخار والاستثمار والانتاج والدخل القومى والفردى إلى الحد الأقصى ، وتحجيم الانفاق والاستهلاك والاستيراد والاستدانة ، ويمكن أن نضيف الأسعار بل والسكان الى الحد الأدنى ، ص ١٤٩) ، ويؤكد (.. تستطيع مصر أن تضاعف دخلها القومى مرات .. وذلك بالتصنيع الكامل لكل زراعتها وخاماتها وانتاجها .. بالاضافة إلى الخدمات العليا ..) ، وهكذا يجعل من التصنيع مفتاحه الرئيسى لحل الأزمة ، مدعما ذلك بمقارنة دالة بين الوضع فى مصر .. وبينه فى كل من الصين واليابان (ص ص ١٦٠ ـ ١٦٤) ، ويضيف إلى التصنيع . المجال السياحى (١٦٨) ، وتطوير التجارة .. وخاصة فى مجال النقل البحرى (١٧٤) ، وغير ذلك مما يضيفه تباعا تفصيليا فيما يعقب هذا الفصل من فصول .

الزراعة المصرية :

يفرد الفصول الثلاثة التالية (٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ص ص ١٧٦ ـ ٥٣٧) للزراعة المصرية وحدها ، يغطى بها تغيرات

مركبها المحصولى أولا ، ثم تكثيفها مكانيا ونمو متوسطاتها الانتاجية (التوسع الرأسى) ثانيا ، ثم تغيرات مساحتها (التوسع الأفقى) .. ثالثا ، مستندا فى تحليلاته الى ما سبق تحديده .. من منحنيات التطور الاقتصادى العام .. فى مقوماته ودوافعه ، سواء منحنى التطور من الاقتصاد المعيشى .. إلى اقتصاد الفائض والتراكم ، أو منحنى تغير المرتبة بين الزراعة والصناعة .. فى الاطار الهيكلى .



ويأتى الفصل ٣٠ (ص ص ١٧٦ ـ ٣٥٠) .. تحت عنوان "الزراعة المصرية .. من الخريطة الى التخطيط) ، ويعنى بذلك تطور الزراعة المصرية من التلقائية الحرة التى عرفتها مصر طوال تاريخها ، لا تضبطها سوى ظروف بيئتها وحدها .. وبها تشكلت عضويا وايكولوجيا معا ، إلى نوع من التخطيط الموجه فى اطار سياسة عامة توضع لها ، تحدد مساحات محاصيلها ونوعيتها .. بدرجات متفاوتة ، كما تضع لها السياسة التسويقية لبعضها .. فى أعلى درجات تداخلها .. فى إطار تنظيمها ، ويبدأ تاريخيا مع ثورة يولية .. التى جعلت من التخطيط القومى بعدا ثالثا فى سياساتها للتنمية (ص ٤٦) ، والواقع أن الخط الفكرى للفصل يتمحور حول مقومات الاستمرارية الايكولوجية فى الزراعة المصرية من ناحية ، ودوافع تنظيمها فى اطار خطة عامة . من ناحية ثانية ، ومن ثم دار موضوعه حول المركب المحصولى .. باعتباره مرآة عاكسة .. لمحصلة الاستمرارية والتنظيم معا ،

ومن ثم الكشف عما تنطوى عليه هذه المحصلة .. من مشاكل مزمنة بسبب الاستمرارية ، أو طارئة متفاقمة .. بحكم التنظيم .. سواء كفكرة أو أجهزة .

وبعد متابعة قصيرة .. لتغير المركب المحصولي فى مصر التاريخية إلى عصر محمد على وما بعده ، يفيض فى متابعة تغيراته فى العقود المنصرمة الأربعة ، ويتمثل أبرزها فى اعادة ترتيب مكوناته (.. تراجع القمح ، وتقدم القطن والذرة والقصب والأرز والبستانيات ، واستمرار البرسيم كقاعدة ، يستند اليها هرم الزراعة المصرية بأسره ، ص ١٨٣) ، ويضيف .. (.. كقاعدة عامة يمتاز المركب المحصولى المصرى بقدر معتدل من المرونة ، ومنذ اتخذت هيكلها الأساسى .. فان عناصرها تدور حول متوسطها تقريبا ، لكنه يتعرض منذ السبعينات .. لما يشبه الشذوذ الانحرافى عن هذه القاعدة ، ص ٢٠٧) ، ويعود ويقيم وضعها فى نظرة شاملة (.. إن أبرز ما يميز المركب الزراعى قيم متغيرة .. إن لم نقل متذبذبة ، تضع الزراعة المصرية جميعا فى حالة سيولة وانصهار بالغة ، a skate of flux ، تجعلها فى مفترق طرق حقيقى ، وربما تاريخى ، بحيث لا يمكن التنبؤ بهيكلها فى المستقبل المنظور) ، ويخصص نظرته بالنسبة للسبعينات .. (.. ثمة مع ذلك .. خاصة فى العقد الأخير ، تطورات واضحة وقيم متغيرة فى مساحات المحاصيل المختلفة ، وفى أهمياتها النسبية ، تشى فى مجموعها بانقلاب صامت فى الزراعة المصرية ، والواقع ان زراعتنا تمر حاليا

بمرحلة مخاض وتطور وتغير حرجة بقدر ما هى حاسمة ، وربما تتسارع وتتصاعد أكثر فى المستقبل القريب ، ولا ينبغى فى كل الأحوال لقربها منها أو لقربنا منها ان تغيب عن عين الباحث الملاحظ ، ويكمن السد العالى بالقوة أو بالفعل خلف هذه المرحلة ، ولكن جزئيا فقط ، فرغم أنه أحدث ثورة كاملة فى الرى ، الا ان ثورة مماثلة وعلى نفس المستوى فى الزراعة نفسها لم تواكبه ، ص ٢٠٧) ، بل انها تعرضت لثورة مضادة .. اصابتها بما يسميه "الشذوذ الانحرافى" عن دورها الأساسى ، ويعود بهذا الشذوذ إلى سياسة الدولة الزراعية .. من اخضاع محاصيل بعينها للتسعيرة الحكومية ، وفرض نظام التسويق بالتوريد ، مما أدى الى تهرب الفلاح من زراعتها (.. انها ليست محاصيله .. بل محاصيل الحكومة ، ص ٢٠٩) ، ومن ناحية ثانية .. فقد حدث تحول (من زراعة الألياف إلى زراعة الأعلاف) استجابة لقوى الطلب الاستهلاكى المتنامية على اللحوم .. فى عصر الانفتاح ، مقترنة لذات الأسباب (.. بموجة غامرة من التحول إلى المحاصيل البستانية .. لتحقق ربما أكبر ربحية متاحة فى مجال الزراعة ، ص ٢١١) ، يدل على هذا التحول .. (انها تحقق نحو ١٠ أمثال القطن أحيانا ، ص ٢١١) ، ويضع على الفور الخطوط تحت المشكلة الام فى الزراعة المصرية .. وتتمثل فى (.. اشتداد قصورها عن حد الكفاية الذاتية ، وخاصة الكفاية الغذائية ، وبرزت بحدة مشكلة الفجوة الغذائية ، وتحولت مصر لأول مرة فى تاريخها الحديث ..

وربما تاريخها كله .. إلى دولة مستوردة للغذاء والحبوب ، بل لقد وصل الاعتماد على الخارج الى نصف حاجاتنا الغذائية ، والى نحو ثلاثة أرباع استهلاكنا بالذات ، لقد انتفى الأمن الغذائى مثلما انتهى الاستقلال الاقتصادى ..) ، وسيعود إلى هذه المشكلة تكرارا وبالتفصيل .

الموارد الرعوية والأسماك :

وتقتضيه مشكلة الغذاء - أن يتابعها بالنسبة للموارد الرعوية والأسماك ، فمصر فقيرة فى مواردها الحيوانية .. (.. مصر بالجغرافية ليست دولة رعى ومراعى ، ص ٢٥٧) ، ومن الناحية الاقتصادية .. فقد كانت النظرة لانتاجها الحيوانى .. على انه مجرد مكمل ثانوى .. أو تذييل للزراعة والانتاج الزراعى ، غير أنها تغيرت فى عقود السنين الأخيرة .. (.. لقد تضاعفت كثافة الحيوان بالنسبة الى المساحة الزراعية .. خلال ربع القرن الأخير تقريبا ، من ٤١ رأسا لكل ١٠٠ فدان سنة ١٩٤٥ ، إلى ٧١ رأسا فى ١٩٨١ ..) ويعقب (.. غير ان هذه الزيادة لا تعكس نمو الثروة الحيوانية .. بقدر ما تعكس جمود الرقعة الزراعية ، ص ٢٥٧) ، والأهم أن الفارق بين الانتاج والاستهلاك .. يعكس استمرار انخفاض الكفاية الذاتية (.. والمشكلة الغريبة والمزعجة حقا .. أن من الأوفر اقتصاديا ان نستورد ما نحتاجه من الانتاج الحيوانى .. من أن ننتجه ،

ص ٢٥٩) ، ويقدم الحل فى سياق آخر (.. والمفتاح الصحيح .. ان مصر انما جعلت لتكون مزرعة دواجن عظمى Poultry Farm ، أكثر منها مزرعة حيوان dairy Faym ، ص ٢٣٥) .

وبالنسبة للموارد السمكية (.. فرغم تضاعف انتاج مصر خلال العقدين الأخيرين .. الا انه مايزال دون امكاناتها واحتياجاتها ، ص ٢٦١) ، وبعدما يتابع احصائيا تطور انتاجها فى السنين الأخيرة ..
يقرر .. (.. ومن الواضح فى النهاية أن مصر رغم كل سواحلها وبحارها ونهرها وبحيراتها ، غير "سماكة" ، أى فقيرة جدا فى الثرة السمكية بالمستوى العالمى ، فانتاج الفدان المائى عندنا ٢٠٠ كجم سنويا مقابل ٨ أطنان فى بعض الدول فى الخارج .

ومن هنا فإن الأمل فى توفير الغذاء البروتينى الرخيص الغزير معقود على الأسماك فى الدرجة الأولى ، غير ان هذا لا يتأتى الا بتثوير الانتاجية وظروف الاستغلال وفتح أو غزو مصايد جديدة ، والاتجاه الآن هو الى التوسع فى مزارع الأسماك .. خاصة حقول الأرز كالصين ، ومن الممكن ان يصل انتاجها الى مثل انتاجنا الحالى على الأقل ، ويرى البعض اننا نستطيع وينبغى أن نستزرع ١٥٠ ألف فدان بالمزارع السمكية ، مع استخدامها فى الوقت نفسه كمزارع للأرز ، تعادل مليون فدان مساحة محصولية ، وتنتج ٢٥٠

ألف طن سمك سنويا ، قابلة للزيادة ، وفى مشروع اخر ان تستزرع السمك فى مليون فدان أرز دفعة واحدة ، بمحصول قدره ١٠٠ كجم للفدان سنويا ، وهناك أخيرا فكرة لانشاء أحواض سمكية مغلقة على طول امتداد ضفاف النيل لتربية مكثفة واقتصادية ورخيصة ، وخاصة على ضفاف بحيرة ناصر ، حيث يمكن للأخيرة وحدها أن تغل ٨٠ ـ ١٠٠ ألف طن سنويا ، ص ٢٦٢) .

ويعود إلى القضية المؤرقة (قضية الكفاية الذاتية ، ويشبعها تحليلا وتفصيلا الى نهاية الفصل (ص ص ٢٦٣ ـ ٣٥٠) .

من الكفاية إلى العجز :

انه لا يكف عن وضع الخطوط أسفل "قضية الكفاية الذاتية" .. خاصة الغذائية ، محددا خطورتها فى أن مصر. تستورد نصف احتياجاتها الغذائية إجمالا ، وثلاثة أرباع احتياجاتها من القمح تقريبا ، بينما كانت تقليديا وحتى الحرب العالمية الثانية تتمتع عادة وعامة بالكفاية الذاتية فى معظم محاصيلها ، مع فائض قل أو كثر للتصدير ، وهى اذ فقدت كلية هذه الميزة .. فقد ضاعت أيضا فرصتها بالعودة إليها ، اذ تحولت الى دولة مستوردة للغذاء نباتيا وحيوانيا بصورة مخيفة (ص ٢٦٣) ، إنه الشذوذ الانحرافى الذى سبق وحدده ؛ ويؤكد مرة اخرى متسائلا (.. والسؤال الآن : من أين وكيف نشأت هذه الفجوة الغذائية ؟ ص ٢٦٥) .

تتعدد بالطبع الأسباب .. يتصدرها اختلال العلاقة بين الانتاج والاستهلاك (.. أو بين الزراعة والسكان ص ٢٦٤) ، فقد تعرض الانتاج الزراعى للجمود .. بحيث لم يعد معدل نموه السنوى يجاوز ٣٪ فى الفترة الأخيرة ، بينما يتزايد استهلاك الغذاء كل عام بمعدل ١٢,٥٪ على الأقل (ص ٢٦٥) ، وبعد الجمود تأتى نقطة الضعف الثانية فى الزراعة متمثلة فى اختلال المركب المحصولى ، نتيجة اختلال النظام السعرى برمته ، مما دفع ويدفع بالمركب الى التحيز الطاغى الى محاصيل معينة من جهة ، ويخلق اختناقات حادة فى محاصيل بعينها من جهة أخرى (ص ٢٦٥) ، ويعود الاختلال الى تزايد التوجه نحو مجاصيل العلف المرتبطة بانتاج اللحوم والألبان ، وكذلك إلى المحاصيل البستانية ، فى مقابل الهروب من المحاصيل المسعرة عشوائيا ، والغير عادلة ، والتى لا تؤدى - حتى القطن - الا الى هامش ربح ضئيل ، خاصة هذه التى تشتريها الحكومة من الفلاح بنصف سعرها فى السوق ، وبذا لم يعد المركب المحصولى يعبر تعبيرا حرا طبيعيا وصحيا وتلقائيا تماما عن القوى الجغرافية السوية ، بقدر ما يعبر عن قوى اقتصادية غير قويمة أو سوية (ص ص ٢٦٥ - ٢٦٨ جـ ٣) .

وبالنسبة للسكان .. تتعدد أيضا ظواهر الاختلال ، يتصدرها الانفجار السكانى ، وتطور أنماط الاستهلاك ، والهجرة من الريف ، والانفجار الاستهلاكى المرتبط بالبترول (ص ص ٢٦٨ - ٢٧٨ جـ ٣) ، وتعد القرية المصرية نموذجا

للمشكلة بأكملها .. وأيضا لظواهر الاختلال (... ولعل أسوأ ما يعبر عن موضوع أزمة القرية المصرية الراهنة .. هو تحولها من وحدة منتجة تقليديا .. إلى وحدة مستهلكة باطراد ، فبعد أن كانت القرية تغذى نفسها والمدينة ، الاستهلاك المحلى والصادر الى الخارج ، أصبحت تستورده بعض غذائها من المدينة ، والمدينة نستورده لها كما لنفسها من الخارج ، بما قد يتيح تقسيم تاريخنا الاقتصادى الحديث من حيث الكفاية الغذائية إلى ثلاثة مراحل عامة وعريضة ، مرحلة فائض غذائي وتصدير الى الخارج ، ثم مرحلة اكتفاء تقريبا مع تصدير .. ولكن لا إلى الخارج .. وانما من القرية إلى المدينة ، ثم أخيرا مرحلة العجز الغذائي والاستيراد من الخارج للمدينة أولا ـ ثم لكل من المدينة والقرية على حد سواء ، ص ٢٨٠) .

فما حجم هذه الفجوة الغذائية الآن ؟

إنه يقدر هذه الفجوة بشتى أساليب التقدير ، بالأثمان والأحجام والعلاقة بين الصادرات والواردات (ص ص ٢٧٠ ـ ٢٧٧) ، ثم يوجزها فى أبسط صورة ممكنة بما يسميه «المساحة المستوردة" .. حيث يقدرها بما يعادل المساحة المزروعة فعلا .. أى ان مصر تحتاج الى مساحة زراعية تعادل مساحتها الراهنة ، كى تسد فجوة عجز انتاجها الغذائى عن كفايته (ص ٢٧٧) .

ومن بعد .. فما هى الحلول المطروحة لحل المشكلة ؟ . وما هى احتمالاتها ؟

تأتى مناقشة هذه الحلول والاحتمالات تحت عنوان "أمل المستقبل" (ص ٢٨٦) ، ويستبعد منها "القمح" بداية (إذ لا أمل زراعيا . ولا جدوى اقتصاديا فى تحقيقه على أية حال .. ص ٢٨٦) ، بل ويضيف اليه بقية الحبوب (.. الكفاية فى الحبوب مستحيلة تقريبا .. ولعلها غير مطلوبة عمليا ، ص ٢٨٨) مفسرا ذلك بارتفاع تكلفة انتاجها ـ بالمقارنة مع غيرها ، ومن العبث اهدار أرض مصر الخصيبة فى زراعتها ، والأولى زراعة غيرها العالية الثمن ، بما يمكن من شرائها واستيرادها .. مع تحقيق وفورات كافية ، ثم يرتب ما يراه ممكنا ومجديا ، ويتمثل فى التوسع الرأسى الذى يمكن أن يسد الفجوة الغذائية (الحبوب) بمقدار النصف (٢٨٨) .

ويضع الخطوط سميكة أسفل "ترشيد الفاقد" (٢٨٩) ، حيث تهدر مصر بسببه ما يعادل بضعة ملايين من الأفدنة المحصولية (٢٩٠) ، ويعدد بالوعات الفاقد واسبابه ، بداية من سوء التخزين .. إلى القوارض من الجرذان .. ولصوص البشر (٢٩٢) ، ويقيمه كميا بالنسبة لكل محصول على حدة ، متابعا عملية انتاجه من بذره إلى حصاده ، ومن الحقل إلى السوق أو الصومعة ، ومن بعد يقرر (.. وكصورة عامة جامعة .. ثمة تقدير حديث لفاقدنا الغذائى والزراعى .. يغطى الانتاج المحلى والمستورد على السواء ، فالأول .. يضيع منه ويتلف ١٠٪ على الأقل ، حسب هذا التقدير ، ويمكن تقدير فاقد الحبوب بقرابة المليون طن ، والقصب مثلها ، وجملة

المحاصيل الغذائية النباتية بحوالى ٣,٨ مليون طن ، أما الانتاج الحيوانى والسمكى .. فلا يقل فاقده عن نصف مليون طن ، وبذا تبلغ جملة فواقد مصر من الانتاج المحلى بقرابة ٤,٣ مليون طن سنويا ، بخلاف قيمة النواتج الجانبية والثانوية لتلك المحاصيل ، عدا الواردات الغذائية .. التى لا تفلت هى الأخرى من الفاقد والتبديد ، ص ٢٩٣) .

وتبعا لخطته .. يأتى ترشيد الفاقد .. قبل تخطيط الزراعة (.. ذلك الفاقد الذى يسخر من عملية الانتاج نفسها ، مثلما يسخر من عملية تخطيطه . قبلها أو بعدها ، حيث يبدو معها كمن ينفخ فى قربة متقوبة ، ص ٢٨٩) ، ومن ثم يأتى عنوانه «التخطيط الزراعى" .. (ص ٢٩٣) .. تاليا لتوصيته بترشيد الفاقد كما سبق .

التخطيط الزراعى

نظريا .. فإن قضية التخطيط للزراعة المصرية .. قضية معقدة مزمنة ، أشبه بمعادلة متعددة الأطراف ومتشابكة ، ولكنها باعتبارها قضية أمن قومى .. تستحق المحاولة ، فى اطار من الاستراتيجية العملية المباشرة (.. وتطبيقيا فان لب استراتيجية الزراعة تتلخص فى التعظيم Maximisation الانتاج ، يعنى تحقيق أكبر قدر من الاستثمار والاستغلال للمواد المتاحة بأكبر طريقة اقتصادية ممكنة ، سواء ذلك كما أو كيفا ، سلعية أو نقديا ، داخليا أو خارجيا ، وبصيغة مكثفة وأكثر تحديدا ، فان المطلوب هو الكيف قبل الكم فى الزراعة ،

أكبر محصول من أقل مساحة ، أكبر انتاج حيوانى بأقل علف ، وأكبر عائد بأقل تكلفة .

ويستدعى هذا الهدف تطبيق المبادىء الأساسية الثلاثة المقررة فى استغلال الأرض وتخطيط الموارد عموما .. وهى الاستغلال الأعظم Maximum use والاستغلال الأنسب Optimum use والاستغلال المتعدد multiple use ، وبهذا الشكل تتحدد عناصر تخطيطنا الزراعى فى أربعة تتداعى منطقيا كما يلى : (٢٩٦)) :

★ تخطيط الهيكل المحصولي .
★ التوسع الرأسى .
★ تخطيط الأرض .
★ التوسع الإأفقى .

ويستغرقه تحليلها فى اطار مبدأ عام يقرره (.. ينبغى أن تكون البوصلة الموجهة .. هى كيفية تحقيق الحد الأقصى من العائد الحقيقي والقيمة المضافة الى الاقتصاد القومى ، وهذا يعنى الحد الأقصى من اثنتين .. الكفاية الذاتية الغذائية والصناعية فى الداخل ، والكفاءة التصديرية فى الخارج ، وهذا بدوره يعنى الحد الأقصى من الحبوب الغذائية ، والحد الأقصى من المحاصيل التجارية على الترتيب ، ص ٢٩٩) ، ويؤكد أركان استراتيجية التخطيط الزراعى فى (.. التكثيف + التتجير + التصدير + التصنيع) ، ويوضح (.. التكثيف بالحد الأقصى من التوسع الرأسى ، والتتجير Commercialisation بالتوجيه الى المحاصيل النقدية

السوقية التجارية .. بدل المعاشية ، والتصدير .. بالتوجه الى السوق العالمية .. لتصريف تلك المحاصيل التجارية الثمينة ، والتصنيع بالحد الأقصى من تحويل الخامات الزراعية الى منتجات مصنعة لتصديرها بأعلى ثمن ، فضلا عما ينتج عنها من توسيع فرص العمالة داخليا ، مع الحد الأدنى من تصدير المحاصيل والسلع الزراعية خاما .. ، ص (٣٠) .

ويعود فيخصص للتوسع الرأسى والأفقى الفصلين التاليين فى عنوان متصل يجمع بينهما ، فالأول (فصل ٣١ ص ص ٣٥١ ـ ٤٣٨) .. يأتى تحت عنوان (من التوسع الرأسى ...) ويكمله الثانى (فصل ٣٢ ص ص ٤٣٩ ـ ٥٣٧) (.. الى التوسع الأفقى) .. اتساقا مع تتابع استراتيجيته .. ومع نظريته التكاملية .. السارية ، دون أن يغيب عنه فى أيهما .. ما سبق وضعه من فروض ايكولوجية محددة ، وما انتهى اليه من مقولات عن شخصية مصر الاقتصادية التاريخية .. من حيث الاستمرارية وانقطاعها ، وما حدده من قسمات ايجابية ومتكلسة جامدة ، وما توصل اليه من مشكلات ، وما اقترحه لها من حلول .. مستندة الى أوتاد صلبة .. من التحليل التاريخى المكانى الاحصائى .. معا .

من التوسع الرأسى

يعرفه (.. قد لا نقصد أكثر أو أقل .. من مدى تكثيف

الانتاجية فى وحدة المساحة ، أى التكثيف الزراعى ببساطة (ص ٣٥١) ، ويتابع تاريخيا المسألة .. ثم يوثقها احصائيا .. بمعامـل التكثيف الزراعـى (ص ٣٥٢) .. منتهيـا إلـى (.. الزراعة المصرية على درجة عالية من التكثيف فعلا .. تصل بها إلى أن تعد بحق نوعا من فلاحة البساتين Jardining (ص ٣٥٣) ، دفع اليها ضيق المساحة المتاحة فى الوادى والدلتا معا ، فهل ثمة امكانية لاتزال فى تكثيفها ؟

والاجابة .. نعم .. لقد تكثفت عبر تاريخها إلى طابقين من الزراعة فوق القطعة الواحدة ... ، والمطلوب الآن تكثيفها إلى ثلاثة طوابق (ص = ٣ ، س = ١٨ مليون فدان) .. حيث ص تساوى التكثيف ، وس تساوى جملة المساحة المزروعة بها (ص ٣٥٣) ، وذلك تمشيا مع امكانات السد العالى .. الذى لم تستثمر بعد كافة عوائده كما ينبغى ، على ان يخصص الطابق الثالث للمحاصيل الغذائية من القمح والأرز والبقوليات .. خاصة الفول والعدس (ص ٣٥٤) ، على ان يقترن ذلك بالوصول بالانتاجية الى حدها الأقصى .. وتقليل الفاقد الى حده الأدنى ، وتتوالى توصياته .. عن الأسمدة وطرق الرى ونوعية التقاوى .. ومقاومة الآفات .. ثم الحصاد وتخزينه وتسويقه ، ليس لها ككل .. وانما لكل محصول على حدة (ص ص ٣٥٤ ـ ٣٧٥) ، بل وبعدها .. حين يعرض لمشكلة الملوحة والقلوية فى التربة المصرية (ص ٣٨١) وكيفية علاجها ، وتحسين الصرف (٣٨٤) .. والميكنة (٣٨٨) وكهربة الزراعة (٤٠٧) حتى يصل الى قوارض

الأرض (٤١٥) .. ويعرضها تحت عناوين موحية (الرمل ضد الطين ، القوارض الداخلية ، الميت ضد الحى ، وباء التجريف ، مصر المنكمشة ، ص ص ٤١٥ ـ ٤٢٨) ، باعتبارها جميعها أهم ما يواجه تكثيف الأرض .. وأصلا يبددها ويبدده ، وكما يرى أن ترشيد الفاقد يسبق التخطيط للانتاج .. فإن المحافظة على المساحة .. يسبق تكثيفها .. ، ومن هنا يطالب .. بوضع دستور للأرض .. يحمى استخداماتها (ص ٤٢٩) ، وبالتخطيط الصارم للنمو السكنى .. (ص ٤٣١) .. سواء فى القرى أو المدن ، ويختتم فصله بالتخطيط الصناعى .. (٤٣٤) فى اتجاهى دمجها بالزراعة من ناحية . واعادة توزيع وحداتها خارج الزمامات المزروعة من ناحية ثانية (تصحير الصناعة ص ٤٣٥) .. وسيعود اليها تكرارا فيما يلى من فصول هذا الجزء .. وفى الجزء الرابع أيضا من كُتابه .

إلى التوسع الأفقى

يأتى تاليا للتوسع الرأسى فى خطته .. (.. لأن الكل يكاد يجمع على أن التوسع الرأسى هو المنفذ المباشر لتوسعنا الزراعى ، أولا لأنه لا يتطلب كالأفقى انفاقات رأسمالية ضخمة ، ولأنه لا حد لامكاناته ولا سقف له ثانيا ..) ، اذن فأهم ما يواجه التوسع الأفقى ـ ارتفاع التكلفة ، وضيق مجالاته المتاحة فى الوادى والدلتا معا ، ويستدرك فى مقدمة

هذا الفصل (٣٢ ص ٤٣٩) ويقرر (.. غير انه يظل هناك رصيد له) فضلا عن أهميته الفائقة للتخطيط الاقليمى برمته وتبعا لمنهجه .. يتابع المسألة تاريخيا .. وصولا الى بداياتها ، منتهيا الى وضع خريطة احتمالاتها القائمة .. ويحددها فى (شمال الدلتا ، الهوامش الصحراوية للوادى ، الساحل الشمالى الغربى ، شرق الدلتا ، ضفاف قناة السويس ، الواحات المصرية ، ص (٤٤) .

ويفيض فى تحليل كل منطقة منها .. متوصلا الى تقرير لب مشكلاتها (.. يتوقف الأمر كله على الماء ، ص ٤٤٥) ، ومن ثم يعرض لمصادره الطبيعية فى مصر .. عرضا نقديا لطرق استخدامها .. والاهمال شبه التام لبعضها (مياه النهر ص ٤٤٨ ، مياه الصرف ٤٤٩ ، المياه الجوفية ٤٥٠) ، ويجمعها تحت عنوان "الموارد المتاحة" (ص ٤٥١) ويقدرها بنحو ٦٠ مليارا .. يمكن أن تزيد الى ٨٠ مليارا .. حالة ترشيدها .. ورفع كفاية مصادرها معا ، ومن بعد يحلل منحنى العلاقة بين الاحتياجات والاستهلاك .. تبعا لتوزيعها فى قنواتها الرئيسية (الزراعة ، الصناعة ، العمران) ، مطالبا باعادة رسم استراتيجية المياه فى مصر .. تبعا لاقتصادياته من ناحية ، واتساقا مع مواردها منه من ناحية ثانية ، وبالنظر الى أزمة المياه العالمية .. من ناحية ثالثة (ص ٤٥٤) .

وتحت عنوان "مسح إقليمى .. يعود الى خريطة

احتمالات التوسع الأفقى بالتفصيل (ص ص ٤٦٢ ـ ٥٣٧) .. أى الى نهاية هذا الفصل ، مؤكدا جدارتها .. وبأنها نواة اعادة التخطيط الاقليمى لمصر كلها .

وبهذا تنتهى فصوله الثلاثة المخصصة للزراعة المصرية ، وينتقل من مجالها فى الفصول الثلاثة (٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ص ص ٥٣٨ ـ ٨٥٥) التالية .. إلى "الصناعة المصرية" .. وحدها ، بل ان الفصل الأخير من هذا الجزء .. كما سيأتى عن الصناعة أيضا ، مما قد يكون مؤشرا عن وزنها فى نظريته التكاملية كلها .

مصر الصناعية

بهذه التسمية العامة يعنون الفصل الأول (٣٣ ص ص ٥٣٨ ـ ٦٤٦) من ثلاثيته أو رباعيته عن الصناعة فى مصر ، ويخصصه لصورتها العامة .. قبل أن يحلل تفصيليا نوعياتها ، بمثابة اللحن الافتتاحى له ... ، يستهله بمقولته (.. مصر بطبيعتها لا تنقصها المقومات الأساسية للصناعة الحديثة ..) ، وتقتضيه هذه المقولة إثباتها .. جغرافيا واقتصاديا وتاريخيا .. بطول صفحاته ، مستخدما مجموعة من العناوين الدالة المكثفة .. من قبيل (بين الوفرة والندرة ص ٥٥٢ ، نقط القوة والضعف ٥٥٣ ، مشكلة الجدارة الانتاجية ٥٥٤) ، يناقش فيها هذه المقومات فى اشارات مركزة .. ينتهى منها إلى أن مصر (.. تملك أساسا طبيعيا لا

بأس به .. لقاعدة صناعية متوسعة ، يمكن أن ترتفع إلى صرح .. لا يقل عن الدول الصناعية المتوسطة ، كما تملك بالفعل بناءً صناعيا لا يستهان به .. وان لم يزل بعد فى مرحلة بدء الانطلاق ، أما ان هذا الصرح ملىء بالثقوب والعيوب حاليا .. فذلك من خصائص مرحلة البداية التى عرفتها معظم الدول الصناعية المتقدمة الآن ، على أن المطلوب هنا والآن اختزال هذه المرحلة بأسرع ما يمكن ، جـ ٣ ص ٥٥٤) .

وبعد تحليل التوطن الصناعى تحت عنوان "الخصوصية المصرية" (ص ٥٥٨) ، يحدد ما يطلق عليه خصائص الصناعة المصرية العشر (ص٥٧٨) ، وذلك كما يلى بيجاز : (ص ص٥٦٨ ـ ٦١٦) :

★ سيادة الصناعات الزراعية .
★ صناعة استهلاكية لا رأسمالية .
★ صناعة خفيفة لا ثقيلة .
★ صناعة اكتفاء لا تصدير .
★ صناعة مصنعة لا صناعية .
★ التكامل الرأسى والأفقى .
★ التنوع والتركز الشديدان .
★ التركيز الحجمى .
★ التركيز الجغرافى .
★ مناطق لا أقاليم صناعية .

تلك إذن هى قسمات مصر الصناعية .. فماذا عن أنماطها المكانية ؟

وتبعا لحسابات معينة يحددها فى (.. قرص الدلتا ص ٦١٦ ، خيط الصعيد ٦١٩ ، منطقة القاهرة الصناعية ٦١٩ ، منطقة الاسكندرية ٦٢١ ، خط الاستواء الصناعى ٦٢٥) ، حيث يقرر عنها اجمالا بعد ذلك (.. تلك اذن فى صورتها التفصيلية نوعا خريطة مصر الصناعية ، ولاشك ان أبرز ملامحها ومعانيها هى التحولات الأساسية فى المركب الصناعى والنمط الجغرافى على حد سواء ، ان خريطة جديدة لمصر تتخلق تحت ناظرينا فى مجال الصناعة ، بقدر ما تقتحم مصر عالم الصناعة الحديثة ، ان مصر تتغير صناعيا ، مثلما وجدناها تتغير زراعيا ، وبدلا من الصناعات المعاشية والتقليدية الأولية أو البسيطة ، حلت أحدث الصناعات العصرية المتطورة ، الاستهلاكية ، والخفيفة والثقيلة على السواء ، وبدلا من ذرات أو حبات الصناعة المتواضعة المبعثرة هنا وهناك ، اصبحت هناك أحجار صناعية ضخمة ، مناطق صناعية كاملة متكاملة ، كالخلايا العارمة المضطرمة بالحياة الصناعية ، جـ ٣ ص ٦٣١) .

ومن فوره يضع يده على نقطة الضعف الرئيسية فى هذا البناء (.. انه لم يأت من اسف متوازنا على مستوى الوطن أو متكافئا على مستوى أقاليمه ، ص ٦٣١) ، ومن ثم يفرغ لها بقدر من التركيز تحت عنوان (خريطة جديدة .. ولكن بالكاد ..) ، هى خريطة جديدة حقا .. ولكنها تفتقر الى عدالة التوزيع (اللاقليمية ضد الاقليمية ص ٦٣٤) ، وهى تستعيض بالتخطيط القومى عن الاقليمى . لحساب المركزية

العاتية ، مخلفة الأقاليم وراءها .. وقد فقدت وفوراتها .. إن نزحت الى خارجها بشتى الأساليب ، وبذا يصل التركيز الى نقطة الانعكاس (ص ٦٣٧) .. وعندها يتحول التركيز الى تخمة فانفجار ، فضلا عما ينتج عنها قبلها من تضاعف نمو الكبير .. وتطاحن الصغير (المبدأ الالومنزى allometric ص ٦٣٧) ، وتعمق الفجوة بين العاصمة والمدن الكبرى والأقاليم ، مطالبا آخر الأمر باعادة التوزيع ، مدعما طلبه ، بما يبرره (.. وعلى مستوى الواقع العملى ، اذا عدنا الى جسم الصناعة المصرية "ولحمها الحى" ، فان من الثابت ان كثيرا أو جدا من صناعاتنا الراهنة ، أغلبها فى الواقع ، يمكن ويحسن ويجب نقله الى مواقع أخرى دون إبطاء ودون هزة فى الكيان الصناعى ، بل وبمكاسب وأرباح لا حد لها اقتصاديا واجتماعيا ، قوميا واقليميا ، وقد حاول البعض حصر هذه الصناعات القابلة للحركة أو للتحريك ، ولكن عبثا .. لأن القائمة تكاد تشمل كل صناعاتنا إلا أقل القليل ، ص ٦٣٨) .

بل ويقترح قائمة بالمواقع الجديدة مستندا فى ذلك الى مبادىء (الخلخلة de - concentration واللامركزية con- tratisation وتدريج المركزية Subconcentration ص ٦٣٩) ، ومفندا عوائق المسافة والحجم والتفتيت Pulverisation وغير ذلك ، منتهيا إلى ما يسميه تصحير الصناعة (ص ٦٤٤) .

.. فإذا ما اتفقنا على هذه الخطة وتلك الصناعة من حيث المبدأ ، وهى فى الواقع مسألة مصيرية بالنسبة لمصر ، فإن

مشكلة الصناعة عندنا تغدو وهى أكثر من مجرد مشكلة مناطق مأزومة محرومة ضد مناطق متخمة مكتظة ، ولا تعود قضية بعثرة ريفية ضد تشتيت اقليمى ، ولا مسألة تريف الصناعة ضد تصنيع المدن حيث (.. لم تعد حياة المدن بالضرورة وظيفة لدرجة النمو الصناعى ، بل أصبح ممكنا فى ظل حضارة اليوم أن تقوم مدن ضخمة بغير صناعة كبيرة ، أو على الأقل أن يسبق نمو المدن الضخمة التنمية الصناعية ، ويمكن للصناعة أن تلحق بها وتصحح التوازن ، باختصار .. لابد ان نعتبر المدنية المرتفعة بلا تصنيع نمطا جديدا من انماط الحضارة المعاصرة .. ونتيجة طبيعية للتكنولوجيا الحديثة ..) .. كلا إذن ليست ضد المدن ، والمشكلة من قبل والحل من بعد أيضا وأساسا .. هى تصحير الصناعة .

أجل تصحير الصناعة .. أى نقلها إلى الهوامش والتخوم الصحراوية إلى أقصى حد ممكن عمليا واقتصاديا وانسانيا ، ذلك هو الشعار القائد المطلوب الآن ، ليس فقط انقاذا واستنقاذا للأرض الزراعية التى تغتالها الصناعة ـ وغير الصناعة ـ ولكن أيضا انقاذا للصناعة نفسها ولغيرها من التكدس المدمر هنا .. والتفتيت المجدب المحدب هناك ، (ص ٦٤٢ جـ ٣ ـ ٦٤٦) ولحسن الحظ فان خطة مصر الطبيعية برمتها قد جعلت لمثل هذا التخطيط بحذافيره ، ص ص ٦٤٤ ـ ٦٤٦) ، وبهذه الدعوة ينهى فصله .

الصناعات الأم :

شبكة الصناعة فى مصر .. أشبه بشجرة - والزراعة أمها ، منها بدأت وبها نمت .. وتكاثرت العائلة ، ومهما تعددت جذورها .. وتباعدت أصولها .. فستبقى الصناعات الزراعية أقدمها .. وأشدها رسوخا وتوطنا ، واذا كانت البيئة قد اتاحت موارد أخرى .. كونت أيضا عائلاتها - الأكثر ثراء منها ربما .. الا انها تدنو عن الأم من حيث درجة ايكولوجيتها الثابتة المتوازنة ، ومن هنا يأتى عنوان هذا الفصل (٣٤ ، ص ص٦٤٧ - ٧٤٤) وأيضا منهجه فى ترتيب الدراسة النوعية لهيكل خريطة صناعات مصر الراهنة .. (.. أما عن تسلسل العائلة - فستبدأ من الصناعات ذات الأصول الزراعية أساسا ، وتتقدم الى الصناعات ذات الأصول المعدنية أساسا ، فبعد النسيجية والغذائية .. تأتى الكيماوية فالبناء كحلقتى وصل .. تؤديان الى الصناعات المعدنية فالهندسية ، حيث تلحق بهم فى النهاية الصناعات التعدينية .. مع الثروة المعدنية ، ص ٦٤٨) .

الصناعات النسيجية :

تحتل بين الصناعات الزراعية الحديثة .. قاعدة الهرم ، ترتبط بالقطن .. وتشغل فى الصناعة مثل موقعه بالنسبة

للزراعة .. وهما معا حجر الأساس وركن الزاوية ، سبقت غيرها .. وتوطنت وتركزت .. ثم انتشرت فى الدلتا والوادى .. وقدمت المثل ، وخاصة من حيث درجة تركزها فى العاصمتين القاهرة والاسكندرية .. التي يقل نصيبهما منها عن ٥٠٪ ، كما انها تستوعب وحدها بين ثلث ونصف العمالة الصناعية فى مصر كلها (٦٤٩) ، وبعد الانتشار المنشود .. فانها تتسم بتنوعها .. وكثرة وحداتها من حيث العدد ، تتضمن وحدات مجمعة ضخمة بالمقياس العالمى .

كما تتضمن غيرها من الوحدات الصغيرة .. نتجت عن انتشارها ، ويعود اتجاهها نحو الضخامة إلى متطلباتها من التكامل الرأسى والأفقى بدرجة فائقة (.. فهى لا تقتصر على الغزل والنسيج فقط .. وانما تمتد الى اشكالها التابعة .. من سجاد وكليم ولباد وحبال وغيرها ، ص ٦٥٠) ، وتسهم وحدها بقرابة ثلث قيمة الانتاج الصناعى فى مصر جميعا .. وكانت تلك النسبة هى الأولى بين قطاعات الصناعة كلها (٦٥١) ، وتتألف خاماتها من (القطن ، الصوف ، الحرير ، الكتان) .. وأضيف اليها الألياف الصناعية مؤخرا .

ويتابع كل خامة منها تاريخيا .. فى سياق من المقارنة .. المدعمة بالجداول المتتابعة (ص ص ٦٥٢ ـ ٦٥٦) ، ثم يتناولها نوعيا فى صورتها المعاصرة ، مبتدئا بالقطن (٦٥٦) بعملياته المتعددة (الحلج ، الكبس ، الغزل ، النسيج) ، وأيضا نمط انتشار وحداتها (.. هذه التى ترسم خطا من الشمال إلى الجنوب .. أى نحو الصعيد .. بلا ارتداد

تقريبا ، وذلك من بعد تركزها فى الاسكندرية والمحلة وكفر الدوار فى مرحلة ، ص ٦٦١) ، اتساقا مع مقتضياتها من الجفاف المناسب لها .. الى جانب عوامل بشرية مساندة ، ورغم أنها تستهلك نحو ٦٠٪ من جملة انتاج مصر من القطن الطويل التيلة ـ وتصدر بقيته ، فقد اتجهت منذ عقود قليلة الى استيراده بنوعية منخفضة من السودان والهند .. فى نوع من الموازنة بين استمرار تصديره .. تلبية للطلب العالمى ، وبين متطلبات نموها ، والمنشود (.. التصنيع التام له فى مصر .. فى اطار الهدف النهائى لسياسة من الألياف إلى المنسوجات .. أو تصنيع الخامات المصرية من ألفها إلى يائها ، ص ٦٦٣) ، خاصة مع تطور التكنولوجيا .. وتصاعد أرباح السلع المصنعة .. فى مقابل تذبذبها وهى خامات أو نصف مصنعة .

وتحت عنوان "أحسن قطن وأسوأ صناعة" (٦٧٩) .. يلخص متناقضة القطن فى مصر زراعة وصناعة .. ويتابعها فى بعديها من وجهة النظر الاقتصادية ، وخاصة من الناحية التسويقية داخليا والقدرة التنافسية خارجيا ، وينتهى منها إلى التوصة بالتوسع فى استيراد الأقطان قصيرة التيلة الرخيصة .. وتصنيعها ، والتوسع فى تصدير الأقطان طويلة التيلة الحالية (ص ٦٨٥) ، وتخليط صناعتها بالألياف غير الطبيعية (٦٨٧) ، والتوسع فى صناعة الملابس إلى أقصاها (.. من الحقل إلى المستهلك .. ولا نقول الملابس الجاهزة أو الموت ، ٦٨٨) .

ثم تعرض للصناعات الغذائية (٦٩٢ ـ ٧٤٤) ـ أى الى نهاية الفصل ، حيث يتناولها من حيث خصائصها العامة (ص٦٩٣) تاريخيا وجغرافيا ، ثم نوعيا .. مبتدئا "بصناعة السكر" .. مطلقا عليه "قطن الجنوب" .. تلخيصا لتركز زراعته وتوطن صناعته فى الصعيد .. فضلا عما تعنيه التسمية من قيمته الاقتصادية وتعدد جوانبه ، ويحقق اتفاق مناطق زراعته مع مصانعه .. توليفة اقتصادية مناسبة ، كما يتسق توزيع معامل تكريره .. مع أسواق الاستهلاك والطلب (.. يعنى توطن بالسوق ، ص ٧٠٢) ، وتتحدد مشكلته فى قصور انتاجه عن تلبية الطلب (.. فى غضون سنوات معدودة ـ سوف نستورد من السكر قدر ما ننتج ، ص ٧٠٧) ، ومن هنا توصيته بالتوسع فى زراعته فى الأراضى المستصلحة من ناحية ، وبالتوجه المكثف نحو سكر البنجر .. من ناحية ثانية (٧٠٨) .

ومن صناعة السكر ـ إلى صناعة اعداد الحبوب (٧١٢) ، وتتضمن (طحن الحبوب ، ضرب الأرز ، الكسر والرجيع ، النشا والجولوكوز ، الزيوت النباتية (٧١٦) ، الحلوى والمشروبات (٧٢٢) ، السجاير (٧٢٦) ، حفظ الأغذية (٧٣٠) ، تعبئة الأسماك (٧٣٧) ، صناعة الألبان (٧٣٨) ، الأعلاف الصناعية (٧٤٢) ، ويتابع كل منها من حيث التوزيع الجغرافى ، وعدد الوحدات والعمالة والتسويق .. وغير ذلك .. مما يغطى جوانب اقتصاديات المشروع الصناعى .. منهجيا وموضوعيا معا ، ومنها ينتقل

الى فصله التالى (٣٥ ، ص ص ٧٤٥ ـ ٨٤٥) الى مجال صناعى مختلف .

من الصناعات الزراعية إلى المعدنية

يبتدئها بالصناعات الكيماوية .. ويقدمها (إن انفجار الصناعات الكيماوية يعد أبرز معالم تطور الصناعة المصرية .. فى العقود الأخيرة الأربعة ، ص ٧٤٥) ، وتضم مجموعة عريضة من المواد الوسيطة اللازمة لغيرها من الصناعات ، ومن ثم فهى (وسيلة وغاية فى آن واحد) ، ويصنفها إلى (الغازات والسوائل واللدائن والجوامد الصلبة ، وتنقسم إلى مجموعتين عريضتين .. الكيماويات الأساسية والكيماويات المركبة ، ص ٧٤٦) ، وتضم كل منهما العشرات من النوعيات المصنعة ، وتتسم لأسباب اقتصادية بتركزها في القاهرة والاسكندرية .. عدا الأسمدة ، وتبعا لمجموعتيها يتابعها تفصيليا .. داخل الاطار المنهجى لاقتصاديات المشروع الصناعى .. كما سبق ، يستهلها بالكيماويات الأساسية (٧٤٩) ، وبعدها الأسمدة (٧٥٧) ، ثم صناعة الورق (٧٦٩) ، فالخشب الصناعى (٧٧٤) ، فصناعة الجلود والأحذية (٧٧٦) ، ثم الصابون والمنظفات الصناعية (٧٧٨) ، وبعدها صناعة الأدوية (٧٨١) ، ثم المطاط والبلاستيك (٧٨٣) ، ثم ينتقل إلى مجموعة أخرى متكاملة . هى "صناعات البناء" (٧٨٦) ،

وتضم الأسمنت والطوب الطفلى والرملى ، والجبس ، وغيرها من توابعها .. مثل الخزف واخوته (٨٠٤) والحراريات والزجاج (٨٠٧) ويختتم بالصناعات المعدنية فصله . (ص ص ٨٠٨ ـ ٨٥٤) .

الصناعات المعدنية :

ويصنفها بداية إلى (الصناعات التكريرية ، التى تشمل الصهر والتكرير ، والصناعات التشكيلية لها ، وتعنى المنتجات المعدنية (٨٠٨) التى تتضمن اساسا الحديد والصلب ثم الألومنيوم .. وأخرى هامشية من النحاس والزنك والرصاص وغيرها ، وبالطبع فإن صناعة الحديد والصلب ـ تستغرق جل عنايته ، ويتابعها تاريخيا (قبل الصناعة الثقيلة ، ٨٠٩) وبعدها (٨١٠) ، ثم يحللها اقتصاديا .. وخاصة من زاوية موقع المصنع (حلوان ومناجم خاماته ..) ، ويجرى مقارنة سريعة بين هذه الصناعة وصناعة الألومونيوم . ينتهى منها الى (.. أن كليهما صناعة خاسرة اقتصاديا ، اذ تحقق سنويا خسائر جسيمة .. تتعدد اسبابها ، ومن ثم تحتاج الى ترشيد شديد (٨١١) .

ويفيض بعد ذلك فى دراسة "صناعة الحديد والصلب" (ص ص ٨١١ ـ ٨٣٢) ، وتحت عنوان (استراتيجية الموقع ، ص ٨١٢) ، يعقد مقارنة دالة وشيقة بين أسوان وحلوان كمواقع شهدت مولد هذه الصناعة ونموها ، ينتهى

منها ـ إلى (.. أنه وان بدا موقع حلوان موفقا للغاية .. فقد كان ذلك نتيجة للصدفة الحسنة ـ وليس لحكمة التخطيط المستقبلى ، الصدفة الجيولوجية التى أتت بحديد البحرية وغاز أبو الغراديق .. فى الزمان والمكان المناسب كليهما تماما ، بل فى اللحظة الحرجة والبقعة المواتية .. لحلوان دون غيرها ، ص ٨١٦) ، ويتابع مرحلته الأولى فى أسوان ، ثم مراحله التالية ، مختتما دراسته لها بعنوان "النمو المستقبلى" (ص٨٢٩) ويقدم توقعاته استنادا الى امكانات الصناعة ، وقدرتها على تحقيق الكفاية الذاتية ، مقدرا ان الاستهلاك المتوقع سنة ٢٠٠٠ يقرب ٣٠ مليون طن ، لن تحقق الخطة الموضوعة منها سوى نصفها ، فاذا كان الإنتاج الفعلى فى سنة ١٩٨٠ لا يجاوز ١,٥ مليون طن .. فإن هذا يعنى ان الخطة الموضوعة تهدف الى مضاعفة الانتاج بعشرة امثاله فى عقدين فقط (من ١,٥ مليون سنة ١٩٨٠ إلى ١٥ مليون سنة ٢٠٠٠ بما يعنى اضافة ٥ مجمعات للصلب الى الحالية ، وتتعدد الروايات حول ذلك .. تبعا لتعبيره ، (ص ٨٣٠) .. على ان انشاء مجمع الدخيلة سنة ١٩٨٥ .. قد يكون بداية .. ولعل وعسى ..

ويأتى دور "صناعة الالومنيوم" (ص ص ٨٣٢ ـ ٨٤٢) ، ويتابعها تاريخيا تبعا لمنهجه ، ثم اقتصاديا من زواياها المتعددة ، يناقش خلالها قدرته التنافسية (وهى عالية لشدة نقاوته) وتكلفته (وهى عالية أيضا لاعتماده على الطاقة الكهربائية حيث تستهلك ٢٥٪ من الكهرباء المباعة

للصناعة فى البلد كلها ، ص ٨٣٧) ، ويطالب أخيرا .. بالتوقف عن تصديره نصف مصنعا ، وبالتحول إلى تصنيعه كاملا بما يستوعب التكلفة ويحقق أربحية عالية ، ٨٣٧ .

وتأتى عائلة الصناعات الهندسية (ص ٨٤) وتتضمن الميكانيكية (ص ٨٤٣) ، والماكينات (٨٤٨) ، والصناعات الكهربائية (٨٥٠) ، وبها ينهى فصله ، بعد ان يشبعها تحليلا تبعا لمنهجه .

صناعة التعدين

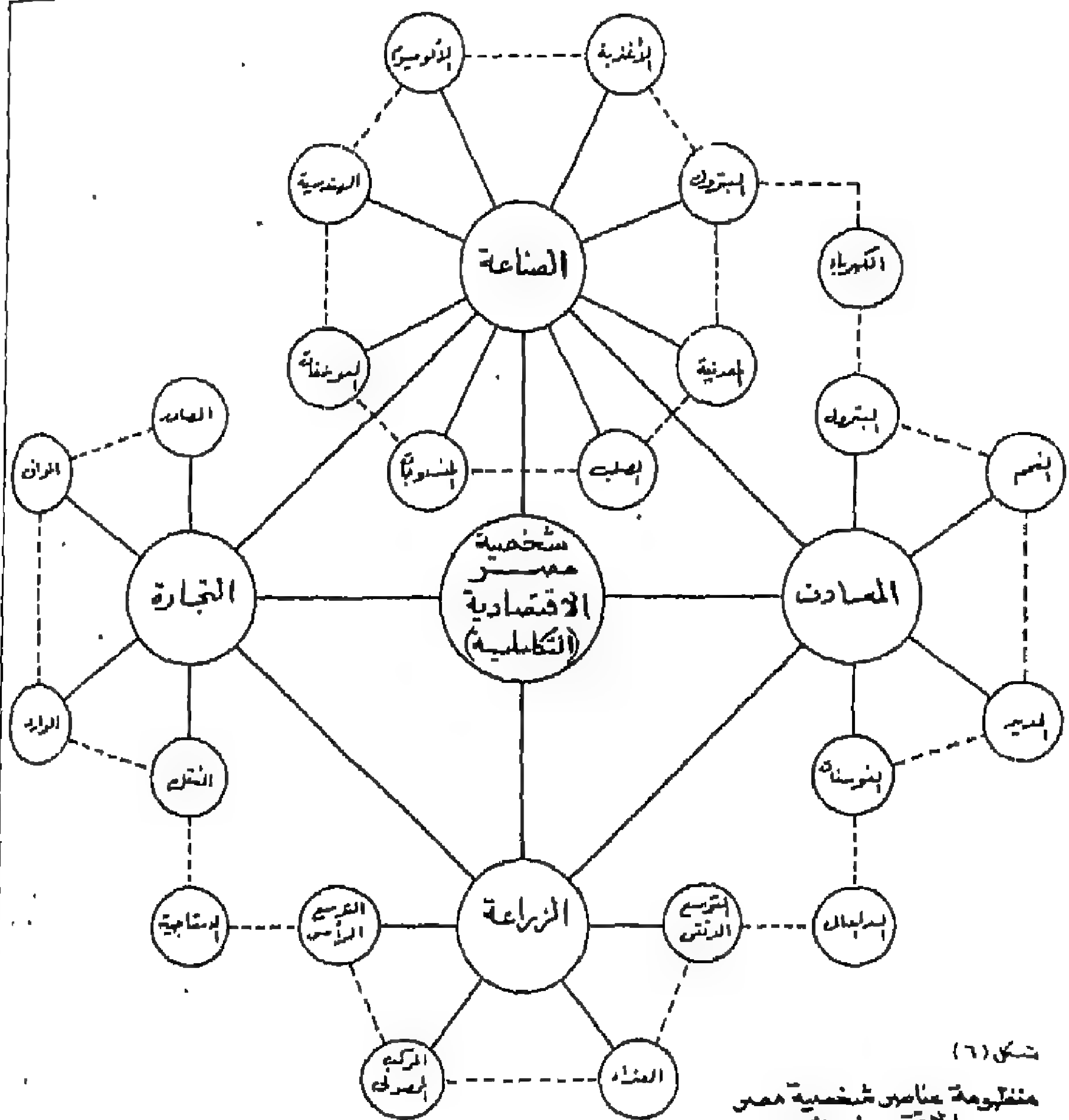
هذا هو العنوان الثانوى لهذا الفصل (٣٦ ص ص ٨٥٥ ـ ٩٧٣) ، أما عنوانه الرئيسى فهو "ثروتنا المعدنية ، ويستهله بهذه العبارة المكثفة (.. نقرر بصيغة التوكيد .. أن ثورة معدنية مؤثرة قد حدثت فى مصر فى العقود الأخيرة من تاريخها ، ص ٨٥٥) ، ويقتضيه اثبات ذلك نوعا من المتابعة التاريخية والاحصائية .. ، يقرر بعدها أن هناك فى مصر مرحلتان .. (ما قبل المعادن .. وما بعدها .. ص ٨٥٦) ، ومن هنا تميز هذا الفصل عما سبقه .. من الفصول الثلاثة المتصلة بالصناعة وحدها ، هذا فصل الموارد المعدنية أولا .. ثم الصناعة ثانيا .

وينتهى تحليله لما قبل الثورة المعدنية وما بعدها .. الى تحديد أبرز خصائص الخريطة المعدنية الراهنة .. فى هذه الثلاثية القاعدية (ص ٨٦٠) المتمثلة فى (الحديد +

الفوسفات + البترول) .. والتى اكتشفت بكميات اقتصادية مناسبة ، بما قد يعد باعثا على معاودة التنقيب عن غيرها من الموارد المعدنية .. والتى بقيت طويلا ثروة مهملة ، وتحت عنوان "خريطة معدنية جديدة" (ص٨٦٤) - يتابع توزيعاتها وتطورات انتاجيتها ، كما يحدد مناطق الثقل المعدنى (سيناء وعلى جانبى خليج السويس + وسط وجنوب الصحراء الشرقية + خط الواحات فى الصحراء الغربية) ، بما يكون شبكة تعدينية متكاملة ، تحيط بالوادى حيث يمكن تصنيع ما تنتجه ، وتحت عنوان "المركب المعدنى" (ص ٨٦٨) .. يتابعها نوعيا .. ويصنفها إلى (خماسية المعادن الأساسية (البترول ، الفوسفات ، الحديد ، الفحم ، المنجنيز ..) ، ثم مجموعة المعادن الثانوية ، وهى ثمانية . النحاس والنيكل والرصاص والزنك والقصدير والكبريت والأحجار الكريمة والذهب ، ثم مجموعة الصخور الصناعية من الكاولين والطين والرمال والجبس والتلك وغيره ، وأخيرا .. مجموعة المعادن النادرة . من اليورانيوم وغيره ، ص ٨٦٩) ، وبعدما يحدد الخريطة والمركب المعدنى ، ينتقل الى الدراسة المسهبة لكل معدن منها على حدة ، يستهلها بالفوسفات (٨٧٠) ، ثم الحديد (ص ٨٧٩) ، ثم الفحم (٨٨٢) ، ثم الصخور الصناعية (٨٨٧) ، فى دراسة منهجية تبدأ بالتوزيع فالانتاجية وتنتهى بالاحتياطى المحتمل ..

وينال "البترول" جل عنايته .. فيفرد له الصفحات (ص ص ٨٩٠ - ٩٧٣) .. أى إلى نهاية هذا الفصل

المعدنى ، يتناول خلالها التطور التاريخى لانتاجه (ص ٨٩٠) ، ثم تطوراته النوعية .. من البر الى البحر (٩٠١) ومن الزيت الى الغاز (٩٠٣) ، ويتعمق فى اقتصادياته (بين الانتاج والاستهلاك والفائض ، ص ٩٠٤) ، منتقلا إلى صناعته (٩١٢) .. صناعة التكرير أولا ، ثم شبكة الأنابيب (٩٢١) كعنصر مكمل يتصل بنقله ، ويحلل احصائيا العلاقة بين منتجاته واستهلاكها (٩٢٥) ويعود الى جغرافية الحقول (خريطة متغيرة ، ص ٩٣١) ، مع دراسة مسهبة لحوض خليج السويس (٩٣٦) ، ولا تفوتته مرحلة استنزافه من اسرائيل بين ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ، ويختتم هذا الفصل بدراسة لامكانات حوض الصحراء الغربية (٩٦٦) باعتباره أفق المستقبل البترولى لنا ، وبه ينهى هذا الفصل كما سبق .. ومعه الباب الثامن .. الذى استغرق الجزء الثالث من كتابه .



شكل (٦)
منظومة عناصر شخصية مصر الاقتصادية

رابعا : شخصية مصر الحضارية

تتعدد مفاتيح الجزء الرابع من كتابه .. الذى يخصصه "لدراسة شخصية مصر الحضارية" (٦٦٦ صفحة) ، فهو ليس "البساطة" وحدها .. كما فى جزئه الأول (شخصية مصر الطبيعية) ، أو التجانس والوحدة .. فى جزئه الثانى .. (شخصية مصر البشرية) ، أو التكاملية .. بالنسبة لجزئه الثالث (شخصية مصر الاقتصادية) .. تعددا يعود الى تنوع موضوعاته وتشعبها ، والى تشابك جوانب شخصيتها الحضارية ، وأيضا إلى اتصاله بالأجزاء السابقة عليه . يستكملها ويتوجها ، ومن هنا .. فإن لكل فصل به مفتاحه الذى يخصه .. يعنونه به مباشرة ، ويلقى بدلالته على فصول أخرى سبقت .. كما يستمد منها ما يوضح المعنى ، وستكون هناك إشارة إلى هذه الصلة مستمرة .

ويتكون هذا الجزء (ص ص ١٣ ـ ٦٦٦) من ثلاثة أبواب (٩ ، ١٠ ، ١١) ، تعقبها القائمة البيلوجرافية لكتابه كله (ص ص ٦٦٧ ـ ٩٧٧) ، موزعة بين المراجع العربية (٢٤٥ عنوانا) والأجنبية (٧٩١ عنوانا) ، وجملة فصوله سبعة .. ثلاثة للباب التاسع (الفصول ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩) ، ومثلها العاشر (٤٠ ، ٤١ ، ٤٢) .. أما الأخير الحادى عشر . ففصل واحد .. (٤٣) ، بهما ينهى الجزء وكتابه كله ، (٤ أجزاء ، ١١ بابا ، ٤٣ فصلا) ، يربط بينها ما يحاول

تجميعه من سمات مصر الحضارية (المركزية + تعدد الأبعاد + الاستمرارية والانقطاع) .. كمحصلة لعمله كله .

خريطة المجتمع المصرى

بهذا يعنون الباب التاسع (الأول من هذا الجزء ، ص ص ١٣ ـ ٣٩٨) ، قاصدا أن يحيط هذا العنوان الفضفاض بما يريد طرحه .. وأن يكمل ما سبق عرضه منها .. ويبلور نتائجه ، ويشتمل كما سبق على ثلاثة فصول ، يخصص اثنين منهما لمتابعة موضوع "سكان مصر" (ص ص ١٣ ـ ١٣٠) .. وتحليل مشكلتها .. واستعراض الحلول المقدمة لها (ص ص ١٣٠ ـ ٢٥٠) ، أما ثالثهما .. فيخصصه لمدينة القاهرة .. تحت عنوان "مركزية رغم الامتداد ـ قاهرة مصر" (ص ص ٢٥١ ـ ٣٩٨) مكثفا لموضوعه ـ بمثابة مفتاحه ، وبذا تفصح مكونات الباب عن توجهه لدراسة "السكان + العاصمة" .. باعتبارهما بنية وبوصلة خريطة المجتمع المصرى ـ كما يعبر عن ذلك العنوان الرئيسى للباب ، وتستند الفصول الثلاثة .. إلى ما سبق وروده فى الجزء الثانى من الكتاب (فصل ١٧) .. تحت عنوان "التجانس العمرانى" (ص ص ١٦٦ ـ ٢١١ ، جـ ٢) .

●

كثافة بلا هجرة

يتابع تحت هذا العنون .. ما سبق له بذره عن نمو وكثافة السكان فى مصر .. باعتبارهما وراء تجانس الغطاء البشرى بها ، ويضيف اليهما زوايا متعددة .. تمهد لعرض المشكلة ،

ويتحدد ما أضافه فى دراسته المسهبة عن زوايا التركيب الديموجرافى لبنيتها خاصة ، يستهلها بما يسميه "الثورة الديموجرافية" (ص ٣٣) .. من حيث جذورها ومراحلها وأسبابها ، كما يحدد ديناميتها فى (الزيادة الطبيعية ص ٥٥ ، ضوابط المواليد ص ٥٦ ، ضوابط الوفيات ص ٦٠ ، خريطة الحياة وفرص الموت ٨٦ ، التركيب الجنسى ٩٢ ، تركيب السن ١٠٥ ، خريطة الأعمار ١٠٩) ، وذلك فى صياغات كمية دقيقة .. تستند الى جداول التعدادات المصرية المتتابعة (١٨٨٢ ـ ١٩٧٦) .. أى طوال قرابة قرن من الزمن ، بل ويتابعها بعد ذلك .. تبعا لحسابات معينة ، منتهيا إلى (.. لقد أضافت مصر إلى نفسها فى الربع قرن الأخير .. أكثر مما أضافت فى قرن وثلث قبلها ، لقد أضافت الى نفسها مصرا ثانية .. ص ٥١) ، لقد تضاعف سكان مصر من ٢٣ مليونا سنة ١٩٥٦ الى ٤٦ مليونا سنة ١٩٨٢ ، وتنمو بعدها بمعدل ١,٥ مليون نسمة كل سنة (ص٥٢) .

وحين يأتى دور "الكثافة" (١١٦) .. يضيف اليها تفصيليا دواعيها وأسبابها .. متمثلة فى (الأرض والماء + الرى + نمط الزراعة والتركيب المحصولى) ، متابعا مراحلها وتغيراتها ، ويقرر بشأنها (.. ان السكان حبيسة الوادى ، والوادى حبيس الصحراء ، والوادى أصبح قالبا حديديا لا فكاك منه Procrustean bed .. والسكان أصبحت مصندقة embaitee ، ومن ثم يتحول برمته من زجاجة مغلقة .. إلى عنق زجاجة مختنقة مثلما هى مسدودة ،

ص ١١٧) ، والنتيجة الحتمية أن التعدادات السكانية المتعاقبة ـ لا تفعل سوى أن ترفع الكثافة بصورة آلية من عقد إلى عقد .. الى ان تبلغ مستواها الخطير الراهن (.. وهكذا مرة أخرى .. على المستوى الديموجرافى .. بعد الطبيعى والمائى والزراعى والاقتصادى نجد مصر جوهريا كثافة لا مساحة ، ص ١١٧) ، وها يكمن لب المشكلة .

ويختتم الفصل بما يسميه "بروفيل مقارن" (ص ١٢٩) ، يجرى عليه عددا من المقارنات الموحية الدالة .. بين مصر وبريطانيا واليابان .. من حيث مقومات الكثافة ودواعيها فى كل منها ، منتهيا الى وجود درجة من التقارب بينها ، خاصة من حيث تتابع مراحل النمو الديموجرافى ، وإن تفاوت من حيث التوقيت والمدى ، بما قد يفيد فى مجال التوقع السكانى المستقبلى ، وبهذا البروفيل ينهى فصله .

المشكلة والحل ؟

كما سبق فإنه يحدد مشكلة السكان فى مصر فى الكثافة المفرطة .. وليس تركيبها الديموجرافى بصفة خاصة ، ويضيف إلى الكثافة هنا .. فى الفصل (٣٨ ص ص ١٣١ ـ ٢٥٠) .. الهجرة بأنواعها (الداخلية ، الداخلة ، الخارجة) مع الاهتمام بالأخيرة منها خاصة .. باعتبارها مخرجا ، وبالنسبة للأولى .. أى الداخلية بين مناطق مصر ذاتها .. فهى ظاهرة قديمة ومستمرة بها ، قد تمثل الحل الطبيعى

للكثافة .. بما تؤدى إليه من اعادة توزيع السكان بينها ـ بصورة حرة تلقائية معا .. وتبعا لقوى الطرد والجذب السارية ، ولكنها أفرطت بحيث أدت الى تركز حضرى مفرط (الافراط ثم فرط التركيز) .. ونجم عنها ترييف المدن ، بما زرعته من جيوب الفلاحين وأنصاف الريفيين بها ، وأمست أحجامها دليلا على تورمها وانتفاخها ، وبذا انقلبت من ظاهرة صحية .. إلى مرضية مزمنة ، وهى على كل حال بسبب الكثافة .. وضيق الوادى وتكدسه ودلتاه معه ، وتصاعد النمو السكانى وتفجره ، تقصر عن حل المشكلة السكانية المتفاقمة .

أما الهجرة الداخلة .. فإنه يقرر بشأنها (.. فى الأغلب الاعم من تاريخ مصر .. لم تصدر الرجال .. وانما الحضارة وأعمالهم ، بل وكانت بانتظام مصبا لهم ، لم تكن مصر بعبارة أخرى .. منطقة هجرة خارجية ، على العكس كانت بوجه عام منطقة هجرة داخلة ، فبقدر ما كانت منبعا للحضارة .. كانت مصبا للبشر ، وفيما عدا ذلك .. فاذا كانت ثمة هجرة قوية عرفتها أو مارستها مصر .. فهى الهجرة الداخلية بين أجزائها المختلفة ، كثافة الهجرة الداخلة ، ضعف الهجرة الخارجية ، قوة الهجرة الداخلية ، تلك اذن هى السمات الأساسية تاريخيا فى تركيب الهجرة فى مصر ، ص ١٣١) ، ومن هنا يوجه اهتمامه للثالثة .. أى الهجرة الخارجية وحدها .. خاصة بعدما فرضت نفسها حديثا .. كظاهرة شديدة البروز ومؤثرة ، ومن ثم يفرد لها مساحة واسعة من صفحات هذا الفصل

(ص ص ١٣٥ ـ ١٩٠) ، أما بقيتها .. (١٥٠ ـ ٢٥٠) فيخصصها "للمشكلة السكانية" .. بأبعادها وحلولها.

الهجرة الخارجة

يمهد لها بنبذة قصيرة عن الهجرة الداخلة ، هذه التى تعرضت لها تاريخيا .. من جيرانها وغيرهم ، ويشير إلى ما سبق له تتبعه فى الجزء الثانى من كتابه (فصل ١٩ ص ٢٥٥ ـ ٣٥٨) .. من اجتذابها لهجرة عناصر بشرية متعددة ، منتهيا الى انها قد شهدت فى العقود الأخيرة. خروج معظم من وفد اليها بعد الاستعمار البريطانى واستقر بها ، ويسميه "الخروج الأبيض" .. (ص ١٣٤) .. باعتباره أوربيا فى معظمه .. بعد سنة ١٩٥٦ خاصة .. كما يرصد (.. وهذا هو الأهم ارهاصات الخروج المصرى .. وبوادر الهجرة الخارجة بعيدة المدى ، والمحصلة .. انه فى نفس الوقت الذى رحلت فيه الجاليات الأجنبية عنها ، تحولت هى نفسها الى الهجرة الخارجة ، بعد الهجرة الينا .. اصبحت الهجرة منا .. انقلاب تاريخى بأى مقياس ، يفتح صفحة ، جديدة تماما فى كتاب مصر ، ص ١٣٥) ، ولا يدع رصده دون أن يؤكده ، ويضيف مفسرا هذه الحقيقة التاريخية فى تاريخ مصر السكانى ، مضيفا لمسة لها دلالتها الى شخصيتها بعامة (.. إن مصر بلد جعل للهجرة من .. لا إلى ، الهجرة الخارجة لا الداخلة ، واذا كان العكس تماما هو ما حدث تاريخيا وكأمر واقع ، فان العكس تماما هو التعبير

الحق والواجب عن شخصية مصر الكامنة الحقيقية ، ذلك ان البديل الوحيد عن الهجرة من مصر المتناهية الرقعة الزراعية هو ، كلما زاد عدد سكانها عن قدراتها الطبيعية والاقتصادية القصوى ، المزيد من تعظيم الانتاج ، أى التوسع الراسى ، إلى أن تأتى النقطة التى لا مزيد عليها من التوسع ، وعندئذ تتحتم الهجرة الى الخارج ، والا فانه انخفاض مستوى المعيشة باطراد الى خط الجوع ونقطة ماتحت الصفر أو الأدمية ثم المجاعة فحاجز الموت جوعا فى النهاية ، جـ ٤ ، ص ١٤٢) ، واذا كانت الهجرة الخارجة قد تأخرت .. فربما يكون ذلك مع الكثافة الطافحة .. من أسباب (طمس الشخصية المصرية السوية .. كما حدث ، ص ١٤٢) .

ومن هنا ترحيبه بها .. وتوقعاته الايجابية .. لها .. (.. اننا نعيش الآن انقلابا حقيقيا وتاريخيا فى عملية ، أكاد أقول فى عقلية الهجرة المصرية ، فلأول مرة فى تاريخنا الحديث ، وربما فى تاريخنا المعروف ، تخرج من مصر موجة هجرة بالجملة ، تنتشر فى اطار جغرافى عريض ، صحيح انها .. حديثة ليست دائمة .. بل مؤقتة .. لكنها متجددة ، ويبقى بعض الوقت كى نحكم على طبيعتها النهائية ، الا انها غالبا جاءت لتبقى ، بل لعلها لا تعدو مجرد البداية ، وطلائع مد مستقبلى أعظم ، جـ ٤ ص ١٤٢) .

وبعد توصيفها يصنفها كعادته الى مراحل ثلاث (جنينية ، تكوينية ، انفجارية) ، وقد بدأت الثالثة مع منتصف

السبعينات ، حيث وصل الخروج المصرى الى أعلاه ، مثل كرة ثلج مليونية ، بل وقفزت بين ٧٣ ـ ٨٣ إلى ٣,٥ مليون وبصيغة نسبية الى مجموع سكان مصر ، تحرك حجم الهجرة من ٠,٣٪ سنة ١٩٦٥ إلى ٣,٧٪ سنة ١٩٧٦ إلى ٧٪ أى نحو الضعف سنة ١٩٨٣ (ص ١٥٣) ، وكما لا تكاد أسرة فى أى مدينة أو قرية أو عزبة .. الا ولها عضو مغترب فى الخارج ، فقد كونت تجمعاتهم المتزايدة فى العالم العربى أكثر من مصر صغرى litlle Egybt في عدد من دوله (جـ ٤ ص ١٨١) ، وبذا لم يعد المصرى يمكن أن يوصف بأنه قعيد بيته Seadentee ، وتضع نهاية تصوره انسانا نباتيا مغروس جذره فى طمى النيل (.. درس الهجرة والمهجر بعبارة أخرى هو ان الانسان المصرى هجرى لا ميلادى فحسب ، ص ١٨٣) .

ورغم حماسه الفائق للهجرة (.. التى ينبغى أن تتضاعف أضعافا ، جـ ٤ ص ١٨٤) . ليس فقط كمساهمة فى حل مشكلة مصر السكانية ، وانما كانطلاقة نحو العالم المعاصر (البالغ السيولة والدينامية) ، لكنه لا يطلق دعوته دون محاذيرها ، ويخضعها للدراسة النقدية تحت عنوان "الهجرة فى الميزان" (ص ص ١٨٤ ـ ١٩٠) ، ويضيف الى ما سبق من ايجابياتها (.. ان الهجرة هى أحد الجوانب المشرفة فى ثروة مصر البشرية ، واذا كانت فى معظمها مادة خاما ماتزال ، فانها بالتعليم والعلم والتكنولوجيا جديرة بأن تتحول الى سلعة تصدير مصنعة رابحة ورائجة ، وبذلك وحده يمكن

تعظيم الهجرة المصرية إلى الخارج الى أقصى حد ، وهذا التعظيم قد يأتى ـ دون تناقض ـ بتحجيمها ، تحجيمها بتخطيطها لا بتقييدها ، وتخطيطها كيفيا لا كميا ..) ، وهو يتجاوز ما أحاط بها من حساسيات وتشوهات ، بل ويستخلص من ذلك ايجابياته (بأن الهجرة قد أعادت تقديم العرب الى العرب عامة .. ومصر الى العرب خاصة ، وذلك بعد طول ابتعاد فى عصر الاستعمار ..) ، ويتصاعد بالفكرة ويرى فى الهجرة المصرية (.. أداة مجسمة من أدوات عملية تمصير العرب ..) ، كما يراها تجربة عملية فى تطبيق الوحدة العربية (.. فإن التجربة كابح واقعى للأوهام ، مثلما هى حافز منبه ضد اخطار الاقليمية الضيقة ..) .

أما صيحته التحذيرية فتتلخص فى سؤاله عن "مستقبل الهجرة" ، مبعثها ما أصبح يحيطها من شكوك عميقة محلقة (.. فبينما كانت أوائل السبعينات هى بداية المد ، بدت أوائل الثمانينات وكأنها بداية الجزر ، وربما تنفجر فقاعتها فى التسعينات ، ذلك الانفجار المدوى الذى سيكون له نتائجه واثاره التى تفوق خطرا فرقعته ودويه ، ص ١٧٦) ، ويرى بضرورة الاعداد والاستعداد من الآن لعودة الطيور المهاجرة ، وترتيب الاتفاقيات مع دول البترول على جداول زمنية تدريجية لعملية التسريح الحتمية ، حتى تخف صدمة التيار الراجح والتوازن الجديد إلى الحد الأدنى .. والا (.. فإن متاعب خطيرة متفجرة لابد من انتظارها) غير أنه يجدد دعوته إلى رفع مستوى العمالة المصرية .. بحيث تبقى دائما

محل الطلب في الأسواق الخارجية ، وليس بالضرورة الأسواق البترولية .

وهكذا بعد تقليب الهجرة الخارجة على وجوهها ، يصل إلى المشكلة .

المشكلة الأم

والآن يصل به المطاف إلى "مشكلتنا السكانية" (.. هى واحدة من أخطر ملامح الكيان المصرى المعاصر ، انها المشكلة الأم .. حتى ليصح ان نضعها قاعدة عامة فى كل مشاكلنا ، فتش عن السكان ، ص ١٩٠) .

ويبدأ بتشخيصها تحت عنوان "سباق السكان والموارد" (ص ١٩٠) ، مستخدما مؤشرات (الفرد والأرض + الفلاح والأرض + الكفاية الغذائية + اتجاه الدخل) ، منتهيا الى تشبيهه بسباق السلحفاة والأرنب (١٩٦) ، السلحفاة للموارد والسكان للأرنب بداهة .

أما أعراض المشكلة فتتمثل فى (العمالة والبطالة + الريف والزراعة + المدن والتحول المهنى + هجرة العقول + دولة الموظفين + مستوى المعيشة + التغذية والمركب الغذائى + الصحة والمركب الباثوجينى) .

منتهيا إلى اثارة سؤال هام ـ حول معنى الافراط السكانى ؟ .. باعتبار ان الافراط يبدأ حين يختل التوازن بين السكان والموارد .. فهل حدث ذلك فى مصر ؟ وما هى نسبة

الافراط فوق الحجم الأمثل بالضبط ؟ وتقتضيه هذه الاسئلة تقديم وجهات النظر المختلفة حول الموضوع (ص ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧) ، حيث يقرر أن لب القضية كمية وكيفية معا (.. أناسٌ أكثر مما ينبغي .. من نوعية أقل مما ينبغي ، ص ٢٢٧) ، وتحت عنوان "حلول أربعة" (ص ٢٣٤) يقدم تصوره العام لحل المشكلة .

★ اعادة توزيع الدخل :

(.. لابد من اعادة توزيع الدخل القومى توزيعا عادلا على الجميع ، فهذا من شأنه أن يخفض من الاستهلاك غير العادى وغير العادل للطبقات الغنية الطفيلية من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرفع مستوى معيشة الطبقات المعوزة ، بما يؤدى فى النهاية الى خفض معدلات نموها سكانيا ، ص ٢٣٦) .

★ زيادة الدخل القومى :

(أيا كان الفاعل والمفعول به بين طرفى المعادلة ، فلابد من الاستناد الى استراتيجية للتنمية ، وليس من حق أحد ان يدعو الى غير ذلك من حلول .. قبل أن يرتاد ويستنفذ الحل الاقتصادى تماما ، ص ٢٣٦) .

★ الهجرة :

(.. من المؤكد أنها قد ساهمت بعوائدها فى حل المشكلة السكانية .. أو تخفيضها ، ولا مجال للخوف من سلبياتها ، وبالحجم المناسب لن تؤثر فى الاقتصاد المصرى مطلقا . ص ٢٤٠) .

★ ضبط النسل :

(.. واقع الأمر .. أن ضبط النسل .. مفتاح تخطيطنا القومى لحل المشكلة ، ص ٢٥٠) .

وإذا كانت المشكلة السكانية . هى مشكلة مصر بعامة ، فانها تتمثل فى أعقد تداعياتها فى عاصمتها القاهرة ، هذه التى تجسد فى حد ذاتها .. مشكلة مصر الثانية ، ليس فقط من حيث ما تعانى هى منها ، بل وأيضا فيما يؤدى اليه تضخمها من مشاكل .. تصيب القطر كله ، ومن ثم يتوجه بعد السكان لها . (فصل ٣٩ ص ص ٢٥١ ـ ٣٩٥) .

المركزية العاصمية (قاهرة مصر)

يفسر بالمركزية الجغرافية تفرد موقع القاهرة ، فهى تقع عند رأس الدلتا .. عقدة مصر العظمى (.. مقدمة خاصرة الوادى بكل معنى ، تؤدى كل الطرق إليها ، عنق الزجاجة ، عنق مصر ، مركز الثقل الطبيعى هندسيا ، ونقطة الارتكاز ميكانيكيا ، ومركز الثقل بشريا ، ص ٢٦٥) ، وبذا يفصح عنوان الفصل عن دلالته ، وتغدو هذه الدلالة مدخله لدراسة القاهرة .. وكشف خصائصها الناجمة عنها ، على أن القاهرة .. ليست وليدة الجغرافية فقط ، بل هى من اختيار التاريخ أيضا ، فرغم تغيرات موقع عاصمة مصر عبر تاريخها ، فقد استقطبتها رأس الدلتا عامة .. قرابة ٢٥٠٠ سنة متقطعة . بما يعادل نصف تاريخ مصر (ص ٢٦٥) .

ومع تعدد مناهجه .. إلا أنه يتخذ من التحليل المكانى محوره .. يفسر بها مركزيتها الصارمة .. كخاصة أساسية دعت لظهورها .. وتخللت نسيجها . وأفضت إلى ايجابياتها وسلبياتها فى المحصلة .. لها ولمصر كلها ، ومن ثم يصدرها .. ويجعل منها العنوان الرئيسى لفصلها ، ويصيغها فى مقولة مكثفة (مركزية رغم الامتداد) تخص القاهرة ، كما ان لها دلالتها العريضة عن جانب هام من شخصية مصر الاقليمية .. (.. لعل من أبرز ملامح شخصية مصر ، المركزية المصارخة طبيعيا واداريا وحضاريا ، وهى صفة متوطنة مزمنة حتى اليوم ..) ، يفسرها ويتابعها (.. وترقد الطبيعة بوضوح خلف هذه الظاهرة ، فنحن ابتداء ازاء مركزية مورفولوجية ، أى تركيبية ، أى جغرافية صريحة ، فتبلور الوادى الضئيل داخل شرنقة الصحراء الشاسعة .. وتجسمه حول النيل ، يجعله جسما ملموما ونسيجا ضاما ، ص ٢٥١) .

ولكن هذا التجسم حول النيل .. يحمل داخله امتدادا .. يجعل من مصر المعمورة (مسافة لا مساحة ص ٢٥١) ، فالصعيد يفتقر إلى قلب طبيعى ، يجعل منه امتداده الخطى طولا بلا عرض ، أحادى الحركة والتوجه ، لا تتميز فيه نقطة عن أخرى ، وكذلك الدلتا التى تخلو من بؤرة حاسمة ، فلئن كان بها حزمة من خطوط طبيعية على المحور الشمالى الجنوبى ، متمثلة فى فروعها وترعها ، فإنها تعدم أى محاور طبيعية عرضية تتعامد عليها ، وتؤدى إلى عقدية طبيعية

madality فعالة (ص ٢٥٢) ، وقد اتسق مع هذا الامتداد والانسياح .. توزيع العمران والمواصلات .. مؤكدا صورتها العامة (.. الصعيد كالدلتا تقريبا .. هذا خط بلا بؤرة .. وهذه رقعة بلا عقدة) .

وهكذا يفسر عنوانه "مركزية رغم الامتداد" .. ويوضحه ، منتقلا إلى مقولته الثانية (تكاد القاهرة تلخص كيان مصر البشرى) حيث هى بحكم موقعها المركزى بين الدلتا والصعيد .. تستمد سكانها بتوازن معقول من كل اقاليم الدولة ، وبالتالى تؤلف بحق عينة ممثلة لمصر (ص ٢٦٩) ، بل هى تلخص كيانها الطبيعى أيضا ، بل انه الأسبق ، فالقاهرة مروحية الشكل ، ضيقة طولية فى الجنوب ، وهذا هو هيكل الأرض السوداء فى مصر عموما ، هى اذن تختزل شكل مصر الجغرافى أيضا ، بل هى فوق ذلك تختزل تاريخها فى تركيبها ، حيث تقع بين قوسين معلقين من التاريخ القديم .. الفرعونى غربا والاسلامى شرقا ، فى حين ترقد المدينة الحديثة فى القاع المنخفض بينهما ، هى ثالثا اذن (.. خير نقطة فى مصر تختزل تاريخها ، ص ٢٦٨) .

ولأن المركزية تورث الحجم .. فقد نمت القاهرة وأفرطت فى تضخمها ، من مدينة مليونية سنة ١٩٢٧ بنسبة ٨٪ إلى جملة سكان مصر ، إلى أكثر من ٥ ملايين سنة ١٩٧٦ ، دون حساب هوامشها العشوائية ، وفاضت خارج كردونها (٢١٤ كم^{٢}) ، وافترشت عمليا قرابة ٢٩٠٠ كم^{٢} ، متضمنة اقليم العاصمة المدنى بمعناه الواسع ، وفراغاتها المحيطة ،

والقرى والعزب القريبة ، وأجزاء من بعض المراكز الريفية فى الجيزة والقليوبية ، هذه التى دخلت أو أوشكت ضمن نسيجها المتروبوليتانى (ص ٢٩١) ، وتبعا لأرقام ١٩٨٣ بلغت نحو ٩,٣ مليون نسمة ، أى نحو ٢٠٪ من جملة سكان الدولة ، أى ضعف نسبة العاصمة فى الدول الناضجة حضاريا (ص ٢٩٢) ، وصفوة القول أن حجم القاهرة ليس فقط أكبر جدا مما يتناسب مع حجم سكان البلد ، ولكن أيضا مع أحجام سائر المدن فى البلد عدا الاسكندرية .

ويتابع احصائيا نموها (.. لقد أصبحت "القاهرة" مدينة مليونية منذ تعداد ١٩٢٧ ، بنسبة ٨٪ الى جملة سكان مصر ، ثم تضاعفت بعد نحو عقدين .. وترتفع نسبتها إلى ١٠٪ ، وأضافت المليون الثالث قبل أقل من عقد .. وتزيد نسبتها إلى نحو ١٣٪ ، وفى أكثر قليلا من نصف عقد أضافت المليون الرابعة ، وزادت عن ٥ ملايين فى ارقام ١٩٧٦ ، دون حساب هوامشها العشوائية المكدسة ، وفاضت خارج كردونها المساحى ٢١٤ كم^2 الذى لم يعد سوى القاهرة الصغيرة بملايينه الخمسة ، أما القاهرة الكبرى فقد افترشت عمليا أكثر من عشرة أضعاف هذه المساحة (٢٩٠٠ كم^2) متضمنة إقليم العاصمة المدنى بمعناه الواسع ، وفراغاتها المحيطة ، والقرى والعزب القريبة وأجزاء من بعض المراكز الريفية فى الجيزة والقليوبية .. هذه التى دخلت أو أوشكت ضمن نسيجها المتربوليتانى تضم تبعا لأرقام ١٩٨٣ نحو ٩,٣ مليون نسمة .. أى نحو ٢٠٪ من جملة سكان الدولة ، أى ضعف نسبة العاصمة فى الدول الناضجة ريفيا وحضريا ،

(وفى المرتبة السادسة بين أكبر مدن العالم حجما .. سابقة بذلك بكين الصين ذاتها (ص ٢٩١) .

وتصل التوقعات بها فى ١٩٩٠ إلى ما بين ١٣ - ١٦ مليونا (٢٦٪ من الحجم المتوقع لسكان الدولة ، ويقدر أن تبلغ دائرة ٢٠ مليونا مع سنة ٢٠٠٠ وربما ٢٨ مليونا .. وبذلك تستوعب أكثر من ثلث حجم الدولة المتوقع لها أيضا آنذاك .

وصفوة القول إذن أن حجم القاهرة ليس فقط أكبر جدا مما يتناسب مع حجم سكان البلد ، ولكن مع أحجام سائر المدن فى البلد عدا الاسكندرية فقط .

المركزية الوظيفية

ليس هذا فحسب .. فقد اقترن بالمركزية العاصمية منذ وقت طويل .. تركز شديد للوظائف الحضرية فى شتى أشكالها ، تمثل أولا فى الوظيفة السياسية (.. لقد كان لمصر دائما دور خارجي ، غالبا بدرجة أكبر من امكانياتها ، بدت معه كرأس كبير ينوء به جسم صغير ، تركزت بها كل المسئوليات والتطلعات الخارجية ، ومن هذا التناقض نشأت متناقضة العاصمة الكاسحة والجسم الكسيح ، ص ٢٨٦) ، واقترن ذلك بدور الحكومة الطاغى ، وأرسى نواة الموظفين الثقيلة ، واصبحت البيروقراطية المركزية عنصرا أصيلا فى مركب الحضارة المصرية (ص ٢٧٠) ، ولقد نما عدد الموظفين

الحكوميين فى العقود الأخيرة نموا هائلا ، قاربت دائرة الملايين الثلاثة ، تعادل أكثر من ٣٠٪ من مجموع القوة العاملة فى مصر (٢٧٥) ، ورغم الحكم المحلى ، يظل جيش الموظفين فى العاصمة ، لقد كانت القاهرة دائما كما يصفها جاك بيرك قلعة قديمة لمركزية الدولة (ص ٢٧٦) .

وهكذا تدحرجت مركزية العاصمة مثل كرة الثلج ، لتصبح القاهرة فى اللاندسكيب الحضرى المصرى أقرب لأن تكون الورم الأكبر (.. لقد تحولت القاهرة من مجمع مدنى إلى كائن يمتص دم الأقاليم ..) ، ليس فقط أراضيها المزروعة ، بل ورؤوس أموالها أينما كانت (.. بعدما كانت الأرض الزراعية بالوعة مصر الاقطاعية ، اصبحت القاهرة بالوعة مصر الرأسمالية) ، ولئن كانت القاهرة لا تتعدى خمس الدولة من حيث العدد المطلق ، فلعلها تزيد عن النصف من حيث الوزن والثقل الفعال ، فلو أننا قيمنا الدخول المرتفعة والعقارات والأملاك والصناعات والمرافق والخدمات الراقية ، وكذلك مالا يمكن تقييمه رقميا كالسلطة والنفوذ ، فلقد ترجح العاصمة كفة بقية البلد ، ص ٣٣٧) .

ولقد امتد ذلك الى صدرها هى نفسها ، لقد تجاوز التضخم حد التخمة المرضية الى التفجر الباثولوجى ، فباتت كل مؤسسات العاصمة تئن وتتآكل وتنهار تحت ضغط سكانى متفاقم ، واذا كان لذلك من معنى فهو بلاشك أن مصر باتت تتألف من مدينة كبرى وقرية كبرى ، المدينة الكبرى هى

العاصمة ، والقرية الكبرى هى الأقاليم ، ولم يكن تضخم العاصمة hyperlrophy سوى نتيجة لضمور الريف atrophy (ص ٢٨١) .

وقبلما يفسر الآليات التى أدت إلى هذه الثنائية المرضية .. يحدد مؤشرات تفاقم مشكلات العاصمة فيما يلى :

★ تلتهم القاهرة ١٤٤٠ فدانا كل سنة من الأراضى الزراعية .

★ تبلغ كثافتها العامة نحو ٢٤ ألف/كم^{2} (أكثر من ٣٠٠ نسمة/فدان) ، وتصل الى ١٠٠ ألف نسمة فى أحياء روض الفرج وباب الشعرية (٣٥٤) .

★ يخص الفرد من المساحات الخضراء والمفتوحة ١,٦ م^{2} مقابل ١٢ ـ ٤٠ مترا فى المدن المتوازنة .

★ تتدفق اليها هجرة الفقراء والمعدمين النازحين من الريف ، فتتحول هوامشها الى معسكرات انتظار ومدن وعشش الصفيحShanty towns , bidonvilles تمثل الريف فى العاصمة أو عملية ترييف المدينة .

★ أكثر من ٢٥٪ من مبانيها آيلة للسقوط ، وقد تجاوز ٤٠٪ منها عمرها الافتراضى ، ونسبة ثالثة لا تصلح للآدميين (٤١٪ من سكان حى الخليفة ، ٢٨,٨٪ من سكان الجمالية ، ١٣,٣٪ من سكان الدرب الأحمر.. يقطنون المقابر..) ص ٣٥٦ .

★ اختناق حركة المواصلات ، وغياب التخطيط بين مواقع السكن والعمل .

★ التلوث .. الرصاص عشرة امثال المتوسط العالمى .

وينفى أن تكون الجغرافية وحدها (المركزية المكانية) وراء تلك الثنائية المختلة ، هى قد تؤدى اليها فى نسبة معينة .. ولكنها تعود بعدها لغيرها ، عوامل تاريخية واجتماعية وسياسية وحضارية ، بل والى (.. عوامل آلية بحتة كامنة فى ميكانيزم نمو المدن .. تتداعى بها مثل كرة الثلج ، ص ٢٨٣) فلئن كانت المركزية تورث الحجم ، فان الحجم أيضا يورث الحجم ، والكل يرتبط فى النهاية بصورة أو أخرى بسياسة "دعه يمر" التى تترك الأمور تجرى عشوائيا فى أعنتها ، ويفيض بعد ذلك فى تحليل هذه العوامل غير الجغرافية (البحتة)، فى متابعة تاريخية يبرهن بها على مقولته ، كما يستخلص منها دلالاتها الأخرى (جـ ٤ ص ص ٢٨٣ ـ ٢٩٠) ، محددا انعكاساتها الاخرى هذه التى تكاد تتطابق معها شكلا ومضمونا مثل :

- الهرم الطبقى الاجتماعى .
- النظام التعليمى .
- مورفولوجية العمران والبناء
- البيروقراطية الوظيفية .
- الاستثمارات الرأسمالية .
- الدور السياسى الاقليمى .
- الهجرة الريفية .

● التركيز الصناعى .

وتحت عنوان "حماقة العاصمة الجديدة" (ص ٣٦٠) .. يضع مناقشته للحلول المطروحة لحل مشاكل القاهرة ، ويفصح العنوان عن رأيه المبدئى فى هذا الاقتراح .. بانشاء عاصمة بديلة لها ، مفندا المواقع المقترحة كبدائل لها ، منتهيا الى أن (.. القاهرة - ليست نبتا شيطانيا ، بل ليس فى الدنيا عاصمة أكثر منطقية وطبيعية من القاهرة ..) .. إذن فموقعها ليس المشكلة ، ويتبعه بمناقشة اقتراح "العاصمة المغلقة" (ص ٣٧٠) ويراه حلا مناسبا .. على الأقل .. لوقف التفجر الراهن فى نموها ، ويفضل غيره ، وقد يؤدى الى تثبيت حجمها ، مذكرا بما اقترحه يوما .. من تثبيت حجم القاهرة عند دائرة (٧ ملايين نسمة) كسقف أعلى لنموها .. وكذا بالنسبة لغيرها من العواصم الإقليمية المتنامية ، ولكن بما أن ذلك قد فات .. ولم ينتبه أحد لدعوته .. فإن تثبيت الحجم باغلاقها .. لم يعد كافيا .. بعدما تضاعف حجمها عما اقترحه ، وفى مقابل ما يسمى "بالقاهرة الكبرى" (.. وهى عنده خطة تضاعف من حجمها ومشكلاتها .. ومن ثم فهى قطعة من جنون الضخامة . سوف تؤدى كالديناصور إلى انتهائها ، ص ٣٧٢) ، ويستبدلها بخطة متناقضة . تتحدد بعد (الغلق + التثبيت) فى تنصيفها ، مستندا فى ذلك الى مبادىء الإقليمية المتوازنة .. التى ترى الصورة ضمن اطارها الأوسع .. بهدف التوصل الى شبكة حضرية فعالة بقدر ما

هى متوازنة ، ويتوجه نحو وضع بنود تنصيفها عمليا كما يلى :

★ تحويل القاهرة الى عاصمة سياسية فقط .
★ ايقاف النمو الصناعي فورا بها .
★ تخليصها مما يحيطها من أحياء الصفيح والعشش .
★ التوقف عن انشاء المدن الجديدة .. بالقرب منها وحولها .

.. (باختصار ليس المطلوب مدنا جديدة .. ولكن مدينة منصفة ، لا القاهرة الكبرى هى المطلوب ، وانما القاهرة الصغرى ، جنبا الى جنب وشرطا مع الاقليمية الكبرى .. نقطتنا التالية ، ص ٣٧٨) .

وهكذا يتحدد اقتراحه (الغلق + التثبيت + التنصيف) .. مستندا كما سبق .. إلى مبادىء الاقليمية Regionalism الراسخة ، والرامية إلى تفكيك المركزية الصارخة .. لحساب عواصم بقية اقاليم مصر كلها ، ومن ثم فليس تخطيط القاهرة عملية منفصلة بذاتها .. ولا يجب (حسنا إذن .. كيف الآن نعيد بناء أقاليمنا ؟ ص ٣٨١) .

وتستغرق اجابة هذا السؤال ـ بقية صفحات هذا الفصل (٣٩ ص ص ٣٨١ ـ ٣٩٥) ، يحدد رؤوس إجابته عن التنمية الاقليمية فيما يلى :

★ اعادة وبعث واحياء المدن والعواصم الاقليمية .
★ اعادة بناء القرية :

★ اعادة تخطيط هيكل التقسيم الادارى (ص ٣٨١) .

ويفصل فى كل منها كما ينبغى ، كما يقدم اقتراحه بشأن خريطة التنمية الاقليمية (ص ٣٩٥) ، هادفا فى المحصلة .. إلى احلال اللامركزية .. محل المركزية الموروثة المتوطنة .

وبها ينهى هذا الفصل الذى خصصه "لمشكلتى السكان والقاهرة" .. باعتبارهما أبرز أمراض خريطة مصر الاجتماعية ، منتقلا بعده (فصل ٤٠ ، ص ص ٣٩٩ - ٤٧٩) إلى تحليل عدد من سماتها الحضارية المتميزة .

تعدد الأبعاد

كما سبق .. فإن لكل فصل من فصول الجزء الرابع من كتابه .. مفتاحه .. يضعه كعنوان له ، يحصد به ما سبق بذره فى فصول أجزائه السابقة ، يستهله بتعدد الأبعاد فى شخصية مصر ، ثمرة للجزء الثانى عامة ، ولنظريته السارية عن الوضع والموقع خاصه ، وكما أن التجانس فى شخصية مصر خاصية للموضع ، فان تعدد الأبعاد فى كيانها وظيفة للموقع (.. تعدد الأبعاد والجوانب فى كيان مصر وتوجهها نتيجة متوقعة للموقع البؤرى فى قلب مثلث القارات ، فمصر حلقة للوصل من العالم المتوسطى وبين حوض النيل برمته ، وعلى الجملة بين افريقية وأوربا ، وتتحدد لنا فى المحصلة

العامة أبعاد أربعة فى توجيه مصر ، الآسيوى الافريقى على مستوى القارات ، والنيلى المتوسطى على المستوى الاقليمى ، جـ ٤ ص ٣٩٩) ، وكلاهما (التجانس + تعدد الأبعاد) من أدوات فحصه لشخصيتها .. واستخلاص مكنوناتها .. وتحديد هويتها (.. على ان الكل يتداخل مع الاطار العربى الكبير ، بيد أن الاطار العربى ليس مجرد بعد توجيهى ، وانما كيان الجوهر فى ذاته .. هو الوجه والهوية ، ص ٤٠٠) ، والهوية عنده ثقافية فى جوهرها ، ومن هنا فلا تعارض وبين تقريره (مصر هى النيل) .. فرغم أنه أقوى وأعمق ما يربط مصر بخارجها .. بما يجعل من البعد النيلى فى طليعة أبعادنا الخارجية أولا .. ومحوريا فى بعد مصر الافريقى ثانيا ، الا انه لم ينقل اليها مع مائيته وتربته "ثقافة افريقية" ، بل كان وسيلة نقل الثقافة العربية الى داخل افريقية ، وبما انه بصدد تحديد ملامح شخصية مصر الحضارية .. فالثقافة هى أول ما يهمه .

فاذا كان النيل هو مصر ذاتها .. والعروبة هويتها .. فما دور البحر المتوسط فى شخصيتها الحضارية ؟ ، وتقتضيه اجابة هذا السؤال بحثا مطولا فى حضارة البحر المتوسط ، ومناقشة مسهبة لكافة الآراء التى عرضت لعلاقة مصر بحضارته ينتهى منها إلى .. (.. وأن البحر المتوسط من أبعاد التوجيه الحضارى المصرى .. قضية لا يمكن بداهة أن تكون خلافية ، فالنيل اذا ينحدر شمالا ليصب فيه ، والحياة المصرية اذ تجرى مع النيل نحوه ، فإن مصر برمتها تتوجه

اليه وتتطلع نحو الشمال ، والبلد اذ يطل عليه بجبهة مشرفة مترامية نوعا ، واذا يمثل البحر أحد ضلوعه الأربعة ، أو بالأصح الضلع الوحيد الحى الذى يتصل مباشرة بالمعمور الصرى ، باعتبار الضلع العربى ميتا .. والجنوبى والشرقى شبه ذلك ، نقول ان البلد بهذا لا يملك الا ان يتفاعل مع البحر ويتعايش ، أى ان احاطة الصحراء بمصر . كما بالشام والأناضول وجهتها كما وجهتهم نحو البحر المتوسط ، كما ربطتهم ببعضهم البعض ، وربطتهم بأوربا من خلفه ، كما يرتبطون بافريقيا واسيا ، ان مصر وفورا ولا تردد .. توسطية أكثر مما هى مدارية أو افريقية ، جـ ٤ ص ٤٤١) .

ويتساءل عن وزن أبعاد مصر فى شخصيتها ؟ وعن نسبها فى تكوين هويتها ؟ ، وعن دورها بالنسبة لكل منها ؟ (ص ٤٥٩) ، ويجيب .. (قد يكون من المفيد أن نفرغ أولا .. من أن الأبعاد البحرية تأتى فى الحل الثانى بالضرورة .. اذا ما قورنت بالأبعاد القارية ، ويتحدد المجال البحرى المصرى تقليديا بالبحرين المتوسط والأحمر ، والثقل الأكبر فى الأهمية للمتوسط ، واذا كان كل منهما يستمد جزءا اساسيا من قيمته العالمية من الآخر ، ودون تناقض .. فدور مصر فى البحر الأحمر أكبر نسبيا من دورها فى البحر المتوسط ، واليوم فإنها بلا نزاع محور استراتيجية البحر الأحمر الأساسية والحربية ، ص ص ٤٥٩ ـ ٤٦١) .

وتحت عنوان له دلالته "تعدد لا انفصام" .. (ص ٤٥٩) يقرر (.. وداخل هذه الدوائر .. لم تصب مصر عادة بدوار جغرافى ، ففيما عدا الانتماء العربى المؤكد .. فنحن مصريون قبل أن نكون افريقيين أو اسيويين أو أوربيين ، نحن فى افريقيا ولسنا منها ، ومن أوربا ولسنا فيها .. ولسنا فى آسيا .. ولكن إليها ، ذلك أننا فى افريقيا الجغرافية والأرض ، ومن أوربا إلى حد ، وإلى اسيا بالتاريخ والثقافة ، ص ٤٦٨) ، وداخل هذا الاطار .. فإن لمصر علاقة خاصة بكل من السودان والشام .. يحددها فى سياق سابق .. حيث يقرر (.. ولا يمكن أن نتكلم عن البعد النيلي لمصر .. دون أن نضع أكثر من خط تحت السودان ، فمع موقع الجوار الجغرافى ، ووحدة النيل الهيدرولوجية .. أصبح من أشد الأقاليم ارتباطا بمصر طوال التاريخ ، شأنه فى ذلك شأن الشام .. حيث الرابطة هى موقع الجوار والوحدة الاستراتيجية ، أى بين مصر والسودان .. كما بين مصر والشام علاقة خاصة .. بمعنى ما ، وكلتا العلاقتين قديمة .. وسابقة للعروبة كما هى لاحقة عليها ، ص ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨) .

وبين هذه الأبعاد .. فإن مصر هى البوصلة الراسخة ، ومقياس الأبعاد كلها يتحدد فى انتمائها القومى (.. أى العروبة .. الكيان والجسم نفسه .. قبل أبعاده ، فالقومية العربية وحدها تحفظ توازنها.. ويمنع عنها الاصابة بالدوار الجغرافى بينها ، ذلك هو المصل المضاد لخطر الدوار

الجغرافى فى قلب العالم ، ص ٤٦٩) ، وسيعود إلى تأكيد هذه الحقيقة مرارا وتكرارا في بقية صفحات هذا الفصل .. وما يتبعه .. إلى نهاية كتابه .

وبعد تعدد الأبعاد .. ينتقل إلى "التوسط والاعتدال" .. كسمة بارزة فى قسمات شخصية مصر الحضارية ، يخصص لها الفصل التالى (٤١ ص ص ٤٨١ ـ ٥٥٠) من هذا الجزء الثانى من كتابه .

التوسط والاعتدال

وتأتى مقولته عن "التوسط والاعتدال" لتتكامل مع سابقاتها (التجانس + المركزية + تعمد الأبعاد) هذه التى تميز مع ما يأتى بعدها شخصية مصر الحضارية ، وجميعا بمثابة أدواته لفحص جوانبها والكشف عن أسرارها العميقة ، حيث تثبت تطبيقاته لها تخللها نسيج هذه الشخصية .. وتجليها بدرجة أو بأخرى فى عناصرها ومكوناتها (.. ليس من قبيل التبسيط أن تعد التوسط والاعتدال من أبرز السمات العامة فى شخصية مصر والشخصية المصرية ، فالوسطية والتوازن سمات رئيسية عريضة فى كل جوانب الوجود المصرى تقريبا ، الأرض والناس ، الحضارة والقوة ، الأخذ والعطاء ، جـ ٤ ص ٤٨١) .

ويعود فيؤصل هذه السمة فى المكان . بشأنها شأن غيرها (.. سواء من حيث الموضع أو الموقع ، تمثل مصر مكانا وسطا ، وسطا بين خطوط الطول والعرض ، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الانتاج ، وبين القارات والمحيطات ، حتى بين الأجناس والسلالات والحضارات والثقافات ، وبغير فكرة التوسط المحورية هذه - لن نفهم روح مصر أو شخصيتها ، بل يمكن القول أن هذا التوسط هو مصر نفسها ، ص ٤٨٢) .

ثم يدمجها مع نظريته العامة عن "الموضع والموقع" ، ويقدرها وقد انبثقت من توازنهما العام فى مصر (.. نجد فى الموقع والموضع توازنا وتقاربا عاما من حيث القيمة والأهمية ، ونجد بناءً حضاريا يتكافأ مع قوة الأساس الطبيعي ، ونجد فى الحضارة عطاءً يعادل الأخذ أو يزيد عليه ، بالمثل فى الموقع والمناخ ، فى الجنس والسكان وحتى فى الثقافة والدين ، ص ٤٨٨) ، أى أن التوسط والاعتدال يستند الى قاعدة راسخة من التوازن الطبيعي يفصلها (.. يمتاز الموضع بتوازن ملحوظ فى الهيئة ، وذلك بتناظر البحرين والصحراوين والهضبتين على جانبيه ، كما يمتاز بالتوازن فى درجة الاتصال .. حيث تتسم مصر بفضل عزلتها النسبية الخفيفة بالاعتدال والتوازن بين العزلة الجغرافية المنطوية والانسياح أو الانفتاح الكاسح ، أيضا فإن مصر كشبه واحة فى وسط الصحراء ، تعد أيضا شبه واحة ساحلية تجاور البحر وترتكز اليه وتنفتح عليه ، وبالوضع نفسه فإنها

تعد بمثابة جزيرة أو شبه جزيرة نهرية ساحلية بين الصحراء والبحر ، إلا أنها بمقياسها الضخم واحاطة الصحراء تعد فى الوقت نفسه جزيرة قارية من الخارج ، ولكن الغريب بعد هذا أنها من الداخل تبدو كأرخبيل نهرى يتألف من آلاف الجزر من كل حجم ومقياس ، وذلك بحسبانها بيئة نهرية تخنطها وتقطعها مئات الترع والمصارف والقنوات من كل حجم ومقياس ، جـ ٤ من ٤٨٥) .

وتنمو الفكرة وتتصاعد من مستوياتها البسيطة إلى مستوياتها الأعلى ، حيث يؤدى التوازن الطبيعى القاعدى .. الى توازن البنية الحضارية فوقه ، بما يتضمنه ذلك من تفاعل بين شتى العناصر ، يؤدى الى تركيبة قوامها التوسط (... والواقع أن هذه التركيبة الفريدة تقودنا خطوة أخرى الى الأمام نحو أخص خصائص موضعنا الطبيعى ، فهو فى الحقيقة انما يمثل احدى الحالات النادرة مما يمكن أن نسميه "تراكب البيئات" Superimposed enuironments ، فلقد استطاعت الحضارة الحديثة ووسائل النقل بالجملة أن تخلق أخيرا بيئات تركيبية منقولة تتواقع فى نقطة واحدة عن طريق الاحتكاك الحضارى ، ولكن الطبيعة خلقت فى مصر منذ البداية بيئة طبيعية تركيبية تراكبية حين أوصلت النيل من منابعه وبخصائصه الموسمية من قلب افريقيا الى عتبة البحر المتوسط .

وهكذا جمعت مصر بين عدة مزايا نادرة استمدتها من موقعها هى كمصب ومن منبعها كمصدر ، بحيث جمعت بين

محاسن كل منهما دون أضداد أى منهما ، حتى ليمكن القول إنها جغرافية مقطرة مرشحة .. تلك التى ظفرت بها مصر من الطبيعة ، فهى أولا قد أخذت موقع البحر المتوسط المتقدم .. ولكن ليس موقع الحبشة السحيق المتخلف ، وهى قد أخذت من اثيوبيا الجبلية الوعرة المضرسة .. بيئة سهلية منبسطة كأفضل ما يكون الاستواء ، واستمدت منها تربة رسوبية بركانية .. ولكن دون أن تعانى من البركنة والزلازل ثم هى أخيرا قد أخذت مائية الموسميات .. دون أن تأخذ منها رطوبتها الوائدة ومناخها القاسى ، بالاختصار وبصيغة جامعة ، مصر صحراوية المناخ .. ولكنها فى الوقت نفسه موسمية الهيدرولوجيا ، غير أنها أيضا متوسطية الموقع ، جـ ٤ ص ٤٨٦) .

وهكذا تتجمع خاصية التوسط فى شخصية مصر مما لا يحصر من الجزئيات . التى أخذت من كل منها بقدر جنبها ظواهر التطرف بأى صورة ، فمن المستحيل أن تكون شخصيتها تركيبية ومتطرفة فى آن واحد ، فالأخيرة تعنى الأخذ من جانب واحد .. بكمية ونوعية .. تحجب غيره ، أما التركيبية فتعنى تناسب المكونات فى بنية معتدلة متناسبة التكوين ، ويؤكد المعنى باقتباس من المقريزى عن مناخ مصر (.. مصر متوسطة الدنيا ، فقد سلمت من حر الأقليم الأول والثانى ، ومن برد الأقليم السادس والسابع ووقعت فى الأقليم الثالث .. فطاب هواؤها وضعف حرها .. وخف بردها . وسلم أهلها من الأمراض ، ص ٤٨٨)

وبالنسبة للتطور المادى والاقتصادى (.. ٥١٢) .. فقد سبقت مصر الى الأخذ بأسبابه منذ أوائل القرن الماضى وبدت رائدة فى كثير من وجوه التحضر، ولكن أين تقع بالضبط فى خريطة العالم ؟

(.. ومهما يمكن من أمر .. فإن الباحث يحار فيما اذا كانت مصر اليوم دولة شبه نامية أو شبه متقدمة ، فقيرة هى بالتأكيد بمتوسط الدخل الفردى بالقياس الى الدول المتقدمة، ودعك تماما من دول البترول المحدثة ، بحيث يمكن ان تصنف شكلا كدولة انزلقت من العالم الثالث الى الرابع ، غير أنها بمستوى التطور الحضارى والمادى وهيكل البناء التحتى والصرح الفوقى .. تقع بلاشك فوق دول العالم الثالث الجديد ، إن لم تقترب من صغار الدول المتقدمة ، أما المقارنة مع الدول العربية وغير العربية البترولية ، فهى ان لم تكن ظالمة قصيرة النظر حقا .. فإنها على الأقل تنبع أو تعانى من انكسار خطير فى الرؤية ، فالأمر كله شذوذ بحت ، حالة بترولية خاصة ، تكاد تقول حالة بترولية مرضية Petro pathology أكثر منها أى شىء آخر ، ص ٥١٥) والواقع أنها تملك تحوز قدرة فائقة ، على التجانس ، تستمدها من خاصية التوسطية .. التى صارت أداة كما هى سمة ، تتجاوز بها التناقضات الطارئة .. وتتوازن وتتعادل بملكة خاصة . فما هى ؟ -

ملكة الحد الأوسط

يفرق بين التوسط والاعتدال (.. التوسط دراسة فى عبقرية المكان ، والاعتدال دراسة فى عبقرية الانسان ، ص ٥١٧) ، وما الاعتدال والتوازن فى شخصية المصرى .. الا الوجه الآخر لتوسط مصر .. ، وهما معا . الاعتدال والتوسط .. ليس التوازن الخامل .. بل ملكة الحد الأوسط ، بمعنى عدم التطرف والتطوح وقرين الحيوية والتكيف ، أو كما يقول ويلسون عن مصر القديمة (.. فمرونة الأسلوب المصرى والوسائل التى حققوا بها الأمن والسلام .. على أساس التوازن بين القوى المتعارضة .. تدل على عبقرية شعبه ، ص ٥١٦) .

ويبدى تحرجه من دراسة بروفيل الشخصية المصرية ـ على الأساس السيكولوجى وحده ، خشية تهمة التملق عند ذكر المحاسن .. والاساءة عند تحديد أضدادها ، ولكنه يتجاوز حرجه .. ويتساءل هل هناك شخصية قومية مصرية ؟ ص ٥١٨ ، وينهمك فى تحليلاته كدأبه ـ بهدف المساهمة برأى فيما أصبح يعرف بقضية اعادة بناء الانسان المصرى ، وتتحدد اجابته .. (.. تتم اعادة بناء الانسان .. فى إطار من إعادة بناء الديمقراطية ، ص ٥٢١) ، ودعك مما تشتهر به الشخصية المصرية .. من سمات اشتهرت بها عبر تاريخها ، كالوداعة والبشاشة والمحافظة وروح النكتة ، فجميعها من

طبيعته وطبعه ، ولن تعاود هذه الشخصية ابداعها .. إلا بالديموقراطية .. وبدونها يتعمق ما أصاب شخصيته السمحة من تشوه ، وتأخذه هذه مباشرة إلى فرضيته التالية "عن الاستمرارية والانقطاع" .. يستكمل بها ما بدأه من سمات شخصية مصر الحضارية (المركزية + تعدد الأبعاد) فى الفصول السابقة من هذا الجزء ، ومؤصلا لها بما سبق ترسيخه منها فى أجزائه الأخرى (فصل ٤٢ ص ص ٥٥١ـ ٦٢٧) .

الاستمرارية والانقطاع

ثم تأتى مقولته الأساسية عن "الاستمرارية والانقطاع" مدعما جدارتها وموضحا دلالتها (.. ما من كاتب تعرض لتاريخ مصر أو حضارتها .. دون أن يصر على عنصر الاستمرارية فى كل مقوماتها ومقدراتها ، والمهم هو مدى صحة تلك المقولة ، وإلى أى حد بالدقة • تذهب هذه الاستمرارية ، وعند أى نقطة بالضبط يظهر نقيضها .. الانقطاع ؟ ص ٥٥١) ، ويضيف محددا مجالاتها (.. ولكى نضع معادلة الاستمرارية ـ الانقطاع فى ميزانها الصحيح ، لابد أن ندرك أنها معادلة مركبة متعددة الحدود ، فهى إذ تشمل الأرض واليابس ابتداء ، فإنها تضم النواحى المادية واللامادية جميعا وبذا تطوى الحضارة والثقافة معا ، غير أن الاستمرارية تتركز خصوصا فى النواحى المادية ، بينما

الانقطاع الصق بالجوانب اللامادية ، بصيغة أكثر تحديدا الاستمرارية للحضارة أساسا .. والانقطاع للثقافة أساسا ، ص ص ٥٥١ ـ ٥٥٢) .

ويتابع دلائل الاستمرارية فى الأرض والمناخ والفيضان والعمران والزراعة وأسماء الأماكن وتنظم الحكم (ص ص ٥٥٥ ـ ٥٦٣) وغيرها ، حتى يتوصل إلى قانون الاستمرار القاعدى (.. بأن الأشياء تميل فى مصر كقاعدة إلى أن تستمر فى اتجاهها الواحد وعلى خطها المستقيم دون تغيير أو انحراف ، مالم والى ان تصطدم بقوة مضادة لها فى الاتجاه ومساوية لها فى القوة .. فيحدث الانقطاع ، ص ٥٨١) .

وبعد توصله الى هذا القانون الثرى القابل للتطبيق ، يحدد خصائص هذه الاستمرارية .. بأنها تراكمية لا تكرارية ، تضبطها البيئة الطبيعية .. خاصة الموضع والموقع ، فعناصر الموضع (النهر ، المناخ وغيرهما) تعمل بانتظام وباستمرار ودون تغيير ، كما وفر لها الموقع قدرا من العزلة .. والحماية الصحراوية .. حفظتها من الهزات العنيفة أو الانقطاعات الحادة الفجائية (ص ٥٨٦) ، أفضيا ـ أى الموضع والموقع ـ الى تجانس البيئة ـ والى عملية متواصلة من بناء الحضارة .. يطلق عليها "ايكولوجية الحضارة" .. لها جدليتها الخاصة (.. وبها يفسر صعودها فى البداية .. كما يفسر الهبوط فى النهاية .. ثم الاستمرار أو الانقطاع فيما بين

الطرفين ، فعلى الجانب الصاعد .. مثل المركب الحضارى الذي نمته مصر منذ البداية .. حالة تلاؤم بيئى Symboisis وعلاقة فعالة Workable Connection مع ظروف البيئة الطبيعية ، ومن هنا بدت غير قابلة للتجويد عليها ، وبعبارة أخرى فإن التفسير الأساسى للاستمرارية .. إنما يكمن فى ضخامة البداية .. هذه التى وصلت الى سقف البيئة .. والى قرب أعلى آفاق امكانياتها الحضارية ، وعلى الجانب الآخر .. فلم يكن تاريخ مصر بعد البداية الا استمرارا لها .. وبعدها تدهور تدريجى نسبى ، ص ٥٨٨) ، وهى نظرية بدورها خصبة وثرية .

إذن فالاستمرارية قد تحققت للحضارة المصرية .. من وثبتها الأولى المبكرة .. التى استوعبت بها بيئتها . واستوعبتها بيئتها ، فكيف انقطعت ؟ (ص ٥٩٢) وإجابته .. (.. أن قوى الحضارة الغربية ـ منذ الحملة الفرنسية ـ قد أدت الى ذلك تدريجيا ، وانقلبت مصر الزراعية من الرى الحوضى إلى الرى الدائم .. وتغيرت هيدرولوجيتها .. ومن بعدها معمورها ، وتضاعف حجمها السكانى .. بحيث أصبحت أضعاف ما كانت عليه فى تاريخها ، ويفيض فى متابعة كافة ظواهر الانقطاع الأخرى

ويعود إلى فصوله السابقة فى الجزء الثانى من كتابه خاصة هذه التى يتضمنها الباب الخامس (ثوابت جغرافية ومتغيرات تاريخية ، ص ص ٣٦٣ ـ ٦٠٣) ، وبالأخص هذه التى تحمل ذات دلالة مقولته عن الانقطاع والاستمرارية ، م

الفصل العشرون (من السبق الحضاري إلى التخلف ، ص ص ٣٦٣ ـ ٤٥٦) ، والثاني والعشرون (من الطغيان الفرعوني إلى الثورة الاستراكية ، ص ص ٥٣٦ ـ ٦٠٢) ، وكذلك الفصل ٢٣ (من امبراطورية إلى مستعمرة) فهذه هي التي أمدته بمقولته .. وهي مصدرها .. ورصيد براهينه وأدلته ، ومنها يتوصل ويقرر تحت عنوان "السياسة والقوة" (جـ ٤ ص ٥١١) .. إلى أن مجموع نتائج الاستمرارية في تاريخها .. يعادل مجموع نتائج انقطاعه .. بفعل الحضارة الغربية ، ولهذا فان مصر ومعها منطقة الحضارات القديمة .. تواجه أوربا بنوع خاص من ندية الأصالة وعراقة التحدى ، ولعل هذا هو السبب الدفين فى شراسة العداء الغربى لها .. رغم مكانته العالمية ، ورغم ما يبدو على السطح الآن من انعدام التكافؤ تماما ، ولاشك ان كل هذه الخصائص .. تصل الى قمتها فى مصر ، ص ٥١١)

وتقتضيه معادلته (الاستمرار / الانقطاع) .. أن يتعمق فى نسبهما فى كافة مجالات الحياة ، ويرى أن التغير فى اقتصاد مصر .. يبدو أوسع من غيره .. فى الزراعة والصناعة على حد سواء ، ويصفه بأنه فى حالة انصهار وسيولة تامة واعادة تشكيل ، ص ٥٩٨) ، ولكنه يظهر فى المجتمع .. أثقل خطي وأقل مدى ، ولكنه يتغير حتما بمؤشرات دالة .. يحددها فى (مد التمدين الصاعد + التجارب والتحولات الايديولوجية + الحراك الطبقى + الخروج المصرى الكبير ، ص ص ٥٩٨ ـ ٦٠٢) ، أما مصر السياسية .. فعلى

طرف النقيض من مصر الاقتصادية (.. مصر السياسية .. آخر وأقل ما يتغير فى مصر، إنها قمة الثوابت والاستمرارية، وحضيض الانقطاع والمتغيرات، ص ٦٠٣) ، وتتوالى العناوين .. يفند بها ظواهر التغير السياسى الشكلية الورقية .. التى توهم بها الحكومة شعبها .. وتقنع بها ديموكتاتوريتها (ص ٦٠٨) - بشتى الأقنعة - ولا مزيد (.. لا السكان ولا الفقر، ولا حتى الاستعمار فى الماضى أو اسرائيل أو البترول العربى ، هى المشكلة الأم فى كيان مصر ، وانما مشكلة المشاكل . هى قضية الديمقراطية الديكتاتورية أو نظام الحكم المطلق ، انها جماع مشكلة مصر كلها ، ص ٦١١) ، ويتوجه من بعد إلى اعتصار ما يسميه بأجرومية التغير المصرى ؟ .. ، أشبه بالنظرية من كيفية حدوث التغيير فى بنيتها (ص ص ٦١٨ - ٦٢٧) يحددها فى ست قواعد أساسية (تغير لا إرادى أكثر منه اختيارى ، تغير جزئى أكثر من جذرى ، تغير من الخارج قبل الداخل، تسلسل التغير من المادى إلى اللامادى ، حتمية التغير، وجهة التغير ، ص ٦١٩) ، ينتهى منها الى هذه المقولة الناصعة (.. الثقافة هى الثوابت .. والحضارة للمتغيرات، الأصالة للثقافة وللحضارة المعاصرة ، ص ٦٢٧) ، وبها ينهى هذا الفصل الهام ، ومعه الباب العاشر ، وينتقل الى موضوعه النهائى "مصر والعرب" .. ويخصص له الباب الأخير .. من هذا الكتاب (ص ص ٦٣١ - ٦٦٦) .

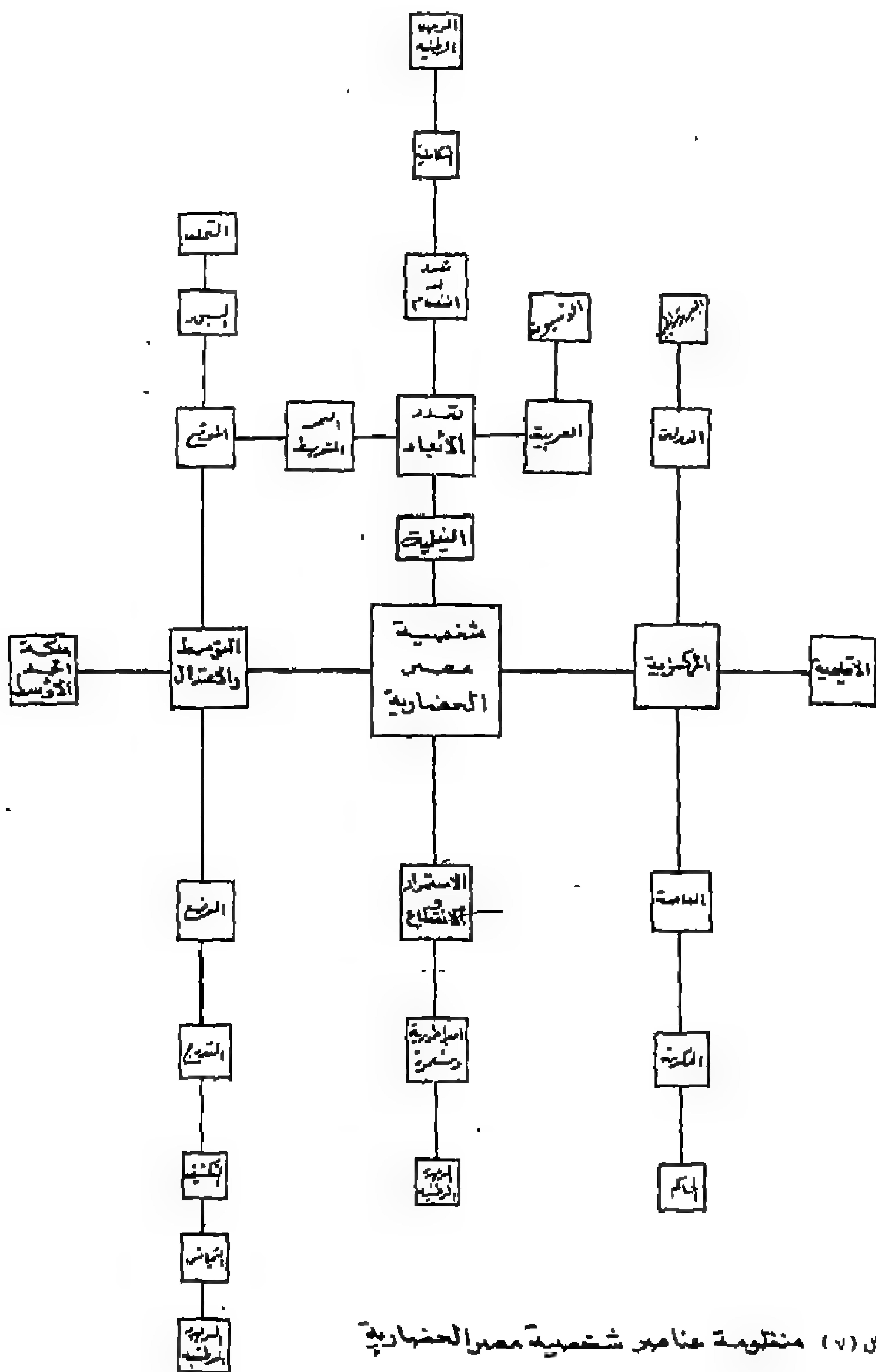
●

تحتل العروبة من فكره وقلبه موقعا أثيرا ، تدل على ذلك مقولاته عنها فى العديد من الفصول ، ودائما ما تنطوى عليها تحليلاته عن مصر والمصريين ، وهو حين يتوج بها كتابه .. فإنه يضع بذلك لمسته الأخيرة .. فوق شخصية مصر الثقافية .. التي يمنحها فائق الاهتمام ، وليستكمل أيضا بناء نظريته العامة .. عن "شخصية مصر" .. بعدما أشبعها تحليلا وتنظيرا .. بطول ٣٦ فصلا ومئات الصفحات .

ويستهل هذا الباب باستدراك أو توضيح .. (.. لقد كان التصور الأصلى عند تخطيط هذا العمل أن يأتى هذا الباب الختامى .. تتويجا وقمة له جميعا ، يستخلص ويستقطر أعمق وأخطر نتائجه النظرية والعملية ، ثم يرسم أهم وأدق دروسه .. ومؤشراته التطبيقية والمستقبلية .. فى مجال العلاقة العضوية .. التاريخية والمصيرية بين مصر والعرب ، وعلى هذا الأساس كان المفروض أن يشمل الباب .. فصلين على الأقل أو ثلاثة ، أولها بعنوان "بين الوطنية المصرية والقومية العربية" ، وثانيها هو "مصر فى عالم عربى متغير" ، وثالثها "مستقبل مصر والعرب ، ورغم أن المادة الأولية والأفكار الأساسية ، والتخطيط العريض لهذه الفصل .. تم اعدادها بالفعل منذ أمد ليس بالقصير ، إلا أن المؤلف بكل الأسف والأسى .. يستأذن فى أن يقدم اعتذاره لقارئه .. عن استحالة الكتابة والنشر .. فى ظل الظروف القهرية القاهرة التى يعرف ، اذ لن يصل اليه حرف منها بحال لو حاول ، ومع استحالة الكتابة والنشر هذه ، ولكن أيضا مع

استحالة حذف الموضوع برمته من الكتاب تماما ، فقد رأينا أن نعيد نشر الفصل الأصلى .. كما ورد فى طبعته الأخيرة سنة ١٩٧٠ ، وذلك بالطبع رغم كل التغيرات الانقلابية المحزنة والمخزية التى طرأت .. لتجعل من الحقائق المادية الصلبة اخطاء علمية بحتة ، وأسوأ منها .. لتزلزل كثيرا من الآراء والأحكام القومية والسياسية الأساسية .. وتجعل منها سخرية مريرة ومفجعة ..) .

وانما عذرنا .. وهو أيضا رجاؤنا ـ أن يكون النص بصورته الأصلية .. وثيقة تاريخية دامغة .. مثلما هى صافعة .. لكل من كان له قلب لم يزل .. أو ألقى السمع وهو شهيد ، وتذكرة وعبرة لمن لم يفقد بعد آخر قطرة من حسه الوطنى والقومى ، فلعل القارىء واجد نفسه فى النهاية متفقا معنا فى أن جوهر الدراسة ولب القضية ـ كما هو وارد مازال سليما فى مجمله ، وأن النص القديم على علاته وقصوره وقصره .. أقرب إلى الحقيقة العلمية الخالدة .. منه إلى الأمر الواقع الزائل .. الذى بالمقابل لا مستقبل له .. وانما لها مهما طال الانتظار .



شكل (٧) منظومة عناصر شخصية مصر الحضارية

بين الوطنية والقومية ..

وتتواصل تطبيقاته لقاعدة (الاستمرارية والانقطاع) فى شخصية مصر ، ويغوص بها فى عمق وجهه الثقافى .. ليفسر بها مسألة شائكة ... تتصل بقسمتىّ الفرعونية والاسلامية فى هذا الوجه العريق ، يحددها كما يلى تمهيدا للتحليل (.. الانقطاع الثقافى الذى أحدثه الاسلام والتعريب ، هو بلا مبالغة .. أخطر تغير طرأ على كيان مصر ، منذ نشأة الحضارة الزراعية قبل الفرعونية .. وحتى قدوم الحضارة الغربية الحديثة ، ص ٦٣٣) ؛ ويخصص بأن التغيير لم يصب الجوانب المادية .. وانصب على اللامادية .. أى الثقافة على وجه التحديد ، ويكاد يوجز رأيه فيما تم فى هذه الصورة الزاخرة بالدلالات (.. ولاشىء يرمز إلى الجمع بين تلك الاستمرارية وهذا الانقطاع .. كالقاهرة .. بجناحيها الفرعونى الحفرى المحنط فى الغرب ، والاسلامى الحىّ المضطرم فى الشرق ... الأول .. وإن كان ميتا إلا أنه يشير إلى الاستمرارية المادية ، والثانى وإن كان قائما يدل على الانقطاع اللامادى ، ص ٦٣٣) ، وإذا كان قد سبق له متابعة جوانب الاستمرارية المادية (الزراعة ، السلالة ، العمران) .. فإنه يفرغ الآن لجوانب الانقطاع .. متسائلاً "فرعونية أم عربية ؟ .. هذا هو السؤال ؟ (ص ٦٣٤) .. ورغم وضوح الإجابة عنده (عربية بالحياة والوجود) ... إلا أنها تتشعب .. ويخوض من أجلها المناقشات ، لايدع سؤالا

دون أن يطرحه .. ويفندما أثاره من آراء وإجابات ، ثم يقدم رأيه موثقا (ص ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥) ، ثم يضع اجابته لمن يشكك فى عروبه مصر (مصر .. سامية العرق .. عربية اللغة .. شأن معظم العرب ..) ، ويدمج بين مصر والعرب فى رؤية ثاقبة (.. ومن ثم بالتالى كان مصير مصر عربيا من الناحية السياسية ، بمثل ما أن مصير العرب مصرى .. من الناحية الحضرية ، ص ٦٣٩) ، فما عن العلاقة بين الوطنية والعروبة فى هذه المعادلة ؟ .

مصر قسم عضوى كبير داخل دوار العرب ، هى منه بالتأكيد .. ولكنها أيضاً متميزة ، متميزة بحجمها السكانى داخله (أكثر من ربع جملة سكان العائلة) ، ولا مجال للمقارنة من هذه الناحية .. بينها وبين غيرها ، ويضاف للحجم تجانسه ووحدته (.. وفى النتيجة فإن مصر أقوى مرتين .. مرة بمطلق حجمها .. ومرة بتجانسها المطلق ، ص ٦٤٩) ، ومصر قد سبقت الدول العربية إلى المجال العالمى ، وهى بحكم موقعها ملتقى العرب (٦٤٨) ، وهى بلا حدود مع غير العرب ، وإذا كانت بهذا وغيره قد تميزت .. فإنها تاريخيا لم تنعزل (.. ودع عنك دورها .. فى صد الصليبيين ، ص ٦٤٩) ، بل هى قد تصدت للدولة العثمانية فى عهد محمد على .. وبذرت مع حروبه وحدة العرب ، وإذا كانت قد انعزلت بعده .. بعد اجهاض الغرب لمشروعه ، وعكفت على ذاتها .. معظم فترة الاحتلال البريطانى لها .. فإنها قد عاودت المشاركة بعد الحرب العالمية الثانية ، ودعت إلى تأسيس

جامعة الدول العربية .. وأصبحت عاصمتها مقرا لها ، غير أن فترة عزلتها هذه .. قد غذت فكرة الوطنية بها ، كما أن العالم العربى .. وسوريا خاصة .. قد شهدت تبلور الفكر القومى بها (ص ٦٥٤) ، فبدأ وكأن هناك فرقا ومسافة .. بين مصر والعرب ، ضاعف منها .. ماكتبه بعض المصريين عن مصر الوطن ، وماسعى إليه الغرب من فصلها عن جسمها .. خاصة والمشروع الاسرائيلى يجرى تثبيت أوضاعه ، وارتبطت فكرة الوطنية .. بمشروع مصر قطعة من أوربا .. (ص ٦٥٥) ، ثم باتجاه آخر .. يتمثل فيما عرف بوحدة وادى النيل فقط ، ولكن "اعلان اسرائيل" كدولة .. جرف كل ذلك ، وتصدت له مصر مع العرب ، وبرز المشروع القومى .. دون أن يعنى ذلك تعارضا بين الوطنية وبينه (.. فإذا القومية العربية .. محصلة الأوطان العربية .. بقوة متناهية ، ص ٦٥٨) .. ومن هنا استهدفت .. ووجبت تصفيتها بأى ثمن .

ويختتم الفصل والباب والجزء والكتاب .. بمناقشة قضية شائكة .. هى قضية زعامة مصر للمنطقة (ص ٦٥٩) ، ومن قبل طالما ذكر انها بوصلتها وحجر الزاوية ، ويضيف هنا .. فى لمسة أيضا إلى شخصيتها الحضارية عامة (.. وهذه أيضا قضية مزيفة ، لأن الجغرافية حسمتها مرة واحدة وإلى الأبد ، فإن دور مصر القيادى والريادى فى العالم العربى لم ينقطع أبدا .. حتى فى الفترات التى آلت فيها الزعامة الشكلية إلى غيرها ، ص ٦٥٩) ، ويؤكد ذلك مقتبسا من

ساطع الحصرى (لقد زودت الطبيعة مصر .. بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة .. فى انهاض القومية العربية ، لأنها تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الأفريقى والآسيوى منها ، كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم إليها العالم العربى .. بحكم السياسة والظروف ، وكل ذلك من الموقع الجغرافى إلى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة وتشكيلات الدولة .. مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية ، ص ٦٦٠) ، ويفند الآراء التى تنكر عليها ذلك .. وهذه التى تخوفها من العرب .. وتخوف منها العرب ، ويطرح بدائلها التى ترى القومية قوة لمصر وللعرب (.. مع ذلك .. فإن مصر أكثر من غيرها ربما ، تدرك ألا ضمان ولا كيان حقيقى لها .. إلا الوحدة وفى ظلها ، لقد استمد العرب فى المجتمع الدولى كثيرا من القيمة والمكاسب التى أضفتها عليهم قيمة مصر وتقدمها .. وصراعها القومى ونجاحاتها ، لكن مصر تدرك أيضا بنفس الدرجة أنها تستمد الكثير من هيبتها السياسية وقوتها وثقلها الدولى .. من العرب حولها .. ، ص ٦٦٥) ، وفيما يلى الفقرة الأخيرة من كتابه (.. وكما أن الكيف لا الكم .. سيبقى أبدا مفتاح مستقبل مصر جميعا ، فى الحضارة ، فى العلم ، فى السكان ، فى الانتاج ، فكذلك سيظل الكيف قبل الكم أساس وضعها ومكانها فى الوطن العربى الكبير ، دار العرب ، غير أنه إذا كانت القيادة والزعامة مسئولية تمارس ، فلعل الاختبار النهائى لزعامة مصر .. فى أن ترقى إلى مسئوليتها عن

استرداد فلسطين للعرب ، وإذا صح أن نقول أنه لا وحدة للعرب بغير زعامة مصر ، فربما صح أن نقول أنه لا زعامة لمصر بين العرب .. بغير استردادها فلسطين للعرب، لأنه لا وحدة للعرب أصلا .. بدون استرداد فلسطين .

انتهى

تلخيص النص .. عن شخصية مصر



شكل (٨) منظومة المشكلات المصرية

« دراسات في العالم العربي »
.. عرض وتحليل ..

مقدمــة :

يمثل العالم العربي .. الدائرة الثانية . من نظريته الجغرافية العامة ، تسبقها دائرة مصر .. وتليها دائرة العالم الاسلامي ، هي حلقة الوصل إذن بين دوائره الثلاث الأثيرة ، يقدمها في كتاب صغير الحجم حقا .. لكنه ثقيل الوزن والقيمة ، يمهد به لمشروعه .. (.. في اصدار سلسلة كاملة .. عن الشخصيات العربية .. الواحدة تلو الأخرى .. من محيطه إلى خليجه ..) ، لكن عمره قصر عن أحلامه .. وخلف مشروعه .. فكرة في ضميره ..

ويقدم لكتابه .. حيث يذكر (.. هذه ثلاثة أبحاث علمية .. يجمعها أنها تعالج موضوعا حيويا من موضوعات الساعة ..) ، أما الساعة .. فهي سنة تأسيس الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨) .. هذه التي شهدته يؤلف كتابه ، ويالها من سنة .. ويالها من ساعة .. فمن يصدق أن دولة الوحدة .. قد قامت فعلا .. وليس قولا .. من قبل قرابة أربعين عاما ، وأنها بقيت قائمة .. أكثر من ثلاث سنوات مهولة ، مجسدة حلما .. يصعب الآن أن نحلم به .. ناهيك عن تجسيده ، وحين

سقطت لم تذهب بددا .. فتجارب الشعوب .. تبقى لها رصيدا ، وكلما أمعن الحلم فى روغانه .. ثابرت الأمة على تلمسه بكل حيلة .. يراودها فى كل أزمة .. تتحصن به .. ويتضاعف سعيها فى سبيله ، فبه تحققت كينونتها يوما .. ومثل هذه لاتنسى .. فى هذه الأيام العصيبة .

وحين يقرر بأنها (ثلاثة أبحاث علمية) .. لايجاوز الحقيقة ، بما يلتزمه ويلزم به نفسه .. من شروط المنهج العلمى الدقيقة ، بل هى تعلو لتكشف عن فلسفة المكان .. فى رؤية كلية .. (.. تستقطر روحه .. وتعتصر رحيقه ..) ، تستقرىء (.. أولا كل ثنايا الحقيقة الطبيعية .. وطوايا الحياة البشرية فى المنطقة ، لا فى الحاضر فحسب .. وإنما كذلك فى الماضى .. لأن الزمن بحق بعدها الرابع .. بقدر ما أن التاريخ البعد الرابع للجغرافية ..) ، تلك كلماته .. وهذا تعبيره ، أما عن موضوعات أبحاثه .. فتأتى بالتتابع التالى :

★ الشخصية الاقليمية للعالم العربى .
★ الوحدة الاقليمية للعالم العربى .
★ الجمهورية العربية المتحدة .. دراسة فى الجغرافية السياسية .

ويشير المبحث الأول إلى اهتمامه المبكر .. بموضوع الشخصية الاقليمية ، اهتمام سوف يتجلى فيما بعد فى كتابه العمدة عن "شخصية مصر" ، وفيه يفسر توجهه نحو هذا الموضوع (.. البحث فى الشخصية الاقليمية .. مسألة تلقى مسئولية خاصة على الجغرافى الملتزم .. الذى يضع علمه فى

خدمة مجتمعه ووطنه الكبير ..) .. ، وبالفعل .. فإنه فى هذا المبحث الأول .. يتخذ من الكشف عن خصائص الشخصية الاقليمية للعالم العربى .. مدخلا لتبين جذور الوحدة الكامنة .. فى جغرافيته وتاريخه معا ، ويكون من هذه الخصائص قاعدة .. يستمد منها براهينه وأدلته ، مصيغا مايكشفه ويكونه .. فى بناء تركيبى عضوى متماسك .. تغذى مدخلاته محصلاته .. فى دورة مشحونة بطاقة تفكيرية عالية ، تؤدى به فى سلاسة وطواعية إلى مبحثه الثانى عن "الوحدة" .. كذروة لهذه الشخصية المركبة المتجانسة ، هذه الوحدة التى تحققت بتأسيس "الجمهورية العربية" .. بين مصر .. وسورية ، ومن ثم تصبح المجال الحى .. لتطبيق فروضه .. تطبيقا موضوعيا .. لاتطويع فيه أو مواربة .. تستقيم فيه الحقائق ولا تلتوى ،. يخضعه فيه لرؤيته النقدية الناقدة ، يضع فيه الخطوط تحت ايجابيات ماتم وسلبياته ، وتصل به الرؤية الثاقبة تقريبا .. الى تشخيص ما أفضى بعد ذلك لسقوط التجربة ، يدل على ذلك ما أورده .. فى الصفحات الأخيرة .. من هذا المبحث الثالث .. فى كتابه ، وإذا كانت منظومة عناصر هذا البحث وما يسبقه .. تفتقد مانعرفه الآن .. من تطورات العالم والمنطقة .. فما ذلك إلا أن ماينقصها .. لم يكن قد حدث ، ولم يكن ماجرى قد جرى .. خلال العقود الأربعة الحافلة التى أعقبت تأليفه لكتابه ، ومع ذلك بنادرا .. مايشعر القارىء .. بأن الكتاب قد فقد حداثته ، ربما لأن رؤيته العامة .. ماتزال سارية .. صلبة وصادقة .. تضمخ تحليلاته

بعمق فلسفى .. يشحنها باستمراريته ،° وربما لأن التاريخ مايزال حاضرا .. ملقيا على المستقبل بمؤشراته .. وأن قوانينه الكامنة .. لاتزال تفصح عن مكنونها ، وربما لأن الوحدة .. وإن سقطت .. لاتزال معتصمة بمقوماتها .. تقاوم بها البلى ومرور الزمن ، وربما لغير ذلك من الأسباب أيضا .. مما قد يكتشفه القارىء بنفسه .. أو توحى إليه بها .. أفكاره المفعمة .

المبحث الأول
الشخصية الاقليمية للعالم العربى

وكما سبق .. يأتى المبحث الأول .. فى كتابه .. تحت عنوان "الشخصية الاقليمية للعالم العربى" (ص ص ٧ ـ ٣٤) ، يستهله فى سطره الأول بهذا السؤال (.. هل للعالم العربى شخصية إقليمية متفردة .. يتميز بها عن غيره .. من مناطق العالم ؟ ..) ، وفى البداية .. يجدر التفرقة بين "التفرد الاقليمى" .. بالمعنى الجغرافى العام .. وبين تفرد "الشخصية الاقليمية" .. كما يقصده حمدان ، حيث يقتصر فى المعنى العام .. على مستويات التميز والتمايز والتمييز ، تستند كلها إلى قاعدة من تشابه الأقاليم ، تشابه يعود إلى وحدة الأصل (الأرض) .. وحتمية توافر عناصرها الأولية (التركيب الجيولوجى ، التضاريس ، المناخ ، التربة .. وغيرها) .. فى كل إقليم ، ويبدأ تميزها من نسب ونوعية تمثل كل عنصر .. هذه تتفاوت وتتباين بالضرورة .. من إقليم إلى أقليم ، ويتأكد تميزها بما يتداعى عن ذلك من علاقات عضوية .. بين هذه المكونات .. ومن ثم فإنها تتمايز .. أى تختلف فى المحصلة .. من حيث (المكونات + العلاقات) ، وبذا يمكن التمييز بينها ـ تحليليا وكميا .. ثم كارتوجرافيا .. برسم الحدود .. دون اهمال التداخلات ، وتظهر العملية بمستوياتها .. أسهل نسبيا .. فى الجوانب الطبيعية .. منها فى الجوانب البشرية والحضارية (السكان ، العمران ،

الثقافة .. وغيرها) للإقليم ، وتصل إلى أشدها صعوبة .. حين يصبح الهدف "شخصية الاقليم .. التى هى مزيج مركب من كل ماسبق .. كما تتجسد فى الواقع .. وكما تجلت فى التاريخ ، وعند هذه الذروة يتفرد الاقليم حرفيا .. بالمعنى الذى يقصده حمدان ، ويتخذ منه مدخلا لدراسة العالم العربى بالذات (.. ليس من الضرورى أن يكون لكل منطقة شخصية اقليمية متفردة ، وليس من الضرورى أن تكون الشخصية إلاقليمية للمنطقة .. كاملة التفرد والتمايز عن غيرها ، ولكن لا مفر من أن نعد العالم العربى .. واحدا من بين تلك المناطق النادرة .. التى تمتاز بشخصية إقليمية متفردة ..) ويؤكد (متفردة لدرجة ليست أقل من مذهلة ، ص ٧) ، وبذا لا تعود فقط مدخله .. بل قضيته التى يخصص لاثباتها .. بقية صفحات هذا المبحث من كتابه .

★ محور الشخصية ومكوناتها

ولأن الشخصية هدفه .. فإنه يتوجه أولا للكشف عن لبها الذى تشكلت حوله .. مستمدة من جوهره .. سماتها وقسماتها ، هذه التى مهما تفرعت تفصيلاتها .. تبقى منتسبة لهذا المحور .. بدرجة أو بأخرى (.. هناك ايقاع مشترك يسيطر على جميع نواحى الوجود الطبيعى للعالم العربى ، كما يتكرر فى كل جوانب الحياة البشرية فى الماضى والحاضر ، هذا القاسم المشترك الأعظم .. يتمثل فى كونه إقليم اتصال Zone af Junction .. تلتقى عنده مجموعة من الوحدات

الاقليمية ، ص ٧) ، تلك إذن هى الخاصية المحورية .. للشخصية الاقليمية للعالم العربى ، ومنها تستمر إلى بقية خصائصه (.. فالعالم العربى اقليم اتصال مورفولوجيا ووظيفيا ، موقعا ومناخا ونباتا وبنية وتركيبا ، حيويا وجنسيا ، فى التاريخ والسياسة .. فى الحضارة والثقافة) ، ومن بعد .. فإنه يتوجه لدراسة كل منها تفصيليا ، بعد أن يصنفها الى (النواحى الطبيعية ثم البشرية ثم التاريخية والسياسية) .

● الجوانب الطبيعية

تتضمن مايعرف منهجيا .. بمنظومة عناصر الجغرافية الطبيعية ، يستهلها بالموقع وماينتج عنه (المناخ ، النبات) بتفصيلاتهما ، وما يتداعى عن المناخ خاصة .. إلى الزراعة وغيرها ، ويختمها بالبناء الجيولوجى وظواهره الجيومورفولوجية .

وتتحدد خصائص موقعه .. فى كونه (قلب) العالم القديم ، باعتباره كتلة اليابس اللاحمة .. بين قاراته .. افريقية وآسيا وأوربا ، بمثابة (عقدة) الجزيرة العالمية الكبيرة World Island كما أسماها ماكيندر Mackinder فى نظريته الجيوستراتيجية ، حيث يتجمع عندها .. يابس العالم القديم .. ويتفرق ، وأيضا فإنه (خاصرته) .. باعتباره عنق الزجاجة .. الذى يدق اليابس عنده (البرزخ) ويتقارب الماء حوله ، بما يجعله (مجمع

بحاره) .. يتخلله البحران المتوسط والأحمر .. والخليج العربى ، هذه التى تتجمع مياهها فى المحيطين الأطلسى والهندى ـ عبر مضيق جبل طارق وباب المندب ، فإذا ما أضيف إليها .. بحر قزوين والبحر الأسود ـ وهما ليسا بعيدين عنها ـ تغدو أرض (البحار الخمسة) ، ووصلت قناة السويس .. بين خطوط الحركة العالمية .. (شريانا) لها .. ومضخة رئيسية للتجارة الدولية .

على أن للموقع .. من زاويته الفلكية .. انعكاساته قبل ذلك وبعده ، تتوافق جميعها مع ماسبق تحديده من خاصيته الأساسية (.. بحكم عروضه الوسطى .. يمثل العالم العربى .. اقليم اتصال بكل معنى الكلمة .. من الناحيتين المناخية والنباتية ، ص ٩) ، ويفصل فى ذلك .. منتهيا الى (.. يضم العالم العربى نوعين مناخيين أساسيين .. النوع الصحراوى .. ويحتل الرقعة الكبرى ، والنوع المتوسطى الذى يتوّجه باطار هامشى ، ولكن نوع الصحراء يتعدل محليا .. إما بالارتفاع إلى مناخ جبلى فى الشمال ، أو موسمى فى الجنوب من الجزيرة العربية ، إما بالمياه الدخيلة أو الواحات المتداخلة exotic - Intrusive النابعة من مناخات خارج الصحراء .. ولكن الواقعة داخله كالرافدين والنيل) ، وكذلك الأمر بالنسبة للنباتات الطبيعية .. التى تتوزع مابين الفصائل الصحراوية بأنواعها .. والتى تتعدل أيضا تبعا للظروف المحلية ، وأحراش البحر المتوسط .. حول حوضه وفوق المرتفعات .

ويشير الى تأثير الخاصية الانتقالية للمناخ فى الزراعة (.. التى تشكل مركبا من المحاصيل الانتقالية أساسا .. تتألف من الحبوب والفواكه والقطن والحمضيات والكروم ، بما يجعل منها حلقة اتصال بين عوالم زراعية متفاوتة .. يأخذ من كل منها بمركب زراعى معين ، ص ١٠) .

واذا كان من الطبيعى أن يستمر تأثير هذه الخاصية المحورية من الموقع الفلكى الى المناخ الى النبات إلى الزراعة ، فإن التركيب الصخرى لاينتمى لذات السياق ، ولكن الواقع أن كتلة اليابس العقدية العربية .. قد انطوت على ذات الخاصية .. وإن اختلفت الأسباب وتغير السياق (.. فجيولوجية العالم العربى .. أساسا هى التقاء القديم بالحديث ، فالجزء الأكبر منها رصيف جندوانى قديم .. تحول إلى هضبة أو سهل تحاتى ، بمثابة نواة .. نمت حولها من الشمال .. حلقة جبلية حديثة عالية) ، ويربط فى تكثيف شديد .. بين التركيب والسطح والمناخ (.. وبوجه عام جدا .. يتفق الرصيف القديم مع الصحراء ، والالتواء الحديث مع مناخ البحر المتوسط ، وليس هذا مجرد اتفاق .. ولكن ملامح التضاريس الكبرى ـ بنت البنية ـ ضبطت وشكلت توزيع تفاصيل النطاقات المناخية إلى حد معين ، ص ١٠) ، وهكذا ينتهى من اثبات فرضيته (خاصية الاتصال) بالنسبة للنواحى الطبيعية من الاقليم .

●● الجوانب البشرية

الواقع أن تطبيقه لفرضيته .. على النواحى البشرية .. تستحق التنويه ، لما تتضمنه من تصورات دقيقة .. تتسم بالكلية والشمول ، يبدأها بتحديد الخطة العمرانية الأولية فى المنطقة ـ هذه التى تقوم على محورين متقاطعين متناقضين ، يتمثل الأول فى اللا معمور الصحراوى .. شاملا الصحراء الكبرى وشبه الجزيرة العربية ، ويتمثل الثانى فى المحور المعمور .. الذي يشمل حوض البحر المتوسط .. وقطاعات الأنهار المتداخلة فى الصحراء .. والسهول ، وينتقل من الخطة العمرانية المتمشية مع الظروف الطبيعية .. خاصة المناخ والمياه ، إلى البنية السكانية .. التى يراها متوسطة الكثافة .. ضئيلة الحجم العام .. النسبة لمساحة العالم

العربى .. التى تبلغ ١١ مليون كم٢ على وجه التقريب ، ويقرر (.. هذه نقطة خطيرة ، معناها أن القوة البشرية محدودة فى العالم العربى ، وسنرى أثرها بعد قليل .. فى الشخصية السياسية... عبر التاريخ ، ص ١٣) ، ويضيف فى شىء من التفصيل (.. كان هناك ثلاث جزر بشرية رئيسية متباعدة Macro chores ، هى الرافدان .. مصر .. المغرب) ويؤكد الأثر السلبى لهذا النمط التوزيعى (.. وسنرى فيما بعد الآثار البشرية التاريخية الخطيرة لهذا) ، ويعود فى لقطة من أعلى .. ويضيف (.. إن هوامش العالم العربى .. هى القطاع الغنى المأهول .. بينما القلب صحراوى مخلخل

السكان ، وقد قدمت هذه الهوامش .. الدائرة Ring Felix التى سارت فيها معظم الحركات التاريخية .. وجرت فيها أهم فصول الحياة البشرية ، ص ١٤) ، ويعنى بها الهلال الخصيب الممتد من الشام الى العراق .. وملحقه هلال اليمن السعيد ، ومعهما ذراع شمال افريقية .. وذراع النيل فى مصر والسودان ، وبعدما تكتمل الصورة العضوية التى يرسمها بريشته .. يحدد وظيفتها البنيوية (.. الواقع أنه يمكن تشبيه الأجزاء الفعالةِ من العالم العربى بالجسم البشرى ، لا من حيث الشكل والتركيب فحسب ، وإنما من حيث الدور الوظيفى التاريخى .. الذى لعبه كل عضو ، فالجزيرة القارية هى الجذع Trunk ، والصحراء هى القلب .. بحكم توسطه الجغرافى .. وحركة نبضه التاريخية ، ومصر .. هى الرأس ، والسودان وشمال افريقية .. هما الذراعان .. اللذان تمتد بهما كتلة الجسم .. إلى أبعد آفاقها .. غربا وجنوبا ، ص ١٤) .

والآن .. كيف تستمر خاصية الاتصال فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ؟

لقد سبقت الاشارة الى الزراعة فى العالم العربى .. كمركب يجمع بين أقاليم متعددة .. أهمها الزراعة المطرية المتوسطية + الزراعة الفيضية المدارية ، وكذلك الأمر بالنسبة للرعى .. الذى يمتد كنطاق عرضى متواصل من الشرق الى الغرب ، وتظهر "الزراعة" من حيث التوزيع (..

كجزر وظيفية داخل الاطار الجاف) مرتبطة باشد مناطقه كثافة .. مع تداخل النطاقين .. ضمن منظومة (الفلاح والراعى) .. السائدة في المنطقة ، ويضيف (.. ليس فى العالم القديم منطقة - تتخلل الزراعة الرعى فيها .. بنفس الدرجة والنمط التى نراها فى العالم العربى ..) ويقرر (.. وهكذا تتأكد شخصية العالم العربى المتفردة كإقليم فى المجال الاقتصادى .. وما يتصل به من توزيع ونمط مجتمعاته ص ١٦) .

ويتساءل (.. هل للعالم العربى شخصية جنسية ودينية مستقلة ؟) .

مرة أخرى تتأكد خاصيته المحورية فى تكوينه الجنسى (.. ففى داخل إطار التجانس العام ..عينات من السلالات والعروق) ، يفسرها بموقعه كصرّة للعالم القديم ، كما يعود بها الى نمط تضاريسه الممرى Corridor .. مما جعله (ملقى البشرية .. بالضرورة) ، فتواترت عليه الموجات الجنسية .. وإن امتصتها الصحارى والجبال - Shock absorber .. وصلت بها الى نوع من التجانس المعقول ، فالمنطقة مرة أخرى منطقة اتصال بين كتل السلالات (الفرشة الأساسية من سلالة البحر المتوسط وهى من الناحية الانثروبولوجية سلالة انتقالية بالضرورة ، وتتعاقب بها النقاوة والاختلاط .. بحسب درجة الطرد أو الجاذبية الجغرافية المحلية ، ص ١٧) .

وبالنسبة للدين (.. فإذا كانت المنطقة مصبا للحركات

الجنسية .. فهى منبع الأديان) ، ولكن دون اختلاط ، فقد أزاغ الاسلام ماقبله .. وصبغها دينيا وثقافيا .. بصفة عامة، مع وجود أقليات هامشية ، ورغم اختلاف العملية .. فالتجانس بمثابة المحصلة .. جنسيا ودينيا .. (من أهم خصائص شخصيتها الاقليمية ، ص ١٧) فى الختام ، وسيعود إلى التجانس الدينى فى كتابه التالى .. عن جغرافية العالم الاسلامى .. بقدر من التفصيل .

●●● الجوانب التاريخية والحضارية

كيف تبرز شخصية العالم العربى فى التاريخ ؟

يعنى "البروز" .. الارتفاع فوق المستوى العام لعصر من العصور ، وقد تحقق ذلك للمنطقة بالتجارة .. قبل الاسلام، وذلك بحكم خصائص موقعه .. كماسبق ، كعقدة قارية .. وجسر برمائى .. وحلقة متوسطة وسط معمور العالم القديم ، بما هيأ له أن يكون الممر الطبيعى Durchgangsland, Corridor.. لتبادل فوائض الموسميات والمعتدلات ، والوسيط التجارى الوحيد أو الرئيسى بين آسيا الموسمية وأفريقية المدارية وأوربا المعتدلة ، متميزا بذلك عن ايران والأناضول (.. فهما معا يمثلان الجسر الجبلى المعلق .. بينما العالم العربى هو الجسر الممهد السهلى ، ص ١٨) ، وقد دعمت جغرافيته الداخلية من دوره .. بما تتضمنه من ممرات مائية متداخلة فى عمق اليابس .. بمثابة أسهم مكانية الى اتجاهات حركة التبادل .. بين مناطق الفائض والوفرة فى العالم القديم ، تطورت بها ومعها مهارات التبادل بين السكان ، هؤلاء

الذين لم يتوانوا عن تنظيم الحركة .. بالقوافل .. وضبط ايقاعاتها بالمحطات والأسواق ، وتواصلت الخطوط الى السواحل المتوسطية والمحيطية (.. فكان هناك الفينيقيون ثم الشوام .. فى الجبهة الشمالية الغربية ، وبإغريق المحيط الهندى .. من الحضارمة والعمانيين ، ص ١٩) .

وقد أعادت التجارة تشكيل العمران .. حيث ارتبطت بخطوطها المدن والأسواق ، هذه التى رصعتها على طولها .. وعند نقاط ، تغيرها متمثلة فى أربعة محاور رئيسية للتوزيع ، اثنين بين البحر المتوسط والخليج ، وثالث يحف بالهامش الشمالى للهلال الخصيب ، ثم طريق رحلتى الصيف والشتاء بين اليمن والشام ، ويلخص خصائص المرحلة فى عدد من السمات (ص ٢٠) :

- بقدر ماتفوقت موارد الموقع كممر للتجارة .. على موارد الموضع الانتاجية ، سيطرت المنطقة المنطقة على التجارة الأوربية ، الأمر الذى أفضى كما سيأتى .. إلى سياق طويل من الصراع .
- بقدر ما كانت أوربا وآسيا (مقرا) للفائض .. غدت المنطقة (ممرا) لها ، وقد أسهم دورها العبورى فى تشكيل قسماتها الحضارية بالتأكيد ، وإن كان له تداعياته السلبية فى شخصيتها بوجه عام .
- يعود الفارق بين قيمة الموقع والموضع .. إلى خاصية المنطقة الأساسية كمنطقة اتصال . وهكذا تظهر من وقت مبكر .. بذور نظريته الأساسية عن شخصية مصر ، هذه التى

تتمثل فى معادلة (الموضع والموقع) كما سبق ، ويقدمها فى إطار العالم العربى .. باعتبار الدور الحضارى لمصر والعراق ، هذا الدور الذى استند على مواردهما الموضعية كبيئات فيضية منتجة .. وليس على دورها التجارى فى الأساس ، بما يميزهما (كمشتلين الحضارة ، ص ٢٠) على حد تعبيره ، وبفضلهما (تم تفريخ التاريخ) .

وتعود للموقع أهميته الكبرى .. مع حركة انتشار الاسلام ، هذه التى نقلت ثقافة وحضارة المنطقة .. وفوقهما الدين .. إلى هذه المنطقة الممتدة بين الأطلسى والصين ، وتلاقحت الثقافات .. وامتصت الثقافة العربية غيرها .. وألقت عليها بأضوائها .. خاصة فارس والهند والأناضول ، وحين دخلت أوربا صراعها الطويل معها .. الذى بلغ نقطة عالية مع الحروب الصليبية .. فقد أفرخت الثقافة العربية الاسلامية داخلها ـ مالايحصى من الايجابيات (.. كانت درسا حضاريا قبل كل شىء ، ص ٢١) ، وإن كانت نتيجة الصراع لحساب أوربا .. بحكم الكشوف الجغرافية .. التى أسرت خاصية العبور الى خارج المنطقة العربية .. وأصابت مواردها الموقعية فى الصميم ، ويختم فى هذا الجزء .. بتكرار التأكيد .. على استمرار خاصية الاتصال .. فى الثقافة والحضارة والتاريخ .. مقررا كاستدراك (.. ولا يعنى أن المنطقة كإقليم اتصال حضارى .. أنها متميعة الشخصية الحضارية ، بل على النقيض .. فقد رسخت شخصيتها بالاختلاط .. وبها تعد من وجهة نظر الانثروبولوجيا الاجتماعية .. منطقة حضارية Culture - area مستقلة قائمة بذاتها ، ص ٢١) .

●●● الجوانب السياسية

إذا كانت خاصية الاتصال .. بمثابة الجذر المشتركة لمكونات الشخصية الاقليمية للعالم العربى .. فإن النواحى السياسية منها .. بمثابة المرآة النهائية لانعكاساتها وتجلياتها ، حيث هى (مفتاح اجمالى أو اختزالى للشخصية الاقليمية كاملة) ، ويصنفها تبعا لمراحلها التاريخية الى مايلى .. بما يكاد يشكل نظرية متكاملة .. قائمة وحدها .

- المرحلة النهرية Potamic
- المرحلة البحرية ThaLassic
- المرحلة المحيطية Oceanic
- المرحلة الكوكبية Global

ورغم استناد التصنيف أحيانا - كما سيأتى - إلى متغيرات من خارج تاريخ المنطقة .. إلا أنه يربطها به .. ويدمجها بدرجات متفاوته .. فى سياقه ، وتبدأ المرحلة الأولى (النهرية) .. مع بداية بزوغ الحضارة فى المنطقة .. حول أحواضها الفيضية خاصة ، ويلخص سماتها فى معادلة الصراع بين (الرمل والطين) داخل إطارها ، أى أنها مرحلة محلية داخلية غالبا ، تجرى تغيراتها .. السلمية والحربية .. بين القوى الحضارية فى المنطقة ، أو من خارجها إليها .. أو من قلبها الصحراوى الى هوامشها الغنية ، وبقى الصراع فى مجمله بريا طول المرحلة .. التى استمرت إلى ماقبل الميلاد بقليل .

أما الثانية (البحرية) .. فتتفق مع ظهور القو
البحرية .. التى فرضت معادلة جديدة للصراع (بين قو
البحر والبر) .. لم تنته بها الأولى .. وإنما استمرت معها
خضعت خلال فترة منها .. المنطقة لسيطرة قوتى البر
الرئيسية (فارس) والبحرية (الرومانية) .. وإن بقى قلبها
محايدا بينهما ، ويعتصر دلالة ذلك فى نظرة تمتد من التاريخ
والحاضر والمستقبل (.. حين ظهرت فى العالم قوى برية
وأخرى بحرية .. أصبحت منطقتنا تلقائيا .. منطقة التحا
وارتطام Crush zone .. تقع فريسة لأيهما ، أو منطقة
حاجزية Buffer Zone .. حين لاتتفوق أى منهما على
الأخرى تماما ، ص ٢٤) ، وتظهر الدولة العربية الاسلامية
التى تكونت فى هذه المرحلة .. استثناء من القاعدة حين
تحولت منطقة الارتطام الى قوة .. هزمت كلا من قوتى البر
والبحر ، ويعود بالتحول الى الشحنة الذاتية للاسلام (الذى
حقق الذاتية الحضارية للمنطقة) ، وإلى مستوى التدفق
التجارى بين مناطق الفائض .. (الذى صب معظم أرباحه فى
المنطقة) ، وإذا كانت المنطقة قد صمدت بفضل ذلك أمام
الحروب الصليبية ، بل وأمام القوة البرية الآسيوية .. (التى
تعددت ضرباتها مع المغول والتتر) ، فقد أصابتها الكشوف
الجغرافية .. بضربة مؤثرة ، أدت الى تراجعها وانكماشها .
وبداية مرحلة جديدة من تاريخها السياسى .. كما سبق .

ولا تخص المرحلة الثالثة (المحيطية) المنطقة بصفة
مباشرة ، أو هى تخصها من وجهها السلبى .. المتمثل فى نقل

خطوط التجارة Transport Capture إلى خارج أرضها وبحارها (وتحول البحر المتوسط من شارع رئيسي للحركة .. إلى زقاق مغلق .. والممر العربى الى قبو مصمت ، ص ٢٦) ، انتقال بؤرة الصراع إلى المحيطين الهندى والأطلسى .. من هنا تسمية المرحلة ، والقصة بعد ذلك .. هى قصة الصراع بين القوى الاستعمارية .. التى وصلت أخيرا إلى المنطقة .. مخترقة قلبها .. ومحققة ما أخفقت الحروب الصليبية فى تحقيقه ، وبرزت أهميتها كممر ثانية .. ولكن ليس لحسابها ، ومن هنا فقد أحاطت الدول الاستعمارية بهوامشها جميعها ، وتعددت خططها لاحكام سيطرتها .. واستثمار مزايا موقعها .. فى الوصول إلى أجزاء امبراطورياتها المترامية ، وجسدت قناة السويس .. محصلة هذه المرحلة .. التى وإن كانت بمثابة استعادة لخطوط التجارة المفقودة منذ الكشوف الجغرافية ومابعدها ، ولكن لحساب القوى الاستعمارية الغالبة ، وقد عادت معادلة الصراع بين (قوى البحر والبر) لتأثيرها .. بعد تكوين الاتحاد السوفيتى .. قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى (ص ٢٨) ، وأمسى الصراع بينهما على المنطقة حقيقة واقعة ، أى أنها عادت منطقة التحام وارتطام ثانية ، ومع نزول الولايات المتحدة للساحة العالمية .. دخل الصراع مرحلة الكوكبية .. كما يسميها فى نظريته .

وتتسم هذه المرحلة الاخيرة (الكوكبية) بأن المنطقة قد كانت جزئية من استراتيجية .. تشمل العالم كله .. قديمه

وجديده ، يسعى الاتحاد السوفيتي لبحاره الدافئة ..، وتعمد الولايات المتحدة الى احتوائه ، وفى إطار تصاعد حركة التحرر من الاستعمار .. بعد الحرب العالمية الثانية .. تصلبت المنطقة بزعامة مصر .. وشاركت في تكوين مايعرف بالكتلة الثالثة .. (وليست الكتلة الثالثة .. فى جوهرها إلا منطقة الارتطام بالضبط .. كما تمثلت فى العالم العربى وغيره من المناطق التى تعرضت لضغوط الاستقطاب ذاتها .. تأكيدا خاصية الارتطام أو الاتصال المتأصلة ، ص ٣١) ، وقد جرت المياه عميقة بعد ذلك فى المنطقة .. ولكن لم يلحقها الكتاب .. بحكم تاريخ تأليفه (١٩٥٨) ، وإن كان برؤية ثاقبة يقرر (.. تتحرك الأهمية الاستراتيجية الى الصحراء الكبرى ، كما برزت استراتيجية جديدة لشبه جزيرة العرب ، وذلك مع البترول ونتائجه ..، ص ٣٣) ، وتجدر الاشارة الى أن أبعاد البترول لم تكن قد تبلورت بعد بصورة كاملة ، ويختتم نظريته (.. هذه هى الشخصية السياسية الكامنة الكاملة للمنطقة ، ومهما تغيرت .. فستبقى حقيقة كونها منطقة التحام وارتطام .. تصادم واستقطاب .. بحكم خاصيتها كاقليم اتصال .. بين قوى العالم جميعها ، ص ٣٤) .

●

المبحث الثانى .. الوحدة الاقليمية للعالم العربى

من الشخصية المتكاملة إلى الوحدة الاقليمية .. ذاك منهجه وتلك رؤيته ، ويربط مابين "التفرد" .. و"القومية" (.. أى وحدة الشخصية لأرض وقوم معا ، ص ٣٧) ، حيث تتسع القومية .. بالمعنى الصحيح للجغرافية السياسية ، وتتجاوز المعنى الإثنولوجى الضيق .. أى وحدة الجنس فقط ، وهكذا يتضح الخط الرئيسى لفكرته (التفرد ـ القومية ـ الوحدة) ، وبصيغة رياضية (الوحدة = التفرد الاقليمى × القومية) ، وبعدها يفرق بين نوعين من الوحدة .

● الوحدة المورفولوجية .. أى التركيبية .. وشرطها التجانس التكوينى .

● الوحدة الوظيفية .. أى التكاملية .. وشرطها الفعالية .

وبذا يضع القاعدة النظرية .. لتطبيقاته التالية لها فى المنطقة .

أولا .. ماهى درجة تحقق شروط الوحدة التركيبية (المورفولوجية) .. فى العالم العربى ؟

بداية فإن ماسبق الكشف عنه من تفرد شخصية العالم العربى .. لايستند بالضرورة الى وحدة تركيبية شاملة ، حيث لايعود تفرده الى ماتوافر منها فى تركيبه الداخلى .. وإنما استمدها أيضا من موقعه .. وعلاقاته المتغيرة بالعالم

الخارجى ، ويتطلب ذلك متابعة مورفولوجيته من زاويتيه الطبيعية والبشرية معا بتفصيلاتهما .. كما يلى :

★ المورفولوجية الطبيعية :

تظهر المنطقة جغرافيا .. وقد تكونت من مجموعة من الوحدات المورفولوجية المتنوعة ، ولكنها تحقق فيما بينها قدرا من التجانس المركب .. القائم على التعدد .. وليس التشابه فى صورته المبسطة ، ويتمثل التجانس .. فى تكرار هذه الوحدات .. على شكل نظائر جغرافية Geog . paralleis متتالية ، فالبيئة الفضية تتناظر فى النيل والرافدين ، والبيئة البحرية تتناظر فى الشام وعمان وحضرموت ، وتتناظر البيئة الجبلية فى كردستان واليمن ، وينطوى تناظرها على قدر كبير من التقارب .. من حيث (التركيب Homologues والوظيفة Analogues معا ، وتتكرر الظاهرة بين المغرب والشام (وحدة جبلية بحرية) ، كما تتناظر الصحراء فى شبه الجزيرة العربية .. والصحراء الكبرى (ص ٤١) ، بما يثبت مفهوم التجانس المركب القائم على تكرار الوحدات المتناظرة .. كما سبق .

على أن التناظر .. لايعنى تشابها .. وإنما يعنى تقاربا ، حيث تختلف الوحدات المتناظرة .. فى تفصيلاتها ، فمصر الفيضية مثلا واحة صحراوية .. بينما العراق نظيرها .. شبه واحة استبسية (ص ٤١) ، وكان لذلك أثره .. فى المسار التطورى لكل منهما ، وينطبق ذلك على كافة الوحدات

المتناظرة .. بدرجات متفاوتة ، وتحظى منه هذه النقطة بمتابعة شيقة ، تنطوى على مقارنات دالة موحية .. بين الشام وشمال افريقية (ص ٤٢) وبينهما وعمان وحضرموت ومنطقة الخليج عامة (ص ٤٣) ، وبين كردستان واليمن ، وغيرها مما سبق ذكره ، ينتهى منها .. إلى أن التناظر وإن تضمن قدرا من التقارب الأولى .. إلا أنه لايخلو من اختلافاته المؤثرة ، ومن مجموع النسب المتفاوتة .. تتكون الشخصية المحلية لكل وحدة مورفولوجية .. قائمة وشاخصة بذاتها ، ومن مجموعها العام .. يتشكل هذا التجانس المركب .. بالمعنى الذى يقصده .. فى عموم المنطقة ، حيث يقرر فى صياغة مكثفة (.. هذا هو التركيب الطبيعى الداخلى للعالم العربى بالتفصيل ، فداخل إطار الشخصية الاقليمية .. المشتركة كأقليم اتصال فى المحل الأول ، هناك شخصيات محلية قوية ، وتوجيهات جغرافية وعلاقات مكانية .. ونظرات وألوان خاصة Couleurs Locales .. وإنما فى المحل الثانى ، ولكن هذا التنوع والتباين لايحدث كالفسيفساء ولاخبط عشواء ، وإنما فى نظام وسمترية واتساق ، ليس هناك تجانس مورفولوجى مطلق ، ولكن ليس الوضع تنافرا تاما ، هناك تجانس مركب .. بضعة نظائر من نمط واحد .. مرتبة ترتيبا خاصا ، ص ٤٦) ويتصاعد بالفكرة إلى مستوى آخر (.. ولايضيرنا أن نقرر هذا .. لأنه يبدد الغموض الذى استغله المغرضون .. أصحاب نظرية التشكيك فى امكانية الوحدة الوظيفية ، هؤلاء الذين يتكلمون عن التركيب الطبيعى الداخلى

للعالم العربى .. كما لو كان متحفا متنافرا .. تنافرا لا أمل فى توحيده ، ومن ناحية أخرى .. نقرر هذا ليضع حدا لمن يحاولون الدفاع عن الوحدة بالبحث عن تجانس جغرافى .. بل جيولوجى !! مطلق ، فهو دفاع فج .. يسىء الى القضية .. أكثر مما يدعمها ، ص ٤٧) ، وهكذا يوظف فكرته لتدعيم رؤيته النهائية .. عن الوحدة القومية للعالم العربى .. فهذه رؤيته .. وأيضا حلمه .. الذى لم يتخل عنه مطلقا .

وقبل طرح سؤاله .. عن مغزى هذا التجانس المركب بالنسبة الموحدة الوظيفية ، تجدر الإشارة إلى تحليلاته بالنسبة للزاوية التركيبية الثانية :

★ المورفولوجية البشرية :

كما سبق .. فإن التركيب الطبيعى للمنطقة .. وإن تضمن وحدات مورفولوجية متعددة ، إلا أنه فى مجموعة .. يظهر ملموما تقريبا .. ومحددا بخطوط طبيعية صارمة (البحر شمالا وجنوبا ، والصحراء جنوبا ، والجبال خط زاجروس ، طوروس شمالا وشرقا ، ص ٣٨) ، ومن شأن ذلك أن يحفظ شخصيته البشرية .. وأن يرسخ التمايز بينها وبين المناطق المجاورة ، ومن داخله .. فقد منحه الاسلام تجانسه .. بصفة غالبة ، غير أن بقية سمات التجانس البشرى (.. ليست كاملة تماما ، ص ٣٨) ، وإن كان أقرب لذلك عرقيا ولغويا معا ، وذلك مع عدم تجاهل شروخ معينة .. تتصل بأقلياته .. من

بربر المغرب وأكراد العراق وزنوج جنوب السودان خاصة ، تمثل فى مجموعها (جنسيا ولغويا ودينيا .. قرابة ١٢٪ من مجموع سكانه ، ص ٣٩) ، ولكن أيا من هذه الأقليات .. لاتختلف عن بنيته .. إلا من ناحية واحدة منها غالبا ، بحيث لايعدم الأمر وجود جانب مشترك بينها وبين الكتلة القاعدية ، ويقتصر توزيع الأقليات الصغرى (من الأرمن والشراكسة والايرانيين والهنود .. وغيرهم .. على هوامش المنطقة .. أو جيوبها المنعزلة ، ومرة أخرى يوظف فكرته لقوميته (.. لهذا .. ليس هناك مايبرر المبالغة فى الحديث عن التنافر البشرى المزعوم فى المنطقة ، ومرجع ذلك غالبا الخلط بين العالم العربى والشرق الأوسط .. حيث يضم الأخير إيران وتركيا وغيرهما .. وهما حقا ليسا منها .. بقدر ماهى ليست الشرق الأوسط وحدها) ، ويؤكد (.. الواقع أن الغريب ليس أن يوجد بعض التناقض فى التركيب البشرى ، بل الغريب حقا أن يوجد هذا القدر الكبير من التجانس .. وذلك رغم التتابع الحافل الذى مر على المنطقة .. كإقليم اتصال ، ص ٤٠) ، وهكذا يعود دائما إلى فرضه الأساسى (إقليم اتصال) .. متصاعدا به الى تفسير شخصية المنطقة .. فالى التدليل على صدق وصلابة رؤيته .. المحددة فى وحدة المنطقة .

والآن يأتى مكان سؤاله .. عن مغزى هذا التجانس الطبيعى (المركب) والبشرى .. للمنطقة بالنسبة لوحدتها الوظيفية ؟ .. ، يمهد به لتحليلاته اللاحقة ، وتأتى إجابته ..

فى سياق من المفروض المتتابعة .. تكون فى مجموعها بناء نظريا متكاملا .. كما يلى :

الفرض الأول : ليس من الضرورى أن تستند الوحدة الوظيفية .. إلى وحدة مورفولوجية مطلقة .

الفرض الثاني : لا توجد وحدة مورفولوجية مطلقة التشابه مطلقا .

الفرض الثالث : التنوع فى إطار التشابه يمثل القاعدة بلا استثناء طبيعى أو بشرى لها .

الفرض الرابع : التنوع مبعث التفاعل .. وتدفق العلاقات بين مكونات الوحدة .. وبينها وبين غيرها .

الفرض الخامس : لا تأتى الوحدة الوظيفية من الوحدة التركيبية .. وإنما من اختلافها . ويدلل على فروضه بمقارنات وأمثلة .. دالة وموحية (ص ٤٩) ، ينتهى منها إلى هذه الصيغة المتوازنة (.. الوحدة الوظيفية تأتى إذن من التنوع المورفولوجى .. ولكن فى حدود معينة Unity in dirersity ، إذا تعدتها أصبح التنوع تنافرا ، فالتباين إذا زاد عن الحد .. انقلب الى الضد ، تمزقا وتشتيتا وخطرا سياسيا وتميعا حضاريا ، وفى حالة العالم العربى .. نجد أن التجانس المركب .. يكاد يحقق أنسب التنوع .. فلا تنميط ولا تميع .،، ص ٤٩) ، ثم يتوجه إلى القسم الثانى من مبحثه .

الوحدة الوظيفية :

تستند الوحدة الوظيفية لمنطقة ما .. إلى دعامتين .. من العضوية والتكامل العضوية .. بمعنى تدفق تفاعلات أجزائها .. تلقائيا .. بحكم ترابطاتها المكانية وعلاقاتها البنيوية .. سابقة بذلك أى تنظيم فى أى صورة من صوره ، فإذا ما استثمرت خاصية العضوية .. بعد ذلك .. فى خطة .. وجدت الأخيرة رصيدا مسبقا يغذيها .. ويمدها بقوة اندفاعها ، وتتحقق التكاملية الوظيفية .. من تبادل المصالح .. فى إطار من المصالح المشتركة حيث تسد أجزاء المنطقة .. النقص فى بعضها بعضا .. وتحقق فى المحصلة فوائض .. تفوق المحتمل من انفرادها فإذا كانت العضوية تنطوى على المستويات الثقافية والسيكولوجية .. ضمن مقوماتها ، فإن التكاملية لاتحقق دون المصلحة الاقتصادية .. وهذه جميعها بمثابة المقومات للوحدة السياسية .

وبالنسبة للعالم العربى (ص ٥) .. فقد انبثقت وحدته العضوية .. من تاريخه وثقافته ، ومن الأصول العرقية المتقاربة ، ومن التجاور المكانى .. بمثابة قارب واحد يجمعها ، وقد تجلت فى التاريخ السياسى المعاصر مكونة مايعرف بالشارع العربى .. ممتدا من شرقه الى غربه ، كما تجلت وحدته التكاملية ـ فى فترة من تاريخه تملك فيها طرق العالم التجارية .. وكون دولته العربية الاسلامية ، ولكنه منذ فقدها بعد الكشوف الجغرافية ، وتمزقت دولته .. وسقطت فى

قبضة القوى الاستعمارية ، غابت تكامليته .. وبقيت عضوية كامنة .. تنتظر من يبعثها .. ثم يمنحها الفاعلية .. بالتكامل الاقتصادية .

ويتخذ من التجارة بين العرب Inter - Trade Arab مقياسا .. حيث يقرر (.. تعتبر حتى الآن بدائية لاتغنى، ومجموع قيمتها الى جملة قيمة التجارة العربية الخارجية لايمثل الا نسبة بسيطة ، بحيث أن وحدات العالم العربى. تعطى ظهرها لبعضها البعض تجاريا ، ويتوجه كل منها بكلية من حيث التبادل الاقتصادى - إلى العالم غير العربى ، ص ٥٠) ، كما يتخذ من التمزق السياسى .. دليلا على ما أصاب المنطقة من جزاء قرون الهيمنة الاستعمارية (.. وهنا نجد العالم العربى .. مفتتا تفتيتا ذريا ، هذا عدا الجيوب المحايدة .. والأسافين الداخلية .. والمنازعات الحدودية ص ٥١) ، فإذا كانت الوظيفية الفعالة .. لاتتحقق إلا بالوحدة .. فكيف يمكن التوفيق إذن بين أطراف المعادلة ؟ ، هذا هو سؤاله المعلق .. يجيب عنه خطوة خطوة ، فى سياق من الأسئلة المتتابعة - تهدف إلى تأصيل اجابته .. ودمجها فى بناء متصل بما سبق له الكشف عنه من خصائص شخصية المنطقة .. جغراقيا وتاريخيا وسياسيا .

هل الوحدة الوظيفية ضرورة إقليمية ؟ (.. رأينا أن الشخصية الاقليمية للعالم العربى .. تتركز فى حقيقة كبرى .. انها إقليم اتصال .. سواء من ناحية الموقع أو التركيب الداخلى ، ومن ثم فإن الوحدة الوظيفية ضرورة

إقليمية .. بسبب طبيعة هذه الشخصية ، فكل الخصائص والعناصر التى تجعله إقليم اتصال .. هى عناصر ضعف شديد له . إذا لم تكن له هذه الوحدة ، بينما هى فى نفس الوقت عناصر قوة هائلة ـ اذا تحققت له هذه الوحدة ..) .

لماذا هى عناصر ضعف بلا وحدة ؟ (.. لأن ماسبق تحديده عن التجانس المركب .. يتحول الى تنافر .. إذا ماجزىء ، حيث تتضخم الاختلافات بينها بحكم انفصالها ، فالتوزيع السكانى يمس جزرا متباعدة ، وتتضاعف الفروقات المحلية .. بينما هى تذوب فى إطار الوحدة) .. .. ويضرب المثل بلبنان وحده .. كيف حاله منفردا .. بأقلياته وطوائفه .. وماذا يمكن أن تكون عليه .. فى الاطار العام للقومية ، وكذا العراق بأكراده .. والسودان وسوريا ، إن الوحدة تصل بالشروخ ، إلى أدنى نقاطها .. بينما تتضاعف فى كل وحدة منفردة ، وهى جميعها دون وحدة .. فريسة سهلة .. للقوى الطامعة .. فى مواردها الموضعية والموقعية (ص ٥٢) ، وأيضا بضغوط المضاربة عليها .. بسياساتها المنفصلة .. بالمزايدة والمناقصة ، ويستمد من التاريخ أمثلته (ص ٥٣) فى الشام والخليج وشمال افريقية .. وغيرها ، هذه التى تحقق قوتها من (تجمع مزاياها المكانية .. الظهير مع الساحل الصحراء مع البيئات الفيضية .. الجبل والسهل والهضبة) .. ، بينما لاتجد سوى الضعف من تفرق هذه المزايا .. والفصل بينها .. بسياسات حكومية متضاربة . (..

ويتجسد ذلك بوضوح بالنسبة للسياسات البترولية ، ص ٥٤) ، باعتباره بؤرة لأعتى الأطماع الاقتصادية الراهنة .. من القوى الخارجية الكبرى ، هذه التى أدركت مبكرا .. طبيعة المنطقة كقطاع للارتطام بين القوى .. وعمدت بشتى الطرق .. لتفتيتها .. وضع وحدتها كأساس لاستمرار تبعيتها لها .. ودوام هيمنتها عليها .. سياسيا وثقافيا واقتصاديا معا .

وكيف يمكن أن تكون ذات خاصيته الاتصالية .. مصدر قوته ؟

لقد سبقت إجابته .. عن بعض مايتضمنه سؤاله .. (تؤدى العزلة الناجحة عن الانفصال الى تضخيم المشكلة ، بينما تؤدى الوحدة الى تذويبها ..) ، ويضيف هنا .. (التكامل بين الأجزاء المتناقضة .. تكاملا يشمل السكان .. يوازن بين مناطق الكثافة المفرطة والمتدنية ، والانتاجى .. فى كافة مجالاته الزراعية والرعوية والسمكية والغابية .. والمعدنية وغيرها ، ويمنح التجارة وزنا خاصا .. باعتبارها .. عنصر تجنيس ، هذه المنطقة المركبة ، بحيث لا تتخلص من نوعيتها المنخفضة كتجارة مرور فقط ، وإنما يتضاعف حجمها .. بعيدا عن ضآلتها الراهنة ، وكذلك الصناعة .. التى تقدم للتكامل أنسب أوعيته ـ وأعلاها قيمة (الخامات + رؤوس الأموال + السوق + الطاقة + قوة العمل) ، خاصة وأن البترول العربى يقدم (نواة ممكنة للانقلاب الصناعى العربى .. على غرار ماحدث فى أوربا قبله ، ص ٥٧) ، ويؤكد (·· والواقع أنه فى كل مجالات الانتاج

والحياة .. يمكن أن يتحول العالم العربى .. الى نموذج فريد للتخطيط الاقليمى .. الذى هو وحده كفيل بتحريك ثورة فى المستوى المعيشى العام للمنطقة ..) ، وتتواصل المتابعة .. الى الموقع .. كمصدر أساسى لقوته - حالة استثماره له .. بتكتله فى وحدة قصوى .. تمكنه من مجابهة مايحيطه من أخطار ضخمة محدقة ، منتهيا الى (.. الخلاصة إذن .. أن الوحدة بالنسبة للعالم العربى .. ليست أبهة سياسية ، ولكنها بحكم شخصيها .. ضرورة استراتيجية لها ، ص ٥٨) .

ويأتى سؤاله الأخير .. ولكن كيف يمكن للعالم العربى أن يحقق وحدته الوظيفية ؟

لقد تحققت له من قبل تاريخيا كماسبق ، ولا تزال ممكنة .. بامكانية وضرورة متضاعفة ، يدعمها الآن الاتجاه العالمى - نحو تكوين الكيان الكبير .. إطارا لدولة Grecssraume ، خاصة بعد الثورات الصناعية المتعاقبة ، وتلاشى المسافات فى إطار ثورة المواصلات والاتصالات الجارية (وإذا كانت القافلة قد وحدته قديما من الناحية الاقتصادية فكيف بوسائل المواصلات الراهنة ؟ ، ص ٥٩) .

واذا كانت المسافة بعد أبعد أجزائه .. فى حدود سبعة آلاف كيلومترا.. بين محيطه وخليجه .. فإن ثورة المواصلات تلاشيها .. وتفقد المسافة تأثيرها .. سواءً بالنسبة للبشر .. أو لتبادل السلع ، كما هى كفيلة باذابة الشروخ الثقافية .. الناتجة عن العزلة .. وضعف التفاعل بين وحداته ، بما يؤدى

الى (ترسيخ الثقافة وتأكيد النمط ، ص ٦٠) .. كما أن من شأن الاتجاهات السياسية المعاصرة .. أن تمتص بالديموقراطية انطواء اقلياته .. ومشاكلها المتوارثة ، بما تكفله لها من حقوق متساوية .. تحقق بها ذاتيتها ... وتتفاعل مع غيرها ، ولا يعنى الكيان الكبير .. تضاعف المساحة وحدها .. بل وأيضا البشر ، ومن شأن وحدته الوظيفية .. أن تجعل من مجموعهم .. كتلة لا يستهان بها ، تمكنه من الارتفاع بمستوى استثماره لموارده .. دون الحاجة لغيرهم .. فى مناطق البترول خاصة .

ويبقى سؤال يتصل بما سبق .. هل تتم هذه الوحدة الوظيفية .. تدريجيا أم دفعة واحدة ؟

(.. هناك مدرستان مختلفتان فى هذا الصدد ، مدرسة ترى بالتدريجية .. تبدأ من الوحدات الأقرب لبعضها ، مثل مجموعة الهلال الخصيب ، ووادى النيل ، والمغرب الكبير .. وغيرها ، أى أنها مؤقته .. انتقالية .. تمهد للمرحلة التالية ، وإن كان هناك داخل هذه المدرسة .. من يرى بأن تكون تجمعاتها نهائية .. بادعاء أن كلا منها أمة كاملة (ص ٦٢) ، أما المدرسة الثانية .. فترى بالوحدة الوظيفية الشاملة .. باعتبار .. أن الضرورات تدعو لها .. كما أن مقوماتها الجغرافية والتاريخية كافية ، ولكن المسألة تقتضى صيغة متوازنة .. تجمع بين التدرجية .. والوحدة الوظيفة الشاملة ، تدرجية لا تقتصر على المناطق المتجاورة .. ثم غير المتجاورة

بعدها ، ولكنها أيضا تدرجية فى توقيتاتها .. وفى نوعية الوحدة الوظيفية وأولوياتها .. كأن تكون ثقافية تعليمية أولا .. ثم تنسيقا سياسيا ثانيا .. ثم تعاونا اقتصاديا متدرجا فى حد ذاته ، أى أن التدرجية هى الصيغة المناسبة تاكتيكيا .. أما استراتيجيا .. فهى الوحدة الوظيفية الشاملة .

المبحث الثالث :

الجمهورية العربية المتحدة ..
دراسة فى الجغرافية السياسية

كتبت هذه الدراسة .. بعد شهور من قيام دولة الوحدة (١٩٥٨) .. بين مصر وسوريا ، وأطلق عليها الجمهورية العربية المتحدة ، وقدمت نموذجا ـ أمسى الآن تاريخيا ـ عن دولة الوحدة الوظيفية الكاملة ، وقد كتبت بالطبع فى إبانها .. ولم تكن سلبيات تأسيسها قد اتضحت ، هذه التى لم يكن مستحيلا تجاوزها ، وبذا تكون بسقوطها .. قد أوضحت مايجدر تجنبه فى المستقبل ، فرغم مايظهر من تباعد احتمالاتها .. فإنها تجربة فى حد ذاتها .. ومن يدرى .. ماذا يخبئه الأفق .. فقد انبعثت القومية من مرقدها .. بل مقبرتها .. فى مناطق شيعت فيها دون دمعة ، ولكنها هنا فى العالم العربى .. لا تزال ساخنة تحت رمادها .. يثير سقوطها الألم والحسرة ، وقد يمثل ذلك يوما .. ليس بالضرورة قريبا .. رصيدا لتجربة أخرى .. قادمة .

وتنتسب هذه الدراسة .. إلى منهج قياس قوة الدولة Power State aPP . يدل على ذلك سطرها الأول (الوزن السياسى للدولة .. من أهم مناهج دراسة الجغرافية

السياسية ، لتقييم ثقلها ووقعها impact في المجتمع العالمي ، ص ٦٧) ، ويعود هنا إلى نظريته العامة (الموقع ، الموضع) ، ويتخذ منهما ومن تفصيلاتهما محكات لقياساته المختلفة ، حيث تتحدد قيمة الموقعSituation في القيمة الحيوية والبشرية والاستراتيجية للدولة في إطار العلاقات المكانية .. والمواقع النسبية الخارجية ، وتتحدد قيمة الموضعSite في الموارد الداخلية للدولة .. من حيث الأرض والناس .. كما وكيفا ، ومنهما يتصاعد منهجيا .. ليدرس التركيب السياسي للدولة (ص ٧٦) .. متبعا في ذلك مقاييس شتى ، ليصل أخيرا إلى مايسميه "التنسيق السياسي للدولة" .. بمثابة توصياته المتضمنة رؤيته .. يوظفها جميعا لما يعتبره الأمثل ..

★ أولا : الوزن السياسي لدولة الوحدة :

يستمد موقع الدولة الجديدة أهميته .. من الموقع العام للعالم العربي ، فهي منه في المركز .. وهو من العالم في قلبه ، تترامى بقسميها (مصر وسوريا) عبر قارتي افريقية وآسيا ، بل إن كلا منهما بوابة لقارة .. ووراء كل منهما ظهير يدعمها ، وكلاهما (المجمع النهائي لتوجيه خطوط الحركة لقارة كاملة ، تمسك كل منهما بمدخل .. يفتح الوراء القاري .. ويفضي منهما واليهما بالحركة) ، فسوريا نافذة بحرية للعراق والأردن ومابعدها ، ومصر بقناتها .. عنق الزجاجة للتجارة العالمية ، وهي موارد موقعية ثابتة أو شبه ثابتة .. غير

قابلة للمنافسة .. بحكم الجغرافية ، تضاعفت مواردها بعد البترول العربى .. باعتبارها تسيطر على ممر الحركة الرئيسى ـ القناة ـ من حقوله إلى أوربا .

ومن الناحية الجيوستراتيجية .. فهى (بمثابة الحلقة الوسطى .. الأكثر حساسية وقيمة فى سلسلة قوسية فاصلة ، بين القوى الرئيسية ، ص ٦٩) ، ومن هنا يبرز وزنها ضمن قوة ثالثة بينية (ص ٧٠) ، من شأنها فى حد ذاتها أن توازن القوى الأساسية فى الشرق الأوسط (ايران ، تركيا) وأن تنهى ذلك الانحدار الچيوبوليتيكى Geo-political Grudient بينهما وما يجاورهما ، خاصة بين تركيا وسوريا .. قبل الوحدة ، وأن تحقق التكافؤ الديموجرافى والاستراتيجى .. بعد أن نقلت الوحدة حدود مصر إلى جنب تركيا (ص ٧١) ، ومن الناحية الأخرى ('' وضع موقع الدولة الجديدة اسرائيل ـ التى أريد لها أن تكون اسفينا إقليميا وبشريا ـ وضعها بين فكى كماشة لكتلة سياسية واحدة ، تتصل حدودها بها اتصالا مباشرا من الناحيتين .. على جبهتين مجموعهما ٣٥٠ كم ، منها ٧٠ كم سوريا ، وبقيتها ٢٨٠ كم مع مصر ، ص ٧١) .

وبالوحدة .. تصبح مصر وسوريا .. أغنى بقعة موضعية فى العالم العربى ، سواء حيث القوة البشرية .. (أكثر من ثلث المنطقة سكانيا) ، أو من حيث المساحة .. فهى من أكبرها (١,١٨٤ مليون كم^2) ، ورغم ضآلة المعمور من هذه المساحة (نحو ٥٠ ألف كم^2) .. بمثابة نواة تغلفها درقة صحراوية أو استبسية ، فإنه يتمثل فيما لايقل عن ٣٠ مليون

فدان .. قابلة للاستغلال .. حيث لايزرع سوى أقل من نصفها .. (أى أن هناك امكانيات توسعية أفقية .. وأيضا رأسية ..) يضاعف من قيمتها تنوعها الطبيعى .. فوق أكثر من ١٥ دائرة عرضية (بين ٢٢° شمالاً جنوب مصر .. إلى ٣٧,٥ شمال سوريا) .

ويمثل الانتاج الزراعى المورد الموضعى الرئيسى لدولة الوحدة ، واقتصادها يرتكز على الخامات الزراعية انتاجا وتصديرا (اقتصاد انتاج أولى Primary Production أساسا ، ص ٢ يتطلب تطويره فى خطة شاملة ، لا تضاعف قيمته فقط .. وانما تحرره أيضا من التبعية الاقتصادية والضغوط السياسية ، وذلك بوضع الكفاية الذاتية .. خاصة الغذائية .. ضمن أولوياتها القصوى ، خاصة مصر (.. التى تطورت الزراعة بها من الغذاء إلى الألياف .. ومن الألياف إلى النسيج From Food To Fibre From Fibre To Fabric ، ولهذا تستورد الآن نسبة كبيرة من مقطوعية استهلاكها الغذائى ، وبدرجة أقل فى سوريا .. التى تستورد نسبة من المواد الغذائية تساوى ٢٠٪ بالوزن والقيمة من وارداتها ، ص ٧٣) ، وبعد الغذاء .. تأتى الصناعة ضمن أولويات الخطة ، ويمكن أن تمثل الصناعات الغذائية والاستهلاكية .. أهم مجالاتها فى المستقبل ، مع تحريرها من طابع الصناعة الواحدة Mono Facture ، وذلك بتنويعها والتوسع فى الصناعات التمويلية (ص ٧٤) .

وتحوز دولة الوحدة ـ موارد معدنية ضخمة .. لم تستغل .. بمثابة القاعدة الاحتياطية لسياستها التصنيعية ، تدعمها امكانيات مماثلة من الطاقة المائية (السد العالى فى مصر ، وسد يوسف باشا على الفرات ومشروع الغاب واليرموك فى سوريا ..) وإذا كانت مصر قد سبقت إلى الصناعة الثقيلة .. فيمكن لسوريا أن تلحقها بنواة مماثلة ، وإذا كانت هى أيضا .. قد عثرت على البترول فى أراضيها ، فإن حقل قرة تشوك الداخلى بأرض الجزيرة .. يعد برصيد ضخم .. يمكن سوريا من الاعتماد قريبا عليه (ص ٧٤) ، مع تدعيم صناعته التكريرية والتحويلية .

ويختم هذا الجزء من مبحثه الثالث بهذا السؤال (ماقدر الثقل السياسى للجمهورية العربية المتحدة .. كما يحدد وزنها الاقتصادى فى العالم العربى ؟) .

لقد سارت هذه العلاقة منذ بداية هذا القرن .. فيما يشبه المنحنى ، تظهر الشام ومصر فى بدايته .. كمركز للثقل الاستراتيجى فى المنطقة ، بشريا واقتصاديا وسياسيا معا ، بينما تقع بقية المنطقة فى ظله ، وتحرك الثقل بعد الحرب العالمية الثانية .. مع الكشوف البترولية .. فى العراق وحول الخليج وقربه وتضاعفت أهمية موارد موضعه ، ونالت مصر نصيبها .. ليس من البترول .. ولكن من قناتها .. التى أصبحت المخرج الرئيسى .. لمنطقة انتاجه ، وعاد التوازن .. مع الدولة الموحدة .. التى تحوز من الأرض والبشر مايفوق غيرها .. كما سبق .. بالاضافة إلى بنية حضارية أكثر رسوخ

وتماسكا .. وإن كانت موارد البترول فى مناطق انتاجها .. تفوق مواردها الموضعية .. فى درجة تطورها الراهنة ، وإذا كانت هذه المعادلات مؤقتة .. ومستمرة فى تغيراتها .. فإنها تنبيء بمقدار ما يمكن أن يحققه العالم العربى .. إذا ماتحققت له تكامليته .. فى إطار وحدة وظيفية .. تضم أجزاءه .

ثانيا : التركيب السياسى

يستهل هذا الجزء من مبحثه .. بوضع مقاييسه .. فى هذه الأسئلة الثلاثة التالية :

- هل الجمهورية الجديد نسيج متجانس ؟
- هل هى ملمومة Compact متماسكة ؟
- هل هى واضحة الحدود .. ؟

وبالنسبة للمقياس الأول (التجانس) .. فإنه يعنى به (التجانس التركيبى البشرى .. بمجالاته الانثروبولوجية واللغوية والدينية ، ص ٧٦) ، ومن ثم فإن "الأقليات" .. أهم مؤشراته ، ويقرر بأنها هامشية التوزيع المكانى ثانوية الحجم السكانى ، وإذا كان التجانس يمثل القاعدة المشتركة .. إلا أن مصر أشد تجانسا دينيا وجنسيا ولغويا (ص ٧٧) ، بل ويمكن القول (.. أن الأقليات هى مشكلة فى سوريا إلى حد ما ، فهناك من الأقليات الجنسية واللغوية .. الأكراد والشراكسة والأرمن والأشوريون والتركمان..) ، وذلك لأسباب تعود إلى موقعها العبورى والتقطع التضاريسى

والعزلة الجبلية .. فضلا عن سياسة الاستعمار الفرنسى .. بوجه خاص (.. فقد قسم سوريا أولا إلى ٤ دول .. هى العلويين والدروز ودمشق وحلب ، كما جعل أنطاكية والاسكندرونة حيث الأقلية التركية .. سنجقا مستقلا ، ص ٧٨) ، وسيعود إلى هذه النقطة مرة أخرى .. عند دراسة مقياس الحدود ، غير أن من شأن دولة الوحدة .. أن تمتص كما سبق هذه الشروخ .

أما بالنسبة للمقياس الثانى (التماسك الأرضى) .. فإنه يكشف عن نقطة الضعف الأساسية بلا جدال (.. فالدولة إقليمان منفصلان .. بينهما فاصل أرضى حوالى ١٧٠ ميلا فى خط مستقيم .. بين حدود سيناء وحدود حوران ، ص ٧٩) ، هذا بالنسبة للوضع العام .. أما بالنسبة لكل دولة بوجه خاص .. فمصر غطاء بشرى مستمر .. ليابس متصل دون انقطاع ، وتتألف سوريا من كتلتين .. متصلتين أرضا .. منفصلتين سكانيا الى حد ما (.. الساحل .. وهو النواة nuclear core ويضم ٨٨٪ من السكان ، والجزيرة .. نواة ثانوية تضم ١٢٪ من السكان ، وتفصل بينهما بادية الشام ، ولكنهما يتقاربان باستصلاح الأراضى والتعمير ، ص ٧٩) ، وفى المحصلة .. فإن الفاصل المسافى بين مصر وسوريا .. ضئيل من حيث القيمة الجغرافية والجيوبوليتيكية ، ويستمد خطورته من وجود اسرائيل .. باعتبارها فاصلا أرضيا .. يجعل من البحر عامل الوصل الوحيد ، يسانده ممر جوى Air Lift .. وإن ناوشتهما معا الأخطار ، ويوصى الدولة الجديدة (بأن تصبح قوة بحرية بالضرورة ، ص ٨٣) .. وأن توظف فى ذلك قناة السويس .

أما المقياس الثالث (الحدود) .. فإنه يحددها أيضا بعدد من المؤشرات ، يبدأها بالطول (.. للدولة الجديدة حدود يبلغ طولها نحو ٧٢٥٨ كم ، منها لسوريا ٢٢٧٤ كم .. ولمصر ٤٩٨٤ كم ..) ويصنفها (.. من هذه الحدود ٢٥٧٣ كم مائية طبيعية ، يخص سوريا منها ١٧٣ كم .. والباقى ٢٤٠٠ كم لمصر ..) ويقرر (هذه حدود طويلة .. مشكلتها الأساسية .. الدفاع .. خاصة وأنها تتاخم ٧ دول .. بينها اسرائيل وتركيا ، وهى فوق ذلك هندسية فلكية فى معظمها البرى .. ينقصها البعد الدفاعى الطبيعى .. فالأراضى متواصلة عبرها دون انقطاع ، ومن بعد ينتقل إلى درجات الخطر .. وأشدها اسرائيل ، تليها تركيا .. التى تأسفنت داخل سوريا التاريخية .. بانتزاعها لواء الاسكندرونة .. متجاوزة الحد الطبيعى الصارم لجبال طوروس (ص ٨٥) ، ويفيض فى تحليل المشكلة جغرافيا وتاريخيا (ص ٨٦) .. موضحا النتائج الفادحة لعملية الاغتصاب (ص ٨٧) ، منتهيا إلى أن سوريا ومن بعدها دولة الوحدة (لا تعترف بفصل اللواء .. ولاتزال تحتفظ بحقها فيه ، ص ٨٨) ، ويتابع حدود سوريا مع العراق .. ثم مع فلسطين (حدود مشتركة بطول ٧٠ كم) ، ويعود إلى الاسفين الاسرائيلى (ص ٨٩) .. كاشفا عن شذوذه .. وأهدافه (.. ويرقد سر كل هذا التخطيط الشاذ .. فى أن بريطانيا .. تحت ضغط الصهيونية .. قد عمدت الى ابعاد سوريا ولبنان عن منابع المياه .. ص ٨٩) .

أما عن الحدود المصرية .. فإنها وإن أحاطت بسيناء .. إلا أن العمق الدفاعى أمامها .. قد خسر فلسطين ، كما شاركتها اسرائيل رأس خليج العقبة .. بمينائها الاسفين ايلات ، كما لايخلو من بعض التعرجات فى الغرب ، أما من الجنوب .. (.. فإن مصر لم تتخل عن أية مناطق هناك .. منذ انسحابها أيام المهدية من السودان ، ص ٩٥) ، ويشير إلى منطقة حلايب بشىء من التفصيل (.. فى عام ١٩٠٢ تحدد خط حدود متعرج إلى جانب الحدود السياسية ، ويتخذ شكل مثلثين .. غربى يقطع فى السودان .. متمثلا فى مثلث جبل بارتازوجا .. ومساحته ٦٠٠ كم٢ ، وشرقى يقطع فى مصر . متمثلا فى مثلث جبل علبة ومساحته ١٢٥٠٠ كم٢ ، وقاعدته على الخط السياسى بطول ٣٠٠ كم ، وقد تحدد مثلث علبة ليوحد إدارة شئون بشارية مصر .. مع كتلتهم الرئيسية فى السودان ، بينما مثلث بارتازوجا .. ليوحد إدارة شئون عبابدة السودان .. مع كتلتهم الرئيسية فى مصر ، وتبلغ مساحة ماسلخ من مصر ٩ أمثال ماضم إليها ، فضلا عن كونه منطقة مرتفعات .. غنية نسبيا بالمياه والنبات .. بل وبالمعادن .. خاصة جبل علبة وشنديب ، كما يمثل جبهة بحرية على البحر الأحمر ، والواقع أن ذلك لم يكن لخدمة القبائل الرعوية .. بقدر ماحقق استراتيجية بريطانيا .. الرامية دائما إلى تلغيم الحدود بالمشكلات .. وهو مايظهر الآن كمشكلة بين مصر والسودان ، ص ٩٦) .

وينتهى من مؤشراته المتصلة بخطوط الحدود (الطول +

الخطورة + المشكلات) .. حيث يقرر (.. من العرض السابق يتضح أن حدود مصر وسوريا .. تتشابه فى أن كل منهما حدود منقوصة .. قلمت منها أطراف ومداخل استراتيجية خطيرة ، ولكنها في مصر أشد صلابة .. لأنها شبه واحة صحراوية .. بينما سوريا شبه واحة اسبتسية مفتوحة ، كما أنها فى مصر أقل خطورة ـ لقلة عدد الجيران .. عدا ما يتهددها من ناحية اسرائيل ، فضلا عن موقع سوريا الهامشى .. بحدودها الطويلة مع تركيا .. بما يجعل ميزة العمق الدفاعى Defensive in depth بالنسبة لها أقل من مصر بوجه عام ، ومن هنا تظهر دولة الوحدة كسياج واقى لكليهما .. ولسوريا بوجه خاص . (ص ٩٧) .

ثالثا : التنسيق السياسى لدولة الوحدة

كما سبق .. فإن يضمن هذا الجزء من مبحثه الأخير .. مايمكن أن يعد رؤيته العامة .. منطوية على توصياته .. لمواجهة مارصده من نقاط ضعف وسلبيات ، وتدعيم التفاعل العضوى والتكامل الحيوى بين القسمين ، بكل ما يتطلبه ذلك من تكييف الأوضاع الجديدة .. وتطويع القديمة منها للجديد ، محددا الهدف (ينبغى أن يسيطر على عملية التكييف هذه .. هدف تحقيق شبكة متكافئة متساوية .. من القيم البشرية والحيوية فى الاقليمين على السواء ، بمعنى آخر .. ينبغى أن يسود مبدأ المساواة الاقليمية ..) ويستدرك (.. دون أن

يؤدى ذلك إلى التنميط Standardisation) أى دون تذويب الشخصية المحلية .. ولكن توظيف مواهبها الخاصة .. داخل الاطار العام (ص ٩٨) ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك دون تخطيط (وهذه توصيته الثانية .. حيث الأولى هى المساواة) ، ثم يوصى بأن يهدف التخطيط إلى :

- تحقيق الحد الأقصى من التجانس القومى والاقليمى .
- الجمع بين مزايا الوحدة .. والتنوع .
- صياغة التخطيط بحيث يتضمن عملية اعادة التوجيه Re - orientation للاقليمين .. بالموازاة مع عملية اعادة التوزيعRe - distribution .. فى الاقليمين . ثم يتساءل عن مجالات التخطيط .. ويوجزها فى هذين المجالين :

★ القوة البشرية :

وتقدم المجال الأساسى لاعادة التوزيع ، حيث تبدو النسبة كبيرة (١ : ٥) لكل من الحجم السكاني لسوريا ومصر .. على الترتيب ، وهى تقدم للمغرضين الحجة .. على أن الوحدة ليست بين أنداد ، ولكن اعادة التوزيع ليست مسألة هينة ، حيث هى يجب أن تأخذ فى الاعتبار .. أن سوريا مقبلة على مرحلة ديمرجرافية متفجرة .. وأنها يمكن أن تستوعب ما لايقل عن ١٥ مليونا من السكان ، فضلا عن أن اعادة التوزيع .. تتطلب التهجير .. وهى مسألة محفوفة بالحساسيات ، ومن ثم فإن ضوابط اعادة التوزيع .. تتمثل فى (توقعات الحجم

السكاني المحتمل في سوريا + حساسيات التهجير ..)
وبازاء الضوابط .. هناك الضرورات .. تتحدد في :

● بينما تعاني مصر من افراط السكانover - population .. تواجه سوريا مشكلة نقص السكانUnder populaion ، بما يؤدى في الحالتين .. إلى ضعف الاقتصاديات .

● بينما ضاقت فرص التوسع في مصر .. فإنها مازالت متوافرة في سوريا .. بأكثر من ضعف المستغل الآن ، بما يقدم القاعدة للتكامل الاقتصادي السكاني المنشود لصالح الاقليمين ، خاصة وأن ذلك يحقق الوحدة الوظيفية .. كما يجب أن تكون .

● ثم هناك الضرورة السياسية .. المتمثلة في دمج الشعبين .. وازالة اسباب الانفصال .. بتيار بشرى .. يدفع بالدماء السكانية إلى الشرايين ، ويملأ فراغ الهوامش السورية قرب الحدود .

ويفيض في متابعة تيارات الهجرة المتبادلة بين مصر وسوريا .. عبر التاريخ (ص ١٠١) ، ويشير إلى (.. مشروع ضخم للتهجير .. تتبناه الحكومة الموحدة .. على عدة سنوات ، ويقدره البعض بمليونين .. ويقدره البعض بمليون ..) ويحذر (.. من التخوفات التقليدية في مجال الهجرة) ويراها تدنو في الحساب .. عن ضرورات التهجير ، كما يحذر من سوء التنفيذ .. فمهما كان التخطيط محكما على الورق .. فإن محكه الأساسى عند التنفيذ .

وينتقل الى المجال الثانى للتخطيط .

★ تنسيق التكامل بين الاقليمين :

ماهى المبادىء السياسية الأساسية .. فى عملية تنسيق التكامل .. بنواحيها المختلفة .. الادارية والثقافية والاقتصادية .. وغيرها ؟

يعود فيؤكد على مبدأ المساواة .. ويكرر (.. التخطيط للتجانس .. وليس التنميط) فالتكامل الوظيفى لايأتى من التنميط .. وإنما من التفاوت التركيبى.. أو التجانس التركيبى .. أو التفاوت التركيبى كما سبق وأسماه ، فالتفاعل فى حده الأدنى يحدث بين المتشابهات .. ويصل إلى حده الأقصى بالتنوع الوظيفى .. ويتدفق بالتخطيط ، ولا يقتصر ذلك على الاقتصاد .. بل يمتد الى النظم الادارية والحكم المحلى .. وغيرهما من المجالات ، مستندا الى الخصائص الخصيمة لكل إقليم ، فالمركزية مثلا .. أنسب لمصر .. بحكم النهر الوحيد ، بينما طبيعة سوريا تؤدى بها الى اللامركزية بحكم تعدد البيئات ، وفى الحالين .. يجدر التوافق مع هذه الأحكام .. والتمشى معها .. وليس ضدها .. بالتنميط الادارى .. أو غيره .. مما يفضى بالضرورة للمشكلات ، ويدلل على هذه النقطة بمثال ثان عن المواصلات .. هذه التى فرضت الطبيعة وسائلها فى القطرين (.. فطبيعة مصر المتصلة الملمومة .. جعلت للقطار اليد العليا فى المواصلات ، بينما الأولوية المحققة هى للسيارة والطرق فى

سوريا .. المضرسة هنا .. والمبعثرة هناك ص ١٠٤) ، ويورد غير ما ذكر من الأمثلة للتدليل والتأكيد .

ويحدد الهدف من تنسيق التكامل في الاقتصاد (.. ليس الكفاية الذاتية المطلقة ، ولا العزلة عن السوق العالمي ، ولكنه طريق إلى مزيد من الاستقلال عن المؤثرات الخارجية .. التى تخرج عن ضبط الاقليمين ص ١٠٥) ، ولاشك أنه هدف متعدد الأبعاد .. يتضمن تحصين الاقتصاد من الصدمات .. بما يدعم استقلاليته .. ويحرره من التبعية .. الناتجة عن الضغوط .. أو الحصار ، كما يتضمن رفض العزلة والانكماش .. حيث يرى فى التفاعل والتواصل سبيل الاستمرار والانتعاش ، متصاعدا بفكرته إلى ذروتها .. حين يقدم المشاركة بالتصدير والاستيراد .. على مبدأ الكفاية الذاتية المطلقة .. الذى لايعنى سوى الانغلاق .. والمستوى الأدنى من الاحتياجات .. عدا استحالته الواقعية .. بالنسبة لأى كيان منفرد .. مهما كان ، ويتابع مايعنيه وماينشده .. بالأرقام والتحليل ، ويضيف .. (يجب مضاعفة التبادل التجارى بين القطرين ، كما يجب تخليصهما من التنافس الخاسر .. نتيجة تصديرهما سلعا متشابهة الى ذات السوق ، وذلك بوضع سياسة عليا .. تقوم على استثمار المزايا التنافسية لكل منهما إلى أقصاها .. والتنسيق الدقيق عند التسويق ، كما يجب التنسيق بينهما لمواجهة الكوارث والأزمات .. إلى غير ذلك من اتجاهات وقنوات التنسيق ، ص ١٠٥) .

ويختم توصياته بمناقشة عميقة .. لامكانية تطبيق نوع من التخصص الاقتصادى الاقليمى بين القطرين حيث يقرر (.. أن سوريا بحكم المناخ .. مؤهلة بأفضلية طبيعية واضحة فى ميدان الانتاج الرعوى .. من لحوم والبان وجلود ، وميدان الفواكه والقمح والزيوت وأخشاب الغابات والبنجر ، وبالتالى فى الصناعات الزراعية المرتبطة بها .. كالجلديات والتعليب وحفظ الفواكه وصناعة الصابون وسكر البنجر والورق ، بينما تتمتع مصر بأفضلية في الأرز والقصب .. وما يترتب عليهما من صناعات ، كما تتمتع بأفضلية واضحة فى المعادن خاصة الحديد والفوسفات والبترول ، وما يرتبط بهما من صناعات كالحديد والصلب الثقيلة خاصة .. والأسمدة والتكرير ، أما عن القطن .. فالأفضلية لمصر .. بحكم التربة والمناخ .. مع تخصيص انتاجها الفاخر للتصدير ، وتغطية الاستهلاك المحلى .. بتصنيع القطن السورى المتوسط ، بذا يمكن توزيع صناعته بالتساوى بين القطرين ، ص ١٠٨) .

وتتواصل توصياته فى ذات الاطار .. بالنسبة للتجارة (.. الأفضلية لمصر بالنسبة للتجارة الثقيلة البطيئة ، وهى لسوريا فى السلع الخفيفة ..) .. مدللا على ذلك بتحليل المزايا التنافسية للقطرين ، على أن التخصص المنشود .. يجب أن يبقى دائما محكوما بمبدأين (١٠٩) .

● العدالة الاقليمية فى التوزيع .. بما يضمن التوازن الدائم Regional Balance بين القطرين .

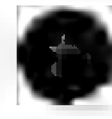
● الأمن القومى National Security بما يضمن سلامة الكيان .

فإذا كان التكامل الاقتصادى مطلوبا لزيادة تماسك واندماج القطرين ، وإذا كان هذا التكامل يأتى عن طريق التخصص الاقليمى ، فإن هذا التكامل وهذا التخصص .. ينبغى ألا يجعلا كلا أو أحدا من الاقليمين .. معتمدا كلية على الآخر .. فى خط انتاجى حيوى أو أكثر .. بحيث يتهدد الكيان الحيوى والاقتصادى لهما أو لأحدهما .. بشلل .. أثناء الأخطار الخارجية أو الحصار البحرى ، وذاك على أساس أن التركيب الجغرافى / السياسى للدولة الموحدة .. يتركها حتى الآن مشطورة بفاصل أرضى (ص ١١٠) ، وبذا تسبق السلامة القومية .. التخصص الاقليمى ، ويقتضى التوازن بينهما .. تحقيق قدر كاف من التجانس التوزيعى فى نواحى الانتاج الحيوية الحرجة Key Production .. حتى يمكن تحويل كل منهما بسهولة الى كتلة شبه معتمدة على ذاتها .. أثناء فترات تعذر الاتصال بينهما .

●

وينهى مبحثه وكتابه .. بهذه السطور المشرقة المتفائلة .. (.. ومن حسن الحظ .. يتضافر توجيه مبادىء التخطيط الاقليمى الثلاثة .. فى حالة الجمهورية العربية المتحدة .. ولا يتنافر ، فكلها تشير بوجه عام .. الى قدر معقول من التجانس الانتاجى .. لايتنافى مع قدر رشيد من التخصص يقترن

بفرص متكافئة تحقق المساواة بين القطرين ، ص ١١١) .



ولكن دولة الوحدة العربية الأولى فى العصر الحديث .. استهدفت بقوة نيران تفوق الاحتمال .. نسفت وجودها .. وعادت بها حلما .. بعدما تجسدت واقعا .. وأثبتت أن وجودها ليس من المحال .. وتبقى التجربة محلا للدراسة والتمحيص .

شكل (٩) مكونات كتاب "دراسات في العالم العربي" لجمال حمدان

العالم الاسلامى المعاصر

● من أشد ما أثار الاسى .. من بعد رحيله ، ما أثير عن احتمال فقدان مخطوطة له .. عن جغرافية العالم الإسلامى ، استغرقه اعدادها سنواته الاخيرة ، بمثابة الجزء الموسع .. من وجيز سبق اصداره .. قبل أكثر من عشرين عاما ، تحت عنوان "العالم الإسلامى المعاصر" (١٩٧٢) ، أشار فيه بين سطوره .. الى مشروعه بشأن توسيعه . مؤكدا بذلك منهاجه في بعض مؤلفاته ، هذه التى يصدرها متدرجة .. تولد صغيرة .. وتنمو على مراحل ، خاصة ما يتصل منها بدوائره الثلاث الأثيرة .. مصر .. العالم العربى .. والعالم الإسلامى ، وهى ما تكون فى مجموعها .. رؤيته الحضارية العامة ، غير أن الوقت لم يسعفه لاتمام مشروعه المتكامل ، والآن وشخصية مصر .. فى صورتها الموسعة .. بين أيدينا .. فإن لنا أن نأسى لغيابه .. ونشعر بافتقاد فكره الشامل ، كما نأسف لضياع أى مخطوطة تخصه .. ظننا كان ضياعها أو حقيقة ..

●● ويضاعف الاسى .. ان العالم الإسلامى قد أمسى .. قضية محورية فى خريطة العالم الجديدة ، ليس فقط باعتبارات الجغرافية السياسية والاقتصادية القديمة ، وانما أيضا باعتباره فى حالة سيولة تعيد تشكيله ، تبدى ظواهرها غير ما تبطنه من قوى حبيسة ، معاقة بفعل ضغوط عديدة ،

منطوية على احتمالاتها الدفينة ، وبينما المكتبة العربية تكاد تخلو من مرجع عنه يعتد به ، أو دورية علمية تتابع تغيراته ، لا تتوقف عنه الكتابات الاجنبية .. بهدف التعرف على كل تفصيلة .. بل ويضع له بعضها استراتيجياته .. الدانية والبعيدة ، وذلك باعتباره منطقة واحدة .. بأبعاد مديدة ، وكمثال على ذلك .. ما أورده نيكسون عنه فى كتابه "الفرصة السانحة" "Seize the moment" الذى صدر له أخيرا (١٩٩٢) ، حيث يشير اليه بقوله (.. ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام .. سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة ، وانه مع التزايد السكانى والامكانات المادية المتاحة ، سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة ، ص ١٣٥) ، ويقرر مطمئنا .. (.. ان هذا الكابوس المخيف لن يتحقق .. فان المسلمين من الكثرة والاختلاف بشكل لا يسمح لهم بأن يكونوا كتلة واحدة ، ص ١٣٥) ، ويوجه الى دولته النصيحة (.. وعلينا ان نرسم سياسة طويلة المدى .. تؤدى الى توجيه العالم الإسلامى الوجهة الصحيحة ، ص ١٣٨) ، وهكذا يرسم الآخر .. وهكذا يحدد هو الوجهة الصحيحة ، فمن يفسر لنا المسافة بين واقع العالم الإسلامى وامكاناته ؟ هذه هى الدعوة المتجددة المطروحة ، امام كل مفكر عربى وإسلامى .. ليسهم فيها باجابته أو يعاود اسهامه ، حبذا لو نشدت فى مجموعها التكامل كرؤية عامة .. فقد تشبع التاريخ والواقع بالتضاد المطلق وصراعاته .

●●● واذا كان الواقع لم يسعفه لتقديم اجابته

الموسعة .. فقد خلف رؤية متكاملة .. بالغة القيمة فى وجيزه ، حيث تتضمن صفحاته القليلة (١٦٠ صفحة) نظريتين فى فصلين من فصوله ، يمهد لكل منهما بفصل تحليلى ، وهذه الفصول الأربعة هى جملة كتابه ، وتأتي نظريته الأولى تحت عنوان "نظرية عامة فى مورفولوجية العالم الإسلامى" (الفصل الثانى) ، أما النظرية الثانية فعنوانها "نظرية الوحدة الإسلامية" (الفصل الرابع) ، ورغم ما يقرره فى مقدمة كتابه (.. بأنه كما يترابط الفصلان الأول والثانى ، ويؤلف الفصلان الثالث والرابع .. وجهين لشىء واحد ويمثلان معا دراسة فى الجغرافية السياسية للعالم الإسلامى ، ص ٨) ، فالحقيقة أن نظريتيه مترابطتين تماما ، حيث الأولى المورفولوجية .. للشكل التوزيعى للعالم الإسلامى .. كنظام مكانى يكشف عن قوانينه ، والثانية لمضمون بنية هذه التشكيلات .. فى ظلالها العديدة ، وبترابط النظريتين كنظرية واحدة تترابط فصول الكتاب جميعا ، وسوف تكون هناك عودة تفصيلية لكل ما ذكر .. عند تحليل مضمون كتابه ، غير ان قيمة نظريته بوجهيها .. تتجلى فى مرونتها التطبيقية .. وقابليتها للتوظيف السياسى ، حيث تسلم نتائجها لواضعى الاستراتيجية وراسميها .. متسربلة ـ كما سيأتى ـ بفيض من النفعية والجدارة .

●●●● هذا عن قيمة الكتاب .. أما عن هويته .. فانه ينسب الى جغرافية الاديان بصفة خاصة (.. هو دراسة للإسلام فى ذاته ، من حيث هو ظاهرة فى المكان .. له توزيعه

وامتداده وعلاقاته ، ومن حيث هو عامل مؤثر فى اقليمه ، ص ٦) ، وبالتالى فان الجغرافية البشرية تمثل اطاره بصفة عامة ، حيث يتبدى تأثير عناصرها فى (.. تشكيل تاريخه وحياة سكانه ، وتكوين وجه النشاط البشرى والعلاقات الاجتماعية فيه ، بما فى ذلك على الاخص الجوانب السياسية الداخلية ، وتوجيه السياسة الخارجية والمشاكل الدولية الى آخر ذلك ، ص ٦) ، وبقدر ما ينفى بهذه المجموعة المختارة من العناصر .. أن يكون كتابه مسحا سريعا للعالم الإسلامى ، أو ان يكون دراسة فى جغرافيته الاقليمية العامة ، بقدر ما ينبه الى اهتمامه بعناصر معينة من موضوعه ، تتصل بخلفيته التاريخية وبنيته السياسية وتكوينه الاجتماعى ، والواقع ان مضمون كتابه ينسبه الى الجغرافية السياسية للاديان تحديدا ، يؤكد ذلك ما ذكره عن فصليه الثالث والرابع .. (.. بأنهما دراسة فى الجغرافية السياسية للعالم الإسلامى) ، وينتمى الفصلان الأول والثانى .. لذات الوشيجة .

●●●●● ويشير فى مجال تدليله على أن للجغرافية اهتماما تقليديا بالأديان .. الى العمل الموسوعى الكبير الجغرافية والدين Geographia et Religion لبيير ديفونتين ، والى كتابات فلير وبومان وهتنتجتون وغيرهم من كبار الجغرافيين ، والواقع أن تراث الأدب الجغرافى العربى فى هذا المجال .. زاخر بغير ما ذكره من مؤلفات .. وما اورده من مؤلفين ، فقد نالت "دار الإسلام" .. جل الاهتمام من

الجغرافيين والمؤرخين ، وقد تنبه كراتشوفسكى فى كتابه الضخم (تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، ١٩٥٧) الى هذه الحقيقة واكدها عشرات المرات ، بل جعل منها اساسا للتمييز بين ما كتب عن دار الإسلام وحدها ، وما تجاوزها الى غير من الديار ، فيذكر على سبيل المثال لا الحصر .. ان (.. الاصطخرى كغيره من جغرافى هذه المدرسة يقتصر على وصف العالم الإسلامى وحده ،. ص ١٩٩) ويعني بذلك "المدرسة الكلاسيكية لجغرافى القرن العاشر الميلادى .. ويعنون بها الفصل السابع من كتابه المذكور ، ويورد عن ابن حوقل ما سجله فى مقدمة كتابه "المسالك والممالك" عن منهجيته (.. وقد فصلت بلاد الإسلام اقليما اقليما وصقعا صقعا وكورة كورة لكل عمل ، وبدأت بذكر ديار العرب .. فجعلتهما اقليما واحدا ، لان الكعبة فيها .. ومكة أم القرى .. وهى واسطة هذه الاقاليم عندى ، ص ٢٠٢) ، ويؤكد كراتشكوفسكى ما سبق .. (من هذا يتضح أن ابن حوقل .. شأنه فى هذا شأن بقية ممثلى المدرسة الكلاسيكية ، قد حصر اهتمامه على وجه التقريب فى وصف دار الإسلام ص ٢٠٣) ، ويكفى ذلك .. دون التوسع فى متابعة غير ذلك من الامثلة .. لاثبات اهتمام الجغرافيين المسلمين .. بما يعرف الآن بجغرافية الاديان ، اهتماما تتفق معظم اهدافه .. وان اختلفت ادواته وأساليبه .. مع ما يدعو اليها الآن ، ومما يلفت استخدام "نيكسون" لنفس التعبير (دار الإسلام) فى كتابه المذكور ، وذلك فى

مجال اثباته التناقض بين الغرب والإسلام .. (.. ويؤيد هذا الرأي بأن الإسلام والغرب متضادان ، وان نظرة الإسلام للعالم تقسمه الى قسمين : "دار الإسلام" ، و"دار الحرب" ، حيث يجب ان تتغلب الاولى على الثانية ، وان المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب ، وعلى الغرب ان يتحد .. ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة ، نيكسون ص ١٣٥) ، وهكذا تتجدد التعبيرات .. وتعاد صياغة المصطلحات ، ويستخرج من باطن التاريخ .. ما يصطنع كدليل على التوجه العام للديانات ، وتوظيف ذلك فى وضع السياسات ، ويدل ما يجرى فى البوسنة بمقياس مصغر مكثف الآن .. على استثمار اختلاف الدين فى فصم العرى التاريخية داخل الشعب الواحد .. وبينه وغيره من الشعوب ، بما قد يضيف لجغرافية الاديان زاوية تطبيقية نفعية .. تتحدد فى الكشف عن هذه الطبقة المتكلسة للتاريخ الثقافى للشعوب .. والتى تنذر اذا لم تصف بالتفجر فى يوم من الايام .

التوزيع القاعدى للإسلام :

يأتى البناء المنهجي للفصل .. بما يحقق اهدافه .. مبطنا بتفسيراته ، يستهله بالسؤال الجغرافى القاعدى "اين" ؟.. وإجابته "التوزيع المكانى للعالم الإسلامى" ، ومنها يمكن تبين ضوابط انتشار الإسلام وحدوده ، حيث لكل ظاهرة حضارية ـ مهما عظمت ـ قدرة معينة على الانتشار المكانى ،

هى محصلة قواها الدافعة .. ومقاومة القوى المغايرة المضادة ، وتتجسد مكانيا فى شكل دوائر منداحة من نقطة مركزية - متلاشية فى اتجاه هوامشها ، ويمكن تصويرها كمنحنى متصاعد .. بحكم القوى المواتية .. التى تصل بها الى نقطة الاوج أو مستوى الذروة ، هى فى حالة الإسلام مرحلة الفتوح .. وما اعقبها من رسوخ الدولة الإسلامية (شكل ١٠) ، ينحدر بعدها بحكم ما يبطئه أو يعيقه من الثقافات المحلية والقوى المناوئة ، فضلا عن عوامل القصور الذاتى .. الناتجة عن تنائى المسافات . وتخلخل الرصيد السكاني .. عدا عوامل الوهن التاريخية ، وليست الصورة التوزيعية الراهنة للعالم الإسلامى .. سوى المحصلة الاخيرة لهذه العملية ، وقد خضعت هذه العملية لمنهجية أخرى .. فى كتاب آخر له (استراتيجية الاستعمار والتحرير) ، قد يفيد الرجوع لها (ص - ٥٥) .. لتبين بعض الفروض التى يقيم عليها تحليلاته ، وخاصة ما يتصل بتوصيف الدولة العربية الإسلامية .. كقوة برية فى صميمها ، وما نجم عن ذلك من صراعها .. مع القوى البحرية الأوروبية .. والقوى البريه المجاورة ، وما افضت اليه من تآكل هوامشها وانفصالها .. فى فترات ضعفها ، بما يمكن أن يثرى هذا الفصل عند قراءته .

وكما يقرر ايضا فى مقدمة الكتاب .. فانه يعتبر الفصل الاول (.. رحلة تقصى حقائق ، ينظر الى الخريطة الخام فحسب ، وحصيلته هى التوزيع الجغرافى للاسلام ..)

وتتحدد قيمته ووظيفته فى (.. انه وحده يمدنا بالمادة الاولية الضرورية لكل بناء يتلو .. ص ٧) ، واذا كان "التوزيع" .. بمثابة القاعدة لكل دراسة جغرافية .. باعتبار الجغرافية علم المكان Science the Place وبالتوزيع يمكن الكشف عن تبايناته Areal differentiations فان التوزيع فى هذه الدراسة عن جغرافية الإسلام .. يتجاوز ذلك مع تحقيقه .. ليكشف عن النظام المكانى Spatial organization الكامن وراءه ، وتحليل ضوابطه ومحدداته ومكوناته ، ومن بعد ذلك أستخلاص قوانينه ، ومن ثم بناء النظرية التى تكشف عن حركته الداخلية وشبكة علاقاته ، ويمكن توضيح ما سبق بهذه المتوالية البسيطة (التوزيع ـ التباين ـ النظام ـ القوانين ـ النظرية) وهو ما يفسر ما ذكره عن ترابط الفصلين الاول والثانى (ص ٨) فبدون التوزيع فى الفصل الأول .. يستحيل بناء النظرية فى الفصل الثانى ، ويقتضى ذلك أن لا يأتى التوزيع تقريريا وصفيا كالشائع ، بل توظف تفصيلاته أول بأول .. بما يجعل منها مادة قابلة للصياغة الفكرية ، وذلك بشروط عدم التعسف وتوجيه النتائج ولوى اعناق الحقائق ، ويمكن تقرير بأن ذلك قد تحقق بنسب عالية من الجدارة .. وان شابتها احيانا ـ كما سيأتى ـ بعض الشوائب .

وتعكس عناوين هذا الفصل التوزيعى .. هدفه المعلن فى توظيفه لبناء نظريته العامة .. حيث لا تستغرقه تفصيلات التوزيع البسيطة .. هذه التى قد يحجب تراكمها .. ما يهدف كشفه من خطوطها الاساسية .. وتشكيلاتها الرئيسية ، وقد

لا يشبع ذلك نهم الجغرافية الوصفية التقليدية للمنمنمات الدقيقة ، غير انه يعوض عن ذكرها مباشرة .. باعتصار معناها ، وربما يفسر ذلك قلة خرائطه ولا يبررها .. حيث من شأن الخريطة أن تعوض ايضا عن السرد اللغوى .. بما تستوعبه من اسماء الاماكن ومسميات المواقع .. وما تختزله من تفصيلات العلاقات الكثيفة .. ومن هنا تشعر به قلقا من اتساع المسافة بين اطلالاته الفوقية .. وما يقتضيه فهمها من المعلومات والخرائط .. ومن ثم يقدم عن ذلك أسفه واعتذاره وفى دراسة كهذه .. تعتمد فى الاساس على الحقائق العلمية الدقيقة ، نصطدم من أسف بعدم كفاية الارقام اليقينية ، الوثيقة أو الحديثة ، ص ٨) ، ثم يقدمه ثانية .. حيث يقرر (.. فان بدا هدف هذا البحث لاول وهلة مجالا ضيقا ان لم يكن متواضعا ، فان الرحلة نفسها .. اذ نلهث معها عبر القارات والمحيطات والعوالم الشتى ، جديرة بان تقنعنا بان بعض الاستقراء الاولى للمادة الخام قد يكون أشق من بعض التنظير العلمى والتقنين أو التفلسف المنهجى ، ص ١٢ وهذا اعتذار لاشك بسبب حقيقى ، فمن يطالب شخصا مهما علت قدراته .. بأن يغطى تفصيليا جغرافية العالم الإسلامى .. عليه أن يتقدم فورا لاثبات ذلك ، واذا كانت شخصية مصر قد اقتضته اربعة آلاف صفحة .. واستغرقته قرابة عشرين عاما .. فماذا نتوقعه من تغطية العالم الإسلامى المترامى ؟ خاصة بطريقته من استقطار المعانى ، وتكمن وراء اعتذارته ربما دعوة .. لان تستكمل هيئة ما قادرة

مشروعه .. واذا كانت مخطوطته الموسعة قد ضاعت ظنا أو حقيقة ، فقد يقدم كتابة الصغير محل الدراسة .. ما يمكن اعتباره مدخلا على حد تعبيره (ص ١١) .

ومع ذلك .. يبقى السؤال قائما .. هل يمكن التوصل الى "النظرية" .. دون قاعدة سميكة مشبعة من التفصيلات الدقيقة ؟ هذا ما حاوله فعلا فى الفصل الثانى من كتابه ، ومن ثم فالاجابة عن درجة توفيقه مؤجلة .. لما بعد الانتهاء من فصله الأول التوزيعى .

فاذا عدنا الى ما سبقت الاشارة اليه من عناوينه الدالة .. فانه يستهلها بتساؤل عن ابعاد العالم الإسلامى (ص ١٢) ، تتضمن اجابته موقعه الفلكى ومساحته وحدوده وجيرانه .. وحجمه السكانى وغير ذلك ، كما يضمنه مناقشة سريعة لبعض المسائل الهامة .. التى قد يكون تسجيلها هنا بإيجاز مفيد :

* تقدير نسبة الحجم السكانى للمسلمين إلى جملة السكان فى العالم .. بين التهوين والتهويل ، وتقديره له بنسبة ١٥٪ على وجه التقريب ، وتوقعه ان تصل الى ٢٠٪ قبل نهاية القرن العشرين .

* عالمية الدين الإسلامى من حيث التوزيع وتركزه فى نصف الأرض الشمالى من العالم القديم (.. الربع الإسلامى .. كما قد نقول ، ص ١٥) .

* القطبية الدينية الثنائية فى العالم .. بين المسيحية

والإسلام ، مع تبادل الترتيب بين العصرين الوسيط والحديث . وبعد تحديد "الأبعاد" .. يفرد بقية الفصل (ص ١٦ ـ ٤٥) لمتابعة توزيع الإسلام بين القارات ، متبعا فى ذلك المنهج الجغرافى المعتاد ، وان تميز باشارات تاريخية .. تضاعف من دلالات التوزيع .. وتمنحها الظلال ،

خاصة ما يتصل منها بتغيرات الانتشار والوزن .. بعد الكشوف الجغرافية بوجه خاص ، باعتبارها نقطة التحول الحاسمة فى غير صالح الإسلام ، وذلك رغم ما قدمته الدولة العثمانية من تعويض فى هذا المجال

وفى اشارات خاطفة .. تعكس تنبهه العميق .. يضع اصبعه على جذور المشكلات العرقية الراهنة فى شرقى أوروبا وجنوبيها ، خاصة البلقان ، لا يتابعها كما ينبغى ، بحكم ضيق حيز الكتاب .. واكتفائه فى مشروعه الصغير بالاشارات (ص ١٦) ، وايضا بحكم تاريخ وضعه .. فانه يشير الى ما نجم عن ظهور الاتحاد السوفييتى .. من تعديلات قهرية فى توزيع السكان ، ولاشك أن سقوطه قد ادى الى اضعافها .. ولكم لصالح الإسلام بما يفرض متابعة هذه الزاوية بأكبر قدر من التفصيل .. فى المستقبل القريب، ويقرر بالنسبة لتراجع الإسلام فى أوروبا بموضوعية (.. والمحصلة النهائية هى أن الإسلام الآن ليس ألا ظلا باهتا لما كان عليه فى يوم ما فى أوروبا المتوسطية والجنوبية والشرقية ، بيد اننا ينبغى ان نضيف ان هذا التراجع والانكماش هو عملية زحزحة وخروج ، وليس ردة بطبيعة

الحال ، ص ١٦ ـ ١٧) ، أى ان الانحسار ليس فى الإسلام أو المسلمين .. وانما فى نمط التوزيع والانتشار ،

بل أن الإسلام قد عوض انحساره المذكور .. بتوسع مشهود فى افريقيا .. التى شهدت (جبهة مدية زاحفة بقوة وايقاع ، لا يعرفهما فى قارة اخرى .. كما لا يعرفهما دين آخر سواه ، وهكذا اذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط كبحيرة إسلامية ، فانه قد كسب افريقا كقارة إسلامية ، ص ١٧) ، وهى ايضا زاوية تضاف لسابقتها فى الاهمية .. ومن حيث ضرورة متابعتها بالتوثيق والتفصيل ، واذا كانت الخلفية التاريخية والمقارنات .. قد منحت الثراء لمثل هذه الاشارات ، فالاجدر التمسك بها .. حالة صياغة جغرافية العالم الإسلامى .. فى المشروع الكبيرالمنشود .

لقد تراجع الإسلام عن أوربا .. وانتشر فى افريقيا .. ولكن آسيا تبقى بيته الاصيل حيث يتجمع بها ٨٠٪ من مسلمى العالم .. على اقل تقدير ، وفى رؤية شاملة تميزه .. يقرر (أن جسم الإسلام ككل يزحف تحت ناظرينا .. فى حركة كتلية من الشمال الى الجنوب ، فيستبدل على اطرافه الجنوبية عروضا سفلى .. بعروض عليا على أطرافه الشمالية ، ص ١٨) ، فهل يعنى ذلك انه ينزلق من مستوى حضارى اعلى الى آخر أدنى ؟ تلك زاوية أخرى تضاف الى سابقتيها أو سابقاتها خطورة واهمية .. وتدعو الى النقاش ، وإذا كان قد اوردها من باب تسجيل ما يردده ناقدو الإسلام ، فما اولاها بأن تحظى

بالتفنيد الموضوعى ، فى اطار حضارى تاريخى .. يفسر اسباب التراجع (القسرية غالبا) .. واسباب التقبل (الطوعى غالبا) بين سكان العالم الفقير (شكل ١١) .

وبعد هذه الرحلة التوزيعية . التى لهث فيها - على حد تعبيره - بين القارات ، يرسو بنا فى مرفئه الأثير (.. مورفولوجية العالم الإسلامى .. ص ١٩) ، ولكنها مورفولوجية دون نظرية ، فهو لا يزال يمهد لها بالتوزيع ، او بمعنى ادق باكتشاف صياغات التوزيع ، ورغم وفرة ما اكتشفه .. فقد اكتفى بالتعبير عنها فى خريطة واحدة (ص ٢٢) . ومن هنا اهميتها لتوضيح هذه المورفولوجية وتقريبها ، انها تتلخص باختصار فيما اسماه "هلال الإسلام" ، وهى تسمية موفقة مبنى .. وايحاء .. ومعنى ، يحدد بها الاطار الأرضى .. او يابس العالم الإسلامى جغرافيا ، يكمله بحرا "محيط الإسلام" أو "المحيط الهندى" ، وهما "هلال الإسلام + محيط الإسلام" .. بمثابة دعامتى هذه المورفولوجية .. ومعادلتها العامة .

ومن بعد يتوجه لتحديد الخصائص التفصيلية لطرفى المعادلة ، يقدمها فى لغة تعوضه ربما عن نقص خرائطه (ص - ٢٤) ، ويمكن الاكتفاء بايراد مقتبس قصير منها ، عينة ودعوة للقارىء لان يتابعها فى متنه (.. واذا كان الإسلام قد فقد البحر المتوسط . فقد كسب المحيط الهندى .. الذى اصبح "البحر المتوسط" الجديد فى العالم

الإسلامى ، الحضارمة والعمانيون اغريقه وبنادقته .. وان لم يكونوا رومانه ، ص ٢٠) ، وعلى كل .. فانه يرسم بالكلمات لوحة .. زاخرة بالارخبيلات والاجنحة والبؤر والخطوط المنحنية والمستقيمة .. الممتدة والمنقطعة ، يستلخص منها آخر الامر مايلى :

* التمييز داخل هلال الإسلام بين قطاعين .. غربى وشرقى .. يفصل بينهما خط يمر بالتبت والهند .

* يتحدد نمط توزيع الإسلام فى مجموعة متراصة من الحلقات .. مختلفة الاقطار والكثافات والاوزان .

* الإسلام كدين رقعة متصلة ، يتوزع سكانها كجزر او واحات متباعدة .

* تتفق كثافة معمور العالم الإسلامي مع محاور انتشاره .. هذه التى تحيط بصحراوات شبه خالية منه (.. اشبه ببحر داخلى عظيم يتكدس المسلمون على شطآنه وسواحله ، اكثر مما يخوضون فيه ، ص ٢١) .

واذا كانت رؤيته المورفولوجية .. تتفق فى اساسها ومصطلحاتها .. مع هذه التى اوردها "ماكيندر" "Mackinder" فى نظريته عن قلب الأرض قبله ، وهى نظرية شائعة لا يخلو منها كتاب فى الجغرافية السياسية الكلاسيكية ، الا ان براعته تتجلى فى تطويعها وتطبيقها فى غير مجالها ، ومن هنا .. فإن بناءه لمورفولوجية العالم الإسلامى التوزيعية .. المستندة الى وحدات (القلب + الحلقات + الهوامش + الاجنحة + التوازن البرى

البحرى) .. لا تظهر غريبة عن طبيعة هذا العالم .. بل هى منبثقة إلا قليلا منها ، تنطبق على هضبة الاناضول وايران وافغانستان وشبه الجزيرة العربية ، وبدرجة اقل فى مصر ومعظم شمالى افريقية ، ولكنه يتعسفها قليلاً فى الهند واقواس الارخبيلات الاندونيسية والفليبينية ، أما فى اليمن كوحدة خاصة .. فالقلب الهضبى ليس ميتا .. وبها تنقلب المعادلة ، دون أن تفقد رؤيته جدارتها العامة .

وبعدما يرسخ دعامتيه (هلال الإسلام + محيط الإسلام) .. ويعمق من سماتهما العامة (القلب الميت + الحلقات السعيدة + الاجنحة) .. يواصل بحثه فيما سبق واطلق عليه (.. القطاع الغربى من الإسلام ، ص ٢٥ ـ ٣٦) ، (القطاع الشرقى ص ٣٦ ـ ٤٥) ، متبعا فى ذلك ذات اسلوبه .. الذى يجمع بين الاشارات المكثفة الخاطفة .. والنظرات الشمولية الفوقية ، وهنا لابد من الخريطة مرة أخرى . فالمتابعة بها للمناطق والسواحل والبحيرات والهضاب والصحراوات والسلاسل الجبلية ، وهى وغيرها مما وضعت الخرائط اصلا لتوضيحها ، فاذا قصرت عن ذلك خرائط متنه .. فلا بأس من الاستعانة بأطلس خارجى يعوض عنها ، وعندئذ قد يجد القارىء ما يعوض جهده هذه التى لا يعنى ايجازها التالى .. انها تعوض بحال عن قراءتها فى متنه .

أ - القطاع الغربى :

* من حيث الحجم السكانى والمساحة .. فالقطاع الغربى بمثابة صلب العالم الإسلامى ومركز ثقله .

* يتضمن القطاع الغربى "العالم العربى" افريقية المدارية ، من البلقان الى الباكستان ، من الفولجا الى سينكيانج" ، ولكل منها نواتها ، غير ان العالم العربى بمثابة النواة النووية لمجمل القطاع .

* تمثل "إسرائيل" نقطة الانقطاع فى التواصل الأرضى لهذا القطاع (.. فقد حشد الاستعمار الصهيونى خلاسيا مغتصبا من شذاذ اليهود ، ص ٢٨) ، ويراه انقطاعا طارئا دخيلا ، متناقضا بصهيونيته وليس بيهوديته مع الجسم الحضارى للإسلام .

* نيجيريا أهم جزيرة إسلامية فى افريقية وراء الصحراء اما فى شرق افريقية فاثيوبيا هى النواة .. ليس فى الهضبة ولكن فى السهول ، بامتداد شبه مطلق الى الصومال (٩٩٪ من السكان) مع بؤرة مكثفة فى زنجبار ، مع بضعة مئات من الالوف من المسلمين بالبانتو .

* قلب العالم الهندسى من الفولجا الى سينكانج . يتسم بهشاشة الغطاء السكانى .. ولكنه إسلامى الدين .. وان كان هامشى الموقع من حيث الجوار ، يذكر عنه (.. وقد كانت سيادة الإسلام هنا تقليديا سيادة مطلقة أو شبه مطلقة بين القبائل والشعوب التركية المغولية من تركمان وكازاك وقرغيز

وتاجيك واوزبك ، الى ان بدأ التوغل القيصرى فى القرن الماضى ، ثم تيار الهجرة السوفييتية من سلاف الروسيا الأوروبية ، ص ٣٥) ، وهى زاوية مشحونة تضاف لسابقاتها اهمية .. وشحذا لهمة المبادرة الى مشروع "جغرافية العالم الإسلامي" .. الموسع ، تتضاعف خطورته وحساسيته بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ، والتوجه المكثف لدول الحوض نحو البحث عن هويتها المطموسة بطبقة رقيقة من الغبار ، سوف تؤدى ازالتها الى اضافة فائقة الى جسم العالم الإسلامى الكبير .

ب - القطاع الشرقى من الإسلامى

* أهم ما يميز القطاع الشرقى أنه ارخبيل الإسلام ، بحكم تقطع توزيعه بالقياس الى التواصل الكتلى للقطاع الغربى .. باستثناء "إسرائيل" .
* يتألف هذا القطاع من اندونيسيا والباكستان ، مع اذرعة على شكل اقواس الى الفيليبين وامتدادات اسفينية فى بورما والصين ، وبؤر نووية فى الهند وسيلان .
* من حيث الحجم السكانى .. يستوعب نحو ٢٠٪ من جملة المسلمين ، ففيه تتكدس الحياة وتتضاغط الى اعلى بدلا من ان تنساح افقيا (ص ٣٧) ، وفيه تقع كبرى دول العالم الإسلامى قاطبة .. (الباكستان ، اندونيسيا) ، اما الثالثة - فهى اما الهند .. وهى الأرجح - أو الصين .

* اذا كان انفصال الباكستان عن الهند .. بمثابة أبرز احداث الجغرافية السياسية في هذا القطاع ، فانه من أشد القضايا حساسية فى جغرافية الاديان (زاوية اخرى تضاف) ، ثم تأتى مضاعفات انقسام الباكستان الى دولتين .. (هذه التى لم يدركها الكتاب) .. لتجسد مجموعة اشد تعقيدا من التناقضات العرقية هذه المرة .. الى الموضوع ، ولتشير الى ما لا حصر له من مشكلات الاقليات الإسلامية المضغوطة داخل هذا النطاق ، وهى مشحونة بقدر من التوتر المتصاعد .. يدعو الى استجلاء أغواره باكبر قدر ممكن من الاهتمام والتفصيل .

ثانيا : مورفولوجية العالم الإسلامى

اذا كانت اجابة السؤال الاول "التوزيعى القاعدى" عنده .. بمثابة نظرة .. بطول الفصل الاول كله ، فانه يخصص الفصل الثاني (ص ص ٤٩ ـ ٨٤) لنظريته عن مورفولوجية العالم الإسلامى .. وهى أيضا عنوانه ، ويستهله بهذا التساؤل (.. هل يمكن ان نضع نظرية عامة عاملة ، تجمع شتات العالم الإسلامى فى توزيعه الكوكبى ، وتستقطب تفاصيله في معادلة اقليمية محددة ؟) ، هو إذن يطمح الى نظرية عامة .. بشروط محددة :

* ان تكون فى مورفولوجية العالم الإسلامى .
* ان تكون عاملة .

* ان تخلص الى معادلة إقليمية تلخصه .

وقبل البحث عن هدف كل شرط منها ، وكذا عن اهداف النظرية بعامة ، ربما يكون مفيدا توضيح ما استخدمه من مصطلحات (مورفولوجية + عاملة + معادلة اقليمية) .. قد تكون خافية او مختلطة الدلالة ، وتتفق المعاجم على ان مصطلح Morphology يعني دراسة الشكل Study Of The Form ، سواء في ذلك الظاهرات الطبيعية أو الحيوية أو البشرية .. أو حتى الكلمات (اوكسفورد ، ص ٢٨٦) ، ويتفق ذلك مع عناصر نظريته .. بشكل شبه تام ، ومن هنا ضرورة استنادها الى خريطة توزيعية .. قدمها له الفصل الاول من الكتاب ، ومن ثم يصفها (بانها محاولة لتوظيف معطيات الخريطة التوزيعية ، والكشف عن منطقها وقوانينها ، ص ٧) ، وبما انها توزيعية .. فان معطياتها لابد وان تكون مورفولوجية ، اى تتصل كما سبق باشكالها وتشكيلاتها ، والعلاقة بين نواتها وهوامشها ، وانحدار الارتباطات Gradiants بين دوائرها ، وسماتها الداخلية وخصائص حدودها ، الى غير ذلك مما تتجاوز دلالته المستوى الظاهرى لمكونات الخريطة وخطوطها العديدة .

وتعنى النظرية العاملة .. تجاوزها المستوى النظرى البحت .. وقابليتها للتطبيق فى مجالات متعددة او معينة .. بدرجات متفاوتة من الفعالية ، وذلك بما تتضمنه من الفروض الحقيقية .. الكاشفة عن مكونات وديناميات الظاهرة ، ورغم استناده الى بعض فروض النظريات الحضرية ، وخاصة ما

يتصل منها بموقع المدينة فى اقليمها ..، وتأطيرها لمناطق نفوذها على شكل حلقات متتابعة ، حيث يقرر (.. وهذا الهيكل النظرى العام .. الذى نلقاه فى كثير من الظاهرات الاجتماعية والمركبات الحضارية ، وبخاصة داخل وحول المدن ، بحيث تصبح المحصلة النهائية اقرب الى النظام الحلقى المشع Radial Concentric ، يمكن ان نجده فى اساسياته وتفصيلاته فى العالم الإسلامى ، ص ص ٥٠ ـ ٥١) .. اى انه ينقل الفروض الى غير مجالها ، رغم ذلك .. فان توظيفه لها .. واعادة صياغتها كقاعدة لنظريته عن "مورفولوجية العالم الإسلامى" .. قد اشعت باضاءاتها القوية ، ليس فقط بما ضاعف من فهمه واستيعابه فى رؤية كلية ، بل وايضا بما اختزلته من مكوناته فى معادلات اقليمية ثاقبة ـ سوف ترد الاشارة اليها فى حينها ـ صالحة للتطبيق وعالية النفعية ، تستحق بها تسميتها (النظرية) كما تستحق صفتها (العاملة) ، سواء فيما يحيط بالتسمية من هالات التقدير ، أو ما تبعثه الصفة من النقد والمناقشة ، ومن متابعة نفعيتها فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية معا ، خاصة بعد دمجها فى وجهها الآخر .. اى نظريته الثانية .. عن "وحدة العالم الإسلامى" .. بدرجات الوحدة المتسقة مع مورفولوجيته .. كما سيأتى لاحقا .

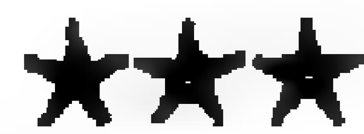
وفى عبارة خاطفة يحدد مطلبه (.. المقصود نظرية كورولوجية ـ يعنى إقليمية ـ تلخص وتفسر معا ما يختلف ويتشابه داخل بنية الإسلام ، هدفنا هو تحديد اقاليم الإسلام

الجغرافية ، بالمعنى الواسع للاقاليم الجغرافية ، اى بابعادها الطبيعية والبشرية ، التاريخية والدينية ، ص ٤٩) ، واذا كان قد مهد لذلك بالتوزيع فى الفصل الاول ، فلكى يستخلص منه ما ينشده (.. من نظرة كلية أو احادية .. تكثفه فى قوانين مكانية ، بمثابة مفتاح Passe Partout ، ص ٤٩) ، وبداية فانه يستبعد ان تكون نظريته ايكولوجية فقط ، تربط بين الإسلام وبيئته ، وتنتهى الى مقولة مبسطة (.. الإسلام دين الصحراء) .. او غير ذلك من قبيلها ، يريدها اذن مركبة .. تشف مكوناتها عن نسيجها الداخلى ، كما لا تقنعه نظرية "المنطقة الحضارية" Kulturkreislehre .. كإطار وحيد يستهدى به ، وهو وان اقر بجدوى بعض فروضها .. الا انه يستبعد مدخلها الانثروبولوجى ، فليس العالم الإسلامى منطقة انثروبولوجية واحدة .. سواء بالاصل العرقى أو بجذور ثقافته ، ويعثر اخيرا على بغيته .. فى صورة الاقليم العقدى Nodal .. كما يرد فى جغرافية المدن .. ، وتشكيله (.. قلب وله اطراف ، تتراوح داخله وبينهما الظاهرة المعنية فى درجة تبلورها ومدى كثافتها ونسب حدوثها ، ص ٥٠) ، ويظهر اختياره بسيطا .. ولكنه السهل الممتنع ، وذلك لشدة تطابقه مع تاريخ ظهور الإسلام فى نواة محددة .. بمثابة قلبه ، وجغرافية انتشاره منها فى دوائر منداحة الى اطرافه وهوامشه ، وتراوح توزيع كثافته بين القلب وهوامشه (انظر شكل ٤ ص ٦٠) ، هذا عدا كونها مورفولوجية حرفيا كما اشترط ، وبذا يضع اللبنة الاولى من نظريته .

هى اللبنة الاولى وهى القاعدة ، حيث هى قد مكنته من وضع فروضه ، ومن بناء العناصر الاخرى من نظريته فوقها ، ومن التحليل التاريخى والجغرافى .. المتسق مع اسسها ، اما فروضه .. فمن اهمها :

* يؤدى الانبثاق من مركز ـ الى الترتيب المنتظم التنازلى للظاهرة Gradients فى اتجاه هوامشه .

* يتخذ هذا الترتيب الشكل الحلقى - Radio Concentric التتابعى (شكل ١٢) .



* يتعدل الشكل الحلقى البحت .. الى نمط القطاعات الحلقية .. حالة حدوث الانتشار على محاور انتخابية محددة .

ولمتابعة هذه الفروض .. يستحسن الاستعانة بشكل ٥ (ص٦١) من الكتاب .

وعلى الفور يطبق فروضه .. فتضىء الخريطة العالمية لتوزيع الإسلام بدلالاتها (القلب + الهوامش + محاور الانتشار) .. ويسلس فهمها واستيعابها من نظرة واحدة ، فالعالم العربى قلبها ، وبقية العالم الإسلامى هوامشها ، اما المحاور فيوضحها شكل ٣ (ص ٥٣) فى كتابه ، لكنه لا يدع قاعدته وفروضه دون نقدها (.. غير اننا لا ينبغى ان ننتظر من الإسلام هيكلا مورفولوجيا .. يحقق هذا النمط النظرى تحقيقا صارما مثاليا بطبيعة الحال ، ص ٥١) ، ويعدد بعد ذلك بعض ظواهر الشذوذ فى التشكيل ، دون ان يخل باساسيات النظرية الا نادرا .

النظام الحلقى التتابعى :

والواقع ان لب هذه النظرية وجل نفعيتها (كما سيأتى فى الفصل الرابع المخصص لنظريته الثانية عن وحدة العالم الإسلامى) .. إنما يتمثل فى عناصرها التفصيلية .. اى .. النظام الحلقى التتابعى .. الذى كشف عنه تطبيق الفرضين الاول والثانى ، غير انه آثر ان يبدأ بمحاور الانتشار (ص ٥٢) .. اى بالفرض الثالث ، وذلك باعتبار أن الانتشار المحورى .. يسبق بداهة التشكيل الحلقى .. من ناحية ، كما أن من شأن متابعة الانتشار .. توضيح العملية التاريخية التى تم فى اطارها ، وكذلك تحديد الضوابط الجغرافية التى دفعت بمساراته فى اتجاهات وبمسافات معينة .. من ناحية ثانية ، وتبعا لاصول النظرية المورفولوجية عامة .. يقسم هذا المحور الى :

* محاور اساسية .
* محاور ثانوية وثالثة .
* بؤر الانتشار .
* محطات الضخ والتوصيل .
* الاتجاهات والمسافات .
* الفراغات البينية والثغرات .

وتقدم فى جملتها نقاط وزوايا التحليل التاريخى الجغرافى لعملية الانتشار ، يمهد له بهذه اللقطة الفوقية .. شأنه قبل كل

تحليل (.. غطى عرب الجزيرة ـ البؤرة المركزية ـ منطقة العالم العربى ، وتتابعت بعدها بؤرات ثانوية .. تولت دفعه الى آفاق مكانية ابعد ، وتتعدد بعدها البؤرات الثالثة ، اما المحاور فثمة ثمانية منها ، تتفق الى مدى بعيد مع التوزيع الفعلى للمسلمين فى العالم القديم ، منها ٤ محاور لآسيا ، ٣ بافريقية ، ٣ بأوروبا .. حيث يخدم بعضها اكثر من قارة ، ص ٥٢) ، وتجمعها خريطة (ص ٥٣) بدقة ووضوح ، ويفيض بعد هذه اللقطة الفوقية فى متابعة كل منها .. تبعا لما سبق تحديده من نقاط وزوايا التحليل (ص ص ٥٤ ـ ٥٨) .

ويحيط بهذه المتابعة التاريخية الجغرافية .. بأبعاد المورفولوجية الراهنة لجغرافية العالم الإسلامى الكبير ، يبرز من بينها "المحور النيلى" بشعابه الثلاث ، وما تفرع منها عبر المتوسط والصحراء والسافانا فى اقصى الجنوب ، وما طرقته من طرق القوافل .. وما استخدمته من نقط الوثوب (الواحات) ، يليه محور الهلال الخصيب فى الشام والعراق ، وبعده يتفتح الطريق الى ايران ، وجنوبا الى الهند عبر ممر خيبر ، ويتواصل الى هوامش الصين ، ومن ايران كبؤرة ثانوية .. يتدافع الإسلام الى ما وراء النهرين ، وثمة اخرى من عقدة البامير ، ومن تركيا كبؤرة ثانوية ثانية .. يصل الإسلام الى الدانوب والبلقان ، هذا عدا المحاور البحرية الموازية لسواحل المحيط الهندى .. وحتى الملايو واندونيسيا والفيلبين ، وحين ينتهى يكون قد وضع اللبنة الثانية فى نظريته (محاور الانتشار) ، ودمجها فى الاولى

القاعدة (النواة) ، وليس التشكيل الحلقى القطاعى بعد ذلك .. الا صورة منطبعة فوق المحاور والنواة .

وقبل ان يحدد ويسمى الحلقات .. يشير الى اسس التميز (.. هى على الترتيب ، عمر الإسلام ، كثافته ، نوعيته ، نسبة العرب والعربية ، ص ٥٨) ، وهى من الوضوح بحيث تخضع لقاعدة العلاقة الطردية والعكسية .. فى علم الحساب ، فهى تزيد أو تتناقض حسب القرب أو البعد من النواة ، ومن ثم فالعلاقة بين النواة والحلقات .. تتخذ احصائيا وكارتوجرافيا بيانيا شكل الانحدار ، ومن بعد .. فهذه هى الصورة العامة للحلقات :

الحلقة الاولى : منطقة القلب والنواة (ص ٦٤) .
الحلقة الثانية : النواة الميتة (ص ٦٩) .
الحلقة الثالثة : ظل العرب (ص ٧١) .
الحلقة الرابعة : شبه ظل العرب (ص ٧٣) .
الحلقة الخامسة : صدى العرب (ص٧٤) .
الحلقة السادسة : الاطراف الهامشية (ص ٨٤) .

ويستحسن الرجوع الى شكل ٥ (ص ٦١) المتميز ، قبل متابعة الموضوع .

ويعرفها بانها ببساطة (.. الاقاليم الطبيعية والبشرية والتاريخية فى العالم الإسلامى ، كما يفسر اختياره لتسمياتها ، ورغم وضوحها بشكل عام ، الا ان تقارب المعنى بين بعضها يثير قدرا من الالتباس ، فضلا عن كونها تسميات

لغوية فى الاساس ، وليست الالفاظ ما يعبر عن الانحدار بل الارقام ، ولكن هذا التشدد المنهجى ان جاز فى البحوث .. فقد يتجاوز عنه فى الكتب وبعض المؤلفات .

وقد يثير استنادا تقسيمه الى "العرب والعربية" (معامل العروبة) .. للتمييز بين اقاليم العالم الإسلامى .. شبهة تحيز فى عالم اغلبيته من غير العرب ، غير انه يدفع ذلك حيث يقرر (.. واذا كان العنصران مشتقين من القلب التاريخى للعالم الإسلامى ، فالمقصود فقط قياس بعد التباين الجغرافى ما بين اجزاء العالم الإسلامى .. بصورة تبلور ملامح اقاليمه .. ولا تصنفها طبقيا ، ص ٥٨) ، والواقع ان الكتابات الجغرافية التى تعود للعصر الوسيط .. كانت تتبع ذات المستويين فى التمييز :

* المستوى الدينى .. للتمييز بين "دار الإسلام" ـ وغيرها من الامم المجاورة غير المسلمة .

* المستوى اللغوى .. للتمييز بين الشعوب المختلفة داخل دار الإسلام .

واذا كان كراتشكوفسكى Krachkovski يكرر فى كتابه السابق الاشارة اليه .. توجه المدرسة الجغرافية العربية الإسلامية الكلاسيكية .. الى دراسة "دار الإسلام" بوجه خاص (ص ١٩٩ من كتابه المذكور) ، الا ان ذلك لا يعنى انها لم تميز داخل هذه الدار بين مختلف الشعوب ، وتظهر اللغة من اهم ادوات هذا التمييز .. دون ان يقترن ذلك بدلالة

محددة عن الترتيب ، فقد كانت نسبة هامة من هذه الكتابات .. تعود لغير العرب من المسلمين ، يدل على ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما اورده اليعقوبى وهو من اوائل المؤلفين .. فى "كتاب البلدان" الذى يعود للقرن التاسع الميلادى ، وذلك فى مجال توضيحه لمنهجه فى جمع المعلومات ، عن عنايته بالسؤال عن السكان (.. من هم من عرب أو عجم ؟ ص ١٥٩ من كتاب كراتشكوفسكى) ، وسوف تكون هناك عودة لليعقوبى .. عند المقارنة بين رؤيته لاقسام العالم الإسلامى فى عصره .. وبين ما وضعه عنها حمدان ، وقد تابع اليعقوبى الكثيرون .. فى اتخاذ اللغة اساسا للتمييز ، فضلا عن الاشارة لتطورات اسس التقسيم .. فى الجغرافية الإسلامية المزدهرة فى هذا العصر الوسيط .

فاذا ما عدنا الى حمدان .. فانه يلخص الانحدارات القائمة بين الحلقات ـ بناء على اسسه ـ فى هذه الفقرة شديدة التركيز (.. ففى منطقة القلب تجتمع كلها على اعلى مستوياتها ، فنجد اطول تاريخ للإسلام واعلى كثافة أو نوعية ، فضلا عن اعلى نسبة للعرب والعربية ، وفى منطقة الظل ـ الثالثة ـ نجد الإسلام كثيفا متطورا كذلك ، ولكن تاريخه احدث قليلا ، كما يختفى العرب الا كجاليات ضئيلة ، ولكن تكثر مؤثرات اللغة العربية .. سواء فى شكل الكتابة أو فى الفاظ اللغة بنسبة كبيرة ، وفى منطقة شبه الظل ـ الرابع ـ يزداد تاريخ دخول الإسلام حداثة ، ويختفى شكل الكتابة العربية ، أما فى منطقة الصدى ـ الخامسة ـ فان تاريخ

الإسلام احدث واحدث ، كما تختفى مؤثرات العربية كلية سواء من شكل او الفاظ ، فاذا ما وصلنا الى اطراف الإسلام .. وجدنا الإسلام نفسه اقلية عددية وحديث العهد للغاية ، كما يختفى الاثر العربى تماما جنسا أو لغة ، ص ٦٤) ، ويبرر عدم وجود الحلقة الثانية (النواة الميتة) فى هذا الموجز .. بانها (.. يمكن ان تعد جزءا من الحلقة الاولى ، غير انها لم يعد لها وجود ، وربما دعوناها لهذا بالنواة الميتة ، وبها نعنى الوجود الإسلامى العربى فى العصور الوسطى عبر البحر المتوسط الى اسبانيا وصقلية ، ص ٦٩) ، غير ان ذلك لا يبرر وجودها ضمن تقسيمه المعاصر لمورفولوجية العالم الإسلام ، حيث يخل ذلك بتتابع الحلقات ، كما ان تسميتها بالميتة لا يطابق وضعها الراهن ، فهى حلقة تاريخية بالنسبة للإسلام .. فقدت صفتها الجغرافية ، وربما لو سميت بالحلقة التاريخية ونزعت من المورفولوجية المكانية .. لكان ذلك اقرب الى طبيعة الحال وفيما عدا ذلك .. فان نظريته تستحق ان توصف بالعاملة .. بما تثبته من جدارة وفعالية عند التطبيق ، باستثناء بعض التداخلات التى ستكون اليها اشارة بين الحين والحين ، وما من نظرية الا وتعرضت للنقاش .. واثارت الجدال ، والمرجح انه كان سيتناولها بالتنقيح ، وقد يكون قد فعل ذلك فى مخطوطه المفقود .. ظنا او حقيقة ، فالتنقيح والتطوير من اتجاهاته التى اثبتها فى اكثر من مجال .

اســس التقسيــم :

والحقيقة ان اعتبارها نظرية فاعلة فعالة .. انما يعود الى ما اتبعته من اسس التقسيم ، هذه التى تميزها ايضا ـ فى حدود معرفتي ـ عن المؤلفات المعاصرة حول نفس الموضوع ، حيث هى تكتفى بالمعلومات .. ولا تنحو الى التنظير ، وربما يكون مفيدا لو قورنت اسسه .. بما وضعه جغرافيو العصر الوسيط ، خاصة من حاول منهم النفاذ الى شخصيات الاقاليم ، سواء بوضوح .. او بحكم كون كتاباتهم موسوعية المضمون ، وستكون الاشارة اليهم واليها بايجاز .. وللقارىء اذا شاء ان يستزيد .. من كتاب كراتشكوفسكي المذكور .

لقد سبقت الاشارة الى ان "الدين" .. كان بمثابة الاساس الاول لتقسيم العالم المعروف أنذاك ، وظهرت معه أو أضيفت بعده .. اسس اخرى تمحورت حولها المؤلفات .. وذلك من قبيل :

* التقسيم على الاساس الفلكى تبعا لدوائر العرض وخطوط الطول .
* التقسيم على اساس الممالك والمسالك .
* التقسيم على الاساس الإدارى (الولايات) والخراج .
* التقسيم على اساس الفضائل واوصاف الشعوب (الفضائل والمثالب) .
* اسس اخرى عديدة .

فاذا ما بدأنا بـ "الأساس الدينى" .. فان معظم كتابات المدرسة الجغرافية الإسلامية الكلاسيكية قد اقتصرت على "دار الإسلام" .. واهملت ما عداها ، بما يدل على شدة العناية بهذا الاساس ، ويمثل "الاصطخري" هذا الاتجاه ، حيث يقتصر كتابه "المسالك والممالك" على وصف العالم الإسلامي وحده ، مقسما اياه الى عشرين اقليما ، ويلى الكلام العام عن "الربع المعمور" وابعاده وعن البحار ، وصف جزيرة العرب وبحر فارس مع الميحط الهندى ، والمغرب مع الاندلس وصقلية ، ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وايران الجنوبية والهند ، وايران الوسطى والشمالية مع ارمينا واذربيجان وبحر الخزر ، ويختتم كلامه بوصف بلاد ما وراء النهر (كراتشكوفسكى ، ص ص ١٩٩ - ٢٠٠) ، ويلحقه "ابن حوقل" فى كتاب بنفس العنوان (.. وقد فصلت بلاد الإسلام اقليما اقليما .. وصقعا صقعا .. وكورة كورة لكل عمل ، وبدأت بذكر ديار العرب .. فجعلتها اقليما واحدا ، لان الكعبة فيها ومكة أم القرى ، وهى واسطة هذه الاقاليم عندى ، كراتشكوفسكى ص ٢٠٢) ، ومنها يظهر اتفاق منطقة النواة (بلاد العرب) بينه وبين حمدان ، كما يدل على ان ابن حوقل لم يكن يكتب عن دار الإسلام .. دون نظرة عامة تهديه ، حيث الكعبة مركز مكة .. ومكة مركز النواة . وبعد ذلك تتوالى الاقاليم .

وقد اتجهت الكتابات لاستخدام الاساس الفلكى منذ وقت

مبكر .. تأثراً باليونان ، ويظهر بوضوح في مصنف الخوارزمى (صورة الأرض) الذى قسم المعمورة الى سبعة اقاليم ، يتوزع العالم الإسلامى بين الاقليمين الثالث والرابع .. بوجه عام ، والواقع ان التقسيم على اساس "الممالك" .. يتفق مع ما اتبعه حمدان بشأن (العرب + العربية) .. اى السكان واللغة والثقافة بوجه عام ، حيث يحدد اليعقوبى منهاجه في كتابه البلدان .. على سبيل المثال (.. فكنت متى لقيت رجلا فى تلك البلدان .. سألته عن وطنه .. فاذا ذكر لى محل داره .. سألته عن زرعه ومن هم ساكنيه من عرب أو عجم .. حتى اسجل عن لباسهم ومقالاتهم والغالبين عليه ، ص ١٥٩ ، المرجع السابق) ، اما ما كتب على اساس "المسالك" .. فيتفق مع ما اورده فى نظريته عن "محاور الانتشار" ، يدل على ذلك ما اورده ابن خرداذبة .. على سبيل المثال (.. نبدأ بالطرق التى تخرج من بغداد شمالا الى آسيا الوسطى شمالا والهند جنوبا ، والطريق البحرى الى الهند والصين ، وطريق الشمال الى اذربيجان والقوقاز ، والطرق الخارجة من بغداد الى مكة وشبه الجزيرة العربية ، المرجع السابق ، ص ١٥٧) ، ويظهر منها انتقال المركز من مكة الى بغداد .. اتساقا مع اتساع الدولة الإسلامية الى قرب حدودها الآن .

ويظهر الاساس الإدارى فى كتاب "الخراج" لقدامة بن جعفر ، كما يولى اهتماما كبيرا لجيران العالم الإسلامى ، وبالنسبة لـ "لفضائل" .. اى ذكر محاسن البلاد والشعوب ،

فقد نبعت من تمجيد دار الإسلام .. وخاصة الحجاز .. وبالاخص مكة المكرمة ، وبالتدريج اضيفت اليها "المثالب" .. ووظفتا معا سياسيا مع تعدد الاوطان (نريد ان نتبوأ الأرض فصفها لى ..) .. وذلك لشدة الحرص على نشر الإسلام من جهة .. ولمقاومة الشعوبية من جهة ثانية ، وقدمت تحت ذات العنوان "الفضائل والمثالب" .. العديد من المؤلفات ، ومن هنا اهمية مما قام به حمدان . من تطهير تسمياته لحلقاته فى نظريته ما قد يشوبها من ظلال .. وكذلك اسسه بطبيعة الحال ، ليس بالضرورة كنوع من التصدى المباشر لهذا الجانب من التراث ، وانما لانه يمهد بنظريته هذه عن مورفولوجية العالم الإسلامى .. لنظريته الثانية فى الفصل الرابع .. عن "وحدة العالم الإسلام" .. ومن شأن الفضائل والمثالب .. ان تهدمها من الاساس ، وبعد هذه المقارنة التى قد طالت رغم الايجاز ، يمكن تحديد ابرز ما ورد من خصائص هذه الحلقات .

لقد سبقت الاشارة الى حلقاته واسس تصنيفها .. وخصائص كل حلقة منها بعامة ، وترتبط مباشرة بالفصل الاول التوزيعى .. فما كشفه من سمات مورفولوجية العالم الإسلامى .. قد اشتقه من صورة توزيعه .. فى الخريطة العالم الراهنة (شكل ١٣) ، ومرة اخرى .. فان تحليله للحلقة الاولى (منطقة القلب والنواة) .. قد تتضاعف دلالته .. بقراءة الفصل الثانى من كتابه "استراتيجية الاستعمار والتحرير" (ص ص ٢٦ ـ ٥٥) ، خاصة فيما

يتصل بديناميات نمو الدولة الإسلامية العربية فى محيطها اليابسى ، وتفسيرات تناميها فى دوائر متلاحقة ، نمو متجانسا ، تسهم العربية مع الإسلام فى تجنيسه فى بعضها ، يصبح الإسلام بعدها .. عامل التجنيس المنفرد ، متسما بقدرة انتشارية كاسحة ، وان خلفت جيوبا وراء .. محلية ومغلقة ، يرتبط توزيعها بمناطق العزلة المستعصية ، كما ادى تناقص رصيده البشرى فى نواته .. الى تناقص كثافته فى مناطق الفتوح مع تباعده .. واختلاطه بعقائدها وثقافاتها ، وغلبتها خاصة فى اللغة ، كما تنازعته فيما بعد مذاهبه ، التى غذتها شعوبية هوامشه وجيوب العزلة فى بنيته ، ورغم ذوبانها النسبى فى ثقافته .. فقد بقى بعضها (الأكراد والبربر ، ص ٦٦) ناتئا ، ادت وتؤدى الى بعض من أهم مشكلاته الراهنة ، خاصة بعدما عاود الاستعمار غزوه .. الى قرب قلبه .. مؤثرا فى لسانه العربى خاصة (الجزائر) .. اى فى اخص دوائره .. هذه التى تتدامج فيها اللغة مع الدين .. فى بنية واحدة ، وليس مثل هذه دعوة منذرة .. بان يقوم العالم العربى بدوره ، فهو دوار العرب (ص ٦٧) .. وهو مدرسة الإسلام ومعهده الدينى (٦٨) والعربى سدنة الإسلام .. وليسوا بسادته .. وعليه فان دورهم ليس تبشيريا فقط فى اتجاه هوامشه .. بل وثقافيا سياسيا تتعدد مجالاته .

وبالنسبة للحلقة الثانية (النواة الميتة ، ص ٦٩) .. فقد خرجت من اطاره ، ضمن حركة التراجع التى اعقبت سقوط

الاندلس ، وان كانت ملامحه الكامنة باقية ، والواقع ان حركة التراجع لاً تزال سارية .. ليس فقط مما سبق رصده .. من تاكل اللسان العربى وتدهور فى مناطق معينة ، بل وايضا بالمعنى المادى بدرجات متفاوتة ، تمثل تركيا درجة منها .. واشد منها فلسطين التى انتزعت من قلبه ، وما يمكن تسميته بتآكل الهوامش جنوبى السودان خاصة ، وهذه دعوة اخرى للعمل .. تضاف لسابقاتها .

أما الحلقة الثالثة (ظل العرب ، ص ٧١) .. فتشمل ايران وافغانستان .. بعد انزلاق تركيا للحلقة الرابعة ، هى الحلقة الفارسية إذن .. التى اسهمت فى الحضارة الإسلامية بنسبة لا يستهان بها ، والتى كادت تصبح عربية كليةً ، وان لم يبق منها سوى الحروف الابجدية فيما تكتب ، وتمثل الشيعة الشائعة بين سكانها .. خط الاختلاف المذهبى .. بينها وبين النواة السنية غالبا ، وهنا دعوة ثالثة للتوفيق المذهبى ، وحتى لا يتحول خط الاختلاف الى خط انكسار .. تستثمره القوى المضادة فى اضعافهما معا .

وتحتل تركيا وحدها الحلقة الرابعة (شبه ظل العرب ، ص ٧٣) ، والتسمية هنا غامضة .. مختلطة الدلالة مع سابقتها ، ويمكن ان تضم لها .. مع الاشارة الى وجه اختلافها ، وهى انها (.. عملت على تطهير اللغة من التراث العربى ، بل كادت بعد ان فصلت الدين عن الدولة فصلا صارما .. ان تصل فى وقت ما الى تجميد الإسلام ، الى أن اكتفت فى النهاية بتتريكه ، ص ٧٤) .

وتأتى تسمية الحلقة الخامسة (صدى العرب ، ص ٧٤) ايضا غامضة للدلالة واللغة ، وان كانت حدود الحلقة ذاتها واضحة ، هى ليست حدوده النهائية ومحيطه .. فلا تزال هناك حلقة سادسة ، ولكنها الاكبر مساحة بينها ، فهى تمتد من قزوين الى اندونيسيا ومن ارتيريا الى الاطلسى ، وهى الحلقة التى تعرضت لتغيرات جذرية .. لم يدركها الكتاب حين تأليفه ، هذه التى تتمثل فى عودة جمهوريات وسط آسيا المسلمة الى اطار العالم الإسلامى بعد سقوط الاتحاد السوفييتي بغتة وتجسد مشكلة جيوبوليتيكية معقدة ، وتظهر مستهدفة من قوى متعددة ، غير ان تطلعها لاستعادة هويتها الإسلامية ليس محل جدل ، وربما تكون هذه هى الدعوة الرابعة .. التى تستلزم العمل ، فهل تجد لها صدى عند العرب .. من صدى العرب ؟

واخيراً الحلقة السادسة (الاطراف الهامشية ، ص ٨٢) ، وهى تتمثل على محيط دائرة العالم الإسلامى برمته (.. وهى لا تزيد عن اطار خارجى باهت يغلف الحلقات السابقة ، وتتمثل ايضا فى الاقليات الضئيلة المبعثرة .. فى أوروبا والعالم الجديد وجزر الباسيفيكى المبعثرة ، وبها ـ لأول مرة ـ قد يختلط الدين فى بعض اجزائها .. بأوشاب من الوثنية القديمة بها ، ويستهويه التصنيف التفصيلى .. فيكاد يضيف حلقة سابعة .

(.. هذا ومن الممكن ان نضيف الى هذه الحلقة الهامشية

القصوى من الإسلام فى العالم القديم ، هالة كالزغب اشد تخلخلا وسديمية ، تؤلف الغلاف الشفاف الخارجى الاقصى ، او الاطراف الخارجية ، هذه الهالة التى يمكن أن تعدها اما حلقة مستقلة أو حلقة تكميلية ، والتى يمكن ان نميزها عن الاطراف الهامشية الداخلية السابقة .. بانها الاطراف الخارجية ، ص ٨٤) ، والواقع ان حذف بعض حلقاته .. قد يكون اجدى من الاضافة اليها ، ويكفيه منها اربعة ربما .. هى (النواة + الظل + شبه الظل + الهوامش) .. كافية لاستيعاب تدرجات الظاهرة ، ولكن استقامة وسلاسة الاسس .. قد مكنته من تفصيل قماشته باطمئنان وثقة ، وتقديم حلقاته المتعددة ناضجة .. لواضعى الاستراتيجية .. وصناع القرار .. مادة جاهزة .. فى كتاب غالى القيمة رخيص الثمن ، وستكون هناك عودة لهذه النظرية (عن مورفولوجية العالم الإسلامى ..) . ثانية وذلك لربطها بنظريته الواردة فى هذا الكتاب ايضا كما سبق (عن وحدة العالم الإسلامى) لتحديد القيمة النفعية لكل منهما ولكليهما .

خريطة الإسلام السياسية :

كما سبق .. فإنه يمهد بالفصل الثالث (خريطة الإسلام السياسية ، ص ٨٥ ـ ١٢٢) .. لنظريته المرتقبة عن "وحدة العالم الإسلامى" ..، ويصف تحليلاته لهذه الخريطة بانها قراءة مسحية لها ، يحدد اتجاهاتها فى (.. تصنيف دول

العالم الإسلامى .. بحسب كثافاتها السياسية المختلفة ، دولا إسلامية أو دول اقليات إسلامية ، مع تحليل المشاكل السياسية المترتبة وتشخيص اعراضها ، ص ٨) ، وبداية يجدر التنويه بهذا المصطلح المبتكر (الكثافة السياسية) الوارد فى المقتبس السابق .. والمستمر كأداة اساسية لتحليلاته .. فى بقية هذا الفصل وغيره ، ليس فقط باعتبار ان نحت المصطلحات .. مهارة فكرية تميزه ..، وانما ايضا لدلالته الوظيفية الفاعلة .. التى تكثف فى عبارة منحوتة واحدة .. ما يستغرق سطورا او فقرات دونها ، وبها تقاس صلابة العلم .. وبواسطتها يتم التفاهم بين المتخصصين فى مجاله ، حيث هى لا تعنى سوى مفهوم اتفق على تحديده ، ولا حاجة من بعد لشرحه والجدل حوله ، ثم هى تنتقل بعد ذلك للمتلقين تبعا لشيوعها ، لتصبح ايضا لغة التداول بينهم .. دون ادنى ظلال مربكة (شكل ١٤) .

وبهذا المصطلح يتوصل الى التصنيف الثلاثى التالى للعالم الإسلامى ، تبعا لكثافة الإسلام بين دوله :

* دول الاغلبية الإسلامية .
* الدول نصف الإسلامية .
* دول الأقليات الإسلامية.

ويتفق توزيع الفئة الاولى مع الحلقة الاولى فى نظريته المورفولوجية (العالم العربى) ، مع وجود امثلة منها (تركيا ، ايران ، باكستان ، اندونيسيا) .. ضمن الحلقتين الثالثة والرابعة ، أما دول الفئتين الثانية والثالثة .. فتتوزع

كانت "روح الوحدة الوطنية" .. قد قاومتها لبضعة عقود ، الا ان لبنان قد سقط فريسة لها فى الحرب الاخيرة الاهلية (لم يدركها الكتاب) ، وهى تنخر الآن في السودان ايضا .. تفتت نقاط الالتحام بين شماله وجنوبه ، ولم تعد فى مناطق اخرى من العالم العربى بين الاديان المختلفة ، وانما بين المذاهب المختلفة فى الدين نفسه ، وذلك بتضخيم الاختلافات الفقهية وتعميقها .. حتى يتعذر علاجها ، ويتمثل ذلك بشكل خاص بين الشيعة والسنة .. فى العراق واليمن ولبنان .. وغيرها ايضا ، وترد فى كتاب نيكسون (الفرصة السانحة) اشارة لتصور الآخر لهذه الاختلافات .. لا بأس من ايرادها رغم بشاعتها (.. إن المتعامل مع العالم الإسلامى يشبه وضعه وضع الشخص الذى فى حفرة ضيقة ، ومعه مجموعة من الثعابين السامة ، تحمل فى سمها ايديولوجيات متصارعة ، ص ١٣٩) ، هذه هى الصورة فى ذهن الآخر .. هى عن العالم الإسلامى حقا .. ولكنها تنطبق على العالم العربى ايضا ، فأين هذه الحفرة من رؤية حمدان قبل عشرين سنة منها .. حين يقرر بالنسبة للأخير (.. الوعى بالوحدة القومية وحده اذن ... والبعد القومي الذى يمكن ان يحتوى البعد الدينى ، دون ان يتعارض معه أو يقصر دونه أو يضيق به ، ذلك هو الرد الصحيح على كل استغلال للدين للتخريب السياسى ، سواء من قبل الاستعمار الدخيل .. أو الرجعية الداخلية ، ص ٩٣) ، والآن .. وبعد زوال الاستعمار الدخيل فى صورته المباشرة ، فهل ثمة وسيلة لمواجهة الرجعية

الداخلية ؟، غير انه مما يلفت فى مجال متابعة رؤية الآخر فى كتاب نيكسون المذكور .. انعدام الاشارة الى القومية العربية كقوة يحسب حسابها .. فى طول الفصل المعنون "العالم الإسلامى" (ص ١٣٥ ـ ١٦٢) ، وتأتى الاشارة الى الدول العربية منفردة .. وباعتبار هويتها الإسلامية ، ثم يقرر بشأنها جميعها عربية وإسلامية (.. ان المسلمين من الكثرة والاختلاف .. بشكل لا يسمح لهم بان يكونوا كتلة واحدة ، ص ١٣٥) ، وهكذا فان ما حدده حمدان من ظواهر التمزق .. لا يزال قائما ، كما ان حلمه بالوحدة القومية لم يتحقق ، عسى الا يكون قد تبدد .

وبعد العالم العربى .. يتابع فى الاطار ذاته (دول الاغلبية المسلمة) .. تحليل العلاقة بين الدين والدولة فى اندونيسيا وتركيا والباكستان (حمدان ص ٩٣) ، حيث لكل منها حالتها الخاصة . التى تضيف لهذا الاطار ما يعمق من فهم هذه العلاقة ، فاذا كانت تركيا قد تخلت رسميا عن الإسلام كدين للدولة ، بينما قامت الباكستان على اساس دينى صرف ، فإن اندونيسيا قد جعلت الإسلام ضمن ايديولوجيتها التى اتخذتها شعارا لها (.. وهى خماسية البانتشاسيلا Pantjasila التى اختصرت الى ثلاثية تجمع بين القومية والإسلام والشيوعية ، برغم ما بين اطرافها من تناقضات جوهرية متبادلة ، ص ٩٤) ، ومع عدم تجاهل التغيرات التالية ، فإن الدول الثلاث تعانى من اختلال العلاقة بين الدولة والدين بدرجات مختلفة ، ومرة أخرى .. فإن الديمقراطية كفيلة بمعالجة

باختصار (.. عربة يجرها جوادان .. كل يشد في اتجاه مضاد ، ص ١٠٥) .

وتقترن "ثنائية الدين" غالبا .. بما يضاعف تقيحاتها من الاسباب ، وخاصة حين تقترن بثنائية السكان .. سواء من حيث العرق أو اللسان ، وقد تؤدى العزلة الى تأكيد السمات المحلية للثقافات ، كما تنطوى القبلية فى بعضها والعشائرية فى بعضها الآخر .. على تراث من الثارات الدفينة .. والمشاعر المضادة .. قد تعود لما قبل الاديان ، وغالبا ما يؤدى اختلاف مناطق التركز والكثافة .. الى تباين التوجه الاقتصادى .. وما يتداعى عن ذلك من تفاوت مستويات التطور والدخول (.. ففى لبنان حيث يعبر عن الاقتصاد الزراعى بصيغة طائفية احيانا .. فيقال .. إن التفاح مارونى والبرتقال مسلم .. ص ١٠٧) ، ويزمن التقيح ويدعو لمعاودة الصراع .. حين تكرس الثنائية بالقوانين .. واحيانا بالدستور ، بحيث تكون الهيمنة لطائفة دون اخرى .. بما يخالف الديمقراطية فى الصميم ، ويتأجج الصراع حين تفرز التغيرات ما يغاير ما كرسته القوانين ، وتؤكد المؤشرات حتمية تفجره .. حين تزدهر الاوضاع فى منطقة طائفية من الدولة .. على حساب ترديها فى منطقة اخرى ، أو حين تتوجه استثمارات الدولة الى حيث تجتذبها التوظيفات .. دون حساب للمناطق التى تحتاج للتنمية والتطوير ، أو حين تكتشف موارد جديدة فى منطقة معينة .. وتنزح الى اخرى .. دون تخطيط .. كما حدث فى نيجيريا بعد اكتشاف البترول بها على سبيل

المثال ، والقاعدة ان تفجر الصراع لن يطول .. اذا ما تراجعت المصلحة العليا من بقاء الدولة موحدة .. لحساب المصلحة الخاصة للطائفة المتمركزة فى منطقة معينة ، ومن هنا اهمية ان تحقق الدولة لكل منطقة من مناطقها .. ولكل طائفة من طوائفها .. ما يفوق ما يمكن ان تحققه ايها فى حال انفصالها ، وان تعالج خطوط التوتر بما اصطلح على تسميته بالديمقراطية الثقافية .. هذه التى تعنى المساواة التامة بين ثقافاتها (اللغة ، الدين ، التاريخ) المحلية ، وان تعمق قنوات التفاعل والتواصل بينها .. بحيث تتدفق فى مسارات بطبيعية وتلقائية .

والحقيقة انه كجغرافى لا يدع "المكان" يغيب عن رؤيته الثاقبة وتداعياتها ، ويتخذ من تبايناته الأرضية ما يعمق به فهم هذه الثنائية الضاربة فى بنية هذه الدول وغيرها (ص ١٠٦) ، خاصة فيما يتصل بظاهرة "العزلة الجغرافية" .. هذه التى تفضى اليها عوامل طبيعية وتاريخية واقتصادية شتى داخل الدولة ، تتمثل الطبيعية فى اختلافات التضاريس والمناخ والتربة والموارد المائية وغيرها .. بين مناطقها ، وتتمثل التاريخية فيما قد ينطوى عليه الماضى من صراعات .. دفعت بالعناصر الاضعف الى المناطق الافقر ، وتتمثل الاقتصادية فى تفاوت الموارد فضلا عن درجة استغلالها ، وهو حين يعود بها الى السياسات الاستعمارية . يضع يده على جذورها ، ويقرر (.. وفى النتيجة فان الإسلام فى كل الدول النصف الإسلامية .. يصبح هو الطرف

الاضعف فى التوازن الوطنى ، ص ١٠٨) .. خاصة فى افريقيا ، ولكن الذى لم يذكره .. يتحدد فى اسباب استمرار تردى الأوضاع فى هذه الدول .. بعد استقلالها ، وهى مسألة معقدة .. ربما تتحدد اجابتها فى مدى قدرة الدولة على إدارة مناطقها داخل حدودها ، ودرجة توجهها نحو تطهير بنيتها من موروثات الماضى الاستعمارية وقبل الاستعمارية ، وحدود طاقتها على بناء الاجهزة والمؤسسات الحكومية ، فضلا عما تتبعه من سياسات لحل مشكلات حدودها مع جيرانها ، وما تصممه من خطط تنموية لمناطقها ، وغير ذلك مما يضيق المجال قطعا عن ذكره ، وبذا يطرح كمشكلات مزمنة تلازمها ، وايضا كمجال يستحق الدراسة بأكبر قدر من التفصيل الممكن ، ومتابعته الى جذوره .. مهما نأت واستعصت .

حالات للدراسة :

وتحت عنوان "مسح اقليمى" (ص ١٠٨) يعاود دراسة امثلته (لبنان ، اثيوبيا ، تشاد) .. كحالات Case Study منفصلة ، وتظهر سيطرته ، الفائقة على ادواته .. حين يحلل كياناتها السياسية ، محددا شروخها .. فى عبارات خاطفة تحلق .. تعقبها اخرى منقضة تحدق ، غير ان متغيرات المرحلة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية .. هذه التى شهدت تصاعد تيار المد الوطنى .. والجزر الاستعمارى

العالمي ، قد جعلته متفائلا بشأن مستقبل تطوراتها ، حيث يقرر بالنسبة للبنان (.. على ان هذه ان تكن هى الصورة التقليدية للجغرافية السياسية به .. فان هناك الآن مؤشرات واعدة بتغيرات هامة وطيبة .. ص ١٠٩) ، ومن اسف ان الحرب الاهلية اللبنانية المروعة .. قد خيبت مؤشراته ، ولكن من كان يتصور ان صديد الطائفية في لبنان قد غذى أتونها بحرب قاربت الخمس عشرة سنة ، وهى خبرة لابد من التوقف عندها .. حيث هي تنتظر كل دولة لا تطهر بالديمقراطية اولا بأول صديدها ، وتصدق بالنسبة لاثيوبيا مؤشراته .. (.. وفي الوقت الحالى لا يعدم الإسلام فى اثيوبيا بعض اتجاهات انفصالية .. ولكنها خافتة مكتومة ، بينما هو فى ارتيريا انفصالى علنا Irredentist ، وهناك حركات سياسية مستمرة .. تعد الوجود الاثيوبى احتلالا لا اتحادا وتتطلع بلهفة الى فضه ، ص ١١٠) .. وقد تحقق اخيرا فضه ويكتفي بالنسبة لتشاد بتوصيف اوضاعها ، مع الاشارة لجدية محاولات تصفية مشكلاتها ، ويقرر بالنسبة لنيجيريا (.. ان تعاني من صراعات جعلت وزنها السياسى في المجتمع الافريقي ضئيلًا لا يتناسب البتة مع حجمها كأكبر دول القارة سكانا ، ص ١١١) ، وهذا تشخيص دقيق في حد ذاته ، ويرى بأن تصوير هذا الصراع كمبارزة دينية بين الشمال والجنوب ليس سليما ، وانها حين توفق بين المصالح الاقتصادية لاقاليمها . سوف تسترد وزنها (ص ١١٢) وهى ايضا وصفة مناسبة ، تؤتى فى السنوات الاخيرة ثمارها .

دول الاقليـات الإسـلاميـة :

وتأتى الفئة الثالثة من تصنيفه لـ "كثافة الإسلام" . تحت عنوان "دول الاقليات الإسلامية" (.. وتؤلف أكثر من نصف دول العالم الإسلامي ، ص ١١٢) ، ويصف اوضاعها كما يلى بحامة :

* لا توجد بينها تطلعات سياسية فعالة .
* قد توجد رغبة انفصالية مكبوتة .
* تتعرض للضغوط والكبت بقوة من جانب الدولة .
* غالبا ما تنتزع لنفسها مكانة اقتصادية تفوق حجمها .

ويقسمها الى قسمين :

* الدول الافروآسيوية .
* فى العالم "الشيوعى"

وتدل تسمية القسم الاول على مواقع دوله ، ويبدأ بالافريقية منها ، حيث يتابعها فى اشارات خاطفة فى غرب افريقيا (ونموذجها الكاميرون) بنسبة مسلمين تقارب الثلث من سكانه ، وبأوضاع تشبه نيجيريا .. من دول الفئة الثانية .. النصف إسلامية ، سواء بالنسبة لتركز الإسلام فى الشمال .. او تحكمه في الجنوب .. الذى تمزقه الصراعات القبلية ، اما في شرقها فالإسلام يتميز بوزن خاص .. بسبب تركزه على الساحل الشرقى .. وثيق الصلة من قديم بمنابعه

ونواته الاساسية فى الصومال .. الذى يسعى لان يكو كبيرا .. بضم ما يعرف بالصومال الكينى اليه (انظر ما ال اليه احواله الآن فى التسعينات) ، بل وكيف ذابت فى تنزانا (تنجانيقا سابقا) ممباسا وزنجبار ، وهنا يقرر رؤية تقتض اثباتها بمزيد من الدراسات .. وهى (.. ان دور الإسلا السياسى فى دول الاقليات يصعب أن يكون الانفصال .. وا دوره يتمثل فى نشر الدين ، ص ١١٤) ، وهى رؤية ان صدقت .. تصلح قاعدة لوضع السياسات ، وإن لم تصدق فماذا يمكن ان يكون دورها على وجه التحديد ؟، وفى مقارن سريعة بين غانا وقبرص .. يمنح رؤيته بعض الظلال ، حيث قمع حزب الاقلية الإسلامية فى الاولى ، بينما تصاعدت فى قبرص حركة الانفصال ، مستندة الى دولة إسلامية كبيرة مساندة هى تركيا ، وقد تحقق توقعه بقيام كيان إسلامى مستقل فى قبرص .. ولم يكن ذلك قد تم حين تأليف الكتاب (ص ١١٤) .

ومن افريقيا ينتقل إلى آسيا .. باهتمام خاص بالفيلبين التى تشتد فيها دعوات الانفصال ، عكس الملايو .. نواة ماليزيا .. ثمرة الدعوة للملايو الكبير ، اما الهند .. فانه يصف الاوضاع فيها .. (.. بانها معقدة متشابكة الى أقصى حد ، ص ١١٤) ، ورغم الاقلية المسلمة الكبيرة الحجم (ثالثة تجمع إسلامى على مستوى العالم) .. فليس ثمة فرصة اخرى لتكوين دولة إسلامية بعد الباكستان ، حيث تحيطهم اغلبية هندوكية بما لا يقاس ، ربما ايضا بسبب التجربة

الديمقراطية الهندية .. التى استوعبت النسبة الكبرى من اسباب الصراع ، وذلك رغم ما يطرأ من صراعات واحيانا مذابح بين الحين والحين ، وتبقى مشكلة كشمير .. ويرى بانها تنتمى دينيا للباكستان ، ومن ثم فإنها يجب ان تكون لها .. تبعا لاصول التقسيم ، وحين ينتقل الى القسم الثانى (فى العالم الشيوعى ، ص ١١٥) .. فإن ما كتبه بشأنه قد تجاوزته المتغيرات .. سواء كتحليلات او توقعات (ومن كان يتوقع او يتصور سقوط الاتحاد السوفييتى وانفراط عقده الكبير ؟) ، ويبقى منهجه صالحا لان يؤسس قاعدة لدراسة شاملة عن الموضوع حيث يعالجه في هذه الخطوات .. أو المراحل التى تتضمن تطوراته وزواياه :

* مرحلة ما قبل القيصرية .
* مرحلة القيصرية .
* مرحلة الاتحاد السوفييتى .

ويضاف اليها مرحلة "مابعد الاتحاد السوفييتى" .. الذى سقط بعد صدور الكتاب بنحو عشرين عاما ، ويقتضى ذلك ـ فى إطار مشروع "جغرافية العالم الإسلامى" الكبير ، حشد كل ما يمكن من القدرات ، تستند الى مكتبة كاملة عن الموضوع ، والى دراسات ميدانية مكثفة .. فيما يعرف الآن بجمهوريات وسط آسيا الإسلامية ، عسى تجد هذه الدعوة صداها القريب .

ورغم ما جرفته الاحداث ، فلا يخلو ما ورد من بصيرة تشعر بادق التغيرات . (رغم ما بدا من تعرض الإسلام لعملية

تصفية Desislamisation .. فإنه يمر فى السنوات الاخيرة بمرحلة صمود .. بل ربما احياء ، وذلك كرد فعل طبيعي للضغوط العقائدية المضادة ، لاسيما مع انصباب الهجرة الروسية السلافية ، التى وصلت الى ابعاد خطيرة ، وتؤذن بتحويل الاهالى الى اقليات ، ص ١١٧) ، ويذكر نيكسون فى كتابه .. ما يؤكد هذا الصمود (.. لقد قاوم العالم الإسلامى الشيوعية .. باقوى مما قاومها العالم الغربى ، ص ١٦٢) ويدلل حمدان على تأثير الهجرة المذكور بجدول هام (ص ١١٧) .. ينبه فيه الى تأثير التهجير فى خلخلة كثافة الإسلام .. ولكن من يسمع لتنبيهات العلماء ، وقبلها من يعمل بما تشعر به بصائرهم المتصلة بعقولهم .. قبل فوات الاوان .

نظريـة الوحـدة الإسلاميـة :

يأتى الفصل الرابع (ص ص ١١٥ ـ ١٦٠) تحت عنوان "نظرية الوحدة الإسلامية" ، وهى فى لبها نظرية تكاملية .. يستكمل بها رؤيته الحضارية الشاملة فى دوائرها الثلاث ، فبعد مصر (الوطن) والعالم العربى (القومية) .. يتصاعد بها فى سلاسة صلبة الى اطارها العام (الإسلام) ، ويهتم فى هذا الفصل بوجه خاص .. بتحديد المجال الوظيفى لكل من القومية والدين ، وتطهير الحدود بينهما من الالتباس وذلك بعد ان قام بمثل ذلك .. بين الوطن والقومية .. فى كتاب "شخصية مصر" الكبير (جـ١ ، ص ص ٢٠ ـ ٢٥) وبهذا التوحيد الفكرى بينها .. يعلو بها فوق هذه الثنائيات

المتضاربة بين الوطنية والقومية .. وبينهما وبين الإسلام ، هذه التى شغلت كثيرين غيره .. بالاختيار من بينها .. وتأكيد استحالة الجمع بينها بابراز الاختلاف ، بينما هى متكاملة من الاساس .. او قابلة لأن تكون ، وما الفصل بينهما .. الا تجاوبا مع نظريات من خارجها .. عن الوطن والقومية والدين ، مزقت تكامليتها الجغرافية والتاريخية فى العالم الإسلامى .. بما يحقق اهداف الآخرين .. العامدة عمدا الى هذا التمزيق ، إن لب نظريته .. ينفى اى سبب حقيقى .. يمنع تكامل الدوائر الثلاث ، إلا أن تكون نظم الحكم .. والمصلحة الضيقة .. والنظرة الاحادية التى لا ترى سوى اتجاه واحد .. من الميراث الثقافى القديم والحديث ، وبذا يتناقض أيها مع تكاملية الأرض والتاريخ .

وقبل ان يوضح رؤيته "للوحدة الإسلامية" .. فإنه يسعى الى اثبات الوظيفية الخاصة لكل من الوطن والقومية والدين ، والى نفى التناقض بين القومية والدين بوجه خاص ، والتدليل على تكاملية الدوائر الثلاث .. كميراث تاريخى جغرافى ، وكأساس لمستقبل متفاعل وفعال ، وقد اتخذ سبيله لتحقيق ذلك .. تحت مايلى من العناوين ، بمثابة وحدات منهجية .. توضح آراءه .. قبل تجميعها فى منظور :

* الوحدة والتنوع فى العالم الإسلامى (ص ١٢٦) .
* تاريخ الإسلام الجيوبوليتيكى (ص ١٢٩) .
* قضية الوحدة (١٣٩) .
* الدين والقومية (ص ١٤٣) .

* دور الإسلام السياسى (ص ١٤٧) .

وبداية .. يعد فرض "الوحدة والتنوع" .. Varaity Within Unity من الفروض الاساسية فى علم الجغرافية بعامة ، يوظفه هنا للكشف عن التباين الاقليمى .. داخل العالم الإسلامى المترامى ، وذلك فى ضوء ان الاقليم لا يعنى التشابه .. وانما التنوع فى إطار من الوحدة المكانية الوظيفية .. تتجلى مع الترابط والتفاعل والتكامل ، غير ان تطبيقه لهذه الفرضية .. لا يقتصر على مجالها المكانى ، بل يضيف اليه التاريخ والشعوب والثقافة ، وذلك بهدف اثبات ان "الإسلام" .. بمثابة الوحدة القاعدية للعالم الإسلامى ، وان اختلافات الأرض والثقافة . والمذاهب .. انما تعود الى ترامى اطرافه ، وبذا يدمج بين هذه اللبنة الاولى فى نظريته عن وحدة العالم الإسلامى ، وبين نظريته المورفولوجية كما سبقت الاشارة .. وكما سيأتى تفصيلا .

وهكذا فإن ما يعنيه بالوحدة هو الدين .. اما التنوع فيتصل بالتوزيع المكانى والمذاهب والثقافة ، فالاصل ان الدين قد ظهر واحدا وفى مكان واحد ، ثم وزعته حركة الفتوح بين المناطق ، وتعددت مذاهبه مع حركة التاريخ .. وتنوع الثقافات وتلون السياسة ، ومن يراجع خريطة الإسلام .. سوف يكتشف كم هى متباينة الاقاليم .. متعددة المستويات والظواهر ، تتراوح ما بين الجبال والهضاب والصحراوات والسهول والسواحل ، وما بين الموسميات والمتوسطات والمناطق الجافة (ص١٢٧) ، فهل افضت هذه الاختلافات

الى نفى وحدته الدينية الاصيلة ؟.. والاجابة .. انها لم تجاوز كونها نتيجة للتباين المكانى الجغرافى الطبيعى ، تتمثل فى موطنه الاصلى ايضا .. اى فى شبه الجزيرة ، ولا تقتصر عليه وحده .. بل تميز ايضا غيره من الديانات ذات الانتشار الواسع ، وبقدر ما تدل على قدرته الانتشارية .. بقدر ما اكسبته تنوعا وثراء .. بحكم تعدد بيئاته ، وهى وان اسفرت عن سلبياتها بعد ذلك .. فان ذلك يعود الى اسباب اخرى عديدة ، يذكر منها (.. صحيح ان الإسلام لا يعرف هيراركية كهنوتية .. لكن تاريخه لم يخل من تداخل بين الدين والدولة ، ص ١٢٥) ، وبهذه الاشارة السريعة .. يضع يده على ما سيتابعه بعد ذلك ، ويبقى السؤال عن كيفية استثمار التنوع الطبيعى .. لحساب الوحدة الدينية الاصيلة .

اما عن التنوع الثقافى فى العالم الإسلامى .. فانها عنده شأن الاختلافات الجغرافية ، محصلة تعدد شعوبه فى عالمه المترامى ، فهذا العالم الذى يضم العرب والفرس والاتراك والافارقة وغيرهم ، يستحيل ان تكون وحدته انثروبولوجية بالمعنى الثقافى (ص ١٢٨) ، غير ان ما يهدد وحدته الدينية حقاً انما يتمثل فى تعدد المذاهب ، هذه التى يفسرها سياسياً "أن اغلب الفرق الدينية التى تكاثرت فجأة فى صدر الإسلام وما بعده .. ما بدأت اصلا الا كتحزبات سياسية ، وكصراعات على السلطة والحكم ..) ، ويضيف فى عبارات دالة (.. ولكن بينما فقدت هذه الاعتبارات معناها وقيمتها .. بتغير السياق التاريخى .. الى ان زالت تماما ، فان العصبيات

الدينية التى اصطنعتها ، تبقت مترسبة عبر الاجيال ، وتجمدت مع الزمن ، حتى آلت الينا كإرث غير مفهوم وغير منطقى ، يثير التساؤل مثلما يثير المشاكل ، ص ١٢٥) ويتابع تقيحات الطائفية الدينية خلال العصرين العثمانى والاستعمارى ويراها مستمرة حتى العصر الحديث ، وينصح (من المفيد والضرورى تقديم دراسة علمية منهجية متكاملة فى هذا الصدد ص ١٢٧) وينتهى من فرضية الوحدة والتنوع .. بأهمية توظيف التنوع لحساب الوحدة ، بمثابة اللبنة الثانية فى نظريته .. باعتبار ان الاولى تتمثل فى وحدة الدين .

وتبقى المشكلة عنده محددة فى هذا السؤال "هل يمكن لهذه الوحدة الدينية" ان تقيم كيانا سياسيا مركزيا موحدا .. كما يقدر لها منظور الإسلام السياسى ؟

وهذا سؤال معقد بطبيعة الحال ، يسترشد فى اجابته عنه بنظريته المورفولوجية وبالتاريخ والسياسة والدين ، حيث تدل مراجعة الحلقات .. على تجاوز الإسلام لما يتضمنه تتابعه بالضرورة من اختلافات ، ومن ثم يسميها (الاتجاهات الجاذبة المركزية ، ص ١٢٩) ، كما يدل تناقص كثافة الإسلام .. من حلقة الى اخرى بداية من النواة (اتجاهات المقاومة) .. على ان ثمة قوى مضادة .. توازن قدرته على الانتشار ، يتصل بعضها بالمسافة والمساحة واختلاف الثقافات ، ويخص بعضها رصيده السكانى فى النواة ، فضلا

عن فعالية الدولة المركزية .. وقدرتها الذاتية على إدارة هذا العالم المترامى الاطراف ، وهذا ما يعنيه بالمعادلة الاقليمية لانتشار الإسلام (ص ٨) ، ورغم أن حضارة الإسلام وثقافته .. قد بقيت وتعمقت .. واستمرت وحدة الدين ، إلا أن دولته السياسية قد تراجعت لحساب الدولة الوطنية والقوميات ، وهكذا بينما صمد الدين لاعتى الاختبارات .. فقد سقطت دولة الدين ، بما يشير الى وظيفة اخرى .. تستثمر بها خاصيتى الوحدة والاستمرار فى الدين ..، وليست الدولة وحدها وسيلة هذا التوظيف .

وينتقل الى التاريخ .. فيجد انه (يتضمن سلسلة من التجارب المريرة .. التى فشلت فى النهاية .. كأساس للكيانات السياسية للعالم الإسلامى ، ص ١٣٩) ، وفى التاريخ الحديث .. انبثقت من جديد فكرة "اسلامستان" .. فى باكستان ، ترددت اصداؤها فى اندونيسيا .. التى رفعت شعار "دار الإسلام" ، غير ان الفكرة والشعار وغيرهما .. قد وظفت من جانب القوى العالمية المهيمنة .. فى تأسيس الاحلاف ، اى انها قد استثمرتها سياسيا (.. وسخرتها لحسابها الخاص ، ص ١٥١) ، ثم صدرتها الى بقية الدول الإسلامية ، مستثمرة اختلاف المذاهب ، واختلاف درجة التشدد فى التفسير ، بما يعلل انتشار (.. الجماعات المسلمة الإرهابية فى العالم العربى ، خاصة مصر مؤخرا ، ص ١٤٠) .

أما من ناحية "الدين" .. فإن النظرية السياسية الاصولية فى الفقه الإسلامى ، لم تحتم قط وحدة "الامامة" ، يعنى وحدة النظام والاطار السياسى فى دار الإسلام، ص ١٤٥) ، ولعل خير ما يدل على ذلك .. ابن تيمية فى القرن الرابع عشر .. ومن بعده تلميذه ابن القيم الجوزية (.. فهو عند جمهور الفقهاء المحدثين أول دعاة الوحدة الإسلامية ، غير انه بواقعية ملحوظة .. لم يدع الى دولة إسلامية عالمية موحدة ، وانما الى شىء - اشبه فى تقدير المحدثين - باتحاد كونفيدرالى يجمع العالم الإسلامى جميعا ، ولكن من الواضح ان شيئا من ذلك لم يتحقق ، ص ١٣٠) ، وبذا يقرر ان الدور الاصيل يتمثل فى (.. توحيد الدين ، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين ، وتعميق روح الإسلام ، ص ١٥٣) ، ومن بعد .. توظيف تنوع الموارد والثقافات لحساب العالم الإسلامى الكبير ، وسيعود لتأكيد هذا الدور بشىء من التفصيل .. بعد قليل ، باعتباره من اساسيات نظريته ، فبعد وحدة الدين .. يأتى السؤال عن الدور ، وبعد تحليل التنويع .. يأتى السؤال عن التوظيف .

والآن .. ماذا يعنى فى نظريته .. عنوانها التفصيلى الثانى "تاريخ الإسلام الجيوبوليتيكى ؟" .

مثل مقولة "الوحدة والتنوع" .. فإن لمصطلح "جيوبوليتيكا" دلالته الجغرافية الخاصة ، تتصل اساسا بالاساليب السياسية والممارسات ، ولكنه يطهره هنا مما علق

به من شوائب .. نتيجة استخدامه من قبل قوى الاستعمار .. فى تطويع حقائق الجغرافية الثابتة .. لخدمة اغراض السياسة المتغيرة ، وهى عادة تقهر الحقائق لحساب المطامع ، وتوظفها لتبرير القوة والهيمنة .. بل والتوسع على حساب الآخر والتهامه ، ومن هنا أهمية التأكيد على ما سبق ذكره .. من تطهير معنى المصطلح ، والعودة به لمعناه اللغوى حرفيا .. كما يدل عليه تكوينه "Geo - Politic" . وجعله مرادفا للجغرافية السياسية . Political - Geog .. وهذا ما يعنيه حمدان ، مختلفا بذلك ـ على سبيل المثال ـ مع كتاب نيكسون المذكور (الفرصة السانحة) .. الذى يمكن اعتباره نموذجا للكتابات "الجيوبوليتيكية المضمون" .. بالمعنى القديم الشائع حتى الآن .

ولان العنوان يتضمن ايضاً كلمة "تاريخ" .. فقد التزم منهجيا بتقسيم موضوعه الى مراحل تاريخية .. كما يلى ، بعد تمهيد قصير عن اثر التاريخ عامة فى شكل ومضمون الحضارات ، وفى تشكيل مورفولوجيتها الجغرافية .. كما تتحدد فى المكان :

* العصر الوسيط .
* الدولة العثمانية .
* عصر الاستعمار .
* المرحلة القومية .

والمرجح انه كان سيضيف اليها اخرى (المرحلة المعاصرة) .. لو اعاد تأليف كتابه فى تاريخ لاحق

(١٩٧٢) ، او ربما اضافها فى مخطوطته المفقودة .. ظنا او حقيقة ، بل انه يمكن القول بأنه قد ضمن بعض عناصرها ، فى الفصل الاخير .. من الجزء الرابع من كتاب "شخصية مصر" (ص ص ٦٣١ ـ ٦٦١) ، وفى غيره ايضا من فصول نفس الجزء ، وعدد من فصول جزئه الثانى ، صفحات مبثوثة داخل موضوعات هذا المتن الكبير .

وربما يكون مفيدا لو استعان القارىء بكتابه (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، الفصلان الثانى ص ص ٢٦ ـ ٥٥ ، والثالث ص ص ٥٦ ـ ٩٨) عند مطالعة هذا الجزء من نظريته ، ليس فقط للارتباط الوثيق بينهما موضوعا .. وانما ايضا للتعمق فى جوانب ودوائر فكره التنظيرى ، فمهما اوردنا ـ كما سيأتى ـ من اقتباسات دالة .. فلن تعوض عن متابعته فيما ذكر .. وربما فى مؤلفاته جميعا .

والعصور الوسطى عنده هى (.. عصر الدين بامتياز ، ص ١٢٩) ، تجسدت بها وحدة الدولة المركزية للعالم الإسلامى ، يذكر عنها فى كتابه "استراتيجية الاستعمار والتحرير" (.. لم تسبقها من قبل دولة فى الامتداد والرقعة ، ولم تلحقها من بعد الا امبراطوريات العصر الحديث ، بل هى فى نظر ماكيندر .. الامبراطورية العالمية الاولى فى التاريخ ، ص ٢٦) .. ويتابعها فى تحليلات موحية بعد ذلك فى كتابه ، غير انه مع ضعف قلبها الجاذب .. انفصلت هوامشها تباعا ، وبذلك يمسك بطرف خيط هام فى نظريته .. يتمثل فى العلاقة

بين القلب والهوامش ، هذه التى تعود ايجابية مع الحروب الصليبية .. وطوفان المغولية .. حتى تكاد توحد من جديد بين قلب وهوامش العالم الإسلامى ، ورغم توهج العصر المملوكى بعامة ـ فقد افرغت الخلافة من شحنتها كقطب جاذب ، ومع ذلك اتخذت الدولة العثمانية من الخلافة .. ستارا يسبغ الشرعية على سيطرتهم على هذا العالم بعد ذلك ، ووجهة نظره فيها (انها استعمار دينى .. جعلت من اقاليمها مجرد توابع ، ص ١٣١) ولم تجد معها الخلافة فتيلا .. حين دهمها العصر الاستعمارى .

ومن الهوامش ايضا زحف الاستعمار الى العالم الإسلامى ، وتأكله تدريجيا من شرقه وشماله .. ثم من غربه وجنوبه (ص ص ١٣١ ـ ١٣٢) ، بذات وتيرة الصليبيات الوسيطة ، بما ايقظ من قلبه حركات الاحياء الدينى .. متسربلة بالتحرر السياسى .. فى شبه الجزيرة (الوهابية) والسودان (المهدية) وليبيا (السنوسية) ومصر الأزهر .. وصحراء الجزائر ، يبددها ضعف تواصلها .. وتقوقعها داخل ثيوقراطيات محلية (ص ١٣٤) ، سرعان ما تتهاوى .. إن لم تتحالف مع الاستعمار ذاته ، وإن برزت فكرة الجامعة الإسلامية Pan - Islamic التى قدمها الافغانى ، وترادف (.. اتحادا فيديراليا من النمط الالمانى .. على مستوى العالم الإسلامى ، ص ١٣٤) ، وقد افضى ضعف الدولة العثمانية عن الدفاع عنها رغم تبنيها .. الى بزوغ الوعى القومى العروبى .. كصيغة مضادة طامحة لمواجهة المد

الاستعمارى ، خاصة بعد سقوط الدولة العثمانية ذاتها .. وتحلل الخلافة .

لقد تضمن السياق السابق اشارات الى بداية العصر الاستعمارى ، ومن يطالع الفصل الثالث من كتابه المذكور "استراتيجية الاستعمار والتحرير" .. سوف يحظى بتفصيلات دقيقة عنها وعما يتلوها ، ورغم سقوط الدولة العثمانية فى سياق الاستعمار العاتى ، فإنه لا يغفل تقدير قوتها (.. هذه قوة لا يستهان لها ، ولها مقومات يجب ان يحسب لها حساب ، ص ٥٣ من الكتاب المذكور) ، محذرا من وقوع القلب العربى الإسلامى مرة أخرى تحت سيطرة الهوامش ، وهذا تحذير له ما يبرره فى الوقت الحاضر (ايران بصفة خاصة) ، وبه يحفظ لنظريته اتساقها .. فى وجهيها المورفولوجى والموضوعى ، حيث العالم العربى بها قلب العالم الإسلامى ونواته وحلقته الاولى .. وبه يتحقق للإسلام اعلى كثافة ، ومن ثم فان تطهير الحدود بين القومية والإسلامية .. يجب ان ينال فائق العناية .

وقبل الاستمرار معه فى اجابته عن سؤال "هل القومية بنت العصرالاستعمارى .. ومن نتاج فكره الغازى ؟ (ص ١٣٦) ، ربما يكون مفيدا .. الاشارة الى انعدام وجود اى مقولة عن "القومية العربية" فى كتاب "نيكسون" المذكور ، سوى للدقة مجرد اشارة اليها باعتبارها تخبطا .. وهذه كلماته (.. لقد تمكن العالم الإسلامى من تحرير نفسه من الاستعمار فى الخمسينات والستينات ، وبعد ذلك اندفع

وهو مغمض العينين ـ فى اتجاه عدم الانحياز ، واتحاد العرب ، وسياسة رد الفعل ، وسوف يعاود البحث فى التسعينات ، وما بعدها ، عن مكانه اللائق بين دول العالم ، وعلى الولايات المتحدة أن تساعده فى ذلك بطريقة ما ، ص ١٣٩ ، الفرصة السانحة) هو إذن لا يذكر القومية العربية صراحة (اتحاد العرب) ، وهو يندفع الى هذا الاتجاه (مغمض العينين) ، وان على الولايات المتحدة ان تهديه وتنير طريقه .. ليس وحده .. وانما لكل العالم الإسلامى ، وبالطبع فان طريقه ليس بحال ما اندفع اليه بعماء على حد تعبيره ، ومرة ثانية استسمح القارىء فى اشارة اليه .. عسى لا تضجره او تصرفه عن متابعة موضوعه ، وعذرى انها تتصل بها .. وتوضح رأى الآخر المهيمن .. بعد عشرين عاما من طرح حمدان لسؤاله ، وهذه هى الاشارة (.. العالم الإسلامى متقلب وغير مستقر ، ولكن من الاهمية بمكان .. ان قوى التقدم والرجعية والاصولية تتصارع فيه ، لكى تحظى بتأييد الشعوب التى يبلغ تعدادها ما يزيد عن ٨٥٠ مليون نسمة ، هل ستتبع العالم الإسلامى نموذج تركيا فى انحيازها نحو الغرب والتحضر ؟ امستتبع نموذج العراق ؟ ام يتبع نموذج ايران ؟ ان الاجابة على هذه الاسئلة ستكون لها ردود فعل خطيرة فى العالم ، وسوف تلعب السياستان الامريكية والغربية مع المسلمين ، دورا رئيسيا فى تحديد الخيار الذى تختاره الشعوب المسلمة ، ص ٢٨ ، الفرصة السانحة) ، هذه اذن نماذجه .. ومن الواضح ان النموذج

التركي يروقه ، ومن بين العرب من يختار النموذج العراقى .. وهو يلعنه صراحة فى صفحات كتابه ، وكذا الامر بالنسبة للنموذج الايرانى ، ولا وجود لنموذج القومية العربية بتاتا ، عسى تكون الاشارة قد وصلت ، وخلاصتها انه بينما يفضل التعامل مع العالم الإسلامى كوحدة .. فانه يقدم اليه تركيا كنموذج .. وهى من تخلت عن الإسلام اصلا .. واتجهت نحو الغرب لتتحضر اساسا ، وستكون هناك عودة لذلك .. وعذرا للإطالة .

وفى مناقشة خاطفة (ص١٣٦) يطرح كما سبق سؤاله "هل القومية بنت العصر الاستعمارى .. ومن نتاج فكره الغازى ؟ واحيل القارىء اليها ليقرأها باستفاضة ، وتتلخص اجابته فى ان الثقافات المحلية قد افرزت الشعوبية .. منذ وقت مبكر من التاريخ الإسلامى (ص ١٢٥) ، وفى العصر الحديث .. فإن (.. نقطة الانكسار من الدين الى القومية .. لم تأت بسرعة أو فجأة ، بل استطالت من اواخر القرن ١٩ الى فترة الحرب العالمية الأولى ، ص ١٣٦) ، قد غذتها الطبقية التركية القومية ، ورونها المؤثرات الأوروبية ، وبلورها سقوط الخلافة العثمانية ، وقادتها الاحزاب القومية فى العراق والشام .. والأحزاب الوطنية فى مصر وشمالى افريقيا ، وانقسم العالم الاسلامى بين الجامعة العربية Pan - Arabian والجامعة الطورانية ـ Pan - Turanian غير انه لم تلبث .. ان تحللت (الوحدة الدينية الى عواملها الاولية .. وهى الوطنية والوحدات القومية . ص ١٣٨) ، وقد سبقت

الاشارة .. الى انه لا يرى تناقضا بين الوطنية والقومية ، حيث يقرر فى كتابه شخصية مصر (.. وقد خلق بهذا كله فى العقل العربى .. أو اللاوعى العربى نوعا من الازدواجية والتضاد بين الوطنية والقومية ، حيث لا ازدواجية ولا تناقض بالتأكيد .. وانما ثنائية متكاملة أو قطبان لمتصل مدرج واحد Continuum ، جـ ١ ، ص ٢٤) ، وبذا يضع اللبنة الثالثة .. فى نظريته .. وتتمثل فى فصل الادوار بين الوطن والقومية والإسلام ، ثم العمل بعد ذلك على تكاملها ، وعليه عند هذه النقطة الحرجة فى بنائه النظرى .. ان يحدد بالضبط والتفصيل دور الإسلام السياسى فى نظريته التى يسميها "نظرية الوحدة الإسلامية" .

وتأتى اجابته متسقة مع نظريته المورفولوجية .. مرة أخرى ، وبخاصة معادلته الاقليمية الرئيسية عن (محصلة القوى) ، فاذا كانت القدرة الانتشارية للإسلام .. قد توازنت مع القوة المضادة ، بما ادى بها كمحصلة .. الى خريطته الراهنة .. بحلقاتها المتمايزة تبعا لدرجة كثافة الإسلام فى كل حلقة ، فان دور الإسلام السياسى ايضا .. قد تحدد كمحصلة تاريخية .. لتغيرات العلاقة بينه من ناحية (القوة) .. وبين القومية والدولة (المقاومة) من ناحية اخرى (١٢٩) ، وبناء على ذلك .. فاذا كانت جدارة الإسلام الحضارية قد صمدت .. فكيف يمكن توظيف ذلك لحساب العالم الإسلامى المعاصر .. بواقعية تستقطر جوهره .. لحساب دولة فى خريطته الراهنة ؟ وكيف يمكن استثمار الوحدة الدينية ..

لتحقيق اقصى ما يمكن من التكاتف السياسى والثقافى والاقتصادى فى الساحة العلمية ؟، غير انه لا يكتفى بتحديد دور الإسلام السياسى عنده بوضوح تام (.. الوحدة الإسلامية وحدة عمل لا وحدة كيان ، بل يمكن ان نضيف وحدة مصير .. الا انها ليست دستورية ، وفى كلمة اخرى وحدة فكرية لا دستورية ، ص ١٥٣) ، ولكنه يعود فيفصل فى مجالات دوره .. ولكنه يسوق قبلها ما يفسر رأيه (ص ص ١٣٩ ـ ١٥٣) ، وفيما يلى تفسيره .. وتفصيل دوره :

* ان الترامى الجغرافى الشاسع للإسلام .. وان دل على قدرته الانتشارية .. الا انه بقى يعمل دائما ضد الدولة المركزية .

* إن قيام الدولة الإسلامية على الاساس الدينى وحده .. يمكن ان يبرر قيام غيرها على اساس الديانات الاخرى ، وبذا يعود العالم ساحة للصراعات والحروب الدينية ، ساحة يصعب تصدر الإسلام لها .. بحكم الصورة المعاصرة لهرم القوى بها .. وتراتبها .

* كما سبق فى تصنيف كثافة الإسلام فى مناطق انتشاره .. فانها تتراوح بين الاغلبية والتنصيف والاقلية ، فماذا تضم دولة الإسلام منها .. وماذا تترك ؟، خاصة مع تداخل الكثافة .. بدرجة تقطع التواصل الارضى اللازم ، بما قد يؤدى الى انقسام دولة إسلامية موحدة فعلا .. مثل ما حدث فى باكستان مثلا ، غير ما ينطوى عليه التداخل من مشكلات الاقليات الدينية .

* انه لا تناقض بين الدين والقومية ، فالاخيرة تؤطر واقعا معقدا .. وتكرسه دستوريا ، يضم الدين فى إطاره الواسع .. العديد منها ، ومن شأن القيام بدوره فى التنسيق بينها أن تصيغ لنفسها استراتيجية عظمى واحدة .

(.. الإسلام بوصلتها التى تسترشد بها فى عالم القوى .. الذى يهدد الكل بصراعاته وتوازناته ، بضغوطه وتكتلاته ، وايضا باستقطاباته وتفككاته ، ص ١٥٤) .

وبهذه الاسباب وغيرها .. يعقد صلحا فكريا بين القومية والدين ، ويطهر الحدود بينهما من تحيز الاختيار الاحادى لأيهما ، ويكشف عن مساحة التكامل بينهما والوفاق ، وهى المساحة التى تتشكل حولها نظريته عن "وحدة العالم الإسلامى الكبير" ، ولكن اين "القومية" من الساحة الآن ؟، إن هناك من يرى بانها قد انتهت .. ويكتفى "نيكسون" بوصفها بالجمود (الفرصة السانحة ، ص ١٥) ، ولكن علينا مثله ان (لا نقلل من شأن الاحتمالات المستقبلية مطلقا (نفس الصفحة) ، بل لعل الحاضر يشهد فعلا بوادر دورة جديدة لانتعاشها ، وعندئذ سوف تكون لكل كلمة كتبت عنها قيمتها .. خاصة فى اتجاه التوفيق بينها وبين الدين .

اما عن تفصيل دور الإسلام .. فانه يحددها فى هذه المجالات (.. التبادل الثقافى والفكرى العام ، المزيد من التنسيق الاقتصادى والتبادل التجارى ، التضامن السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الاخطار الخارجية ،

التعاون لتحرير فلسطين المحتلة ، تلك جميعا هى المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامى سياسيا ، ص ١٥٣) ، وفى صياغة عملية يقرر (.. ويعنى هذا ان العمل السياسى والنشاطات الدولية الإسلامية .. التى تخضع حاليا لتوجهات منفصلة ومشتتة وربما متعارضة ، ينبغى ان تتحول من نمط الطرد المركزى الى قوى الجذب المركزى ، ص ١٥٤) ، وذلك بحكم حجم التحديات والمشكلات .. هذه التى يمكن تجميعها من سطوره وما بينها .. فى هذه المشكلات العشر المحورية فى العالم الإسلامى بإيجاز :

* الصراع الداخلى بين الدول الإسلامية .. المتزايد مع الزمن .

* الهبوط المستمر فى مستوى المعيشة .. نتيجة عدم التوازن بين الزيادة السكانية والتنمية .

* ضعف قدرة الدولة على السيطرة على الامن والاستقرار الداخلى .

* نقص الموارد المائية فى بعض الدول ، واحتمال نشوب الحرب بين الدول المشتركة فى موارد واحدة .

* مشكلات الحدود الناتجة عن رسمها .. بوساطة قوى الاستعمار الأوروبى فى الماضى .

* مشكلات الاقليات الدينية والعرقية والثقافية .. الظاهرة والكامنة .

* ديكتاتورية نظم الحكم القائمة فى معظم الدول .

* التفكك السياسى لبعض الدول الإسلامية بعد استقلالها .

* نزيف الاتفاق على التسليح ، حيث تجمع بها أكبر كم من السلاح فى عالم الدول المتخلفة .

* الانقسام السياسى ، والتفتت الدينى المذهبى ، بين السنة والشيعة خاصة .

وهناك بالتأكيد غيرها .. مما يضيق عن تفصيله المجال ، وهو يعتبر ان مواجهة هذه التحديات والمشكلات .. تحقق التعريف الوظيفى لوحدة العالم الإسلامى السياسية (.. هذا الذى قد يراه البعض حدا ادنى ، ونراه حدا امثل ، بل اننى لنخشى ان جهود الدول الإسلامية واستعداداتها الفعلية ، تقصر كثيرا دون برنامج العمل الايجابى الذى ينتظمه ، حتى ليكاد يبدو على بداهته .. برنامجا طموحا اكثر مما ينبغى ، بل ان هذا البرنامج هو المحك والمقياس الحقيقى لنظرية وحدة العالم الإسلامى ، مثلما هو محيطها ومجالها ، ص ١٥٤) .

وبعد فهذا كتابه .. بمثابة شهادته على عصره ، واذا كان تحليل مضمونه قد طال .. رغم صغر حجمه .. فما ذلك الا لكونه ثقيل الوزن حقا ، يقدمه كاتبه للقارىء باعتباره مدخلا .. ربما معتذرا بذلك عن صغر حجمه ، ولكن وزنه يؤهله قاعدة راسخة لمشرع أكبر ، ولعل ما يرجح هذا الاحتمال .. قوله (.. ليس ثمة بين ايدينا فيما نعلم .. دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن الصورة الجغرافية الراهنة لتوزيع الإسلام فى العالم ، ولهذا فنحن مازلنا بحاجة الى دراسة متكاملة ترسم جغرافية الإسلام من حيث هو غطاء روحى واسع الانتشار ، بالغ الخطورة فى الحياة اليومية المعاصرة ، المادية

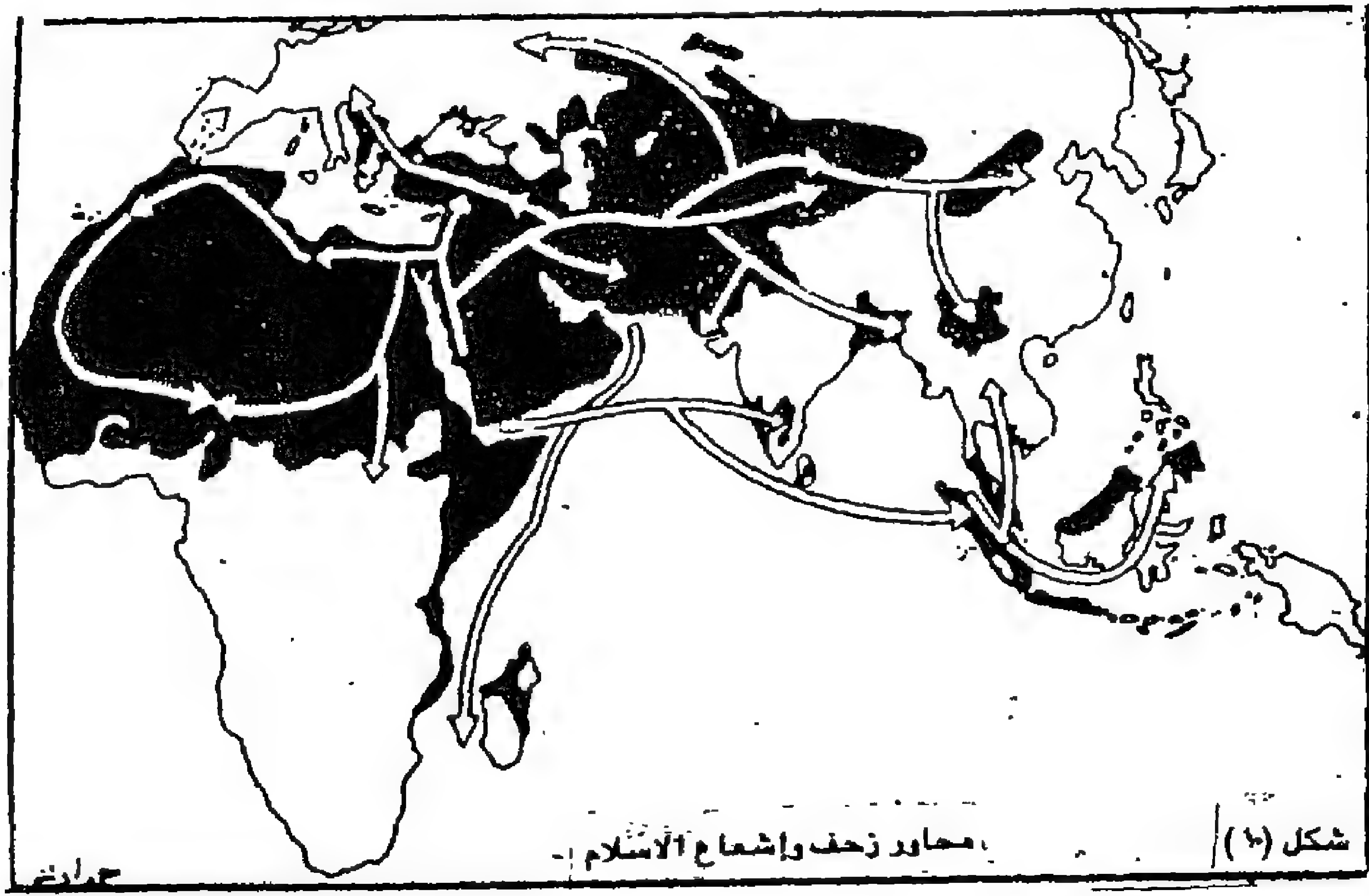
والثقافية ، والاقتصادية والسياسية ، لقطاع كبير من البشرية ، وما نزعم ان هذا البحث الذى نقدم الآن يمكن أن يسد هذه الثغرة تماما ، ولكنا نحسب انه يقدم ارضية عامة ونقطة ابتداء صالحة لمزيد من التعمق والتمحيص ، ص ١١) ، بل انه يكاد يشير الى بعض ما ينبغى استكماله :

* القصة التاريخية الجغرافية لانتشار العقيدة .

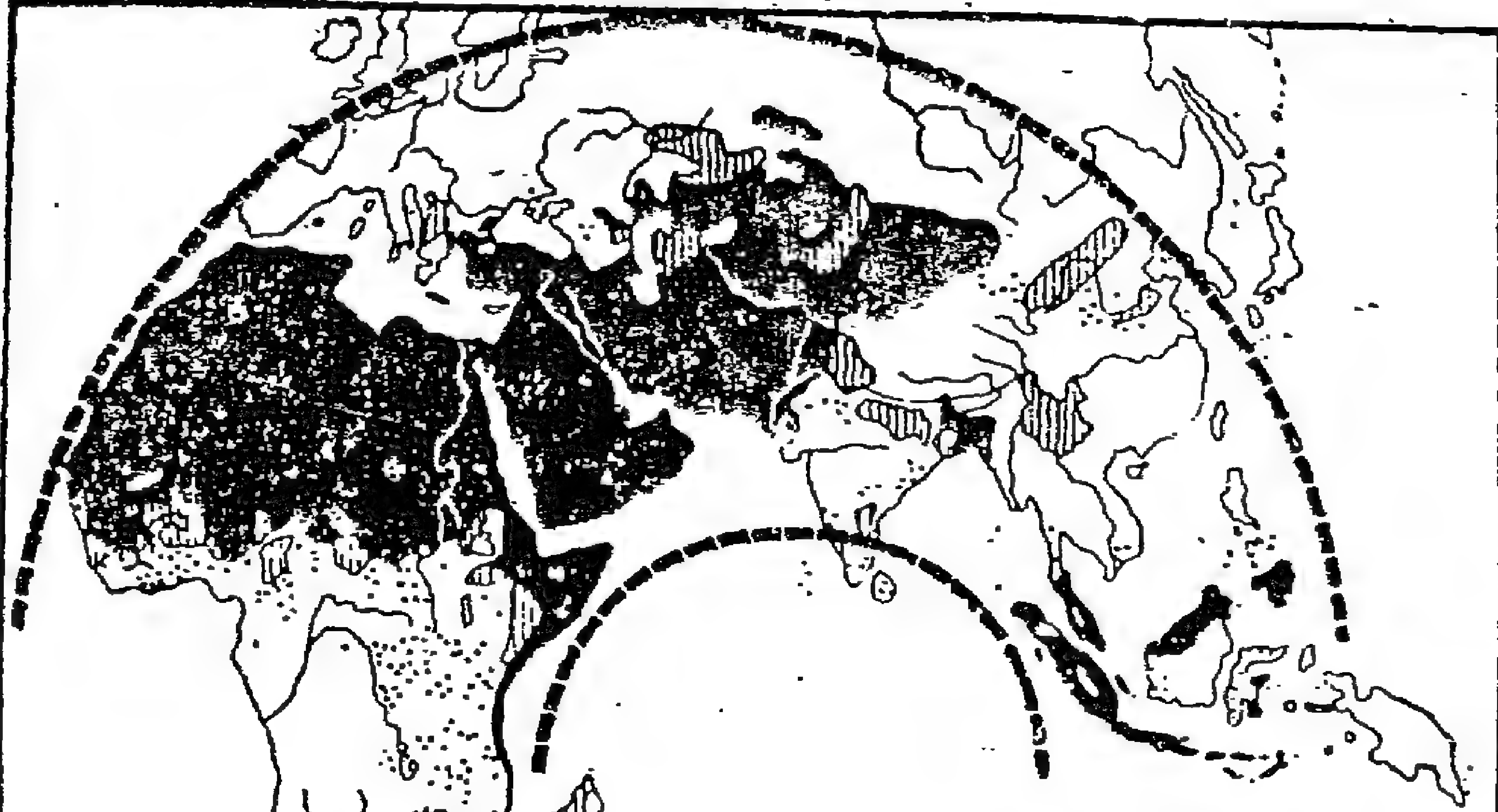
* تحليل الجوانب السياسية والاجتماعية المنبثقة من الوجود الإسلامى .

* نظرية شاملة تخضع العالم الإسلامى لفلسفة ايكولوجية احادية .

وجميعها مما يدخل فى صميم اهتماماته وقدرته ، تكاد تتشابه مع المحاور الفكرية والنظرية .. لكتابه الشامخ عن شخصية مصر ، ومن بعد غيابه .. وصدقا او ظننا ضياع مخطوطه ، عسى يظهر من يتحمس لاتمام مشروعه ، وأن يضيف اليه ما طرأ فى عقد السنين الاخيرة من متغيرات عميقة ، وشكرا مسبقا لمن يتحمس .



شكل (٢) محاور زحف وإشعاع الإسلام

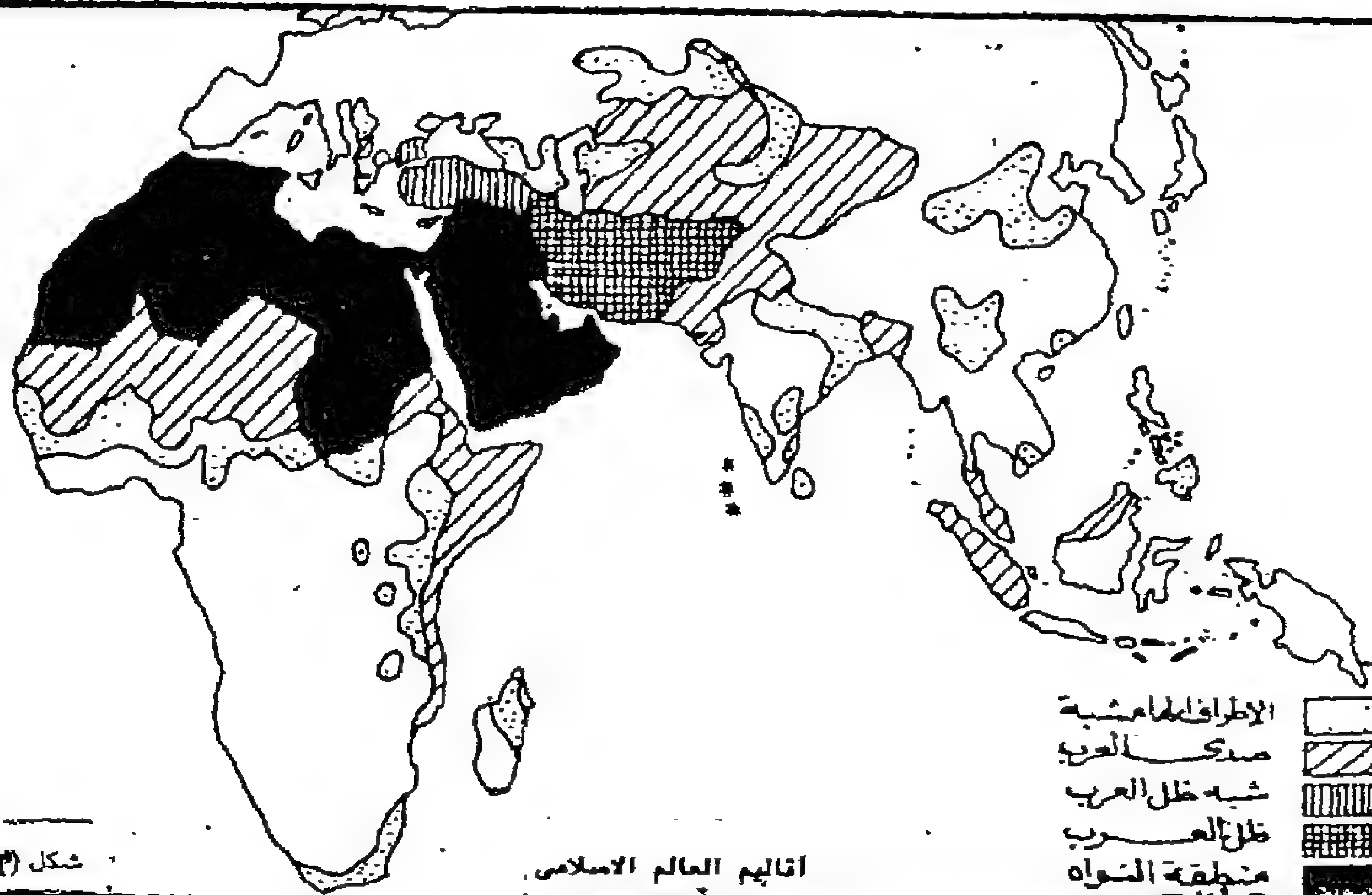


هلال الإسلام في العالم القديم

شكل (٢٢)

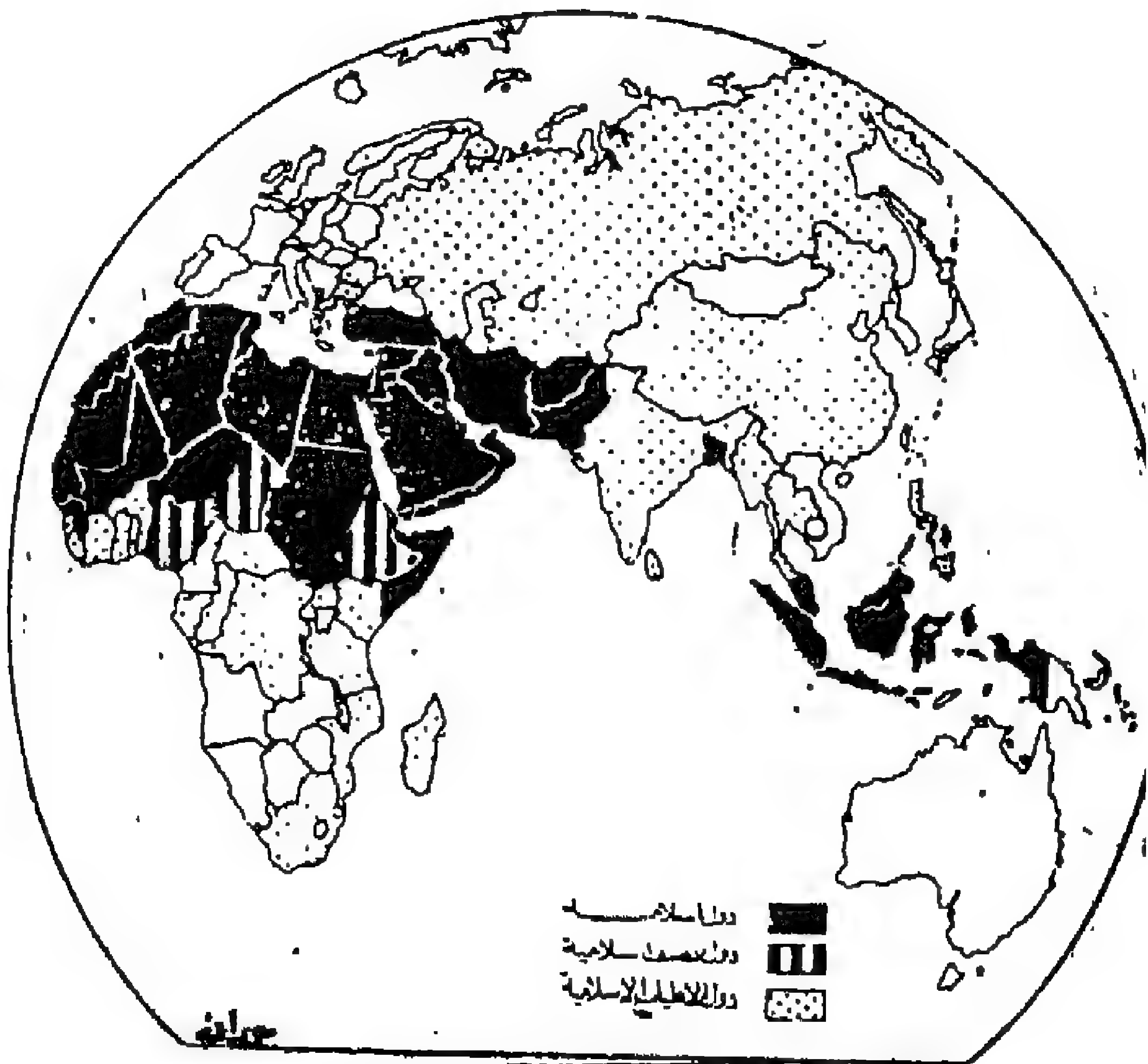


(شكل ١٢) الهيكل النظرى التجريدى لمورفولوجية العالم الإسلامى



أقاليم العالم الاسلامي

شكل (١٣)



شكل(١٤) _ كثافة الإسلام السياسية

فهرس الأشكال

المحتويات

رقم الايداع

٩٥ / ٤٥٣٣

I. S. B. N

977 - 07 - 0400 - 8

هذا الكتاب

يعرض د . عمر الفاروق .. فى هذا الكتاب .. لثلاثة من أعمال المفكر الجغرافى جمال حمدان ، يعرضها مجمعة لأول مرة .. باعتبارها تكون ثلاثيته الجغرافية الوطيدة ، ثلاثية تتكامل أضلاعها .. من الوطن إلى القومية إلى العقيدة ، يتناول فى الأول منها الوطن .. فى « شخصية مصر » .. بالدراسة الواسعة المستفيضة ، ويأتى الثانى منها « دراسات فى العالم العربى» . عن القومية فى إطارها الجغرافى ، ويكمل ثلاثيته بكتابه « العالم الإسلامى المعاصر » .. عن حضارة العقيدة ، توحد بينها رؤيته .. وتجمعها فى بناء متماسك ، رؤية تصيغها جماع قوة (الوطنية × القومية × حضارة العقيدة) فقد ثبت أن تغليب أى منها .. إنما يوهنها جميعها ، ويحولها إلى عملية طرح وقسمة . بدلا من مجموع قوة متصاعد ، وما أحوجنا لهذه الرؤية .. فى غابة عالمنا المعاصر .

ويأتى عرض الكتب الثلاثة .. من زواياه المعتمدة جميعها ، يدلل عليها بإقتباسات من متن كل عمل منها .. بما يحقق أيضا أكبر قدر من المشاركة للقارىء .. مقترنة بأشكال تبسط منظومتها .. وتقدمها فى سياقها الفكرى والموضوعى ، ويمهد لدراستها .. بتحليل مسهب عن حمدان . كفيلسوف للمكان .. وكأكبر جغرافى معاصر ، يغوص فيه فى عقلية هذا المفكر .. يمكنه من ذلك تخصصه الجغرافى .. وعمق ادراكه لقيمة هذا المفكر فى الثقافة المصرية بعامة .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N